جائزة الكُتبيّين لمنشورات كتاب الجيب 2001

الجائزة الكبرى لراديو «RTL» ومجلّة «اقرأ» 1998

جَان كريستُوف غرانجي

الأنهَار القرمزيَّة

رِوَاية

ترجمة : سُونيا بن بَاهي

مسكلياني

Pop Libria

مكتبة t.me/twinkling4

الأنهار القرمزية

المؤلّف: **جان كريستوف غرانجي**
عنوان الكتاب: **الأنهار القرمزية**
ترجمته عن الفرنسيّة: **سونيا بن باهي**
مراجعة وتحرير: **رضا الحسني**

تصميم الغلاف: **عبد الفتّاح بوشندوقة**
خطّ الغلاف: **سمير بن قويعة**

ر.د.م.ك: **978-9938-979-74-9**
الطبعة العربيّة الثانية: 2025

عنوان الكتاب الأصليّ
Jean-Christophe Grangé, Les rivières pourpres
© Editions Albin Michel - Paris 1998

جميع الحقوق العربيّة محفوظة للناشر ©

منشورات ميسكلياني

تونس: 13 شارع محمّد الخامس، المدينة الجديدة2، تونس
الهاتف: 561936632(971+) أو 93794788(216+)
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

الإمارات: مركز الأعمال، مدينة الشارقة للنشر، المنطقة الحرّة، الشارقة، الإمارات
الهاتف: 561936632(971+) أو 504731882(971+)

POP LIBRIS EDITIONS

9 نهج نور الدين الخياشي 2070 المرسى
Tél/Fax : 71 65 63 30
Mail : pop.libris@gmail.com

جان كريستوف غرانجي

الأنهار القرمزية

رواية

ترجمة : سونيا بن باجي

Pop Libris Editions

تم تجهيز هده النسخة بواسطة:

• mohamed •

جميـع الحقوق محفوظة ©

مكتبة ضَــاد الإلكترونية

t.me/twinkling4

أمسح الكود وانضم لأسرة ضاد

https://t.me/twinkling4

مُـقدِّمـة الـكـاتب

(خاصَّة بالترجمة العربيّة)

يمكن القول إنَّ دار النشر التّونسيّة «بوب ليبريس» بتعاونها مع منشورات ميسكلياني قد حقَّقت بهذه الترجمة أحد أحلامي القديمة: أن تصل قصصي إلى كل أصقاع الأرض. تُرجمت كتبي كثيرًا وسافَرَتْ حول العالم، لكنّي لم أتمكَّن من الوصول إلى العالم العربي.. حتى اليوم! إنَّها سابقةٌ في مسيرتي الأدبيّة وسابقة مُهمَّة!

أعتقد أنّ كلّ الرّوائيين يحملون بعضًا من شهرزاد في قلوبهم. شهرزاد، أعظمُ راوية على مرِّ العصور. وفنُّ كتابة الرواية عندي هو قبلَ كل شيء قدرةٌ على إبقاء القارئ مُتشوِّقًا، وجَعْله يرغب في قلب الصفحة بشكلٍ محموم، مثلما ينتظر السلطان الليلة التالية بفارغ الصبر ليعرف باقي القصة.

لذلك أستطيع بالفعل أن أتخيَّل «الأنهار القرمزيّة» تسحر قُرَّاءَ شمال إفريقيا والشرق الأوسط (وهي أكثر الشعوب ولعًا بحكايات ألف ليلة وليلة) وتجعلهم يتحرَّقون شوقًا إلى قدوم المساء كي يستأنفوا قراءة مغامرات المحافظ «بيير نيمانز» والملازم ذي الأصول العربية «كريم عبدوف».

هذا ما آمله على أيَّةِ حال.

أتخيل كتابي مسافرًا من ضفاف البحر الأبيض المتوسط إلى ضفاف البحر الأحمر والخليج العربي، ثمّ إلى الصحراء. أتخيل قارئة أو قارئًا يتأمَّل غروب الشمس في الأفق وأنامله تُقلِّب صفحات كتابي في نهم.

لقد حالفني الحظ في هذه الحياة، فقبل أن أصبح كاتبًا، كنت مراسلًا وسافرتُ كثيرًا. جبتُ جزءًا كبيرًا من العالم وجمعت ذكرياتٍ عديدة من كل أركان الأرض منها ذكرى الليلة الأولى التي قضيتها في الصحراء العربية. تساءلت حينها، وأنا مُستلقٍ على الرِّمال مُتأمِّلًا السماء المُرصَّعة بالنجوم، عما يوجد في الجانب الآخر...

لا أزال أجهل ما يوجد في الجانب الآخر من السماء، لكن في الجانب الآخر من حياتي، كانت هناك كتبي، تلك الروايات المثيرة التي كتبتُها بشغفٍ يقترب مـــن الهوس، مُلتفًّا

حول نفسي، مُتلحِّفًا بمخيلتي ومخاوفي العميقة...

اليوم، وقد صرتُ أكبر سنًّا وأقل حركة، تعيدني هذه الترجمة العربية الأولى إلى ذكريات شبابي، إلى أيام شواطئ المتوسط وليالي الصحراء. كلماتي اليوم هي التي تسافر إليكم أيها القرّاء العرب الأعزاء، أرسلها إليكم بكلِّ حُبٍّ وأمل، فاعتنوا بها جيِّدًا.

آمل، بكلِّ تواضع، أن تمنحكم «الأنهار» رحلةً مُمتعةً إلى القرية الجبلية الصغيرة التي اخترتُها مسرحًا للأحداث، ومرحبًا بكم في عالمي.

جان كريستوف غرانجي.

1

GANAMOS! GANAMOS! [1] لقد فزنا! لقد فزنا!

حدَّقَ بيير نيمانز إلى الأسفل ليرى حشود المشجعين تنزل منحدرات الإسمنت في ملعب الأمراء، وأصابعه تضغط بتوتر على جهاز الإرسال ذي الترددِ العالي جدًّا VHF.

آلافٌ من الرؤوس الهائجة والقبعات البيضاء والأوشحة المُلوَّنة شكَّلت شريطًا مُتوهِّجًا ومجنونًا يشبه انفجار ألعاب نارية. بل خُيِّل إليه وهلةً أنه يشاهد فَيْلَقًا من الشياطين.

وتلك المقاطع الثلاثة التي تتردَّد دون انقطاع، كأنها آتيةٌ من الدَّرَك الأسفل من الجحيم:

GANAMOS! GANAMOS!

وقف الشرطي نيمانز على سطح روضة الأطفال المواجهة للملعب يُراقب مناورات الفرقتين الثالثة والرابعة من قوات الأمن الجمهوري. كان الرّجال يتراكضون ببذلاتهم الزرقاء وخوذاتهم السوداء ودروعهم المرنة. مائتا رجل أمن لكل مجموعةٍ من الأبواب، بالإضافة إلى فرق الكومندوس التي تلعب دورَ السِّتار كي تمنع أي تلاقٍ بين مشجعي الفريقين، أو حتى مجرد تبادلٍ للنظرات بين الجانبين.

في هذا المساء، وبمناسبة مباراة سرقسطة وأرسنال في نهائيّ كأس الكؤوس لسنة 1996 -وهي المباراة الوحيدة التي يتواجه فيها فريقان غير فرنسيّين بباريس هذه السنة- حُشِد أكثر من ألف وأربعمائة من رجال الشرطة والجندرمة تتمثَّل مهامهم في التَّحقُّق من الهوية، التفتيش الجسديّ والإشراف على أربعين ألف مُشجِّع قادمين من البلدين (إسبانيا وأنجلترا). كان المحافظ أوّل بيير نيمانز أحد المسؤولين عن هذه المناورات. لم يكن هذا النوع من العمليات من واجباته المعتادة، لكن الشرطي لم يُخفِ استمتاعه بهذا التمرين، تمرين المراقبة والمواجهة الصّرفة، دون تحقيق ولا إجراءات، وكأنها راحةٌ

[1] «لقد فزنا» باللغة الإسبانية، كُتِبت بالإسبانية في النص الأصليّ (المترجمة).

قصيرةٌ لجانب المفتش فيه ومكافأة للجانب العسكري.

شقَّ المؤيدون طريقهم إلى المستوى الأوّل الأرضي، وكان يمكن رؤيتهم بين هياكل المبنى، فوق البوابتين «ج» و «د». نظر نيمانز إلى ساعته في تأهُّب.

أربع دقائق.

بعد أربع دقائق بالضبط سيغادرون الملعب، سيندلقُون على الرصيف. وحينها تبدأ مخاطر الاحتكاك والانزلاق إلى مربع العنف. استنشق الشرطي ملء رئتيه هواء هذه الليلة المشحون بالتوتر.

دقيقتان استدار نيمانز دون أن يشعر، ونظر في اتِّجاه ساحة باب «سان كلو». كانت خاليةً تمامًا، وحدَها نوافيرها الثلاث تقف شامخةً في الظلام مثل تماثيل متوتّرة. على طول الشارع اصطفَّت عربات قوات الأمن الجمهوري في خط واحد. عشرات من الرّجال، في الأمام، يحركون أكتافهم استعدادًا، وخوذاتهم على أحزمتهم وهراواتهم على أرجلهم. إنها كتائب الاحتياط.

اشتدَّ الصَّخب. تفرّقَ الحشدُ، وانتشر بين الأسوار المُسيَّجة والأوتاد. لم يستطع نيمانز منع نفسه من الابتسام. هذا ما جاء من أجله، هذا التَّرقُّب المشحون، هذه الموجة. ثمّ مزَّقَ صوتُ الأبواق الضجيجَ ليصعد فوقه إلى السماء. وهزَّ الهدير كلَّ شِقٍّ في الإسمنت:

GANAMOS! GANAMOS! لقد فزنا!

ضغط نيمانز على زرِّ الإرسال وتحدّث إلى جواكيم، قائد الوحدة الشرقية: «هنا نيمانز. إنّهم بصدد الخروج وجِّهوهم نحو العربات، شارع «مورات»، مواقف السيارات ومداخل قطار الأنفاق».

بدأ الشرطيُّ يُقيِّمُ الأوضاعَ وهو في مكانه المرتفع: المخاطر من ذلك الجانب ضئيلة، المشجّعون الإسبان هم الفائزون وتبعًا لذلك فهم الأقل خطورة. أما الإنجليز فهم يخرجون من الجانب المقابل، البابان «أ» و«س»، نحو مدرَّج «بولون»، مدرّج الوحوش الضارية. الأكيد أنه سيذهب إلى هناك ليُلقي نظرة، ما إن تبدأ العملية فعلًا.

فجأةً، على وهجِ مصابيح الإنارة، حلَّقت قارورة زجاجية فوق الزحام. وشاهد الشرطي هراوةً تهوي على أحدهم، وصفوفًا تتراجع، ورجالًا يسقطون. فصرخَ في جهاز الإرسال: «جواكيم! تبًّا، سيطِر على رجالك!».

اندفع نيمانز إلى الدرج الخلفي، ونزل الطوابق الثمانية جريًا. عندما خرج إلى الشارع وجدَ صفَّيْن من قوات الأمن الجمهوري قد هرعت إلى المكان واستعدت لردع عناصر

الشغب. ركض نيمانز أمام رجال الأمن المسلحين ولوّح بذراعيه في حركاتٍ دائرية واسعة. كانت الهراوات على بُعد أمتار قليلة من وجهه عندما ظهر جواكيم على يمينه، وخوذتُه مشدودة على رأسه. رفع واقي العيون إلى أعلى وصرخ غاضبًا: «يا إلهي، نيمان! هل أنت مجنون؟ بملابسك المدنية كدت أن...».

تجاهل الشرطي السؤال:

«ما هذه الفوضى؟! سيطِر على رجالك يا جواكيم وإلَّا فسيتحوَّل المكان إلى جحيم في ثلاث دقائق!».

كان النقيب جواكيم يلهثُ بجسمه القصير المُكتنز وشاربه الصغير المحلوق على موضة أوائل القرن العشرين ويهتزُ في انفعال، حين دوَّى صوت جهاز الإرسال: «ند.. نداء إلى جميع الوحدات.. نداء إلى جميع الوحدات... منعطف «بولون»... نهج «القائد ﭬيلبو»... لدي... لدينا مشكلة».

حدَّقَ نيمانز في جواكيم كما لو أنه المسؤول الوحيد عن الفوضى العارمة، وضغطت أصابعه على جهاز الإرسال: «هنا نيمانز، نحن قادمون». ثم أمر النقيب بصوتٍ هادئ: «سأنطلق إلى هناك، أرسِل أكبر عدد ممكن من الرجال، ولا تترك الوضع هنا يخرج عن السيطرة!».

ودون انتظار الرَّد، ركض الشرطي بحثًا عن المتربّص الذي جعل منه سائقه الخاص. اجتاز الساحة بخطوات واسعة وتراءى له من بعيد نادل حانة الأمراء وهو يخفّض في عجل الستار الحديدي. صار الهواء الآن مشحونًا بالخوف...

ما إن رأى المتربّص ذا الشعر الداكن في سترته الجلدية قرب سيارة سيدان سوداء، حتى صاح وهو يضرب غطاء المحرِّك: «بسرعة! إلى منعرج «بولون»!».

ركبَا السيّارة وأغلقا الباب في اللحظة نفسها. أنَّت العجلات والدخان ينبعثُ منها عند انطلاق السيارة. ثم انعطف المتربّص على يسار الملعب ليصل إلى البوّابة «س» في أسرع وقت ممكن، على طريق مُعدَّة للطوارئ. وفجأةً خطرت لنيمانز فكرة:

- كلَّا، لا تذهب من هناك، سيصعد الصّدام نحونا!

دارت السيارة مائة وثمانين درجةً مُنزلقةً في برك أحدثتها شاحنات المياه المضادة لأحداث الشغب. ثم عبرت شارع ملعب الأمراء على طول ممر ضيّق شكَّلتْه عرباتُ الجندرمة الرمادية. ابتعد الرجال الذين يركضون في الاتِّجاه نفسه عن طريقهم دون أن ينظروا إلى السيارة.

علّقَ نيمانز مصباحَ الشرطة على سطح السيارة وانعرج السائق ليتجاوز معهد «كلود بيرنار» ويدور نحو القسم الثالث من الملعب، مُتخطِّيًا مدرج «أوتوي».

عندما رأى سحبَ الغازات تحومُ في الهواء أدرك أنه كان على حق: وصلت المواجهة بالفعل إلى ساحة أوروبا.

اجتازت السيّارة الضّبابَ الأبيض واضطرت إلى الاصطدام ببعض الهاربين. كان الصدام قد انفجر أمام المنصة الرئاسية. وشاهد نيمانز رجالًا بأربطة عنق ونساءً بفساتين لامعة يركضون ويتعثرون بوجوه غارقة في الدموع، بعضهم يبحث عن ثغرة تُمَكِّنه من المرور نحو الطرق الرئيسية، وبعضهم على العكس يصعد الدّرجات باتِّجاه بوابات الملعب.

خرج نيمانز من السيارة قبل أن تتوقَّف. في الساحة، كانت الأجساد المتشابكة تضرب بعضها بعضًا. يمكن تمييز ألوان الفريق الإنجليزي الصارخة من ظلال رجال الأمن الجمهوري الداكنة. كان البعض من رجال الأمن يزحف على الأرض كديدان مُلطَّخة بالدماء، بينما اكتفى آخرون بتبادل نظرات مشدوهة متردّدين في استعمال بنادق مكافحة الشعب بسبب زملائهم المصابين.

خلع المفتش نظارته وربط وشاحًا حول وجهه، ثم اتَّجهَ إلى أقرب رجل أمن وأخذ منه هراوته وهو يريه في الوقت نفسه بطاقته المهنية الثلاثية الألوان[1]. كان الرّجل يترنّح ويكاد لا يرى شيئًا بسبب الضباب الذي غطى واقي العينين في خوذته، وكان عاجزًا عن الحركة، وكأنه ما زال غير مُصَدِّقٍ ما يحدث حوله.

ركض نيمانز نحو مكان المواجهة، كان مشجّعو أرسنال يضربون بكل ما لديهم، بقبضات أيديهم، بعصيّ وألواح، بكعوبٍ حديدية... ورجال الأمن يردّون ما استطاعوا ويتقهقرون، محاولين الدفاع عن زملائهم المطروحين أرضًا.

تتحرَّك الأجساد، تتقلّص الوجوه، تصطدم الفكوك بالإسفلت. ترتفع العصي والهراوات وتهوي، فتهتز الأجسام تحت وقع الضربات.

اندفع الشرطي إلى المعركة بكل حدسه وحواسه القتالية.

أسقط شخصًا ضخمًا ثمّ وجَّهَ إليه سلسلة من اللكمات في الأضلع، في أسفل البطن، في الوجه وأينما اتَّفق. فجأةً، اعترض ضربة قدمٍ على يمينه، ثمّ وقف صارخًا. هوَت هراوته على رقبة المعتدي، فصعدت الدماء إلى رأسه وملأ طعم معدني فمه حد الغثيان.

---

(1) بطاقة الشرطة في فرنسا تحمل ألوان العلم الفرنسي وهي ثلاثة: الأزرق والأبيض والأحمر (المترجمة).

لم يَعُد قادرًا على التفكير، ولا على الشعور. إنّها الحرب، كل خلية في جسمه تقول ذلك، إنها الحرب!

فجأةً رأى مشهدًا غريبًا على بُعد مائة متر. رجلٌ بملابس مدنية يتخبَّط أمام اثنين من مثيري الشغب. حدَّقَ نيمانز في خيوط الدّماء على وجه المشجّع والكراهية التي تنبعث من الآخرَيْن وهما لا يتوقفان عن ضربه. استغرق ثانيتين ليفهم: فالمصاب والمعتديان يرتدون على ستراتهم شارات أنديةٍ متنافسة.

إنها تصفية حسابات!

عندما فهم ذلك كان الجريح قد هرب إلى نهج جانبي يتبعه المهاجمان. ألقى نيمانز بهراوته على الأرض، ثمّ شقّ طريقه، وتبعهم.

وبدأت المطاردة.

ركض نيمانز بأنفاسٍ منتظمة، مُقْتربًا من المعتديَين اللذَيْن كادَا هُمَا أيضًا يقبضان على طريدتهما، وسط صمت الشارع الرهيب.

استدار ثلاثتهم مرَّةً أخرى على اليمين وسرعان ما وصلوا إلى مسبح «موليتور». هذه المرّة قبضَ الوغدان بالفعل على فريستهما. وصل نيمانز أمام ساحة باب «موليتور» المُطِلَّة على الشارع الجانبي، ولم يُصَدِّق ما رأتْهُ عيناه: كان أحدهما يسحب ساطورًا!

تحت أضواء الشارع الكئيبة، لمعَ النّصل وهو يهوي دون رحمة على المسكين الجاثم على ركبتيه وجسده يهتز تحت تأثير الطعنة. وسرعان ما حمل الاثنان الجسد ورمياه من فوق السور.

- لا، لاااااا

صرخ الشرطي وهو يُشهر مسدّسه في وجهَيْ القاتلين. اتَّكأ على إحدى السيارات، وصوَّبَ وهو يحبس أنفاسه. لكن الطلقة الأولى أخطأت هدفها. فاستدار القاتل ذو الساطور مُتفاجئًا. ضاعت طلقة ثانية في الهواء. وواصل نيمانز الرّكض ساخطًا وهو يُجهِّز مسدّسه مُنتظرًا اللحظة المناسبة. وفي غياب نظارته أخطأ هدفَه مرتين. يا لسوء الحظ!

وصل أخيرًا إلى الجسر. وكانَ حامل الساطور قد هرب طبعًا عبر أحد الشوارع الفرعية الضيِّقة، أما شريكه فبقي في مكانه فاغرًا فاه كمن تطارده الأشباح. هوى الشّرطي بكعب المسدّس على رقبة الرّجل المذهول، وجذبه من شعره إلى أقرب إشارة مرورٍ كبَّله إليها

بالأصفاد. حينها فحسب انحنى من السور ليُعاين الزحام.

كان جسمُ الضَّحيَّة قد ارتطم بقارعة الطريق ودهسته سيارات عديدة قبل أن تتوقَّف حركة المرور تمامًا. عمَّت الفوضى وتصادمت السيارات وتصاعدت أصوات المكابح والأبواق المجنونة. وعلى ضوء المصابيح، رأى نيمانز أحد السائقين يترنَّح بجانب سيارته وهو يغطي وجهه بيديه. كان واضحًا أن المسكين يوشك على الإغماء.

جال الشرطي بناظرَيْه في كلّ ما يحدث تحته. ورغم رؤيته الضعيفة، لمح القاتل بشارته الملوّنة وهو يمرُّ بين الأشجار. فسارع نيمانز باتِّجاهه شاهرًا مسدّسه.

كان القاتل يجري ويُلقي من حين إلى آخر بنظرات إلى الخلف ليُقدِّر المسافة بينهما. أما الشرطي فلم يَعُد يحاول حتى الاختباء، بل صار يريد لهذا الوغد معرفة أن المحافظ بيير نيمانز دون غيره سيقتله بوجهٍ مكشوف.

فجأةً قفز المجرم فوق حاجز واختفى في الظلام، لكن صوت خطوات قدميه فوق الحصى دلَّ على وجهته: حدائق «أوتوي».

تبعه الشرطي، وخُيِّل إليه أنَّ اللّيل ذاته ينعكس على أحجار الحديقة الرمادية. وأثناء مروره بمحاذاة المشاتل لمح خيَالًا يتسلَّق جدارًا، فهرع إلى المكان ووجد نفسه في ملاعب «رولان غاروس».

لم تكن الأسوار المُسيَّجة مقفلةً. فمرَّ القاتل دون صعوبة من ملعب تنس إلى آخر. دخل نيمانز ملعبًا تُرابيًّا، وقفز فوق الشبكة الأولى. على بُعد خمسين مترًا بدأ القاتل يبطئ السّير وقد بدت عليه علامات الإرهاق. ورغم ذلك تخطى شبكة أخرى وصعد السلالم بين المدرجات يلاحقه نيمانز الذي لم يكد يشعر بالتعب. كان على بُعد أمتار قليلة منه عندما قفز الظل من أعلى المنصة نحو سطح مسكن خاص، ليختفي فجأةً في الجهة الأخرى من المبنى. تراجع الشرطي قليلًا، ثم قفز هو أيضًا. بينما عَمَّ الصمتُ في الأسفلِ المروجَ والأشجارَ.

دون أيِّ أثرٍ للقاتل.

سقط الشّرطي، وتدحرج على العشب الرطب وهو يفكِّر في الاحتمالَيْن المُمكنَيْن الوحيديْن: المبنى الرئيسي، الذي قفز للتو من سطحه، وصرحٍ خشبيٍّ واسعٍ في طرف الحديقة. أشهر مُسدَّسَه المانورهين MR 73 ودفع الباب، ففُتِح دون مقاومة.

خطا الشرطي بضع خطواتٍ في الداخل، ثم توقَّفَ مُندهشًا: قاعةٌ رخاميَّةٌ تعلـــوها

بلاطةٌ حجريَّةٌ دائريَّةٌ منقوشةٌ بأحرفٍ مجهولة، درجٌ ذهبيٌّ يصعد في ظلام الطوابق العليا، ستائر مُخمليَّةٌ حمراء تتلوى وسط الظلال، مزهريّاتٌ كهنوتيَّةٌ تتلألأ. أدرك نيمانز أنه دخل للتوِّ مقرَّ سفارةٍ آسيوية.

فجأةً تردَّدَ صوتٌ قويٌّ في الخارج. يبدو أن القاتل في المبنى الآخر. اجتاز الشرطي الحديقة، وعند وصوله إلى الصرح الخشبي، وجد الباب يتأرجح وكأنَّ أحدهم عبره للتوِّ. تسلَّلَ في الظلام كظلٍّ داخل الظِّلِّ. كان المكان عبارةً عن إسطبل مُقسَّم إلى صناديق مُحدَّدة تشغلها مِهارٌ بأعراف قصيرة.

تقدَّمَ نيمانز وسط القش المتطاير والخيول الفَزِعة شاهرًا سلاحه. تجاوز صندوقًا، اثنين، ثلاثة... ثم استدار عندما سمع صوتًا مكتومًا على يمينه. ولم يكن سوى صوت حافرٍ ينقرُ السّياج. ثم سمع صهيلًا على اليسار، فاستدار مرّةً أخرى بطريقةٍ مباغتةٍ لحظةَ هوى النصل على رقبته. تنحّى نيمانز جانبًا في اللحظة الأخيرة، فاحتك الساطور بكتفه قبل أن ينغرس في ردف الحصان. اندفع حافرُ الحصان في وجه القاتل، واستغلّ الشرطي فرصة سهو خصمه ليهوي عليه بكعب المسدس. ضربة أولى فثانية فأخرى، كان يضربُ وكأنّ ذراعَه يهزها الشَّيطانُ من المسّ، ثمّ توقَّفَ فجأةً ليُحدِّق في ملامح المجرم الدامية. نتوءات عظمية صغيرة برزت من الجلد المُمزَّق، مُقلةُ عينٍ تتدلّى من نهاية شبكة أليافٍ عصبية. همد جسد القاتل وهو لا يزال يرتدي قبعته الحاملة لألوان أرسنال. شهر نيمانز سلاحه مرَّةً أخرى مُمسكًا طرفه المُلطَّخ بالدماء بكلتَي يديه، ودفع فوهة المسدس داخل الفم المهشم للرجل المرمي أمامه. وضع إصبعه على الزناد، وأغمض عينيه. كان على وشك إطلاق النار وإنهاء حياة هذا الوغد، عندما تعالى صوتٌ حادٌّ بقربه.

إنه هاتفه الخلوي الذي يرنّ في جيبه.

2

بعد ثلاث ساعات، على طول الأنهج الجديدة والمتناظرة في حي «نانتار - المحافظة»، لمع ضوءٌ صغيرٌ وسط مبنى الإدارة المركزية للشرطة القضائية التابعة لوزارة الداخلية. ضوءٌ منتشرٌ ومُركَّزٌ في الآنِ نفسه، بوميضٍ خافتٍ جدًّا، يكاد يكون مُتدفِّقًا من قاع مكتب أنطوان ريمس الجالس في الظُّلمة. أمامه، خلف هالة الضوء، وقف ظلُّ بيير نيمانز الطويل. كان قد انتهى للتو من تلخيص التقرير الذي كتبه عن مطاردة «بولون»، وهو تلخيص مُقتضبٌ أكثر من اللازم طبعًا. سأل ريمس بارتياب:

- وكيف حال الرجل؟

- الإنجليزي؟ إنّه في غيبوبة. كسورٌ دماغية مُتعدِّدة. اتَّصلت الساعةَ بمستشفى «هوتيل ديو»، سيجرّبون عملية زرع جلدةٍ للوجه. وسيكون محظوظًا إذا نجحت.

- والضحيّة؟

- تهشَّمَ جسمه تحت السيارات، على طريق باب «موليتور».

- يا للهول! ماذا حدث؟

- تصفية حساباتٍ بين مشجّعين مُتعصبين. كان في وسط مشجعي نادي أرسنال رجلان من نادي تشيلسي. في قلبِ المواجهة، استغلَّا الوضع ليقتلا غريمهما.

أوْمَأَ ريمس برأسه غير مُصَدِّقٍ. وبعد لحظات من الصمت عاود السؤال:

- ماذا عن رجلك؟ هل أنتَ مُتأكّد أنّ ركلة حافر الحصان هي السبب في حالته؟

لاذ نيمانز بالصمت واستدار نحو النافذة. تحت قمرٍ أبيض ناصع لا تشوبه غيمة، تأمَّلَ الأشكال الغريبة التي تُغطِّي واجهات الأحياء المُجاورة والهالات الملوَّنة التي تحوم فوق التلال الخضراء لحديقة «نانتار». سأل ريمس مرة أخرى:

- أنا حقًّا لا أفهم ما الذي تفعله يا بيير. لماذا تهتم بقصص كهذه؟ مراقبة ملعب،

حقًّا...

سكت قليلًا بانتظار إجابة نيمانز التي لم تأتِ. ثم واصل:

- أنت أكبر من مهامَّ كهذه، أكبرُ عمرًا وكفاءةً. العقد الذي بيننا واضح: لا نزول إلى الميدان ولا تدخُّل في أحداث العنف، تلك الأيام صارت من الماضي وولَّت دون عودة.

استدار نيمانز، وخطا نحوه مُتكلِّمًا أخيرًا:

- اصدقني القول يا أنطوان، لِمَ دعوتني إلى هنا في هذا الليل؟ عندما اتَّصلتَ بي لم تكن على علمٍ بأحداث الملعب، لماذا أنا هنا إذَنْ؟

ظلَّ ريمس في مكانه بكتفيه العريضتين وشعره الرمادي الأشعث ووجهه الجامد، كان يشبه حارس منارة في فلم رعب.

كان المشرف يدير المكتب المركزيّ لمكافحة الاتِّجار بالبشر منذ سنوات، اسم طويل مُعقَّد لهيئة عليا من هيئات شرطة الآداب[1]. لقد عرفه نيمانز قبل أن يترأَّسَ هذا المخزن الإداريّ، عندما كان كلاهما شرطيَّ شارع، عابر مطر، حامي رصيف، عندما كانا سريعين وناجعين. انحنى الشرطي على ريمس وكرَّرَ:

- ماذا هناك؟ قل لي بحقِّ اللّٰه!

همس ريمس:

- جريمة قتل.

- في باريس؟

- كلا، بل في «غيرنون»، مدينة جامعية صغيرة في مقاطعة «إيزار». بقرب «غرونوبل».

جلس نيمانز على المقعد المقابل لريمس:

- كُلِّي آذانٌ صاغية.

- عثروا على الجثَّة مساء أمس. كانت عالقةً بين الصخور على حافة نهر يحاذي الحرم الجامعي. كلّ ما وجدوه يشير إلى قاتل مهووس. إنها ليست جريمة قتل عادية.

---

(1) العبارة المتداولة التي تحيل إلى فرقة مكافحة تجارة الجنس (المترجمة).

- ماذا نعرف عن صاحب الجثَّة؟ امرأة أم رجل؟

- رجلٌ في مقتبل العمر. أمين مكتبة الجامعة على ما يبدو. الجثَّة عارية بالكامل

وتحمل آثار تعذيب: جروح، حروق، طعنات، وعلامات خنقٍ أيضًا.

وضع نيمانز مرفقيه على المكتب، وأشاح بنظره قائلًا:

- لماذا تحدثني عن كلّ هذا؟

- لأني أنوي إرسالك إلى هناك.

- ماذا؟ من أجل جريمة القتل؟ لكن رجال الدائرة الجهوية للشرطة القضائية سيقبضون على القاتل بالتأكيد خلال أيام قليلة، و...

- بيير، لا تتحامق، أنتَ تعرف جيِّدًا أن الأمور لا يمكن أن تكون بهذه البساطة. لقد تحدثت إلى القاضي، وهو يريد مُختصًّا.

- مُختصًّا في ماذا؟

- في جرائم القتل، وفي جرائم الأخلاق، هو يشك في دوافع جنسية، أو شيء من هذا القبيل.

قرَّبَ نيمانز وجهه من الضوء فلفحته حرارة مصباح الهالوجين.

- أنطوان، أنت لا تخبرني كلّ شيء.

- القاضي برنارد تيربنتيس صديقٌ قديم. كلانا أصيلُ القرية الصغيرة نفسها في البيرينيه. وهو في مأزق حاليًّا، هل تفهمني؟ إنه يريد تسوية هذا الأمر في أسرع وقت ممكن لتجنُّب الفوضى والتغطية الإعلامية وكلّ ذلك الهراء. ستحلُّ العودةُ الجامعيَّةُ في أسابيع قليلة. يجب إغلاق الملف قبل هذا التاريخ مهما كلف ذلك. هل يكفيك هذا الشرح أم تحتاج إلى رسم توضيحي؟

نهض المحافظ من مكانه واتَّجه نحو النافذة. حدَّقَ في نقط الضّوء الصادرة من مصابيح الشوارع وفي قبب الحديقة المُظلمة. لا يزال عنف الساعات الأخيرة يتردّد في رأسه: ضربات الساطور، الطريق الفرعية، المطاردة في ملاعب رولان جاروس. فكَّرَ للمرة الألف في أن مكالمة ريمس هي ما حال بينه وبين ارتكاب جريمة قتل. كان سيُنهي حياة ذلك البائس دون أدنى شك. فكَّرَ في نوبات العنف التي لا يمكنه السيطرة عليها، وهي تعمي ضميرَه إلى درجة ارتكاب الأفظع.

- ما قولك إذن؟ سأل ريمس.

استدار نيمانز وهو يتَّكئ على إطار النافذة.

- لم أتولَّ هذا النوع من القضايا منذ أربع سنوات. لماذا اخترتني دون غيري؟

أنا بحاجةٍ إلى مُفتِّشٍ كفء. وأنت تعلم أن المكاتب المركزية يمكنها إرسال رجالها إلى أيّ مكان في فرنسا. (نقر بأصابعه على الكرسي في الظلام وكأنَّه يضبط إيقاع كلماته). اعتبره استغلالًا لنفوذي المحدود.

لم يستطِع الشرطي منع نفسه من الابتسام.

- ستُخرِج الذئب من عرينه؟

- سأُخرِج الذئب من عرينه. ستكون لك جرعة من الهواء النقي بعيدًا عن رطوبة مكتبك. أما أنا فسأُقدِّم خدمةً لصديق قديم. على الأقل خلال تلك الفترة لن تشوِّه وجه أحد.

أمسك ريمز بحزمة أوراق الفاكس من على مكتبه:

- هذه أوّل استنتاجات فرقة الجندرمة. حان الوقت لتُقرِّر.

افتكَّ نيمانز الأوراق وقال:

- سأتَّصِلُ بكَ لاحقًا لتخبرني عن مستجدات «هوتيل ديو».

غادرَ المكتب والمبنى دون التَّفوُّه بكلمة أخرى. وعاد أخيرًا إلى منزله، في الدائرة الباريسية التاسعة. شقة فسيحة شبه فارغة. استحمّ، وعالج جروحه السطحية، وحدّق في انعكاس صورته في المرآة. ملامحُ حادَّة، تجاعيدُ منتشرة، شعرٌ رماديٌّ قصيرٌ كشعر جنديٍّ أو سجينٍ، نظَّارةٌ بإطارٍ معدنيّ. ثم ابتسم لنفسه في سخرية. لا أحد يودُّ أن يلتقي بهذا الوجه ليلًا في شارعٍ خالٍ.

وضع بعض الملابس كيفما اتَّفق في حقيبة ظهره، وأخفى بين القمصان والجوارب بندقية ريمنجتون عيار 12 بالإضافة إلى ذخيرة وشاحن سريـع لمسدّسه المانورهين. ثمّ أخذ الكيس الخاص بالبذلات وطوى داخله بذلتيْن شتويَّتيْن وبعض أربطة العنق البنية.

في طريقه توقَّفَ نيمانز في ماكدونالد جادَّة «كليشي» المفتوح كامل ساعات اليوم. التهم بسرعة شطيرتَيْ لحم بالجبن دون أن يرفع عينه عن سيارته الواقفة في مكانٍ مخالفٍ لقانون الطرقات. الثالثة صباحًا، تحت أضواء النيون البيضاء، طافَ عدد من الأشباح المألوفة في قاعة المطعم القذرة. بعض السود بلباسهم الفضفاض. بعض

البغايا بضفائر جامايكية طويلة، مدمنو مخدّرات، أشخاص بلا مأوى، سكارى... كل هذه الكائنات تنتمي إلى عالمه السابق: عالم الشارع. هذا العالم الذي اضْطُرَّ نيمانز إلى تركه من أجل وظيفة مكتبية محترمة وأجر جيِّد. كان الوصول إلى المكاتب المركزية ترقيةً كبيرةً في نظر أي شرطيٍّ آخر. أما هو فكانَ ذلك بمثابة استبعاد، استبعادٍ مُغلَّفٍ بالاحترام طبعًا. لكن الاحترام لم يمنعه يومًا من الإحساس بالخزي. نَظَرَ مرَّةً أخرى إلى المخلوقات الليلية من حوله. لقد كانت تُشكِّل، على امتدادِ سنوات، أشجار غابته التي طالما جال فيها مرتديًا جلد الصياد.

قاد نيمانز سيارته دون توقُّف متجاهلًا قواعد المرور والرادارات وحدود السرعة. عند الساعة الثامنة صباحًا، خرج من الطريق السريعة في اتِّجاه «غرونوبل». عبر «سانت مارتن ديهير» و«سانت مارتن دي أوريج» مُتوجِّهًا نحو «غيرنون». وعلى طول الطريق الملتوية، تناوبت الغابات الصنوبرية والمناطق الصناعية. ساد جو كتيب الأنحاء، كما هي الحال دومًا في الريف حيث لا يكفي جمال المناظر الطبيعية لإخفاء العزلة العميقة.

اجتاز المحافظ أُولى لوحاتِ الطَّريق المُشيرة إلى اتِّجاه الكلية. ولاحت القمم العالية عند الأفق في نور الصباح. وفي أحد المنعرجات بانت له الجامعة أسفل الوادي. مبانٍ ضخمةٌ حديثة، كتلٌ إسمنتية مُخطَّطةٌ مُحاطة بمروج طويلة. فكر نيمانز في مصحَّة عتيقة لمرضى السُّلِّ بحجم مدينةٍ كاملة.

غادر الشّرطيّ الطَّريق الرّئيسيّة باتِّجاه الوادي، فرأى على يساره أنهارًا عموديّةً مُتشابكةً تضيء سفوح الجبال المظلمة بقطراتها الفضية. خفَّض سرعة السيّارة، وارتجف وهو يتأمَّل المياه القارسة التي تتساقط ثم تختفي وهلةً تحت الأجمة لتظهر مرَّةً أخرى، بيضاء ومبهرة، ثم تعاود الاختفاء...

قرَّرَ نيمانز القيام بجولة صغيرة، فسلك طريقًا جانبيةً محفوفةً بأشجار صنوبر تناثرت فوقها قطرات الندى الصباحية. ثم اكتشف سهلًا طويلًا تحدُّه أسوارٌ سوداء.

توقَّفَ. غادر السيارة وأخرج منظاره. ثم حدَّقَ طويلًا في المناظر الطبيعية حوله وقد اختفت الأنهار. وسرعان ما أدرك أنّ السيل قد وصل إلى جوف الوادي، خلف جدار الصخور.

وفجأةً لاحظ تفصيلًا آخر وكبَّر الصورة بمنظاره. كلَّا، لم يكن مُخطِئًا. عاد إلى سيارته وانطلق مُسرِعًا نحو حافة الوادي. لقد اكتشف للتوِّ، في أحد الشقوق الصخرية، ذاك الشريط الأصفر المشع الخاص بقوات الدرك الوطنية:

ممنوع العبور.

3

نزل نيمانز إلى الصَّدع الصخري عبر مضيقٍ منحنٍ. لكنه سرعان ما اضطر إلى التوقُّف، فالطريق ليست واسعة بما يكفي لسيارة «السيدان». ترجَّلَ، ومرَّ من تحت الشريط البلاستيكي، ووصل أخيرًا إلى النهر.

ثمَّة سدٌّ طبيعيٌّ يوقف مجرى المياه. وفيه سيل توقَّعَ نيمانز أن يجده مليئًا بالرغوة، لكنه تحوَّلَ إلى بحيرة صغيرة صافية وهادئة، كوجه اختفت منه فجأةً كل علامات الغضب قبل أن ينطلق من جديد على اليمين ويعبر المدينة التي تظهر باللون الرمادي في الأفق.

توقَّفَ نيمانز عن المشي فجأةً حين رأى على يساره رجلًا يجلس القرفصاء بجانب النهر. ودون تفكير، رفع نيمانز الشريط اللاصق لحزامه فأحدثت الأصفاد صوتًا حادًّا فضحت وجودَه. التفتَ إليه الرجل وابتسم على الفور. فسأل نيمانز بخشونة.

- ما الذي تفعله هنا؟

اتَّسعت ابتسامة الغريب. ودون أن يجيب، وقف وهو ينفض يديه. كان شابًّا في مقتبل العمر ذا وجهٍ نحيلٍ وشعر أشقر ناعم، يرتدي سترةً جلديَّةً وبنطالًا مستقيمًا بطيّاتٍ مزدوجة. وقال بصوتٍ لا يشوبُه الخوف:

- وأنت، ماذا تفعل هنا؟

لم يتوقَّع نيمانز هذه الوقاحة. فأجاب بفظاظة:

- أنا شرطي. ألم ترَ الشريط الأصفر؟ أرجو أن يكون لديك سبب وجيه لعبور الخط لأن...

- إريك جوانو، الدائرة الجهوية للشرطة القضائية بـ«غرونوبل». جئت للاستكشاف. سيصل ثلاثة ضباط آخرين من الشرطة القضائية خلال اليوم.

انضمَّ إليه نيمانز على الضِّفَّة الضيِّقة.

- أين الحرَّاس؟

فأجاب، وهو يهز كتفيه بلامبالاة:

- منحتهم راحةً بنصف ساعةٍ لتناول الفطور. كان عليَّ أن أعمل هنا. وقد أردت شيئًا من الهدوء... حضرة المحافظ نيمانز.

تفاجأ الشرطي، وتابع الشاب بالنبرة الهادئة نفسها:

- لقد تعرفتُ عليك فورًا. بيير نيمانز. فخرُ القوات الخاصة السابق، محافظ وحدة مكافحة الجريمة السابق، صياد القتلة والمهربين السابق. أشياء كثيرة سابقة، باختصار...

- هل أصبحت الوقاحة من اختصاص المفتشين هذه الأيام؟

انحنى جوانو في تحية ساخرة:

- المعذرة حضرة المحافظ. أنا أحاول فحسب نزع بعض القداسة عن البطل. تعرفُ أنك نجمٌ شهير عندنا، «الشرطي الخارق» الذي يحلم كل المحققين الشبان بأن يصبحوا مثله. هل أنت هنا من أجل جريمة القتل؟

- ما رأيك؟

انحنى الشرطيُّ الشابُّ مرَّةً أخرى.

- إنه لشرف كبير أن أعمل معك.

فحص نيمانز سطح المياه المترقرق الأملس عند قدميه، كما لو أنّ ضوء الصباح حوّله إلى زجاج.

- أخبرني بما تعرفه عن هذه القضية.

رفع جوانو نظره إلى الجدار الصخري.

- كان الجسد محشورًا هناك.

- هناك في الأعلى؟ كرَّرَ نيمانز، مُدقِّقًا النظر في الجدار حيث تُلقي نتوءات عدوانية بظلالها الحادَّة.

- نعم. على ارتفاع خمسة عشر مترًا. حشر القاتل الجثَّة بأحد الشقوق في الجدار. وثبَّتها في وضعيَّة غريبة.

- في أية وضعية؟

ثنى جوانو ساقَيْه وجذب ركبتَيْه وعقد ذراعَيْهِ على صدره.

- وضعيّة «الجنين».

- هذا ليس عاديًّا.

- لا شيء عاديٌّ في هذه القصة.

تابع نيمانز:

- أعلَمُوني بوجود جروح وحروق.

- لم أرَ الجثَّة بعد. لكن يبدو أن هناك آثار تعذيب عديدة.

- هل ماتت الضحية نتيجة هذا التعذيب؟

- لسنا متأكدين إلى حدٍّ الساعة. الرقبة تحمل أيضًا جروحًا عميقة، علامات خنق.

استدار نيمانز مرَّةً أخرى نحو البحيرة الصغيرة، فرأى انعكاسه بوضوح: رأس حليق ومعطف أزرق.

- وهنا؟ هل وجدت شيئًا؟

- كلَّا للأسف. قضيتُ أكثر من ساعة وأنا أبحث عن أي تفصيل أو دليل. لكن لا يوجد شيء. الضحية لم تُقتَل هنا حسب رأيي. كل ما في الأمر أن القاتل علَّقها هناك في الأعلى.

- هل صعدت إلى الشَّقِّ الصخري؟

- نعم. لا شيء يُذكر. لا شكّ أنّ القاتل صعد إلى قِمَّة السور الصخري من الجانب الآخر، ثمّ أنزل الجثَّة باستعمال حبل. بعد ذلك، نزل هو أيضًا باستخدام حبل آخر، وثبت ضحيته كما أراد. لقد تكبَّدَ عناءً كبيرًا ليمنحها هذا البُعد المسرحي، لسبب نجهله.

نظر نيمانز مرَّةً أخرى إلى الجدار المليء بالنتوءات والتجاويف. من مكانه، لم يكن بإمكانه تقدير المسافات بوضوح، ولكن بدا له أن موضع الجثَّة كان في منتصف طول الجدار، وتلك نقطةٌ بعيدةٌ عن القاع وعن القمة في آنٍ واحدٍ. دار حول نفسه فجأةً.

- هيا بنا.

- إلى أين؟

- إلى المستشفى. أريد أن أرى الجثَّة.

كان الجسد مكشوفًا حدَّ الكتفَيْن فحسب، وكان عاريًا، مُضطجِعًا على جنبه الأيسر فوق الطاولة اللامعة، مُنكمِشًا على نفسه، كأنَّه يخشى أن تهوي صاعقة على رأسه. كتفان محنيّان، رأس مُطَأْطَأ، وقبضتان مشدودتان تحت الذقن بين ركبتَيْهِ المثنيَّتَيْن. الجلد الأبيض والعضلات المنتفخة والبشرة المليئة بالندوب منحت الجثَّة وُجودًا ملموسًا وبُعدًا واقعيًّا صارخًا. كانت الرقبة تحمل جروحًا طويلة، وكأنَّ أحدهم حاول قطع حلقه في حين انتشرت الأوردة تحت فَودَيْه مثل جداولِ مياهٍ مُتورِّمة.

نظر نيمانز إلى الرّجال الآخرين في المشرحة: قاضي التحقيق برنارد تيربنتيس، ذي الجسم الصغير والشارب القصير، النقيب روجر بارنز، الضخم المتمايل مثل سفينة شحن، الذي قاد لواء الدرك في «غيرنون»، والنقيب رينيه فيرمونت المفوّض من قِبَل قسم الأبحاث، وهو رجل قصير أصلع بوجه ورديّ وعينين صغيرين كالخرز. وقف جوانو في الخلف، وبدا كمتربِّص متحمِّس.

- هل نعرف هويته؟ سأل نيمانز الحشد الرّجالي.

تقدَّمَ بارنز بخطوة واحدة إلى الأمام، مثل جندي في التدريب وتنحنح قبل أن يجيب.

- اسم الضحية ريمي كايوا يا حضرة المحافظ. خمسةٌ وعشرون سنة. عمل أمين مكتبة مدَّة ثلاث سنواتٍ في جامعة «غيرنون». وقد تعرَّفَت زوجته صوفي كايوا على الجثَّة صباح اليوم.

- هل أبلغت عن اختفائه؟

- نعم فعلت ذلك يومَ أمس، الأحد، في وقت مُتأخِّر. ذهب زوجها في اليوم السابق في نزهة جبليّة باتِّجاه قِمَّة موريه، وحده، كعادته كل عطلة نهاية أسبوع. أحيانًا يقضي الليلة في أحد الملاجئ خلال جولاته. لهذا لم يساورها القلق إلى حدود ما بعد ظهر أمس و...

صمت بارنز فجأةً دون أن يُكمل الجملة حين كشف نيمانز عن جذع الجثَّة.

عَمَّ نوعٌ من الرَّهبة الصامتة، وعلقت صرخةٌ بيضاء في حلق الحاضرين. كان بطن الضحية وصدرُها مليئيْن بجروح سوداء متفاوتة في الشكل والحجم. قروح بحدود أرجوانية، وحروق داكنة، وأماكنُ مُغطاةٌ بالسّخام. كانت هناك أيضًا خدوشٌ أقلَّ عُمقًا تمتدُّ حول الذراعيْن والمعصميْن، كما لو كان الرّجل مُقيَّدًا بالأسلاك.

- مَن اكتشف الجثَّة؟

- شابة اسمها، (نظر بارنز إلى ملفّه وتابع) فاني فيريرا، أستاذة بالجامعة.

- وكيف عثرَتْ عليها؟

تنحنح بارنز مرَّةً أخرى.

- إنها رياضيّةٌ تمارس السِّباحة في المياه المُتدفِّقة. أنت تعلم ماذا أعني، النزول في المنحدرات والشّلالات على عوّامة، ببذلات غطس وزعانف. إنها رياضةٌ خطيرةٌ جدًّا و...

- ثم؟

- كانت السَّبَّاحة إذن في طريقها وراء السد الطبيعي للنهر أسفل السور المُحيط بالحرم الجامعي. وبينما كانت تتسلَّق الحاجز، رأت الجثَّة المحشورة في الجدار.

- هل هذا ما قالته؟

نظر بارنز حوله بارتباك.

- حسنًا، نعم، أنا...

عرَّى المحافظ الجثَّة بالكامل. ودار حول الجسد الأبيض المُنكمِش كي لا تغيب عنه أي زاوية، وكان الرّأس بشعره القصير ناتئا كرأس سهم حجري.

أخذ نيمانز أوراق شهادة الوفاة التي سلّمها إياه بارنز. تصفّح السطور المرقونة. لقد حرَّرَ مدير المستشفى هذه الوثيقة بنفسه، ولم يُحدِّد وقت الوفاة بدقَّة، بل اكتفى بوصف الجروح الظاهرة واستنتج أنّ سبب الوفاة هو الموت خنقًا. ولمعرفة تفاصيل أكثر وجب قلبُ الجثَّة وإجراء التشريح.

- متى يصل الطبيب الشرعي؟

- نحن نتوقَّع وصوله في أي لحظة.

اقترب المحافظ من الجسد الذي فقد كلَّ حرمة. انحنى فوق الوجه مُتأمِّلًا ملامحه. وجهٌ وسيم، شابٌ، مُغمَضُ الجفون، والأهمُّ وربّما الأغرب، أنه خالٍ من أي أثر للضّرب أو التعذيب.

- لم يلمس أحد الوجه؟

- لا أحد حضرة المحافظ.

- إذن فعيناه مُغمَضتان منذ العثور عليه؟

أَوْمأَ بارنز برأسه إيجابًا. رفع نيمانز جفون الضَّحيَّة بضع ملّمتراتٍ بإبهامه وسبّابته، فحدث ما لم يكن في الحسبان: سقطت دمعةٌ بطيئةٌ وواضحةٌ من العين اليمنى. فتراجع المحافظ في حركةٍ حادَّة. «اللعنة! هذا الوجه يبكي بعد موته». وبشكلٍ ما كانت هذه الدمعة أفظع ما رآه.

حدَّقَ نيمانز في الرّجال الآخرين من حوله. لم يلاحظ أحدٌ هذا التفصيل الرهيب. تمالك نفسَه وكرَّرَ حركتَه مُحافِظًا على رباطة جأشه المعهودة، ليثبتَ لنفسه أنه لم يكن مجنونًا ولا مُصابًا بالهذيان. جريمة القتل هذه هي ما يخشاه أو يحلم به كل شرطي طوال حياته المهنية، حسب شخصيته.

استقام وغطَّى الجسد في حركة سريعة. وهمس للقاضي:

- حدّثنا عن إجراءات التحقيق.

وقف برنارد تيربنتيس وتوجَّه إلى الجمع الصغير.

- أيها السَّادة، تعرفون طبعًا أنّ هذه القضية قد تكون شائكة و.... وغير معتادة. لهذا السبب قررتُ أنا والمدعي العام تكليف الدائرة الجهوية للشرطة القضائية بـ«غرونوبل» وفرقة أبحاث الجندرمة في الوقت نفسه. اتَّصلت أيضًا بالمحافظ أوَّل بيير نيمانز، الموجود هنا، وقد جاء من باريس. تعرفون اسمه بالتأكيد، فهو أشهر من نار على علم. حضرة المحافظ ينتمي الآن إلى هيئة أعلى من فرقة مكافحة تجارة الجنس، في باريس. مازلنا لا نعرف شيئًا عن دوافع القتل، لكننا مبدئِيًّا نشكّ في دوافع جنسية. القاتل مهووس أو مجنون، على أي حال. وستكون تجربة السيد نيمانز في هذا المجال مفيدة جدًّا. لهذا، أقترح أن يتولَّى المحافظ إدارة العمليات...

أَوْمأَ بارنز برأسه باقتضاب، وحذا فيرمونت حذوه، ولكن بأقل حماسة. أما جوانو فكان رده:

- لا مشكل عندي، لكنّ زملائي من الشرطة القضائية سيصلون و...

قاطعه تيربنتيس: «سأشرح لهم الوضع». ثم التفت إلى نيمانز:

- كلنا آذانٌ صاغية حضرة المحافظ.

أثقل هذا المشهدُ كاهل نيمانز. إذ كان يتحرَّق شوقًا إلى الخروج والبدء في التحقيق، ولا سيّما ليكون بمفرده.

سأل:

- كم عدد رجالك أيها الرائد؟

- ثمانية. لا... المعذرة، تسعة.

- هل هم معتادون على استجواب الشهود والتقاط الأدلة ووضع حواجز مرورية؟

- حسنًا... هذا ليس ما...

- وأنت، نقيب فيرمونت، كم عدد رجالك؟

دوى صوتُ الشرطي مثل طلقة نارية:

- عشرون رجلًا من ذوي الخبرة. سوف يسيِّجون الأراضي المُحيطة بمكان اكتشاف الجثَّة و...

- جيِّد جدًّا. أقترح أن يستجوبوا جميع من يسكن بالقرب من الطرق المؤدية إلى النهر، وأن يزوروا أيضًا محطات الوقود ومحطات القطار والمنازل القريبة من محطات الحافلات... كان القتيل ينام أحيانًا في الملاجئ الجبلية خلال نزهاته. حدّدوا مواقع هذه الملاجئ وفتشوها. ربّما اختُطِف من أحدها.

استدار نيمانز إلى بارنز.

- حضرة النقيب بارنز، أريد منك أن تُوجِّه طلباتٍ للمعلومات في جميع أنحاء المنطقة. أريد أن أحصل، قبل الظهر، على قائمة المُتسلِّلين واللُّصوص وكل المنحرفين في المقاطعة. أريد جردًا للمُفرَج عنهم مؤخّرًا في دائرةٍ نصف قطرها مائتا كيلومتر، ولسرقات السيارات، بل جميع السرقات بكل أنواعها. أريد منك أن تسأل في جميع الفنادق والمطاعم. أرسل استبياناتٍ عن طريق الفاكس. أريد أن أعرف أي حدث غريب، أي وافد مشبوه، أي علامة مريبة. أريد أيضًا قائمة الحوادث والجرائم التي وقعت هنا في «غيرنون» على امتداد عشرين عامًا وأكثر، ويمكن أن تشبه، بشكل مباشر أو غير مباشر، قضيتنا.

دوَّن بارنز كل أوامر المحافظ في دفتر ملاحظاته، وتوجّه نيمانز إلى جوانو:

- اتَّصل بالمخابرات العامة. اسألهم عن قائمة الطوائف والسحرة والمشعوذين وجميع المخبولين الذين أحصَوْهم في المنطقة.

أوْمَأَ جوانو برأسه. وطَأْطَأَ تيربنتيس رأسه ببطء موافقًا، كما لو أنه صاحب كل هذه الأفكار.

واختتم نيمانز حديثه قائلًا:

- سيشغلكم هذا في انتظار نتائج التشريح. غنيٌّ عن القول أننا سنلزم الصمت المُطبِق بشأن هذه القضية في الوقت الحالي. لا تنبسوا بكلمة واحدة للصحافة المحلّية ولا لغيرها. لا تنبسوا بكلمةٍ لأحد.

افترق الرجال في رواق المستشفى الجامعي الجهوي. عادوا إلى سياراتهم تحت ظلِّ المبنى الشاهق الذي يبدو عمره قرنين على الأقل، بوجوهٍ مُكفهِرَّةٍ ورؤوسٍ مُنكَّسةٍ وأكتافٍ مُتهدِّلةٍ، دون أن يتبادلوا كلمةً أو نظرة.

لقد بدأت رحلة الصَّيد.

4

اتَّجهَ نيمانز وجوانو على الفور إلى الجامعة في حدود المدينة. وطلب المحافظ من الملازم أن ينتظره في المكتبة الواقعة داخل المبنى الرئيسي بينما يزور هو عميد الكلّيّة الّذي احتلَّ مكتبه الطابق العلوي من المبنى الإداري، على بُعد مائة متر.

دخل الشرطي مبنًى شاسعًا يعود إلى فترة السبعينيات، بسقفٍ مرتفعٍ جدًّا وجدران مختلفة الألوان. في الطابق العلوي، في غرفة انتظار تشغلها سكرتيرة ومكتبها الصغير، قدّم نيمانز نفسه وطلب مقابلة السيد فانسون لويز.

انتظر نيمانز بضعَ دقائق تأمَّلَ فيها الصور المُعلَّقة على الجدران، صور طلاب منتصرين يلوِّحون بكؤوس وميداليات بجانب منحدرات التَّزلُّج أو السيول الغاضبة. عندما انتهت فترةُ الانتظار القصيرة، وقف بيير نيمانز أمام العميد. كان وجه فانسون لويز مزيجًا غريبًا من ملامح ذوي البشرة السوداء وشحوب مصاصي الدماء، بشعر مُجعَّد وأنف مُسطَّح ولكن ببشرة ناصعة البياض. اخترقَ النافذةَ شعاعٌ من الشَّمس في الغسق العاصف وشكَّلَ مستطيلاتٍ من الضوء. طلب العميد من الشرطي الجلوس وهو يُدلِّك معصميْه بتوتُّرٍ واضحٍ.

- إذن؟ سأل بنبرة جافة.

- إذن ماذا؟

- هل اكتشفتَ أيَّةَ أدلّة؟

فَرَدَ نيمانز ساقيه.

- لقد وصلت للتوِّ يا سيدي العميد. أعطني الوقت لأفهم هذا المكان. وأجبني من فضلك، فأنا مَن يجدر به طرح الأسئلة.

اعتدل لويز في مقعده. كان مكتبه خشبِيًّا بالكامل تعلوه تماثيلُ معدنِيَّةٌ تشبه سيقان زهورٍ على كوكب فولاذي.

- هل وقعت أي أحداثٍ مُريبة في هذه الكلية؟ سأل نيمانز بهدوء.

- مُريبة؟ مُطْلَقًا.

مخدرات؟ سرقات؟ مشاجرات؟

- لا.

- ألا توجد جماعات؟ عصابات؟ شبّان بدماء حارَّة قادرون على العنف؟

- لا أعرف ماذا تقصد.

- أقصد، على سبيل المثال، لعب الأدوار. كما تعلم، تلك الألعاب المليئة بالاحتفالات والطقوس الغريبة...

- لا، لا شيء من ذلك القبيل. طلابنا عُقلاء.

التزم نيمانز الصمت. نظر عميد الكلّيّة إلى بنيته الطويلة ورأسه الحليق وماسورة مسدّسه البارزة تحت المعطف. ومسح بيده على وجهه، ثم قال كأنَّه يحاول إقناع نفسه:

- قيل لي إنك شرطي ممتاز.

لم يقل نيمانز أي شيء، وحدَّقَ في العميد. فأشاح لويز بوجهه نحو مستطيلات الضوء وأضاف:

- أريد منك شيئًا واحدًا حضرة المحافظ، أن تجد القاتل في أسرع وقت ممكن. العودة الجامعية تقترب و...

- حتى الآن لم يأتِ أيُّ طالبٍ إلى الحي الجامعي؟

- عددٌ قليل من الطلبة الداخليين فحسب. إنهم يقيمون في الأعلى، تحت علّيّة المبنى الرّئيسيّ. وثمَّة أيضًا بعض المدرّسين الذين يعدّون دروسهم.

- هل يمكنني الحصول على قائمة بأسمائهم؟

- لكن... (يتردّد) لا مشكلة...

- ماذا عن الضحيّة ريمي كايوا؟ كيف كان؟

- لقد كان أمين مكتبةٍ صَموتًا. انطوائِيًّا.

- هل كان محبوبًا من الطلاب؟

- طبعا.. بالتأكيد.

- أين كان يقيم؟ في «غيرنون»؟

- هنا في الحَيِّ الجامعيِّ مع زوجته في الطابق العلويِّ من المبنى الرئيسيّ، طابق الطلبة الداخليين.

- كان ريمي كايوا يبلغ من العمر خمسةً وعشرين عامًا. أليس صغيرًا على الزواج؟

- ريمي وصوفي كايوا طالبان سابقان في كلّيّتنا. تعرَّفَ أحدهما على الآخر قبل ذلك على ما أظنّ، أثناء دراستهما في معهد الحَيِّ الجامعيِّ المُخصَّص لأبناء الأساتذة. إنهما... لقد كانا صديقَيْ طفولة.

نهض نيمانز فجأةً.

- عظيم، أشكرك يا سيدي العميد.

غادر المحافظ المكتب في عجلةٍ هاربًا من رائحة الخوف المقيتة التي عبقت في المكان.

كُتُبٌ.. كتب.

في كل مكان بمكتبة الجامعة امتدَّت صفوفٌ لا مُتناهية من الكُتب تحت الضوء الاصطناعي الأبيض. وحملت الرفوف المعدنية جدرانًا حقيقيَّةً من الورق مرتَّبة تمامًا، بأغلفة داكنة وعناوينَ نُحِتَتْ بأحرفٍ ذهبية أو فضية، وملصقات تحمل شعار جامعة «غيرنون». وفي وسط الغرفة المهجورة وُضِعت طاولات مُغطاة بالبلاستيك مُوزَّعة على حجرات صغيرة. عندما دخل نيمانز، تذكَّرَ على الفور غرف الزيارة في السجون.

كان الجو مُشرِقًا وكئيبًا في آنٍ واحدٍ، واسعًا ومنعزلًا. قال إريك جوانو:

- يُدرّس أفضل الأساتذة في هذه الجامعة. عِلية قوم جنوب شرق فرنسا. في كل الاختصاصات المهمّة مثل القانون والاقتصاد والآداب وعلم النفس وعلم الاجتماع والفيزياء... وبالخصوص الطب. كل عبقريٍّ إقليم «إيزار» يدرّسون هنا ويفحصون مرضاهم في المستشفى الجامعيّ. هذه في الواقع مباني الكلية القديمة التي جُدِّدت بالكامل. يأتي نصفُ متساكني الإقليم للعلاج هنا، وجميع سكان الجبال ولدوا في قسم التوليد هذا.

استمع نيمانز إليه بانتباه، عاقدًا ذراعيه فوق صدره، مُتَّكِئًا على إحدى طاولات القراءة.

- أنتَ تتحدَّث كخبير.

التقط جوانو أوَّلَ كتاب صادفه.

- لقد درست في هذه الكُلِّيَّة. القانون... كنت أريد أن أصبح محاميًا.

- ثم أصبحتَ شرطيًّا؟

نظر الملازم إلى نيمانز، ولمعت عيناه تحت الضوء الأبيض.

- عندما وصلت إلى مرحلة الإجازة، خفتُ من الملل. لذلك التحقت بمدرسة المفتشين في تولوز. قلتُ لنفسي إن مهنة الشرطيِّ حركيَّة تنطوي على مخاطر، مهنةٌ من شأنها أن تحمل مفاجآتٍ عديدة...

- وهل تشعر بخيبة أمل؟

أعاد الملازم الكتابَ إلى مكانه على الرّف وقد اختفت ابتسامته الصغيرة.

- ليس اليوم، حتمًا ليس اليوم.

حدَّقَ في نيمانز:

- هذه الجثَّة... كيف يمكن لأي بشري ارتكاب فظاعة كهذه؟

تجاهل نيمانز السؤال.

- كيف كانت الأجواء في الجامعة؟ هل يوجد شيء استثنائي؟

- لا. فقط الكثير من الشبان البرجوازيين، برؤوسٍ مليئةٍ بالكليشيهات عن الحياة، عن الزمن، عن الأفكار التي يجب أن نتبناها... أبناء فلاحين أيضًا، أبناء عمال.. أكثر مثالية، وأكثر عدوانية. على أيِّ حال، كانت البطالة تنتظرنا جميعًا، لذا...

- ألم تكن هناك أيَّةُ قصصٍ غريبة؟ جماعات مُتطرِّفة مثلًا؟

- لا، لا شيء من هذا القبيل، أو، بلى. أتذكَّر وجود نوع من النخبة في الجامعة. مجموعة تتكوَّن من أبناء الأساتذة نفسهم. كان بعضهم موهوبًا جدًّا. وكانوا يحتلُّون كلَّ سنةٍ كلَّ المراتب الأولى، حتى في الرياضة، لم يكن لدينا أيُّ أملٍ في منافستهم..

تذكَّرَ نيمانز صور الأبطال في غرفة انتظار مكتب لويز. سأل:

- هل كانوا يُشكِّلون طائفةً خاصَّة؟ هل يمكن أن يُخطِّطوا لمشروع مشبوه؟

انفجر جوانو ضاحكًا.

- هل تقصد نوعًا من... المؤامرات؟

نهض نيمانز هو أيضًا ليسير بين الرفوف.

- أمين المكتبة هو دومًا محطُّ الأنظار في الكُلِّيَّة. إنّه ضحيَّة مثالية. تخيَّل مجموعة من الطُّلَّاب يؤمنون بنوعٍ ما من الهراء، لا أدري، تضحية، طقوس... عند اختيار ضحيتهم، من الطبيعي أن يُفكِّروا في كايوا...

- عليك أن تنسى إذن الموهوبين الذين أخبرتك عنهم. فهم يقضون كل وقتهم في المراجعة وهزيمة الجميع في الامتحانات، لا يهتمُّون لأي شيء آخر.

تسلَّلَ نيمانز بين أغلفة الكتب البُنِّيَّة والبرونزيَّة يتبعه جوانو. وتابع:

- أمين المكتبة هو أيضًا من يُعير الكتب... الشخص الذي يعرف ما يقرؤه الجميع، وما يدرسه الجميع... ربما اكتشف شيئًا يريد أحدهم إخفاءه بأي ثمن.

- لا أحد يقتل شخصًا بهذه الطريقة البشعة من أجل... وما السِّرُّ الذي قد يخفيه الطلاب في قراءاتهم؟

استدار نيمانز فجأةً.

- لا أعرف. أنا لا أثق في المثقّفين.

- هل لديك فكرة عن القاتل؟ تصوُّرٌ ما؟

- على العكس تمامًا. حاليًا أرى كل الاحتمالات واردة. مشاجرة، انتقام، مثقّفون، مثليّون، أو ببساطة مُتسكِّعٌ التقى بكايوا صدفةً في الجبل.

نقر المحافظ بإصبعه على حواف الكتب.

- ها أنتَ ترى بنفسك أنِّي لستُ طائفيًّا ولا مُتعصِّبًا. لكنَّنا سنبدأ البحث من هنا بتفحُّص كل الكتب التي قد يكون لها أيَّة علاقةٍ بجريمة القتل.

- أيّ نوعٍ مِن الرَّوابط؟

عبر نيمانز مرَّةً أخرى ممرَّ الكتب، واندفع نحو القاعة الكبرى. ثمّ شقَّ طريقه إلى مكتب

أمين المكتبة، وهو يقعُ في الجانب الآخر فوق منصَّة تطلُّ على طاولات القراءة. توسَّطَ حاسوبٌ سطحَ المكتب، وملأت الدفاتر الأدراج. نقرَ نيمانز على الشاشة السوداء.

- لا بُدَّ من وجود قائمة بجميع الكتب التي تدرَسُ وتُستَعَار كُلَّ يوم. أريد منك أن تُكلِّف أعوانًا من الشرطة القضائية بتفحُّصها، الأعوان الأكثر شغفًا بالقراءة إذا وُجدوا. اطلب أيضًا المساعدة من الطلبة الدّاخليين. أريد منهم أن يجدوا كل الكتب التي تتحدَّث عن

الشَّرّ، العُنف، التعذيب، وكذلك الطقوس والتضحيات البشرية. على سبيل المثال، دعهم يُدقِّقون في كتب عِلم الأعراق البشرية. أريد منهم أيضًا أن يكتبوا أسماء الطلاب الذين يستعيرون هذا النوع من الأعمال. يجب أن نجد أيضًا أطروحة كايوا.

- ماذا عني؟

- ستجري أنت مقابلةً مع المقيمين، واحدًا واحدًا. إنهم يعيشون هنا ليلًا نهارًا، هم إذن أكثر مَن يعرف دواخل هذه الجامعة: العادات، المجموعات، الهواجس، الطَّلبة المُتفرّدون... أريد أن أعرف سُمعة كايوا هنا، كيف ينظُرُ إليه الآخرون. أريد منك أيضًا أن تسأل عن نزهاته الجبلية. ابحث عن رفاقه في التَّجوُّل، عمَّن يعرف أماكن مروره. مَن كان يستطيع الانضمام إليه هناك في الأعلى...

نظر جوانو إلى المحافظ بارتياب. فاقترب منه نيمانز، وقال بصوتٍ منخفضٍ:

- دعني أُذكِّرك بما لدينا. لدينا جريمة قتل رهيبة، جثَّةٌ شاحبة مُنكمشة مُلتفَّة على نفسها تحمل علامات تعذيب لا متناهية. تستطيع شم رائحة الجنون التي تنبعث من هذه الجريمة على بُعد مئات الأميال. لا أحد يعلم بهذا إلى حدِّ اللحظة. لدينا بضع ساعات، ربما أكثر قليلًا، لحل القضية. بعد ذلك، ستدسُّ وسائل الإعلام أنفها، وسيبدأ الضغط، وسيُطلَق العنان للعواطف. ركِّز. انغمِس بكلِّ كيانك في الكابوس. قدِّم أفضل ما لديك. هكذا سنكشف عن وجه الشَّرّ.

بدا الملازم خائفًا.

- هل تعتقد حقًّا أنَّنا في بضع ساعات...

- هل تريد العمل معي أم لا؟ (قاطعه نيمانز) سأشرح لك نظرتي إلى الأمور، عند التحقيق في جريمة قتل، يجب أن نعتبر كل عنصر من العناصر المُحيطة مرآةً. جثَّةُ الضحية، الأشخاص الذين يعرفونها، مسرح الجريمة... كل هذا يعكس حقيقة مُحدَّدة، جانبًا مُعيَّنًا من الجريمة، هل تفهمني؟

ضربَ على شاشة الحاسوب.

- هذه الشاشة، على سبيل المثال، عندما تشتعل ستصبحُ مِرآةَ الحياة اليومية لريمي كايوا، مِرآةَ نشاطه اليومي، مِرآةَ أفكاره. هناك تفاصيل هنا داخل هذا الحاسوب، انعكاسات قد تهمُّنا وقد تضيء لنا طريق الحلّ. يجب الغوص في الشاشة، أن نمرَّ إلى الجانب الآخر.

استقامَ نيمانز، وفرد ذراعيه.

- نحن في قصر المرايا يا جوانو، في متاهةٍ مليئةٍ بالانعكاسات! لذا دقِّق النَّظر. انظر إلى كل شيء. فالقاتل يختبئ في مكانٍ ما بين هذه الصور التي تُبعثِرها لعبة الانعكاسات هذه، في نقطة عمياء.

تأمَّله جوانو مشدوهًا.

- أجدك فيلسوفًا بالقياس إلى رجل ميدان.

ضربه المحافظ على صدره بظهر يده.

- إنها ليست فلسفة، بل هو مِراسٌ أو طريقة عمل.

- ماذا عنك إذن؟ مَن... مَن ستستجوِب؟

- أنا؟ سأستجوِبُ شاهدتنا فاني فيريرا. وكذلك صوفي كايوا، زوجة الضَّحية.

غَمَزَ نيمانز زميله:

- سأتولَّى أمر النساء. هذه هي طريقة العمل.

5

تحت السَّماء الكئيبة، كانت الطَّريق الإسفلتِيَّة تمرُّ عبر الحرم الجامعي وتصل إلى كلّ مبنًى مِن المباني الرّماديّة ذات النوافذ الزرقاء الصَّدِئة. قاد نيمانز ببطء -وكان قد حصل على خارطة للجامعة- واتَّبَع الطريق المُؤدِّية إلى قاعة الرِّياضة المُنعزلة. عندما وصل إلى مبنًى خرسانيٍّ جديدٍ مُخطَّطٍ أقرب إلى المستودعِ منه إلى قاعة رياضة، نزل من سيارته وأخذ نفسًا عميقًا. كان المطر يتساقط بقطراتٍ نحيلة خفيفة.

تفحَّصَ الحرمَ الجامعيَّ والمباني التي تمتدُّ على بُعد بضعِ مئات الأمتار من الملعب. لقد كان والداه أيضًا مُدرِّسَيْن، ولكن في معاهد صغيرة بضواحي ليون. لم يَعُد يتذكَّرُ عنهما شيئًا تقريبًا. فمنذ سنٍّ صغيرة بدت له شرنقة العائلة نقطةَ ضعف، كذبةً. وسُرعان ما شعر أنه سيتعيَّن عليه الصراع بمفرده في الحياة، لذلك لم يُضِع الوقت. في سن الثالثة عشرة طلب متابعة تعليمه في المدرسة الدّاخليّة، ولم يجرؤ أحد على رفض هذا المنفى الطَّوعي، لكنّه لا يزال يذكر نحيب والدته خلف ستار غرفته. كان بكاؤها صوتًا يسكن رأسه، وإحساسًا جسديًّا رطبًا ودافئًا على جلده. لقد سارع بالهرب دون الالتفات خلفه.

أربعُ سنواتٍ من المبيت المدرسي. أربعُ سنواتٍ من الوحدة والتدريب المستمرّ مع الدّراسة. فكل آماله اتَّجهت نحو هدفٍ واحدٍ وتاريخٍ واحدٍ: الجيش. في سن السابعة عشرة، أكمل بيير نيمانز، وقد تحصَّل على شهادة الباكالوريا بتفوُّق، أيَّامَ التَّدريب الثَّلاثة وطلب الالتحاق بمدرسة الضُّبّاط. وعندما أعلن له المسؤول الطِّبِّيّ عن إعادة توجيهه وفسَّرَ له سبب القرار، فهم نيمانز الشّاب. كانت مخاوفه واضحةً إلى أن خانته في العمق، في طموحه الوحيد. وكان يعلم أن مصيره سيكون دومًا هذا النفق الطويل النّاعم المُغطى بالدّماء، نفقٌ لا ينتهي بضوء، بل بكلاب تعوي في الظلام...

لو كان الأمر يهمُّ مراهقين آخرين لكانوا استسلموا واستمعوا طائعين لأحكام الأطباء النفسيين. لكن بيير نيمانز كان مختلفًا. أصرَّ في عناد، واستأنف تدريبه البدني، وضاعف من غضبه وقوّة إرادته. لن يصبح بيير جنديًّا في يومٍ ما، لذلك اختار معركةً أخرى: معركة الشوارع، الصراع المجهول ضِدَّ الشَّرّ العاديّ اليوميّ. اختار أن يخوض بكل قواه، بل بكل

كيانه غِمارَ حربٍ بلا مجدٍ ولا عَلَمٍ، حربٍ سيخوضها حتى النهاية. سيصبح نيمانز شرطيًّا.

لهذا الغرض، تدرَّبَ أشهرًا عديدةً على الإجابات المناسبة للاختبارات النفسية. والتحق بأكاديميّة شرطة «كان». ثم بدأ عهد العنف: التّدريب على الرماية، النّتائج الباهرة. لم يتوقَّف نيمانز عن التحسُّن يومًا. وأصبح شرطيًّا بارزًا، عنيدًا، عنيفًا، وشرسًا.

انضمَّ أوَّلًا إلى مراكز شرطة الأحياء الصغيرة. ثم أصبح قناصًا في الوحدة التي ستُصبِح فرقة البحث والتدخُّل. بدأ العمليات الخاصة، وقتل رجلًا للمرّة الأولى. وفي تلك اللحظة أبرم ميثاقًا مع نفسه وفكَّرَ في لعنته للمرة الأخيرة. لا، لن يكون أبدًا جنديًّا فخورًا أو ضابطًا شريفًا. سيكون مُقاتِلًا محمومًا وعنيدًا في المدينة، وسيُغرِق مخاوفه في العنف وفي نقمة الإسفلت.

أخذ نيمانز نفسًا عميقًا من الهواءِ الجبليِّ المُنعش. وفكَّرَ في والدته التي فارقت الحياة منذ سنواتٍ. فكَّرَ في ماضٍ اتَّخذ شكل وادٍ مُتدفِّقٍ وفي ذكرياتٍ تشقَّقت ثم تلاشت، مهزومةً في وجه النسيان.

فجأةً، سمع نيمانز صوتَ خطواتٍ سريعة كما في الحلم. كان الكلب ممشوقًا بعضلاتٍ بارزةٍ ووبرٍ قصيرٍ يتلألأ تحت المطر. حدَّقَت عيناه القاتمتان اللَّامعتان في الشرطيّ. اقترب وهو يتمايل. فتسمَّر نيمانز في مكانه. اقترب الكلب أكثر فأكثر حتى صار على بُعد خطوات قليلة. ارتجف أنفه الرطب، وفجأةً لمعت عيناه يهدِر. لقد شعر بوجود الخوف في الهواء، الخوف الذي ينضح من كل مسام البشري الواقف أمامه.

تحجَّرَ نيمانز تمامًا، وكأنَّ قوّةً مجهولةً شلَّت أطرافه. كان دمه يتسرَّب من خلال ثقب غير مرئي في مكان ما من بطنه. نبح الكلب، وكشَّرَ كاشفًا. عن قواطعه. يعرف نيمانز هذه العملية جيِّدًا. فالخوف يُنتِج جُسَيْماتٍ يشمّها الكلب وتثير فيه الخوف والعدوانيّة. الخوف يولّد الخوف. نبح الكلب مجدَّدًا، ثمّ زمجر. فأخرج الشرطيُّ مسدّسه دون تفكير.

- كلاريس! كلاريس! تعالي يا كلاريس!

أخرج النِّداء نيمانز من حالة الهلع. ورأى، خلف حجابٍ أحمر، رجلًا رمادِيًّا يرتدي سترةَ سائق شاحنةٍ يقترب منه بخطواتٍ سريعة.

- هل جننتَ يا هذا؟

تمتم نيمانز:

- الشرطة. ابتعد من هنا. خُذ كلبك معك.

صُدِمَ الرجل.

- تبًّا! هذا لا يُصدَّق. تعالي يا كلاريس، تعالي أيتها الأم الصغيرة...

ابتعد الرَّجل برفقة كلبته، فحاول نيمانز ازدراد لعابه. وشعر بوخز الإبر في حلقه الجاف. هزَّ رأسه، وأعاد سلاحه إلى غمده وتجاوز المبنى. وعندما استدار إلى اليسار حاول تذكُّر آخر زيارة إلى طبيبه النفسي. متى كان ذلك؟

عند الوصول إلى الزاوية الثانية وقع نظره على المرأة.

وقفت فاني فيريرا بالقرب من بوَّابةٍ مفتوحةٍ وهي تصقل لوحًا أحمر بورقةٍ رمليّة. خمَّنَ الشّرطي أنه اللوح الذي كانت فاني تستعمله في ركوب الأمواج والسيول.

قال وهو ينحني:

- مرحبًا.

انتهى كابوس الكلب، واستعاد نيمانز سيطرته على نفسه.

رفعت فاني رأسها نحوه. لا تكاد تبلغ من العمر عشرين عامًا. كانت سمراء البشرة وشعرها المُجعَّد يتطاير بخصلاتٍ رفيعة حول وجهها وبشلَّالات ثقيلة على الكتفين. كان وجهها مخمليًّا داكنًا، لكن عينَيْها ساطعتان بشكلٍ مؤلمٍ يكاد يكون فظًّا.

- أنا بيير نيمانز، محافظ الشرطة والمحقق الرئيسي في مقتل ريمي كايوا.

- بيير نيمانز؟ كرَّرَت بدهشة. أمرٌ لا يصدق!

- ما الغريب في الأمر؟

أَوْمأَتْ برأسها نحو راديو صغير على الأرض.

- لقد تحدثوا عنك للتوِّ في نشرة الأنباء، قالوا إنك اعتقلت قاتليْن ليلة البارحة بالقرب من حديقة الأمراء، وإن هذا أمرٌ جيِّدٌ جدًّا. قالوا أيضًا إنّك شوّهت وجه أحدهم، وإن هذا أمرٌ سيِّءٌ جدًّا. هل لك قدرة على الحضور في كل مكان أم ماذا؟

- ثمَّة تفسير أبسط بكثير: لقد قُدت السيارة طوال الليل دون توقُّف.

- ماذا تفعل في بلدتنا؟ ألم يَعُد رجال شرطتنا كافين؟

- لنقل إنني هنا في مهمة تعزيز.

استأنفت فاني عملها، فبلَّلَت سطح اللوح، ثمّ ضغطت بكلتي راحتيْها ساحقةً الورقة الرّمليّة المطويّة. بدا جسدها ممتلئًا وصلبًا. كانت ترتدي ملابس غير أنيقة تتكوَّن من سروال غوص، وسترةٍ بحارٍ وحذاءٍ جلديٍّ طويل رُبِطَ بإحكام. ألقى الضَّوءُ الطبيعيُّ الخافتُ نعومة ملوَّنة على المشهد كله.

تابع نيمانز:

- يبدو أنكِ تجاوزت الصدمة دون صعوبة.

- عن أيَّةِ صدمة تتحدث؟

- حسنًا... اكتشاف...

- أنا أتجنب التفكير في الأمر.

- أتمانعين الحديث في الموضوع مرَّةً أخرى؟

- أليس هذا ما أتيتَ من أجله؟

لم تكن تنظر إلى الشرطي. استمرَّت يداها في التحرُّك صعودًا ونزولًا على طول اللوح. كانت حركاتها جافَّةً وحادَّة.

- كيف اكتشفتِ الجثَّة؟

- في نهاية كل أسبوع، أنزل منحدرات النهر...(أشارت إلى قاربها المقلوب) على هذا النوع من المراكب. كنت قد انتهيت لحظتها من إحدى رحلاتي. يوجد حول الحرم الجامعي جدار صخري بمثابة سدٍّ طبيعيٍّ يوقف تدفُّق النهر ويسمح بالرُّسُوّ دون صعوبات. كنت أسحب لوح الرّكمجة حين رأيته..

- في الصّخر؟

- نعم، في الصّخر.

- غير ممكن. لقد ذهبتُ إلى هناك، ولا يوجد مُتَّسع للتراجع. من المستحيل رؤية شيء على علوٍّ خمسة عشر مترًا...

ألقت فاني بالورقة الرّمليّة في الكوب، ومسحت يديها، ثمّ أشعلت سيجارة. فأثارت هذه الحركات البسيطة في نيمانز رغبةً جارفةً مفاجئةً.

زفرت الشابة دخانًا كثيفًا مُزرَقًّا.

- كان الجسد في الجدار. لكنني لم أره هناك مباشرة.

- أين رأيتِه إذن؟

- رأيتُه بفضل انعكاسه في مياه النهر. بقعة بيضاء على سطح البحيرة.

استرخت ملامح نيمانز.

- هذا بالضبط ما اعتقدته.

- وهل هذا تفصيل مهم للتحقيق؟

- ليس تمامًا. لكني أحب الإجابات الواضحة.

صمت نيمانز لحظات، ثم استأنف:

- هل تمارسين رياضة تسلُّق الجبال؟

- كيف عرفت؟

- لا أعرف... طبيعة المنطقة، وتبدين.. رياضيّة جدًّا...

استدارت، وفتحت ذراعَيْها نحو الجبال المُطِلَّة على الوادي مبتسمةً للمرة الأولى:

- هذا هو موطني يا حضرة المحافظ! من قمة جبل «بالدون» الكبرى إلى «جراندرَوس»، أحفظ كلّ هذه الجبال عن ظهر قلب. عندما لا أركب الجداول نزولًا، أتسلَّق القمم صعودًا.

- حسب رأيك، هل يجب أن يكون الشخص مُتسلِّقَ جبالٍ محترفًا ليضع الجثَّةَ في ذلك المكان من السور؟

قالت مُتأمِّلةً الطرف المتوهّج من سيجارتها وقد كَسَت الجدية وجهها مرّةً أخرى:

- لا أعتقد، ليس بالضرورة. تُشكِّل الصخور مدرجًا طبيعيًّا يسهل لأيٍّ كان تسلُّقه. في مقابل ذلك، يجب أن تملك بنيةً جسديَّةً قويَّةً جدًّا كي تستطيع الصعود حاملًا ذلك الوزن دون أن تفقد توازنك أو تُسقطه.

- يعتقد أحد المحققين أنّ القاتل تسلَّقَ الجانب الآخر، حيث المنحدر أقل حِدَّة، ثمّ أنزل الجثَّة باستعمال حبل.

- لو فرضنا هذا فقد أطال طريقه دون فائدةٍ تُذكَر. (تردَّدَت قليلًا، ثم استأنفت) في الواقع، ثمة حلٌّ ثالثٌ بسيطٌ جدًّا شرط الإحاطة بالقليل من تقنيات التسلُّق.

- كُلِّي آذان صاغية.

أطفأت فاني فيريرا عقب سيجارتها تحت حذائها.

- تعال معي. قالت بنبرةٍ آمرة.

تبعها وهي تدخل قاعة الرّياضة في الضوء الخافت، رأى نيمانز أكداسًا من بُسُط التمرين وظلالٍ مستقيمةٍ للقضبان المتوازية والعديد من زانات القفز وحباله. علَّقَت فاني وهي تتَّجه نحو الجدار الأيمن:

- هذا عريني. خلال فصل الصيف، لا يطأ أحدٌ هذا المكان. يمكنني إذن وضع معدّاتي كما أشاء.

أشعلت مصباحًا زيتيًا عُلِّق فوق ما يشبه طاولة عمل. رأى العديد من الأدوات الغريبة، قطعًا معدنِيَّةً بأشكال وألوان مختلفة. ثمّ أشعلت فاني سيجارة أخرى. وسألها نيمانز:

- ما كلّ هذا؟

- مشابك، حلقات تسلُّق، مقابض... كلّها معدات تسلُّق الجبال.

- إذن؟

زفرت فاني سحابةً أخرى من الدخان.

- إذن، يا حضرة المُحقِّق، إن كان القاتل يمتلك معدات كهذه ويعرف كيفية استخدامها فيمكنه رفع الجثَّة من ضفة النهر دون صعوبةٍ تُذكر.

عَقَدَ نيمانز ذراعَيْه، واتَّكأ على الجدار وهو يُراقب كل حركات فاني التي احتفظت بالسيجارة بين شفتيها وهي تُرتِّب المعدات. تزايدت في الشرطي رغبةٌ لم تغادره منذ بداية اللقاء. يجب أن يتوخّى الحذر، هذه الفتاة تُثيره بدرجة مُخيفة.

قالت:

- كما سبق وأخبرتك، الصُّخور تُحاكي درجات سُلَّم طبيعيّة. بالقياس إلى شخص يُمارس التسلّق، أو حتى مُعتاد على النزهات الجبلية، سيكون تسلُّق السور الصخري في مرحلةٍ أولى دون الجثَّة في غاية السهولة.

- ثم؟

أخذت فاني بَكَرةً خضراءَ مُشِعَّةً مُنقَّطةً بثقوب صغيرة.

- ثم تُثبِّت هذا الشيء في الصخرة، فوق المكان الذي ستضع فيه الجثَّة.

- في الصخرة؟! كيف؟ بمطرقة؟ سيستغرق الأمر وقتًا طويلًا، أليس كذلك؟

قالت فاني من وراء ضباب سيجارتها وهي تُمسك بمشبك معدني:

- معلوماتك عن تسلُّق الجبال تقترب من الصفر يا سيادة المحافظ. هذه رزّة جبليّة، وهي كما ترى بمثابة مسمار للصخور. باستخدام حفّارٍ مثل هذا (أشارت إلى أداةٍ سوداء تشبه المِثقاب)، يمكنك في بضعِ ثوانٍ زَرْعُ رزّاتٍ عديدةٍ في أيِّ صخرة. ثم تُثبِّت بَكَرَات الحبال ولا يتبقَّى لك إلَّا رفعُ الجثَّة. كثيرًا ما نستعمل هذه التقنية لرفع حقائبنا في الأماكن الضيِّقة.

عبس نيمانز غير مقتنعٍ.

- لم يسبق لي الصعود إلى هناك. ولكن في رأيي، المكان ضيِّق جدًّا، لا أتخيَّل القاتل مُقرفِصًا في تلك الحفرة وهو يسحب الجسد مكتفيًا بالاعتماد على قوَّة ذراعيه دون أي مجال للارتداد. إن اعتقدنا هذا فسنعود إلى الفرضيّة الأولى في خصوص المشتبه به: فرضيّة العملاق.

- لا أحد سيسحب الجثَّة بهذه الطريقة طبعًا. لرفع ضحيته، لم يكن عليه سوى النزول من الجانب الآخر من البكرة ليكون بمثابة ثقلٍ مُضاد. ترتفع الجثَّة بهذه الطريقة من تلقاء نفسها.

ابتسم الشرطي وقد فهم أخيرًا التقنية البسيطة والعبقرية في آنٍ واحدٍ.

- لكن القاتل يجب أن يكون أثقل من الجثَّة، أليس كذلك؟

- أو أن يكون له الوزن نفسه. إذا ألقيت نفسك في الفراغ، يزيد ثقلك بتأثير الجاذبية الأرضية. وبمجرد رفع الجثَّة، يمكن لقاتلك العودة بسرعة لتثبيت ضحيّته في تلك الفجوة وضمان البُعد الدراميّ في المشهد.

نظر المحافظ مرَّةً أخرى إلى المسامير والبراغي والحلقات التي استقرَّت على طاولة العمل. فذكَّره المشهد بمُعدَّات لصٍّ محترف، لصٍّ من نوعٍ خاصٍّ، خارقٍ للمرتفعات ولقانون الجاذبيّة.

- كم من الوقت تستغرق هذه العملية؟

- بالنسبة إلى شخصٍ مثلي: أقلُّ من عشر دقائق.

أَوْمأَ نيمانز برأسه: بدأت صورة القاتل تتشكَّل في رأسه. خرجَا والشمس ترسل أشعتها عبر الغيوم لتضفي على السفوح والقمم صفاءً كريستالِيًّا باهرًا. سأل الشرطيُّ فاني:

- هل تدرّسين في الجامعة؟

- نعم أدرّس الجيولوجيا.

- وماذا أيضًا؟

- أدرّس اختصاصاتٍ عديدة على غرار علم تصنيف الأحجار، حركة القشرة الأرضية والصفائح التكتونية، وعلم الجليد أيضًا، أي تطوُّر الأنهار الجليدية.

- تبدين صغيرةً جدًّا في السن.

- حصلت على الدكتوراه في العشرين من عمري. وكنتُ مدرّسةً حينها. أنا أصغر خريجي فرنسا. وأبلغ الآن من العمر خمسًا وعشرين سنةً وأنا أستاذةٌ جامعيَّةٌ مرسّمة.

- وحش الجامعة الحقيقي.

- هو بذاته. وحش الجامعة. ابنة أستاذ جليل هنا في «غيرنون» وحفيدةُ آخر.

- تنتمين إذن إلى الجماعة أو الأخوية الشهيرة؟

- أيُّ جماعة؟

- درس أحدُ مساعديّ في «غيرنون». وفسّر لي أن في الجامعة نخبةً خاصَّةً مُكوَّنةً من أبناء أساتذة الكلّيّة..

أَوْمأَتْ فاني برأسها ونظرت إليه بمكر.

- أُفضِّل تسميةَ الأسرة الكبيرة. ينشأ الطلبة المعنيون في الكلية منغمسين منذ نعومة أظفارهم في التعليم والثقافة. ثمّ يتحصَّلون على نتائج ممتازة. أليس هذا طبيعيًّا؟

- حتى في المواد الرياضيّة؟

رفعت حاجِبَيْها في دهشة مُصطنعة.

- هذا مفعولُ هواء الجبل.

تابع نيمانز:

- تعرفين ريمي كايوا بالتأكيد. كيف تصفينه؟

أجابت فاني دون تردُّد:

- انطوائي، وحيد، عبوس معظم الوقت. لكنه خارق الذكاء. مُثقَّف حتى يصيبك بالدوار. كانت هناك إشاعةٌ حوله... يقال إنه قرأ كل الكتب الموجودة في المكتبة.

- هل تعتقدين أنه بالفعل قرأها؟

- لا أستطيع الجزم بذلك. لكنّه كان يعرف مكتبته ككف يده. كانت عرينه، ملجأه، جُحره.

كان صغير السن هو أيضًا، أليس كذلك؟

- لقد نشأ في هذه المكتبة. كان والده الأمين السابق لمكتبة الكلية.

ابتعد نيمانز بضعَ خطواتٍ.

- لم يُخبرني أحدٌ بهذا. هل تنتمي عائلة كايوا أيضًا إلى «أسرتك الكبيرة»؟

- قطعا لا. كان ريمي على العكس، معاديًا لنا. على الرغم من ذكائه وثقافته الموسوعية، لم يتحصَّل يومًا على النتائج التي كان يتوقَّعها. أعتقد... حسنًا، أظن أنه كان يشعر بالغيرة منا.

- ماذا كان تخصُّصه؟

- الفلسفة، على ما أعتقد. كان يُنهي أُطروحته.

- في أي موضوع؟

- ليست لي أدنى فكرة.

سكت المحافظ. وتأمَّل الجبال وهي تشرق أكثر فأكثر تحت الشمس كعمالقةٍ مُحنَّطين في الجليد. وتابع:

- أما يزال والده على قيد الحياة؟

- لا. اختفى قبل بضعِ سنوات. حادث تسلُّق جبال.

- هل من أمرٍ مُرِيبٍ في اختفائه؟

- ماذا تقصد؟ لقد مات في انهيار جليدي. انهيار «رمح ألموند العظيم» سنة 1993. ليس الأمر من الغرابة في شيء. يا لرجال الشرطة! لدينا أبٌ وابنٌ عملا أمينَيْ مكتبة في

الكلية نفسها. مارس كلاهما تسلُّق الجبال ومات كلاهما في الجبل. ألا تستحق هذه المصادفة التوقُّف قليلًا؟

- لا شيء يدلُّ على أنّ ريمي قُتِل في الجبل.

- معك حقّ. لكنّه غادر صباح السبت لنزهته الجبلية. لا بُدَّ أن القاتل فاجأه هناك في أحد المرتفعات. وربّما كان القاتل يعرف طريقه مُسبقًا و...

- لم يكن ريمي من النوع الذي يتبع طريقًا جبليّةً تقليديّة. ولا من النوع الذي يكشف طريقه للآخرين. لقد كان رجلًا شديد... الغموض.

انحنى نيمانز.

- شكرًا يا آنسة. أنت تعرفين الصِّيغة الرَّكيكة، إذا تذكَّرتِ أيَّ تفصيلٍ مهما بدا لكِ تافهًا... يمكنكِ الاتِّصال بي على أحد هذه الأرقام.

كتب نيمانز إحداثيات هاتفه الخلوي والغرفة التي خصَّصها له رئيس الجامعة -لقد فضَّلَ الشرطي الإقامة في الجامعة على السكن في مركز الجندرمة- وغمغم:

- إلى اللِّقاء.

لكن الشابة لم تنظر إليه. وبدأ يبتعد عندما استوقفته:

- هل تسمح لي بطرح سؤال؟

تفحَّصته بحدقتَيْها البلَّوريّتَيْن. وشعر نيمانز بنوعٍ من عدم الارتياح أمام نظرتها. كان لون قزحيّتَيْها فاتحًا جدًّا، ساطعًا جدًّا، كأنهما قُدَّتا من زجاج أو من مياهٍ مُتدفِّقة. كانتا حادَّتَيْن كالجليد.

أجاب:

- تفضّلي.

- في الإذاعة، أقصد في نشرة الأنباء.. أقصد، حسنًا، هل صحيحٌ أنَّكِ كنتَ جزءًا من الفريق الذي قتل جاك مسرين[1]؟

- كنتُ شابًّا حينها. لكن هذا صحيح.

---

[1] جاك مسرين (1936 - 1979) هو أشهر مجرم في تاريخ فرنسا الحديث، لُقِّب بعدوِّ الشعب رقم (1) وقُتِل إثر كمين نصبه له رجال الشرطة (المترجمة).

- كنتُ أتساءل... بماذا أحسست بعد ذلك؟

- بعد ماذا؟

- بعد شيءٍ مثل ذلك.

خطا نيمانز بضعَ خطواتٍ نحو الشابة، فتراجعت بشكلٍ غريزي. لكنها بادلته نظرته بثباتٍ يشوبه الغرور.

- سأستمتع دائمًا بالتحدُّث إليك فاني. لكنَّكِ لن تسمعيني يومًا أتكلَّم عن ذلك. أو عما خسرتُه في ذلك اليوم.

نظرت محاورتُه إلى الأسفل، وقالت بصوتٍ منخفضٍ:

- أفهم.

- لا، أنتِ لا تفهمين. وهذا من حسن حظّك.

6

تدفَّقت المياه وراءه. كان نيمانز قد استعار من رجال الجندرمة زوجًا من أحذية مشي، وها هو الآن يتسلَّق الدرجات التي نحتتها الطبيعة في السور الصخري بشيء من السهولة. عند وصوله إلى الصَّدع، تأمَّلَ الشرطي الفجوة الضيِّقة التي وُضعت فيها الجثَّة، وتفحَّص بعناية الصخور المُحيطة، ثم تلمَّسَ المكان بيدَيْهِ الملفوفتَيْن بقُفَّازَيْنِ مطَّاطيَّيْنِ باحثًا عن أي أثرٍ للرَّزّات أو لثقبٍ في الحجر.

لفحت الرّياح المحملة بقطراتِ الماء المُثلَّج وجهه وراقَ له هذا الإحساس، رغم كل الظروف، انتابَه شعورٌ قويٌّ بالامتلاء عند وصوله حذوَ البحيرة الصغيرة. ربما اختار القاتل هذا الموقع لهذا السبب، كان مكانًا يبعث على الهدوء والسَّكينة، دون نتوءاتٍ ولا انشقاقات. مكان ينزل فيه صوتُ المياه ولونها بردًا وسلامًا على الأرواح المُكبَّلة بالغضب والعنف.

لم يعثر المفتِّش على شيءٍ يُذكر. فواصل بحثه حول الفجوة، لا أثر لأي مسمار هنا، وضع ركبته على حافة الصَّدع وتلمَّس الجدران الداخلية للفتحة. وفجأةً وجدت أصابعه ثقبًا واضحًا في منتصف سقف الفجوة. تذكَّرَ فاني فيريرا. لقد كانت على حقّ: لا شكَّ أنَّ القاتل رفع الجثَّة باستخدام ثقله، مُستعينًا بالرَّزّات والمشابك والبكرات.

أدخل كل ذراعه في الفتحة مواصِلًا البحث، واكتشف ثلاثة ثقوبٍ مُحزَّزةٍ في المجمل، بعمق عشرين سنتيمترًا، تُشكِّل مُثلَّثًا. إنها قَطْعًا آثار الرَّزّات الثلاث التي ثبَّتَتْ البكرات. بدأت ملابسات الجريمة تتَّضِح. فاجأ القاتل ريمي كايوا أثناء نزهته الجبلية. قيَّده، وعذَّبه وشوَّهه وقتله في المرتفعات المنعزِلة، ثمّ نزل إلى الوادي بجثة ضحيته. كيف؟ ألقى نيمانز نظرةً إلى أسفل. على بُعد خمسة عشر مترًا تجمَّدَت المياه مُشكِّلةً سطحًا بلوريا لامعًا كمرآة. لقد ركب الوغدُ السَّيل وعبَرَ النَّهر في زورقٍ أو نوعٍ آخر من المراكب، هذا ما حصل دون شك.

لكن لماذا هذا الاختيار المحفوف بالمصاعب؟ لماذا لم يترك الجثَّة ببساطة في مسرح الجريمة؟

نزل الشرطيُّ بحذر. وعندما وصل إلى القاع، خلع قفازَيْه وأدار ظهره للصخور. حدَّقَ هذه المرَّة في ظلِّ الفجوة على المياه الجامدة الناعمة. كان الانعكاس ثابتًا مثل لوحة مرسومة. تحوَّلت الفكرة إلى قناعة راسخة: كان هذا المكان معبدًا للهدوء والصفاء. ربّما اختاره القاتل لهذا السبب. على أيَّةِ حال، تشكَّل يقينٌ واحدٌ لدى المُحقِّق.

القاتل مُتسلِّق جبال مُتمرِّس.

كانت سيَّارة نيمانز مُجهَّزة بجهاز إرسال ذي تردُّدٍ عالٍ جدًّا، جهاز لم يسبق للشرطي استخدامه، كما لم يكن يستخدم هاتفه الخلويّ، وهو أقلُّ تكتُّمًا لإجراء اتِّصالات سرية. بدلًا من ذلك، ولسنوات طويلة، كان يستخدم أجهزة نداء لاسلكية من مختلف الأنواع والعلامات التجارية. لا يمكن لأحدٍ اختراق هذا النوع من الأنظمة، فهو لا يعمل إلا بكلمة مرور. لقد تعلّم هذه الحيلة من المروجين الباريسيّين الذين استغلُّوا هذه التقنية القديمة لضمان سرّيَّةِ اتِّصالاتهم. أعطى المحافظ رقمه واسمه الرَّمزي لجوانو وبارنز وفيرمونت. أخرج الجهاز من جيبه بمجرد أن استقلَّ سيارته ونقر على الإطار. لا توجد رسائل في انتظاره.

شغَّل السيارة وعاد إلى الكلية.

الساعة الآن الحادية عشرة صباحًا. تراءت ظلال قليلة في الساحة الخضراء حيث ركض عدد قليل من الطلاب على مضمار الملعب البارز فوق خط مجموعة المباني الخرسانية.

سلك الشرطي طريقًا عرضيًّا وعاد إلى المبنى الرئيسي. يتكوّن المستودع الضخم من ثمانية طوابق ويمتد على ستمائة متر. أوقف السيارة مُستطلِعًا خارطته. وبصرف النظر عن المكتبة، يضم هذا المبنى الضخم مدرجات الطب والعلوم الفيزيائية. في الطوابق العلوية توجد غرف الأشغال التطبيقية. وفي الطابق الأخير غرف الطلبة والموظفين المقيمين. وقد كتب الحارس رقم الشقة التي يشغلها ريمي كايوا وزوجته الشابة باللون الأحمر.

تجاوز بيير نيمانز أبواب المكتبة المجاورة للمدخل الرئيسي، ودخل بهو المبنى. وهو عبارة عن مساحة مُتَّصلة دون انقطاع يغمرها الضياء عبر نوافذ زجاجية واسعة. الجدران مثقلة بلوحات بسيطة تألَّقت في ضوء الصباح، وتاهت نهاية البهو على بعد مئات من الأمتار في نوع من الانفجار المعدنيّ. كانت أبعاد المكان ستالينية، لا علاقة لها بأجواء الرخام الفاتح والخشب البنّي المميّزة للجامعات الباريسية. على الأقل كما يتخيَّلها نيمانز فلم تطأ قدمه يومًا أيَّ كلّيّة. لا في باريس ولا في أي مكان آخر.

صعد سُلَّمًا بدرجاتٍ جرانيتية مُعلَّقة تفصل بينها شفراتٌ عمودية، إنها نزوة مهندسٍ معماريّ، بنفس الأسلوب الطاغي للمبنى. كانت نصف مصابيح النيون لا تعمل، فكان نيمانز يعبر مناطق من الظلام شبه الكليّ للظهور مرة أخرى تحت ضوء شديد البياض.

وصل أخيرًا إلى ممرٍّ ضيّقٍ تتخلَّله أبواب صغيرة. فعبر الممرّ المظلم -إذ كانت كل المصابيح هنا قد فارقت الحياة- بحثًا عن شقة كايوا، الشقة رقم ٣٤.

كان الباب مواربًا.

دفع الشرطيُّ الباب الخشبيَّ الرقيق بحذر.

استقبله الصَّمت والظلام، ووجد نفسه في دهليز صغير. ثمّ عَبَر شريطٌ من الضَّوءِ الممرَّ الضيِّقَ في الخلف. وسمح ذلك النور الخافت للشرطي بتفحُّص الإطارات المعلّقة على الجدران. صور فوتوغرافية بالأبيض والأسود يبدو أنها تعود إلى الثلاثينيات أو الأربعينيات. رياضيون أولمبيون بارزو العضلات يشقون الأرض أو السماء في فخر. وشت الوجوه والأجساد والوضعيات بنوعٍ من الكمال المُقلق، من نقاءٍ حريٍّ بالتماثيل لا بالإنسان. وتذكَّر نيمانز هندسة الجامعة المعمارية. كل هذا يُشكِّل وحدةً مترابطة متناسقة، ولم يكن هذا خبرًا سعيدًا.

تحت هذه الإطارات، وجد صورةً لريمي كايوا. فنزعها من الجدار ليتأمَّلها بشكلٍ أفضل. كان الضَّحيَّة شابًّا وسيمًا ومبتسمًا، بشعرٍ قصيرٍ وملامح متوترة، وتبدو نظرته مُتأهِّبةً لشيءٍ ما.

- مَن أنت؟

أدار نيمانز رأسه. وبرزت امرأة ترتدي معطفًا واقيًا من المطر في نهاية الممر. اقترب منها المحافظ، هي أيضًا أصغر من الخامسة والعشرين. أحاطَ شعرها الفاتح المتوسط الطول بوجهٍ ضيّقٍ غائرٍ عمَّقت الهالات السوداء تحت عينَيْها شحوبه. كانت ملامحها بارزة، لكنها رقيقة. جمال هذه المرأة لا يظهر إلا بعد استرجاع صورتها، وكأنَّه ارتداد أو صدى للانطباع الأول المزعج.

أجاب:

- أنا بيير نيمانز، محافظ الشرطة.

- هل يسمح لك منصبك بدخول منزلي دون استئذان؟

- اعذريني. وجدتُ الباب مفتوحًا. هل أنتِ زوجة ريمي كايوا؟

انتزعت المرأة الصورة من يدي نيمانز وثبّتتها مرّةً أخرى في مكانها على الحائط، كإجابة على سؤاله. ثمّ خلعت معطفها مُتَّجهةً إلى الغرفة الموجودة على اليسار. اختلسَ نيمانز نظرةً خاطفةً إلى صدرها الشاحب الهزيل في فتحةِ قميصها البالي وارتجف.

قالت المرأة على مضضٍ:

- تفضّل.

دخل نيمانز غرفة معيشةٍ ضيِّقةً مُزيَّنةً بعنايةٍ وتقشُّف. لوحاتٌ حديثةٌ مُعلَّقةٌ على الجدران. خطوطٌ متناظرة، ألوانٌ مخيفة، أشكالٌ مُبهَمةٌ لم يولها الشرطي اهتمامًا كبيرًا. في مقابل ذلك انتبه إلى تفصيلٍ صغيرٍ: طغت رائحةٌ كيميائيّةٌ قويَّةٌ على هذه الغرفة. رائحةُ غراء. لقد جدَّدَ الزوجان كايوا حينئذٍ ورق الحائط مؤخّرًا. وهذه الفكرة جعلت قلبه ينقبض في صدره. فكر للمرّة الأولى في مصير الزوجين المظلم، في رماد السعادة الذي لا يزال دافئًا تحت حزن هذه المرأة. وبادر بنبرةٍ جادَّة:

- سيدتي، لقد جئت من باريس، دعاني قاضي التحقيق لتعزيز البحث في ملابسات موت زوجك. أنا...

- هل أمسكت بطرفِ خيط؟ هل تمكنتم من الوصول إلى دليل؟

تأمَّلها المحافظ وانتابته رغبة جامحة في كسر باب أو نافذة أو أي شيء. كانت هذه المرأة مفعمة بالحزن، ومفعمة أكثر بالكراهية، كراهية رجال الشرطة.

اعترفَ:

- ليس لدينا أيُّ مشتبه به حتى الآن. لكنّي آمل أن التحقيق...

- هات أسئلتك.

جلس نيمانز على الأريكة أمام المرأة، وقد اختارت كرسِيًّا صغيرًا على مسافةٍ منه. فأمسك هو وسادةً، وضغط عليها بضعَ ثوانٍ ليتمالك نفسه. ثم تابع:

- لقد قرأت شهادتك. أريدُ بعض التوضيحات فحسب. الكثيرون يقومون بنزهات جبليّة في هذه المنطقة، أليس كذلك؟

- هل تعتقد أنّ هناك الكثير من وسائل الترفيه في «غيرنون»؟ الجميع يمارسون رياضة المشي أو تسلُّق الجبال.

- هل يعرف المتسلّقون الآخرون الطُّرُق التي يسلكها ريمي؟

- لا، لم يكن يتحدَّث عنها قطُّ. وكان يتبع وجهاته الخاصة...

- هل كان يتنزَّه جريًا أم مشيًا فحسب؟

- هذا غير ثابت. يوم السبت، غادر ريمي مشيًا على القدميْن، على ارتفاعٍ أقل من ألفي متر. ولم يأخذ معه أي معدّات.

سَكَتَ نيمانز برهةً، ثم دخل في لبِّ الموضوع:

- هل لزوجك أي أعداء؟

- لا.

دفعته النبرة الغامضة إلى طرح سؤال آخر فاجأه هو نفسه:

- هل كان لديهِ أيُّ أصدقاء؟

- لا هذا ولا ذاك. كان ريمي رجلًا انطوائِيًّا.

- أيُّ علاقةٍ ربطته بالطلبة الذين يتردَّدون على المكتبة؟

- تقتصر على بطاقات خروج الكتب.

- هل لاحظتِ أمرًا غير معتاد في الآونة الأخيرة؟

لازمت المرأة الصمت. أصرَّ نيمانز:

- هل كان زوجك عصبيًّا بشكلٍ خاصّ؟ متوتِّرًا؟

- لا.

- حدِّثيني عن اختفاء والده.

رفعت صوفي كايوا رأسها، ونظرت إليه. كان لون حدقتَيْها باهتًا، لكنّ الرموش والحواجب مرسومة بشكلٍ رائع. هزَّت كتفيها.

- ماتَ في انهيارٍ ثلجيٍّ عام ٩٣ قبل زواجنا بفترةٍ طويلة. لا أملك معلوماتٍ دقيقةً عن الأمر. لم يكن ريمي يتحدَّث في الموضوع قطُّ. لِمَ هذا السؤال؟

لزم الشرطيُّ الصَّمتَ وتأمَّلَ الغرفة الصغيرة بأثاثها القليل. كان يعرف هذا النَّوْعَ من الغرفِ جيِّدًا. كان يعرف أنه ليس وحيدًا هنا مع صوفي كايوا. فذكرى القتيل لا تزال تحومُ في المنزل كما لو كانت روحه تحزم حقائبها بمكان ما في الغرفة المجاورة. أشار المحافظ

إلى اللوحات على الجدران.

- ألا يحتفظ زوجكِ بأيِّ كتبٍ هنا؟

- لِمَ سيفعل ذلك؟ كان يعمل طوال اليوم في المكتبة.

- هل كان يُعِدُّ أطروحته هناك؟

أَوْمأَتْ المرأة برأسها. حدَّقَ نيمانز في وجهها الجميل القاسي. كان مُتفاجِئًا برؤية امرأتين بهذا القدر من الجاذبيّة في أقل من ساعة.

- ما هو موضوع أطروحته؟

- الألعاب الأولمبية.

- هذا ليس موضوعًا فكريًّا.

أجابت صوفي كايوا وقد علا الازدراء مُحيَّاها:

- تدور أطروحته حول علاقة المشقّة بالمقدّس. علاقة الجسد بالعقل. كان يدرس أسطورة «أثلون»، الرّجل الأوّل الذي كان يخصّب الأرض بقوّته الخالصة من خلال تجاوز حدود جسده.

- معذرةً. تنهَّدَ نيمانز. معارفي في المسائل الفلسفية شِبهُ منعدمة... هل لِما تقولين علاقة بالصور الموجودة في الردهة؟

- نعم ولا. الصّور المعلّقة. هي لقطات مأخوذة من فيلم أخرجته ليني ريفنستال عن دورة الألعاب الأولمبية لعام 1938 التي احتضنتها برلين.

- الصور رائعة.

- كان، ريمي يقول إنّ تلك الدورة أعادت اكتشاف وجدان ألعاب أولمبيا القائمة على اتِّحاد الجسد والفكر، المشقّة الجسديّة والتعبير الفلسفيّ.

- في هذه الحالة نتحدَّث عن الأيديولوجيا النّازيّة، أليس كذلك؟

- زوجي لم يكن يهتمُّ بطبيعة الفكر المعبَّر عنه. كان مفتونًا بهذه الوحدة فحسب. الفكر والقوة، العقل والجسد.

لم يفهم نيمانز شيئًا من هذا الهراء. وفجأةً انحنت المرأة، وقالت بغلظةٍ مُفاجئةٍ:

- لماذا يرسلون رجلًا مثلك إلى هنا؟ لماذا؟

تجاهل الاستفزاز الواضح. ففي كل الاستجوابات التي أجراها كان يستخدم دائمًا الأسلوب نفسه، ذاك الأسلوب البارد القائم على الترهيب. في نظر ضابطِ شرطة -ولا سيَّما بوجهٍ مثل وجهه- لا فائدة تُذكَر من اللعب على المشاعر أو على علم النفس المزعوم. فسأل بوقاحة مفاجئة:

- هل تعتقدين أن أحدهم كان يملك أي سبب للحقد على زوجك؟

- هل تهذي يا هذا؟ ألم ترَ حالَ الجثَّة؟ ألا تفهم أن مَن قتل زوجي كان مجنونًا؟ وأنّ هذا المهووس فاجأ زوجي في مكان ما وضربه وعذبه حتى الموت؟

أخذ الشرطي نفسًا عميقًا. كان يُفكِّر في ذلك الموظف الصامت اللّامادِّيّ وهذه المرأة العدوانيّة. ثنائيٌّ مخيف.

- كيف كانت علاقتكما الزوجية؟

- اللَّعنة! ليس هذا من شأنك.

- أجيبي عن السؤال من فضلك.

- هل تتَّهمني بشيءٍ ما؟

- أنتِ تعرفين جيِّدًا أنَّكِ لستِ مُتَّهمةً بشيء. أجيبي عن السؤال من فضلك.

وجَّهَت إليه نظرةً ناريّة.

- هل تريد أن تعرف كم مرَّةً في الأسبوع كنا نمارس الجنس؟

شعر نيمانز بالقشعريرة تسري في مؤخرة رقبته.

- أرجوك سيدتي. أنا أقوم بعملي.

- أغرب عن وجهي أيّها الشّرطي القذر.

لم تكن أسنانها بيضاء، ومع ذلك كانت رسمةُ شفتَيْها جميلةً ومؤثِّرة. جال نيمانز ببصره في ذلك الفم. خُطوط عظام الوجنتين الحادَّة، الحاجبان، كل هذه الملامح التي تتألَّق وسط ما في الوجه من شحوبٍ باهتٍ. لم يكن لإشراق البشرة ولون العينَيْن وكل هذه الأوهام المُكوَّنة من الضوء والدرجات أهمِّيّةٌ تُذكَر. الجمال مسألةُ خُطوط، طريقةُ رسم، نقاءٌ لا يمكن إفساده. لم يبرح الشرطيُّ مكانه.

- اغرب عن وجهي! صرخت المرأة.

- ليس قبل سؤالٍ أخير. إذا كان ريمي يعيش في الجامعة، فمتى أدّى خدمته العسكرية؟

تسمَّرت صوفي كايوا وقد فاجأها السؤال. فعقدت ذراعَيْها بشدَّة كأنَّ البرد تسلَّلَ إليها بغتةً.

- لم يؤدِّها.

- إعفاء؟

طأْطَأَتْ رأسها.

- لأي سبب؟

وجَّهَت نظراتها إليه مرَّةً أخرى.

- ما الذي تبحث عنه؟

- لأي سبب تمَّ إعفاؤه؟

- سبب في علاقة بالطّب النفسي، على ما أعتقد.

- هل كان يعاني من اضطرابٍ عقليّ؟

- هل كنت تعيش في كهف؟ الجميع يطلب الإعفاء لأمراض نفسية مزعومة. هذا لا يعني شيئًا. يكفي أن تتظاهر قليلًا فتُعفى.

لم يُعقِّب نيمانز على كلامها، لكن كل كيانه عبَّرَ عن رفضه الصامت. فجأةً تفحَّصَت المرأة رأسه الحَليق وأناقتَه الصارمة، فعوَّجت شفتَيْها في اشمئزاز.

- تبًّا لك! اذهب! اغرب عن وجهي!

قام مُغمغِمًا:

- سأغرب عن وجهك الآن. لكنّي أريد منك أن تعرفي شيئًا واحدًا.

- ماذا؟

- أحببتِ أم كرهتِ، وحدهم أمثالي يُمسكون بالقَتَلة. ووحدهم أمثالي يستطيعون الانتقام لزوجك.

تجمَّدَت ملامح المرأة بضعَ ثوانٍ، ثم ارتجف ذقنها وأجهشت بالبكاء. فاستدار نيمانز مُغادِرًا.

- سوف أظفر به.

عندما وصل إلى المدخل ضرب على الحائط وكرَّرَ:

- يا إلهي، أقسم لك. سأمسك بالشيطان الذي قتل زوجك.

في الخارج، صفعه سطوع الضوء، وتراقصت بقعٌ سوداء تحت جفنيه. ترنَّح نيمانز لحظاتٍ، ثمّ أجبر نفسه على المشي بهدوء إلى سيارته بينما تحوَّلت الهالات السوداء تدريجيًّا إلى وجوهٍ نسائيّة، فاني فيريرا السمراء. وصوفي كايوا الشقراء. امرأتان قويّتان وذكيّتان وعدوانيّتان. كان يعرف أنه لن يحتضن يومًا امرأةً مثلهما بين ذراعَيْه.

ركل بعنف سلَّة خردة معدنِيَّة مُثبَّتة على عمود، ثم نظر دون تفكير إلى جهاز النداء.

ومضت الشاشة: لقد انتهى الطبيب الشرعي للتوِّ من تشريح الجثَّة.

7

في فجر اليوم نفسه على بعد مائتين وخمسين كيلومترًا غربًا، كان الملازم كريم عبدوف ينهي قراءةَ أطروحةٍ في علم الجريمة، موضوعها استخدام البصمات الوراثية في قضايا الاغتصاب والقتل. كان الكتاب الضخم المؤلف من 600 صفحة قد أبقاه مستيقظًا طوال الليل تقريبًا. وهو الآن ينظر غير مُصَدِّقٍ إلى أرقام ساعة المُنبِّهِ الذي يرنُّ.

07:00

تنهَّدَ كريم، وألقى بالكتاب في ركن الغرفة، ثم ذهب إلى المطبخ ليحضر بعض الشاي الأحمر. عاد إلى غرفة المعيشة -وكانت أيضًا غرفةَ طعامه وغرفةَ نومه- وتأمَّل الظَّلَامَ عبر النافذة. ألصق جبينه على الزجاج وهو يُقيِّمُ فُرَصَه في إجراء تحقيق جيني يومًا ما بهذه البؤرة النائية. وكانت الفرص تقترب من الصفر.

شاهد العربيُّ الشابُّ مصابيح الشَّوَارِعِ التي لا تزال تخترق أجنحة الليل والمرارة عالقة في حلقه. حتى في ذروة أنشطته الإجرامية كان يعرف دائمًا كيف يتجنَّب السجن. والآن، في التاسعة والعشرين من العمر، بعد أن أصبح شرطيًّا، ها هو. محتجزٌ في سجنٍ أكثر بشاعة، بلدة ريفية صغيرة يسحقها الملل في قلب سريرٍ من الصخور، سجن بلا جدرانٍ ولا قضبان، سجن نفسيّ ينهشه ببطء. بدأ فِكر كريم يغرقُ في أحلام اليقظة. تخيَّلَ نفسه وهو يطارد قتلةً متسلسلين باستخدام تحليل الحمض النووي وبرامج الإعلاميّة المتخصصة، كما هي الحال في الأفلام الأمريكية. تخيَّلَ نفسه وهو يقود فريقًا من العلماء يدرسون خرائط المجرمين الجينية. من خلال البحوث والإحصاءات، عزل المختصون نوعًا من التّقطّع، خطأ في موضع ما من سلسلة الصبغيات، وحدّدوا هذا الشرخ باعتباره مفتاح الدافع الإجرامي.

في فترة غير بعيدة، كان هناك بالفعل حديث عن صبغية لا مزدوجة من شأنها أن تُميِّز القتلة. وتَبَيَّنَ سريعًا خطأ هذه النظرية. لكن في حلم كريم، اكتشفوا «خطأً إملائيًّا» جديدًا في تجميع حروف الدورة الجينية. وكان كريم نفسه هو من أتاح الوصول إلى هذا

السبق العلمي بفضل اعتقالاته المتواصلة لأخطر المجرمين. فجأةً، ارتجف جسد كريم وهو يعود إلى الواقع.

إذا كان هذا «الخطأ» موجودًا بحق، فهو يجري أيضًا في عروقه.

لم تكن كلمة «يتيم» تعني له شيئًا. لا يندم المرء إلا على ما عرفه أو امتلكه يومًا، بينما لم يَخبَر كريم أي شيء يشبه الحياة الأُسَريَّة من قريب أو من بعيد. كانت ذكرياته الأولى تقتصر على زاويةٍ أرضيّة مشمّعة وجهاز تلفزيون بالأبيض والأسود في ملجإ شارع «موريس ثوريز» في «نانتير». نشأ كريم في منطقة بلا تناسق ولا ألوان. عمارات تحاذي أبراجًا، وأراضٍ شاغرة تتحوَّل تدريجيًّا إلى أحياء فوضويَّة. لا يزال يتذكَّر لعب الغميضة في مواقع البناء التي كانت تكتسح شيئًا فشيئًا أعشاب طفولته.

كان كريم طفلًا منسيًّا، أو عُثر عليه، حسب زاوية النظر. في الحالتَيْن لم يكن يعرف والديه، ولم يُذكِّره شيءٌ بأصوله خلال سنوات التعليم الذي تلقَّاه. لم يكن يتحدَّث العربية بطلاقة ولا كان لديه سوى بعض المفاهيم الغامضة عن الإسلام. تحرَّر المراهق سريعًا من أوصيائه -مربّي الملجإ الذين كانوا يثيرون اشمئزازه ببساطتهم ونواياهم الحسنة- وسلَّمَ نفسه للمدينة.

عندها اكتشف «نانتير»، منطقة بلا حدود، مُخطَّطةً بشوارع واسعة ومنقّطةً بأحياء ضخمة ومصانع ومباني إداريّة، حيث يتنقَّل المارَّة القلقون بملابسهم الرثَّة وآمالهم المفقودة. لكنّ البؤس لا يصدم إلا الأثرياء. لهذا لم يلاحظ كريم الفقر الذي يوغل في كل مسام المدينة، من خامات المباني إلى تجاعيد الوجوه.

على العكس من ذلك، احتفظ بذكريات جميلة عن مراهقته. زمن السذاجة والطيش، زمن اللامستقبل. ثلاثة عشر سنة، الأصدقاء الأوائل، المغامرات العاطفية الأولى. وبشكلٍ متناقض، اكتشف كريم أسبابًا للحب والتشارك وسطَ وحدة البلوغ واضطراباته. بعد طفولته اليتيمة، مثَّلت اختلاجات المراهقة فرصةً ثانيةً له للّقاء، حيث أمكنه الانفتاح على الآخرين، على العالم الخارجيّ. ويتذكَّر كريم، حتى اليوم، تلك الفترة بوضوح تام. الساعات الطويلة في الحانات، التدافع بالقرب من آلات الكرة والدبابيس، الضحك مع الأصدقاء. أحلام اليقظة التي لا تنتهي حول فتاة رآها أمام المعهد...

وفي مقابل ذلك، فالضاحية تُخفي جيِّدًا أسرارها. لطالما عرف عبدوف أنّ «نانتير» حزينة وخانقة. لكنّه اكتشف أن المدينة كانت أيضًا عنيفةً وقاتلة.

في إحدى ليالي الجمعة، ظهرت عصابةٌ بمقهى المسبح. ودون أن ينبس أيٌّ من أفرادها ببنت شفة، حطّمُوا وجه صاحبها بالركلات. والسبب؟ قصة قديمة عن منعهم من

الدخول، عن قوارير جعة غير مدفوعة الأجر، لا أحد يعرف بدقّة. لم يُحرِّك أحدٌ ساكنًا. لكن صرخات الرجل المكتومة تحت المنضدة نقشت خطوطًا رنّانة في أعصاب كريم. في تلك الليلة، فسَّرَ له بعض معارفه جملةً من الأسماء والأماكن والشائعات. عندها تراءى له عالمٌ آخر لم يكن يُخمِّن وجوده، عالم تسكنه كائناتٌ عنيفةٌ وأحياء يتعذّر الوصول إليها وأقبية قاتلة.

مرّةً أخرى، مباشرةً قبل حفل موسيقيّ في شارع البلديّة القديمة، تحوَّلَ شجار إلى مذبحة ومرّةً أخرى اندفعت العصابات وهاجت. رأى كريم في تلك الليلة رجالًا بوجوه ممزّقة يتدحرجون على الإسفلت وفتيات بشعور ملطخة بالدماء يحاولن الاختباء تحت السيارات.

كلما تقدَّمَ في السن ازداد اغترابه في مدينته. وسط تصاعد موجات العنف، يتحدَّث الجميع بإعجاب عن فيكتور، وهو كاميرونيٌّ يتعاطى المخدرات علنًا على أسطح الأحياء، عن مارسيل، بلطجيّ بوجهٍ أكله الجدريّ يحمل على جبينه وشمَ شامةٍ زرقاء على الطراز الهندي، أُدين مرّاتٍ بالاعتداء على رجال الشرطة، عن جمال وسعيد اللذَيْن سرقَا صندوق التوفير. أحيانًا كان كريم يلمح هؤلاء أمام باب المعهد فيبهره تكبّرهم ونبلهم الواضح. لم يكونوا أشخاصًا مبتذلين، جاهلين أو خشنين، بل كانوا على العكس أنيقين بعيون محمومة وحركات مدروسة.

اختار سريعًا مُعسكَره. بدأ بسرقة مذاييع السّيارات ثم السّيارات ذاتها، وحقَّقَ استقلالَه الماديّ. تردَّدَ على مدمن الأفيون الأسود، على «الأخوين» اللصين، ولا سيَّما على مارسيل، الكائن الهائم المخيف والقاسي الذي يتعاطى المخدرات من الصباح حتى آخر الليل، لكنّه يملك وجهة نظر مختلفة ويحتفظ بجزءٍ من الضّاحية أدهشَ كريم. كان مارسيل حليق الرأس يرتدي قمصانًا من الفرو ويستمع إلى موسيقى «الرابسوديات المجرية» لفرانز ليست ويعيش في مبانٍ مهجورة ويقرأ بليز سوندرار. أطلق على «نانتير» لقب «الأخطبوط» واخترع لنفسه شبكةً كاملةً مِن الأعذار والتحليلات لشرح سقوطه الحتمي. مِن المفارقات أن رجل المدينة هذا علَّمَ كريم أنّ هناك حياةً أخرى خارج الضّاحية.

فأقسم على الوصول إليها.

لم يتوقَّف عن السّرقة، لكنّه بدأ يدرسُ في المعهد بجدّ، فأثار ذلك استغراب جميع من يعرفه. سجَّل نفسه في دروس الملاكمة التايلاندية لحماية نفسه من الآخرين ومن نفسه أيضًا، فنوبات غضبه كانت تصبح خطيرة حين تخرج عن سيطرته. ومنذ ذلك الحين، صار مصيره حبلًا مشدودًا يسير عليه في توازن. كان مستنقع الانحراف والإدمان يبتلعُ

كل شيء حوله. وفي السابعة عشرة من عمره، أصبح مرَّةً أخرى وحيدًا لا يحيط به سوى الصمت عند عبوره بهو الملجإ الجمعياتيّ أو عند تناول قهوته في مشرب المعهد. ولم يَعُد أحدٌ يجرؤ على مضايقته بالقرب من آلات الكرة والدّبابيس. في تلك الفترة، انتُخِبَ للمشاركة في البطولة الجهوية للملاكمة التايلاندية. كان الجميع يعلمون أن كريم عبدوف قادر على كسر أنفٍ بركلةٍ واحدةٍ دون أن يرفع يديه عن طاولة الحانة. وقد تناقل السكان أيضًا قصصًا أخرى: سرقات، صفقات، معارك مذهلة...

كانت معظم هذه الشائعات محضَ افتراءٍ طبعًا، لكنها ضمنت له راحةَ بالٍ نسبيّة. تحصل الشّاب على شهادة البكالوريا بملاحظة «حسن». وحين تلقَّى تهنئة المدير، فهم مدهوشًا أنّ الرّجل المستبد كان يخافه هو أيضًا. التحق بكلية الحقوق، في «نانتير» بطبيعة الحال. في ذلك الوقت، كان يسرق سيارتيْن شهريًّا، ولديه فروع عديدة يستبدلها باستمرار. ربما كان كريم الشّاب المغاربي الوحيد الذي لم يُسجن في الحي بأكمله، بل لم يقع حتى استجوابه أو مضايقته من رجال الشرطة. ولم يتناول يومًا جرعةً من المخدرات مهما كان نوعها.

في سن الحادية والعشرين تحصَّلَ كريم على إجازة في الحقوق.

ما العمل الآن؟ لن يمنح أي محامٍ فرصةَ تدريب لشابٍّ عربيٍّ في مثل مظهره. جسم نحيل كمسطرة يتجاوز طولها مترًا وثمانين سنتيمترًا، ناهيك عن اللحية وضفائر الشعر وأقراط الأذن. كان كريم، بطريقة أو بأخرى على موعد حتمي مع البطالة. هل يعود إلى مربع الانطلاق؟ كلّا وألفُ كلّا. سيكون الموت أفضل. هل يستمر في سرقة السيارات؟ كان يحب ساعات الليل الأخيرة أكثر من أي وقتٍ آخر، وصمتَ مواقف السيارات، وشحنةَ الأدرينالين في عروقه عند تدمير نظام الحماية في سيّارة ألمانيّة الصّنع. كان يعلم أنه لن يتخلّى عن حياته الخفيّة الحادَّة المحفوفة بالمخاطر والإثارة. وكان يعلم أيضًا أن حظه سيخونه يومًا.

ثم، دون سابق إنذار، التمعت فكرة في رأسه كوحي إلهيّ: سيصبح شرطيًّا! سيسمح له هذا العمل بمواصلة العيش في العالم الخفي نفسه ولكن تحت حماية القانون الذي يحتقره، ببلدٍ يبصق عليه في اليوم ألف مرَّة. تعلَّمَ كريم الدرس منذ نعومة أظفاره: لا أصْلَ له ولا وطن ولا عائلة! القوانين الوحيدة التي تهمُّه هي ما سنَّه بنفسه، والدولة الوحيدة المعترف بها عنده هي فضاؤه المعيشي الخاص.

عند عودته من الجيش، التحق بالمدرسة العليا لمفتشي الشرطة في «كـان-إيكلوز»

طالبًا داخليًا. فغادر للمرّة الأولى معقله في «نانتير». وحقَّقَ نتائج استثنائية منذ اليوم الأول، فهو يتمتَّع بدرجة ذكاء أعلى من المتوسط، وهو عليمٌ بسلوك المنحرفين وقوانين العصابات في المنطقة. أصبح قنَّاصًا فذًّا وأتقن الفنون القتاليّة حتى صار محترفًا حقيقيًّا في فنّ «البوجوتسو»، وهو نوع من القتال المباشر الذي يجمع بين أخطر تقنيات الدفاع عن النفس والرياضات القتالية بجميع أنواعها.

في صفوف الشرطيّين المبتدئين كان الجميع يكرهونه بطريقة غريزية. فهو عربي، مغرور، ويُحسن القتال والتعبير أكثر من زملائه الذين التحق جُلّهم بصفوف الشرطة هربًا من البطالة.

بعد سنة، أنهى كريم تكوينه بتربّصٍ في مراكز الشرطة الباريسية. وجد الإسفلت نفسه والبؤس نفسه والقسوة نفسها، هذه المرة في باريس. استقرَّ المتربّص الشاب في غرفة صغيرة بحي «آباس». وأدرك أنه وصل أخيرًا إلى بر النجاة.

رغم ذلك، لم يقطع علاقتَه بمسقط رأسه. كان يزور «نانتير» بانتظامٍ ويستقي أخبارها. وقد أخذت الأزمة تتفاقم والهوة تزداد عُمقًا. عُثِر على فيكتور فوق سطح مبنى من ثمانية عشر طابقًا، ملتفًّا على نفسه في وضعية الجنين مع حقنةٍ مغروسةٍ في خصيته. جرعة مفرطة! أمَّا حسن، ضارب الطبول القبائلي الأشقر الضَّخم، فقد فجَّرَ رأسه برصاصة بندقية. سُجِن «الأخوان» اللِّصّان في «فلوري-ميروجيس». وسقط مارسيل نهائيًّا في فخ الهيروين.

شاهد كريم أصدقاءه ينجرفون واحدًا تلو آخر نحو قاع الهاوية، ورأى الموجة الأخيرة تُهدِّد بنسف كلِّ شيءٍ عن طريق متلازمة نقص المناعة المكتسب أو السّيدا. صارت المستشفيات التي كانت مسكن العمال المتهالكين وكبار السنِّ مليئةً بشباب الأحياء المحكومين بالموت، بلثّاتهم السوداء وجلودهم المرقطة وأعضائهم المتآكلة. هكذا اختفى معظم أصدقائه. ورأى الشر أيضًا يزداد قوةً وانتشارًا ثم يتَّحد مع التهاب الكبد الفيروسيّ C لتدمير ما تبقّى من أبناء جيله. تراجع كريم والخوف يعتصر أحشاءه.

كانت مدينته تحتضر، بل تلفظ أنفاسها الأخيرة!

في جوان 1992 تخرَّجَ مع تهنئة لجنة التحكيم -مجموعة من المهرجين بخواتم ضخمة لا تستحق سوى الشفقة- ووجب الاحتفال. اقتنى قنينة شمبانيا وذهب إلى «فونتنال»، مسقط رأس مارسيل. ما زالت تفاصيل ذلك المساء محفورةً في ذهنه. قرع جرس الباب ولم يُجِبه أحد. استجوب الأطفال في الأسفل. جابَ أروِقة المباني وملاعب كرة القدم ومصبّ الأوراق القديمة... لا أحد. ركض من مكان إلى آخر حتى حلول الظلام

دون جدوى. في الساعة العاشرة ليلًا، ذهب كريم إلى مستشفى دار «نانتير»، قسم الأمصال، لأنّ مارسيل يحمل فيروس نقص المناعة البشرية منذ سنتين. سارَ كريم وسط عواصف المحاليل، وواجه وجوهًا مريضة، وسأل الأطباء. شاهد الموت يعمل في صمت، وتأمَّلَ تطوُّر العدوى الوحشيّ.

ولم يعثر على مارسيل.

بعد خمسة أيَّام، عُثِر على جثة صديقه في قبو، بيدَيْنِ محروقتَيْن ووجهٍ مُمزَّقٍ وأظافر مثقوبة. لقد تعرَّضَ مارسيل للتعذيب حتى الموت قبل أن يُقتَل برصاصة في الحلق. لم يتفاجأ كريم بهذا الخبر.

كان صديقه يتعاطى كمياتٍ كبيرة من المخدرات ويسرق الجرعات التي يجب بيعها. أصبحت تجارته بمثابة سباق ضد الموت. يوم تلقى كريم الخبر وصلته بطاقته المهنيّة، بطاقة مُفتِّش الشرطة ذات الألوان الثلاثة اللامعة. فرأى في هذه المصادفة علامة من السماء. وابتسم وهو يفكر في قتلة مارسيل. هؤلاء الأوغاد لن يتوقَّعوا أن يكون للضحية صديق شرطيّ. ولن يتوقَّعوا أن هذا الشرطيّ سيقتلهم دون تردّد، باسم ماضٍ قديمٍ وقناعةٍ حاضرة بأنَّ الحياة مهما كانت لعينة فهي لا يمكن أن تنتهي بهذه الطريقة الفجّة.

بدأ كريم رحلة البحث.

في أيام قليلة عرف أسماء القتلة. لقد شوهدوا مع مارسيل قبل وقت قصير من ساعة موته المحتملة. تييري كالدر، إريك ماسورو، وأنطونيو دوناتو. أصيب الشرطيُّ الشاب بخيبة أمل. ثلاثة مدمنين بأذرعٍ صغيرةٍ أرادوا حتمًا معرفة المكان الذي خبَّأ فيه مارسيل مخدّراته. جمَّع كريم معلومات أكثر دقَّةً. لم يكن كالدر ولا ماسورو قادرَيْنِ على تعذيب مارسيل، فهما ليسا قاسيَيْن بما فيه الكفاية. دوناتو هو الجاني. عنف ضِدَّ الأطفال، متاجرة القُصَّر، ومدمن حتى النخاع.

قرَّرَ كريم أن التضحية به كافية لتحقيق انتقامه.

عليه العمل بسرعة. فرجال شرطة «نانتير» الذين مدّوه بهذه المعلومات كانوا يبحثون أيضًا عن الأوغاد. اندفع بكل كيانه في شوارع «نانتير». كان يعرف أحياءها، ويتحدّث لغة شبابها. لذلك حدَّدَ موقع المدمنين الثلاثة في يوم واحد. كانوا يقيمون في مبنًى متهالكٍ بالقرب من جسر الطريق السريعة لجامعة «نانتير». مكان آيلٌ للسقوط يهتزُّ تحت ضجيج السيارات التي تمرُّ على بُعد أمتارٍ قليلةٍ من النوافذ.

توجَّهَ ظهرًا إلى المكان متجاهلًا ضجيج الطريق السريعة وشمس جوان الحارقة. حدَّقَ

أطفالٌ يلعبون وسط الغبار بدهشة في الرَّجل الطويل ذي الضفائر وهو يدخل المبنى الرّثّ.

عبر كريم البهو وتجاوز صناديق البريد المُهشَّمة، ثم صعد السُّلَّم بسرعة، وانتبه وسط هدير السيارات إلى إيقاعات موسيقى الراب. ابتسم وقد تعرَّفَ على ألبوم A Tribe Called Quest، ألبوم لم يتوقَّف عن الاستماع إليه منذ أشهر. ركل الباب وقال ببساطة «الشّرطة». تدفَّقَ الأدرينالين في عروقه. كانت أوَّلَ مرّةٍ يلعب فيها دور الشرطي الشجاع.

تجمَّدَ الرّجال الثلاثة مذهولين وسط الشقة المليئة بالركام، وجال كريم ببصره في أرجاء الغرفة. كل الحواجز اقتُلِعت من أماكنها، والأنابيب منتصبة في كلّ مكان، توسَّطَ جهاز تلفاز حديث من نوع سوني حشّيّة ممزّقة. إنّه مسروق، على الأرجح ليلة البارحة. عرضت الشاشة فلمًا إباحِيًّا بأجساد شاحبة. وصدعَ مكبِّر الصوت في الطرف المقابل ناثرًا غبار الجص.

شعَرَ كريم بجسمه يكبر ويطفو في الغرفة. رأى من زاوية عينه مذاييع سيَّاراتٍ مُلقاةً في إحدى الزوايا. رأى أكياسًا ممزَّقة من المسحوق الأبيض على صندوقٍ مقلوبٍ من الورق المقوّى. رأى بندقيّة بين صناديق الرصاص. تعرَّفَ فورًا على دوناتو من خلال صورة له حملها في جيبه. وجهٌ نحيل شاحبٌ مُخطَّطٌ بالندوب وعينان فاتحتان. ثم رأى الآخرَيْن يترنَّحان مُحاوِلَيْنِ الاستيقاظ من أحلامهما الكيميائيّة. كل هذا وهو لم يُخرِج سلاحه من جِرابه بعد.

- كالدر، ماسورو، ابتعدا!

جفل الرّجلان عندما سمعا اسميْهما. تردَّدا، ونظر كلٌّ منهما إلى الآخر بعينَيْن جاحظتَيْن، ثمّ توجَّهَا نحو الباب. بقي دوناتو قبالته وهو يرتجف كجناح ذبابة. فجأةً انطلق بكل جسمه نحو البندقية مُحاوِلًا التقاطها. سحق كريم يده قبل أن تُطبِق على مؤخّرة البندقية وركله في وجهه -كان يرتدي حذاءً بنعلٍ حديديّ- طقطق مفصل الذِّراع وأطلق دوناتو صرخةً مكتومةً. فأمسك الشرطي به، ودفعه وسط حشّيّةٍ قديمةٍ على الإيقاع المستمرّ لأغنية A Tribe Called Quest.

أخرج كريم مسدّسه ولفَّ يده الحاملة للسلاح في كيسٍ بلاستيكيٍّ شفَّافٍ من مُكوِّنٍ خاصٍّ غير قابل للاشتعال كان قد أعدَّه للغرض. نظر إليه الرَّجل.

- ما هذا... ماذا تفعل بحق الجحيم؟

وضع كريم رصاصةً في الخزان، وابتسم.

- أغلفة الرّصاص يا رجل. ألم يسبق لك أن رأيت هذا في فلم تلفزيّ؟ لا يجب ترك الأغلفة مُلقاةً خلفك وإلا فسيسهل إيجادك لأن...

- ولكن ماذا تريد مني؟ هل أنت شرطيّ؟ هل أنت حقًّا شرطيّ؟ كان كريم يتبع وتيرة الأغنية برأسه. وأجاب أخيرًا:

- لقد جئت من طرف مارسيل.

- من؟

رأى الشرطي عدم الفهم في عينَيْ دوناتو. وأدرك أن الوغد نسِيَ تمامًا ضحيّته التي عذَّبها حتى الموت. أدرك أن مارسيل غير موجود في ذاكرة المدمن، بل لم يكن يومًا موجودًا.

- قدِّم له اعتذارك.

- ما... ماذا؟

انعكس ضوء الشمس على وجه دوناتو المُتصبِّب عرقًا وصوَّبَ كريم نحوه سلاحه المغلف بالبلاستيك.

- اعتذر لمارسيل! زمجرَ في غضب.

عرف الرجل أنه سيموت وصرخ:

- معذرةً! المعذرة مارسيل! اللَّعنة! أستميحك عذرًا، مارسيل! أنا...

أطلق كريم النار: رصاصتان في الوجه.

استعاد الرّصاصتَيْن من ألياف الحشيّة المتفحِّمة، ووضع أغلفةَ الرصاص المحترقة في جيبه، ثمّ غادر دون النظر إلى الوراء.

شعر أن الرَّجليْن الآخرَيْن سيعودان مع التعزيزات. فانتظر بضعَ دقائق في البهو، ثم رأى كالدر وماسورو رفقةَ ثلاثة موتى-أحياء آخرين يدخلون عبر الأبواب المتهالكة. قبل أن يتمكّنوا من الرّد، وقف كريم أمامهم ودفعَ كالدر نحو صناديق البريد وهو يلوِّح بسلاحه صارِخًا:

- إن تكلَّمت ستموت. إن بحثت عنّي، ستموت. إن قتلتني سيُحكم عليك بالسجن المُؤبَّد. أنا شرطيّ، أيها الوغد اللعين! شرطيّ، هل تفهم؟

ألقى الرّجل على الأرض وخرج في الشمس ساحقًا شظايا الزجاج تحت نعليْه.

هكذا ودَّعَ كريم «نانتير»، المدينة التي علَّمتْهُ كل شيء.

بعد أسابيع قليلة، اتَّصل كريم هاتفيًّا بمركز شرطة «نانتير» فأعلموه بما كان يعرفه مُسبقًا. قُتِل دوناتو برصاصتين من عيار ٩ مم، دون العثور على الرصاص ولا على الأغلفة. أما شريكاه فقد اختفيا دون أدنى أثر. الملف إذن مغلق بالنسبة إلى الشرطة، وبالنسبة إلى كريم.

كان العربيُّ قد طلب الاندماج في فرقة البحث والتدخُّل المُتخصِّصة في التعقُّب والجرائم المتلبّس بها وعمليات الإيقاف الخطيرة. لكن نتائجه المُتميِّزة أضرّت به، فبدلًا من قبول طلبه، عُرض عليه العمل في الفرقة السادسة -لواء مكافحة الإرهاب- من أجل التجسُّس على الأصوليّين الإسلاميّين في الضواحي الساخنة. كان الشرطيون العرب عملةً نادرةً في فرنسا، لذا وجب استغلاله. فرفض رفضًا قطعيًّا. لن يلعب دور المُخبِر، حتى ضد قتلةٍ متعصّبين. أراد كريم أن يتجوَّل في مملكة الليل ويتعقَّب القَتَلةَ ويواجههم على أرضهم ويجول هذا العالم الموازي الذي ينتمي هو نفسه إليه. قوبِل رفضه بكثير من الامتعاض. وبعد بضعة أشهر، نُقل كريم عبدوف، خرّيج أكاديمية شرطة «كان -إكلوز»، الأوّل على دفعته، القاتل المجهول لمدمن مهووس، إلى «سارزاك» في منطقة «لو».

«لو» منطقةٌ لم تَعُد تتوقَّف فيها القطارات، منطقةٌ تعترضك فيها قرًى شبحية بكل مُنعطف مثل أزهارٍ تنبت في حجر. بلد المغارات. حتى السياحة فيها ترتكز على الكهوف: الأودية، الفجوات، اللّوحات الكهفيّة... كانت هذه المنطقة إهانةً لهويّة كريم. كان مغاربيّ المدينة، طفل الحيّ، رجل الشّوارع. لا شيء أغرب لديه من هذه القرية الرِّيفيّة اللعينة.

منذ نقلته، بدأ حياةً يوميَّةً مُزرية. كان يواجه مللًا مُميتًا وأيَّامًا رتيبةً تتخلَّلها مهامٌّ مُضحكةٌ على غرار رصد حادث سير، وإيقاف نشّال في مركز تجاري، ومحاصرة راكب لم يدفع ثمن تذكرته في موقع سياحي....

ثم بدأ الشرطيُّ يعيش وسط أحلامه. اقتنى كل السير الذاتية لرجال الشرطة العظماء. كان يذهب كلّما استطاع إلى مكتبات «فيجاك» أو «كاهور» لجمع مقالات صحفية تدور حول التحقيقات الكبرى، وصفحات الجرائم، وكل ما يُذكِّره بمهنته الحقيقية. اقتنى أيضًا كتبًا قديمةً مشهورة، مذكرات مهرّبين ورجال عصابات. اشترك في مجلات الشرطة والمجلّات المُتخصِّصة في الأسلحة، في القذائف، في التقنيات الحديثة. عالمٌ كاملٌ من الورق ابتلعه تدريجيًّا.

كان يعيش بمفرده، ينام بمفرده، ويعمل بمفرده. في مركز الشرطة، وهو بلا شكٍّ واحد من أصغر مراكز الشرطة في فرنسا. كان الموظفون يخشونه ويكرهونه في الوقت نفسه. وقد أطلق عليه زملاؤه اسم «كليوباترا» بسبب ضفائره. كان مُتَّهمًا بالتَّعصُّب الدِّينيّ لأنه لا يشرب الخمر، وأُسنِدت إليه أيضًا ممارساتٌ غريبةٌ لأنه يرفض التوقُّف الإجباريّ في منزل سيلفي -وهو وكر بغاء- أثناء الدّوريّات اللَّيليّة.

كان كريم يعدُّ الأيَّام والسَّاعات والثَّواني مُطوَّقًا بوحدته، ويقضي أحيانًا عطلة نهاية الأسبوع بأكملها دون أن ينبس ببنت شفة. كان يعيش حصة الصمت المُطوَّل هذه بالكامل تقريبًا في شقته الصغيرة، باستثناء تمارينه في الغابة حيث يُكرِّر بلا كلل ولا ملل الحركات القاتلة للبوجوتسو قبل إفراغ بعض خزانات الرّصاص في أشجار معمّرة.

رنَّ جرس الباب. نظر كريم إلى ساعته. الثامنة إلّا ربع صباحًا. ذهب ليفتح فوجد سيلييه أحد حرّاس الشرطة ينظر إليه بتعبير قاتم يجمع بين الخوف والرّغبة في النوم. لم يعرض عليه كوبًا من الشاي، ولا حتى الجلوس. بل سأله مباشرةً:

- ماذا هناك؟

فتح الرّجل فمه لكنّه لم يقل شيئًا. التصق العرق بشعره تحت القبعة. وأخيرًا قال مُتلعثِمًا:

- إنها... المدرسة، المدرسة الصغيرة.

- ماذا؟

- مدرسة جان جوريس. لقد تعرَّضَت للسطو... البارحة.

ابتسم كريم للمرّة الأولى منذ أيام. ها هو الأسبوع يبدأ بقوّة. بضعة جانحين من المدينة المُجاوِرة انتهكوا مدرسة ابتدائية، هدفهم الوحيد حتمًا هو إزعاج الناس. سأل كريم وهو يرتدي ملابسه:

- الكثير من الخسائر؟

تجهَّمَ الشرطيُّ بزيه الرَّسمي وهو ينظر إلى الملابس التي يرتديها كريم: قميص، سروال جينز، سترة ركض بقلنسوة، ثمّ سترة جلدية بُنِّيّة اللَّوْن على طراز الخمسينيات. همس الحارس:

- أنت لا تفهم يا سيّدي، إنهم مُحترفون...

ارتدى كريم حذاءه الطويل.

- محترفون؟ ماذا تعني بهذا؟

- مَن فعل هذا ليس مجموعةً من الشباب الأخرق. فقد دخل المجرمون المدرسة ببطاقات عبور واتَّخذوا الكثير من الاحتياطات. المديرة وحدها لاحظت بعض التفاصيل الغريبة، وإلَّا...

نهض كريم.

- ماذا سرقوا؟

تنهَّدَ سيلييه ومرَّرَ سبابته تحت طوق عنقه:

- هذا هو الجزء الأغرب في القصة. لم يسرقوا شيئًا.

- حقًّا؟

- حقًّا، دخلوا قاعةً ثم بففففففت... يبدو أنهم غادروا هكذا...

تأمَّلَ كريم انعكاسَه على زجاج النافذة برهةً وجيزة. سقطت ضفائره على فوديه، وشحذت لحيته الصغيرة وجهه الضيق الدّاكن. عدَّل قبّعته المنسوجة بألوان جامايكا فوق رأسه وابتسم لصورته. إنّه شيطان، شيطان بزغ من البحر الكاريبيّ. ثم التفت إلى سيلييه.

- ولماذا أتيت لإعلامي، أنا بالذّات؟

- لم يَعُد كروزييه إلى المنزل من عطلة نهاية الأسبوع بعد. لذلك أنا و دوسارد... اعتقدنا أنّ... حسنًا، أنك... عليك أن ترى هذا، كريم، أنا...

- حسنًا، حسنًا، لنذهب.

8

أشرقت الشَّمس فوق «سارزاك»، شمس أكتوبر الدّافئة والباهتة مثل فترة نقاهةٍ سيِّئة.

تبع كريم عربةَ الدّوريّة في سيارته الفرنسيّة القديمة عبر المدينة الميِّتة. ما تزال المدينة تحمل حتى هذه الساعة ومضات الوهج المستنقعيّ.

لم تكن «سارزاك» قريةً قديمةً ولا مدينةً حديثة. كانت تمتدُّ على سهلٍ طويلٍ عارضةً مبانيها وعماراتها بين عصريْن دون رموز أو دلالات معيّنة. وحده وسطُ المدينة يُظهر خصوصيّةً طفيفة، قطار صغير يعبره من جانبٍ إلى آخر على طول شوارع من الحجارة القديمة. كلّما مرَّ كريم من هناك فكَّرَ في سويسرا أو إيطاليا دون سبب حقيقي، فهو لم يَزُر أيًّا من البلدين.

تقع مدرسة جان جوريس شرقًا في منطقة المجمّعات السَّكنية الفقيرة، قُرب المنطقة الصِّناعية. مرَّ كريم وسط مجموعة من المباني الزرقاء والبُنّية القبيحة التي ذكَّرته بأحياء طفولته. توجد المدرسة عند نهاية منحدر إسمنتيّ يطلّ على طريق متصدِّع.

وجدوا امرأةً بانتظارهم أمام مدخل المدرسة. كانت غارقةً في سترة صوفيّة داكنة. إنّها المديرة.

قدم كريم نفسَه واستقبلته بابتسامةٍ فاجأه صدقها. فظهوره يُسبِّب عادةً موجةً من الحذر أو الإحراج. شكرها في قرارة نفسه على عفويَّتها وتأمَّلها بضعَ ثوانٍ. كان وجهها مُسطَّحًا مثلَ بركة وُضعت فوقها عينان خضراوان كبيرتان كزنبقتيْ مياه.

طلبت منه المديرة أن يتبعها. بدا المبنى شبه الحديث غير مُكتمل، أو لعله في مرحلة ترميم غير محدّدة. كانت الممرات ذات الأسقف المنخفضة مكوَّنة من ألواح الخفّاف ومُغطَّاةً برسوم طفولية مُثبَّتة أو مرسومةٍ مباشرةً على اللوح. كل شيء كان صغيرًا وغير متناسق وكأنَّه داخل علبة أحذية سحقها أحدهم بقدمه.

توقَّفت المديرة أمـــــام بابٍ نصف مفتوح، وهمست بصوتٍ غامضٍ: «إنها الغرفة

الوحيدة التي ولجوا إليها».

دفعت الباب بحذر. ودخلوا مكتبًا يشبه غرفة انتظار. خزانات تضمُّ العديد من السِّجلات والكتب المدرسية، ثلاجة صغيرة تعلوها آلة صنع القهوة، مكتب من خشب البلوط المقلّد يختفي تحت عددٍ كبيرٍ من النباتات الخضراء العائمة في أوانٍ مملوءةٍ بالماء. غمرت رائحة التراب الرَّطب كل الغرفة.

قالت المرأة مشيرةً إلى إحدى الخزانات:

- كما ترى، فتحوا هذه الخزانة، وهي تحتوي سجلات المدرسة. أظنّهم لم يسرقوا شيئًا، بل لم يلمسوا شيئًا آخر.

جثا كريم على ركبتيه وتأمَّل قفل الخزانة. عشر سنوات من الاقتحامات وسرقة السيارات منحته خبرةً كبيرةً في المجال. لا بُدَّ أنّ الدخيل الذي تلاعب بهذا القفل يملك معرفةً حقيقيَّةً. اندهش كريم. لِمَ قد يسطو لصٌّ محترفٌ على مدرسةٍ ابتدائيّة في «سارزاك»؟ أمسك بأحد السِّجلات وورّقَه لحظات. قوائم الأسماء ملاحظات المدرّسين، رسائل إدارية... كل مُجلَّدٍ يوافق سنةً مُعيَّنة، ثمّ نهض الملازم.

- لم يسمع أحدٌ شيئًا؟

أجابت المديرة:

- كما تعلم، المدرسة لا تخضع لحراسةٍ حقيقيَّة. توجد حراسة ولكن بصراحة...

كان كريم لا يزال ينظر إلى الخزانة الزجاجية التي فُتِحَت عنوةً لكن برفق.

- هل تظنين أن الاقتحام وقع ليلة السّبت أم الأحد؟

- في أيّ ليلة، أو حتى أثناء النّهار. أُذَكِّرك، خلال عطلة نهاية الأسبوع تصير مدرستُنا الصغيرة طاحونةً حقيقيَّةً. لا يوجد شيء يُغري بالسرقة هنا.

- حسنًا. سيتعيَّن عليكِ القدوم إلى المركز لتسجيل المحضر.

- أنت عميل متخفٍّ، أليس كذلك؟

- معذرةً؟

نظرت إليه بانتباه. استأنفت:

- أعني.. ملابسك، مظهرك الخارجيّ، أنت تندمج في عصابات الأحياء و...

انفجر كريم ضاحكًا.

- لا توجد عصاباتٌ هنا.

تجاهلت المديرة الملاحظة وواصلت بثقة:

- أعلم جيِّدًا كيف تجري الأمور. شاهدتُ وثائقيًّا عن الموضوع. يرتدي رجالٌ مثلك ستراتٍ مُبطَّنة تحمل داخلها شعار الشُّرطة الوطنيّة و...

- سيّدتي... قاطعها كريم. حقًّا، أنتِ تبالغين في تقدير أهمِّيّة بلدتك الصّغيرة.

استدار نحو الباب. لحقت به المديرة:

- ألن تجمع القرائن؟ البصمات؟

أجاب كريم:

- أعتقد أننا سنكتفي بأخذ شهادتك والقيام بجولة صغيرة في المنطقة.

بدت عليها خيبة الأمل. نظرت إليه مرَّةً أخرى باهتمام.

- أنتَ لستَ أصيل المنطقة، أليس كذلك؟

- لا.

- ماذا فعلتَ ليُلقوا بكَ هنا؟

- إنها قصَّة طويلة. قد أعود يومًا ما لأرويها على مسمعك.

في الخارج، انضمَّ كريم إلى رجال الشرطة الذين يرتدون الزي الرسمي ويدخّنون داخل قبضاتهم خلسةً كأنَّهم تلاميذ مطارَدون. نزل سيلييه من العربة.

- حضرة الملازم، تبًّا! هناك جديد.

- ماذا؟

- عمليّة سطوٍ أخرى. طوال سنوات عملي هنا، لم يسبق...

- أين؟

تردَّدَ سيلييه ناظرًا إلى زملائه. ونفخ تحت شاربه الغليظ.

- في... في المقبرة. دنّس أحدهم قبرًا.

انتشرت القبور والصُّلبان على منحدر طفيفٍ في درجاتٍ لونيّةٍ متفاوتة من الرّماديّ والأخضر، مثل حزازاتٍ لامعة تحت الشمس. خلف البوّابة استنشق العربي رائحة الندى والزهور الذابلة.

- انتظروني هنا، همس لرجال الشرطة.

ارتدى كريم قفّازَيْن مطّاطيَّيْن وردَّدَ في قرارة نفسه أنّ «سارزاك» ستتذكّر يوم الاثنين هذا فترةً طويلة.

توقَّفَ هذه المرَّة في شقته لجلب معداته «العلميّة»: مسحوق الألمنيوم والجرانيت والشرائط اللاصقة والنينهيدرين للكشف عن البصمات الكامنة، بالإضافة إلى اللّدائن المرِنة لتشكيل أي آثار أقدام مُحتملة... لقد قرَّرَ أن يرفع كل القرائن بعناية فائقة.

تبع الممرات المرصوفة بالحصى حتى التابوت المعنيّ. ولبرهة، خشي أن يجد تدنيسًا حقيقيًّا، على غرار ما حدث في السنوات الأخيرة من تشويه للجماجم والجثث. ولكن لا، كلّ شيء هنا مُرتَّبٌ تمامًا. من الواضح أنّ المنتهكين لم يلمسوا شيئًا باستثناء التابوت. وصل كريم حذوَ صرحٍ من الرُّخام، وهو نصبٌ تذكاريّ على شكل كنيسة صغيرة.

كان الباب مواربًا. جثَا على ركبتَيْه ونظر إلى القفل تمامًا كما فعل منذ قليلٍ في المدرسة. وتمامًا كما لاحظ في المدرسة، فتح اللُّصوص القفلَ بعنايةٍ لافتة. تلمَّسَ الجدار مقتنعًا أنهم هم أيضًا محترفون. هل هم الأشخاص أنفسهم الذين تسلَّلوا إلى المدرسة؟

فتح الباب على مصراعَيْه وحاول تخيُّل المشهد. لماذا اتَّخذ اللصوص كل هذه الاحتياطات لفتح التَّابوت ثم غادروا دون إغلاقه؟ حرَّكَ الملازم اللوح الحجري مرَّاتٍ عديدة وفهم أن الحصى انزلق تحت الحافة وتسبب في تحريك الإطار فصارَ من المستحيل إغلاق التَّابوت. كانت هذه القطع المعدنيّة الصغيرة هي ما وشى بمرور المخرّبين.

تفحَّصَ الشرطيُّ بعد ذلك نظام المسامير الحجريّة التي يتكوَّن منها القفل. تركيبةٌ خاصَّة مألوفةٌ حتمًا في هذا النوع من المباني، لكن المختصين وحدهم يعرفونها. سَرَت رجفةٌ في جسد الشرطيّ «مختصون؟» تساءل مرَّةً أخرى عما إذا كان الفاعل هو الفريق نفسه الذي اقتحم المدرسة الابتدائية. ما الذي يمكن أن يجمع بين مدرسة ومقبرة؟

وفَّرَ شاهد القبر بداية إجابة. وجاء فيه «جود إيتيرو 23 ماي 1972 - 14 أوت 1982». ربّما زاول هذا الصَّغيرُ تعليمه في مدرسة جان جوريس. نظر مرَّةً أخرى إلى شاهد القبر: لا يوجد رثاءٌ ولا دعاء. إطار دائريّ صغير من الفضة القديمة مُثبَّت على الرُّخام، فحسب. لكنَّه لا يحوي أي صورة بالداخل.

- إنّه اسم فتاة، أليس كذلك؟

استدار كريم، فوجد سيلييه واقفًا بحذائه الغليظ ونظراته الخائفة. أجاب الملازم:

- لا، إنّه اسم ذكر.

- إذن فهو اسم انجليزيّ؟

- لا، بل يهوديّ[1].

مسح سيلييه جبينه.

- اللعنة، هل هو تدنيس مثل الذي حدث في «كاربينترا»؟ من فِعْل اليمين المتطرّف؟

وقف كريم وفرك يدَيْه.

- لا، لا أظن ذلك. اذهب وانتظرني عند البوابة مع الآخرين رجاءً.

غادر سيلييه مُتذمِّرًا رافعًا قبّعتَه. شاهده كريم وهو يبتعد، ثم نظر من جديد إلى الباب نصف المفتوح.

قرَّرَ المغامرة قليلًا تحت الأرض. تقدَّمَ مُنحنِيًا وهو يُشغِّل مصباحه الآليّ. ونزل الدرجات والغبار يصرّ تحت نعليْه. شعر وكأنَّه ينتهك أحد المقدّسات المتوارثة منذ بداية الإنسان. وهنَّأ نفسه على غياب القناعات الدينية لديه. فلو كان مؤمنًا لصعب عليه الأمر أكثر. اخترق شعاع الهالوجين الظلام، تقدَّمَ كريم قليلًا، ثمّ توقَّفَ فجأةً عند رؤية التابوت الصغير. كان مصنوعًا من الخشب الباهت ومرتكزًا على حاملتيْن.

بحلقٍ جافٍّ تفحَّصَ كريم التابوت الذي لا يتجاوز طوله مترًا ونصفًا بأركانه المُطعَّمة بالفضَّة. يبدو كلّ شيء في حالة جيِّدة. تحسَّسَ المفاصل الخشبيّة وهو يُفكِّر أنه لم يكن ليجرؤ على لمس هذا القبر دون قفّازَيْه. غضب من نفسه لخوفه الأحمق هذا. لا يبدو أن أحدًا رفع الغطاء. وللتَّأكُّد ثبَّتَ مصباحه بين أسنانه ليبدأ فحصًا دقيقًا للبراغي. لكنَّ صوتًا علا فوق رأسه:

- ماذا تفعل هنا بحق الجحيم؟

---

[1] جود «Jude» هو اسم مشتق من الإسم العبري «يهوذا» الذي يعني «أشكر الله». (المترجمة).

اهتزَّ كريم متفاجئًا. وفتح فمه فسقط مصباحه وتدحرج على خشب التابوت. غلّفه الظلام وهو يستدير نحو مصدر الصوت. ولمح رجلًا ينحني عليه من خلال الفتحة، بكتفَيْن منخفضتَيْن وقبّعةٍ صغيرة. تلمَّس الشرطيُّ الأرضَ باحثًا عن مصباحه وزفر بحنق:

- الشُّرطة، أنا ملازم شرطة.

لم يقل الرجل شيئًا في الأعلى، ثم دمدم فجأةً:

- ليس لك الحق في أن تكون هنا.

أضاء الشرطيُّ الأرضيّة، وعاد إلى درجات السلم. ثم حدَّقَ في الرّجل البدين العابس المُحاط بهالة من الضوء. لا بُدَّ أنه حارس المقبرة. علم كريم أنه بصدد ارتكاب مخالفة. فحتّى في حالة كهذه، يجب الاستظهار بإذنٍ كتابيٍّ موَقَّعٍ من طرف العائلة أو بتفويضٍ خاصٍّ لدخول القبر. فصعد الدرج وقال:

- أفسِح الطّريق! سأصعد.

ابتعد الرجل. فامتصَّ كريم نور الشمس كإكسير الحياة. وأخرج بطاقته الثلاثيّة الألوان وقال:

- كريم عبدوف. شرطة «سارزاك». هل أنت من اكتشف آثار التدنيس؟

بقيَ الرجل صامتًا. كان ينظر إلى العربي الواقف أمامه بحدقتَيْن عديمتَيْ اللَّوْن كفقاعتَيْن من الهواء وسطَ بركة مياهٍ رماديّة.

- ليس لك الحقُّ في أن تكونَ هنا.

أوْمَأ كريم برأسه. فكنس هواء الصَّباح اضطرابه.

- لا بأس يا صديقي. لا تجادل. رجال الشرطة دومًا على حقّ.

زمَّ العجوز شفتَيْه تحت لحيته وقد فاحت منه رائحة الكحول والطين الرطب. وتابع كريم:

- حسنًا، أخبرني بكلِّ ما تعرفه. في أي ساعة اكتشفتَ الأمر؟

تنهَّدَ الرجل العجوز:

- جئتُ عند الساعة السادسة. لدينا جنازة هذا الصَّباح.

- وقبل ذلك، متى كانت آخر مرَّة مررتَ فيها؟

- يوم الجمعة.

- إذن، حدث الاقتحام في ساعة من ساعات عطلة نهاية الأسبوع؟

- نعم. إلَّا أنني أرجح ليلة البارحة.

- لماذا؟

- لأنها أمطرت بعد ظهر يوم الأحد، وليس هناك أي أثر للبلل أو الرطوبة في القبو... لا بُدَّ أن الباب فُتِح بعد انقطاع الأمطار إذن.

سأل كريم:

- هل تسكن قريبًا من هنا؟

- لا أحد يعيش بالقرب من هنا.

أجالَ العربي نظرةُ في المقبرة الصغيرة التي كانت تنضح بالهدوء والسكينة.

- ألم يسبق لبعض المتشرّدين المرور من هنا؟

- لا.

- أي زوّار مشبوهين؟ عمليّات تخريب؟ مراسم غامضة؟

- لا.

- حدّثني عن هذا القبر.

بصق الحارس في الحصى.

- ليس لديَّ ما أقوله.

- قبو كامل مُخصَّص لطفل واحد، أليس هذا أمرًا غريبًا؟

- نعم، هذا غريب.

- هل تعرف الوالدين؟

- لا. لم يسبق لي رؤيتهما.- ألم تكن تعمل هنا سنة 1982 ؟

- لا. والرَّجل الذي كان يعمل قبلي فارق الحياة. (ضحك) نحن أيضًا لسنا بمنأى عن الموت...

- يبدو التابوت بحالة جيِّدة، هناك مَن يعتني به إذن.

- لم أقل أن لا أحد كان يزوره. قلت إنّي لا أعرفهم. لديَّ خبرة في الموضوع. أعرف متى تتآكل الحجارة. وأعرف عمر الأزهار حتى عندما تكون بلاستيكيَّة. وأعلم كيف تنبت الحشائش والأعشاب الطفيليّة اللَّعينة. يمكنني القول إنّ هناك من يزوره بانتظام، لكني لم أقابل يومًا أحد هؤلاء الزوّار.

جثا كريم على ركبتَيْه مرَّةً أخرى مُتأمِّلًا الإطار الصغير الذي يشبه النّقش. خاطب الحارس دون أن ينظر إليه:

- حدسي يقول إنّ المخربين سرقوا صورة الطّفل المدفون هنا.

- هل تظن ذلك؟ ربما، نعم.

- هل تتذكَّر وجهه؟ وجه الطّفل؟

- لا.

نهض الشرطي وهو يخلع قفّازَيْه:

- ستأتي فرقة من الشرطة العلميّة والتقنية لأخذ البصمات وكل القرائن المحتملة. عليك إذن أن تُلغي مراسم هذا الصباح. جِدْ ذريعة مناسبة: أشغال ترميم، خلل في أنابيب المياه، رجّة أرضيّة، لا يهم. لا أريد أن تطأ قدم أيّ مدنيّ المقبرة اليوم، هل فهمت؟ ولا سيَّما الصحفيين.

أوْمَأَ العجوز برأسه، بينما كان كريم يسير نحو البوابة.

من بعيد، أعلن جرسٌ نابضٌ عن تمام السَّاعة التَّاسِعة صباحًا.

9

قبل الذهاب إلى مركز الشُّرطة لكتابة تقريره، مرَّ كريم من جديد بالمدرسة. كانت الشَّمسُ تُلقي بأشعّة نحاسيّة على أسقف المنازل. ومرَّةً أخرى، قال في نفسه إنّ الطقس سيكون رائعًا، وأثارت هذه الفكرة المبتذلة غثيانه.

عند وصوله إلى المدرسة، سأل المديرة:

- هل درَسَ تلميذٌ اسمه جود إتيرو هنا في الثمانينيّات؟

انحنت المرأة وهي تلاعب كُمَّيْها الفضفاضيْن:

- هل لديك تصوُّرٌ ما، سيِّدي المفتِّش؟

- أجيبيني من فضلك.

- حسنًا... علينا البحث في سجلات الأرشيف.

- هيَّا بنا، حالًا.

أخذت المديرة كريم مرَّةً أخرى إلى المكتب الصغير المليء بالنباتات الخضراء.

الثمانينيّات؟ سألت وهي تمرِّر إصبعها على السجلات المُخزَّنة خلف الزجاج.

أجاب كريم:

- 1982 ، 1981 وما إلى ذلك.

فجأةً شعر بتردُّدها.

- ماذا هناك؟

- أمر غريب، لم ألاحظه هذا الصَّباح...

- ماذا؟

- السِّجلات.... اختفت.

أزاح كريم المرأة جانبًا، وتفحَّصَ المجلدات البُنِّيَّة المصفَّفة عموديًّا. كان كلٌّ منها يوافق سنةً مُحدَّدةً. 1979، 1980... السَّنتان التاليتان كانتا بالفعل مفقودتيْن.

- ماذا تحوي هذه السجلات بالضبط؟ سأل كريم وهو يتصفّح أحدَها.

- قوائم التلاميذ، مكوّنات الأقسام، ملاحظات المعلّمين. إنها تقريبًا مذكرات المدرسة...

أخذ سجل 1980 وبحث في بيانات التلاميذ.

- إن كان الطفل يبلغ من العمر ثماني سنواتٍ عام 1980 ففي أي قسم يدرس؟

- عادةً في السنة الثالثة من التعليم الابتدائيّ. أحيانًا الرابعة.

قرأ كريم قوائم التلاميذ في القسميْن، لا وجود لتلميذ يحمل اسم جود إيتيرو. سأل:

- هل توجد أي وثائق أخرى في المدرسة تتعلَّق بأقسام السَّنتيْن 81 و 82؟

فكَّرت المديرة للحظات.

- حسنًا... يجب أن نبحث في الأعلى... سجلات المطعم المدرسي مثلًا، أو تقارير الزيارات الطِّبِّيّة. كلّ شيءٍ مُخزَّن في العلِّيّة، اتبعني. لا أحد يذهب إلى هناك.

صعدا السَّلالم المشمَّعة بسرعة. بدت المرأة في غاية الحماس للقضية برمَّتها. سارا في ممرّ ضيّق انتهى ببابٍ حديديّ وقفت أمامه المديرة مشدوهة.

قالت:

- هذا... أمرٌ لا يُصَدَّق! فُتِح هذا الباب عنوةً أيضًا...

نظر كريم إلى القفل، فوجدَه معالَجًا بعناية مثل الآخرَيْن. تقدَّمَ الشرطيُّ بضعَ خطواتٍ في الداخل. كانت غرفةً كبيرةً بلا نوافذ باستثناء فتحةٍ مُسيَّجة في السَّقف. حِزَمٌ من الأوراق والملفَّات مُكدَّسة على هياكل معدنِيَّة صدِئة. وقد ملأت رائحة الورق الجافّ والغبار المكان..

- أين هي ملفَّات 81 و 82؟ سأل.

توجَّهت المديرة، دون أن تجيبه نحو ركن الغرفة وأخذت تفرزُ الحزَم السميكة والملفّات. استغرقت العمليّة دقائق قليلة، لكنّ المرأة كانت مُتأكِّدة:

- لقد اختفت أيضًا.

شعر كريم بتنمُّلٍ يسري في أطرافه: المدرسة، المقبرة، سنتَا 81 / 82، اسم الولد الصَّغير: جود إيتيرو، كلّها عناصر من كيان مُبهم بدأ يتشكَّل في عقله. قال:

- هل كنتِ تعملين في هذه المدرسة سنة 1981؟

شهقت في استنكار:

- طبعًا لا أيها المفتش. لستُ عجوزًا. كنتُ طالبةً في ذلك الوقت...

- هل حدث أمرٌ غير معتادٍ في هذه المدرسة حينها؟ خبرٌ قد يكون تناهى إلى سمعك؟

- ماذا تعني بهذا؟

- وفاة تلميذ مثلًا.

- لا. لم أسمع بمثل هذا الخبر. لكنّي أستطيع التثبُّت.

- أين؟

- في الأكاديميّة المحليّة. أنا...

- هل يمكنك أيضًا معرفة ما إذا كان صبيٌّ يحمل اسم جود إتيرو قد درس هنا خلال ذينك العامين؟

خرج صوتُ المديرة مُختنِقًا.

- لكن... لا مشكلة أيها المفتش. سوف...

- إذن عجِّلي بذلك. سأعود بعد قليل.

نزل كريم بسرعةٍ إلى أسفل السُلَّم لكنه توقَّفَ في منتصف الطريق واستدار.

- لثقافتك البوليسيّة، حاليًا في الشرطة لم نَعُد نستعمل كلمة «مفتش»، بل ملازم، مثل الأمريكيّين.

ظلَّت المديرة مفغورة الفم حتى اختفى ظلّه.

كان كريم يكرهُ جميع زملائه في المركز، لكن الرئيس كروزييه أقلهم سوءًا في نظره. ليس لأنه رئيسه المباشر، بل لخبرته الميدانية العميقة ولحدسه البوليسيّ الحقيقيّ.

هنري كروزييه، ٥٤ عامًا، أصيل «لو»، جنديّ سابق، ينتمي إلى الشرطة الفرنسيّة منذ

عشرين عامًا. أنفٌ كبيرٌ وخصلات مفرّقة بمثبّت الشّعر كما لو كانت مسرّحةً بمشطٍ حديقة. كان ينزّ صرامةً وصلابة، لكن مزاجه يمكن أن ينبلج أيضًا عن مودّةٍ مفاجئة. كان كروزييه ذئبًا وحيدًا بلا زوجةٍ ولا أطفال. وجوده في وسط عائلي يَعُد ضربًا من الخيال العلمي. قرَّبته هذه العزلة من كريم، لكنها كانت النقطة المشتركة الوحيدة بينهما. فالرّئيس يمتلك جميع سمات الشرطيّ الصّريح العنيد، ذلك النوع من المُحقِّقين الذين تتقمّصهم روح كلب «الراعي الألماني».

طرق كريم البابَ، ودخل المكتب. أثاث من الخردة، رائحة التّبغ المعطّر. ملصقات تُمجِّد الشرطة الفرنسية، صور بجودة سيِّئة. شعر العربيُّ بغثيانٍ جديد.

- ماذا يحدث بحق السماء؟ سأل كروزييه من خلف مكتبه.

- عملية سطو وعمليّة تدنيس. فعلان منظّمان جدًّا، مرتّبان جدًّا... وغريبان جدًّا.

تجهَّمَ كروزييه:

- ما حصيلة المسروقات؟

- في المدرسة، بعض سجلّات الأرشيف. في المقبرة، لا أعرف بعد. يجب إجراء تفتيش دقيق داخل التابوت حيث...

- هل تعتقد أنَّ الجريمتَيْن مترابطتان؟

- كيف لا أعتقد ذلك؟ عمليَّتَا سطوٍ في نهاية الأسبوع نفسها بـ«سارزاك». إنها ضربة ستفجّر إحصائيّات المنطقة.

فرك كروزييه قاعَ غليونه الأسود ليُصبح صورة كاريكاتوريّة حقيقيَّة للمفتِّش في مسلسلٍ بوليسيٍّ من الخمسينيّات.

- لكن هل اكتشفتَ أيّ صلة مادية بين القضيّتين؟

همس كريم:

- ربّما لديَّ رابطٌ بينهما، رابطٌ ضعيف ولكن...

- كُلِّي آذانٌ صاغية.

- القبر الذي فتحوه يحتوي على رفات طفل يحمل اسما مُتفرِّدًا، جود إيتيرو. فارق الصغير الحياة عن عمرٍ يناهز العاشرة سنة 1982. ربما تتذكَّره؟

- لا. واصل.

- حسنًا، السجلات التي سرقها اللصوص تخصُّ سنتَيْ 81 و1982. أعتقد أن جود كان يقصد تلك المدرسة و...

- هل لديك أي دليل يدعم هذه الفرضية؟

- لا.

- هل تثبَّتَّ في المدارس الأخرى؟

- ليس بعد.

أشعل كروزييه غليونه على طريقة «باباي». فاقترب كريم منه، وقال بنبرته الأكثر هدوءًا:

- اسمح لي بتولِّي هذه القضية سيادةَ المحافظ. أشعر بشيءٍ مظلمٍ هنا، رابط بين هذه العناصر. يبدو الأمر غير معقول، لكنّي أظنّ أن من فعلوا محترفون بحقّ. كانوا يبحثون عن شيء ما. دعنا نعثر أوّلًا على والدَيْ الطفل، ثمّ سأجري تفتيشًا شاملًا في القبو. أنا... هل لديك اعتراض؟

كان المحافظ، وقد خفض عينيه، مُركِّزًا في ملء غليونه ببطء. غمغم:

- إنها فعلة حليقي الرّؤوس.

- ماذا؟

نظر كروزييه إلى كريم.

- أقول لك: تدنيس المقبرة من فعل حليقي الرّؤوس.

- أيّ حليقي رؤوس؟

انفجر المحافظ ضاحكًا وعقد ذراعَيْه.

- كما ترى، لا تزال تجهل الكثير عن منطقتنا الصغيرة. هم حوالي ثلاثين شابًّا يعيشون في مستودع مهجور بالقرب من «كايلوس» كان في السابق مخزن مياه معدنية على بُعد عشرين كيلومترًا من هنا.

نظر عبدوف إلى رئيسه وأشعة الشمس تنعكس على تسريحته الدهنية، وقال:

- أعتقد أنك مخطئ.

- أخبرني سيلييه أن القبر كان يهوديًّا.

- هذا غير صحيح إطلاقًا! أخبرته ببساطة أن جود أو يهوذا اسم من أصل يهودي. هذا لا يعني شيئًا. التابوت لا يحمل أيَّة رموز عبريّة، ثمّ إنّ اليهود يفضّلون الدفن قرب أفراد عائلتهم. حضرة المحافظ، مات هذا الطفل في سن العاشرة. في مثل هذه الحالات، يوجد دومًا رسم أو نقش يوضِّح هذا المصير المبتور على القبور اليهودية، مثل عمودٍ غير مُكتمل أو شجرة مقطوعة. الضريح المعني لا يمكن إلَّا أن يكون مسيحِيًّا.

- أنت مختصّ حقيقيّ. كيف عرفت كلّ هذا؟

- قرأته.

كرَّرَ كروزييه بإصرار:

- إنهم حليقو الرؤوس.

- هذا سخف! هذا ليس فعلًا عنصريًّا. إنه ليس حتى تخريبًا فعليًّا. كان اللصوص يبحثون عن شيء ما...

قال كروزييه بنبرةٍ ودودةٍ فيها شيءٌ من التوتر:

- كريم، أنا أُقدِّر أفكارك ونصائحك دومًا. لكنّي ما زلتُ المسؤول هنا. ثق بالذئب العجوز. يجب أن نتبع أثر النّازيّين الجدد. أعتقد أن زيارةً صغيرةً من طرفك كفيلة بإنارة طريقنا.

نهض كريم وابتلع ريقه بصعوبة.

- وحيدًا؟

- لا تقل لي إنك تخاف من بعض الشباب الذين يحلقون شعورهم.

لم يُجِب كريم. كان كروزييه يستمتع بهذا النوع من الاختبارات. فهو يعتبر ذلك مقلبًا وعلامة تقدير في الوقت نفسه. أمسك الملازم بحوافِّ المكتب. إذا أراد كروزييه اللعب، فسوف يلعب بكل أوراقه:

- سأعرض عليك صفقةً يا سيادة المحافظ.

- حقًّا؟ يا للعجب!

- سأستجوب الحليقين وحدي. سأعتصرهم قليلًا وأسلمك تقريرًا قبل الساعة الواحدة ظهرًا. في مقابل ذلك أريد منك إذنًا بدخول القبو وإجراء تفتيشٍ شامل. أريد أيضًا إجراءَ مقابلةٍ مع والدَيْ.. الطّفل. وأريد كلّ هذا اليوم.

- ماذا لو كانت فعلًا ضربةً من حليقي الرؤوس؟

- إنها ليست كذلك.

أشعل كروزييه غليونه وتعالى أزيز التّبغ.

زفر كروزييه:

- حسنًا، أنا موافق.

- بعد «كايلوس» سأتولّى القضية إذن؟

- فقط إذا سلّمتني تقريرك قبل الساعة الواحدة. على أيّة حال، ستسارع الدَّائرة الجهويَّة للشُّرطة القضائيَّة بالقدوم لإزعاجنا.

توجَّهَ الشرطي الشاب نحو الباب. أمسكت أصابعه بالمقبض عندما استوقفه المحافظ.

- سترى! أنا متأكد أن حليقي الرؤوس سيُعجبون بمظهرك.

أغلق كريم الباب على قهقهات المحارب العجوز.

10

على الشرطيِّ الجيِّد سبرُ أغوار العدو، كلّ وجوهه، كلّ جوانبه. كان كريم موسوعةً حيَّةً في مجال النّازيّين الجدد. خلال حقبة «نانتير»، واجههم مرَّاتٍ عديدةً في معارك حامية الوطيس. وقد خصَّصَ لهم تقريرًا مُفَصَّلًا خلال حقبة مدرسة المفتشين. وفي الطريق إلى «كايلوس» استعرض كل معلوماته عن الموضوع في مُحاوَلةٍ لتقييم فُرَصِه ضد هؤلاء الأوغاد.

تذكَّرَ الزي الرَّسميّ لكلٍّ من الاتِّجاهين. لم يكن جميع حليقي الرؤوس من اليمين المُتطرِّف خلافًا للاعتقاد السائد. فهناك أيضًا حليقو الرّؤوس الحُمر وهي جبهةٌ يساريّة مُتطرِّفة.

هؤلاء الأخيرون من أصولٍ وأعراق مختلفة، مُدرَّبون حدَّ الكمال، ويعملون وفق ميثاق شرفٍ خاصٍّ بهم، كانوا على ما للنّازيّين الجدد من خطورة، إن لم يفوقوهم في ذلك. لكن في مواجهتهم، لديه فرصة أكبر في الخروج سالمًا.

لخَّصَ في عقله سمات كلٍّ من المجموعتيْن. يرتدي اليمينيّون الفاشيّون سترةَ سلاح الجوّ الملكيّ الإنجليزيّ على جانبها الأخضر الفاقع، على عكس الحُمر الذين يرتدونها مقلوبةً على جانبها البرتقاليّ السَّاطع. يربط اليمينيّون أحذيتهم بأربطة بيضاء أو حمراء بينما يستعمل اليساريّون أربطة صفراء.

قرابة السَّاعة الحادية عشرة، توقَّفَ كريم أمام المستودع المهجور «مياه الوادي». تماهى المستودع بجدرانه البلاستيكية العالية مع زُرقة السماء الصافية. رأى سيَّارةً قديمةً سوداء مركونة أمام الباب. لا بُدَّ أنهم بالداخل بصدد معاقرة الجعة أو محاليل أخرى.

توجَّهَ نحو المخزن مُحاوِلًا التَّنَفُّسَ ببطء، مُردِّدًا جملًا لها علاقة بواقعه المباشر.

سترات خضراء وأربطة بيضاء أو حمراء: فاشيّون يمينيّون. سترات برتقاليّة وأربطة صفراء: حُمر يساريّون.

عندها فحسب ستكون لديه فرصة للإفلات دون ضرر.

أخذ نفسًا عميقًا وفتح الباب. لم يحتج إلى النظر في الأربطة ليعرف أين دخل للتوّ. ملأت الصّلبان المعقوفة الجدران المطليّة بالأحمر. جاورت الرموز النّازيّة رسومَ معسكرات الاعتقال وصورًا مُكبَّرة لجزائريّين تحت التّعذيب. في الأسفل، واجهته نظرات قطيع من الحليقين في سترات خضراء وأحذيةٍ حربيَّةٍ بهياكل معدنِيَّة مُتلألئة في الظلام. يمين مُتطرِّف من الجانب الأكثر تشدُّدًا. كان كريم يعلم أن كلًّا منهم يحمل وشمًا داخل شفته السُّفليّة: (SKIN)[1].

سحب نفسًا عميقًا، ونظر حوله بحثًا عن أسلحتهم. كانت لديه فكرة عن ترسانة هؤلاء المهووسين: القبضات الحديديّة ومضارب البيسبول و مسدَّسات الدِّفاع عن النفس ذات الطَّلقات المزدوجة. من الأكيد أنهم يخفون أيضًا بنادق مشحونة برصاصٍ مطاطيّ.

كان ما وجده أسوأ بكثير.

نساء النّازيّين الجدد، المُسَمَّيات بالطيور BIRDS، برؤوس حليقة ماعدا خصلة وسط الجبهة وجديلتيْن طويلتيْن على الوجنتيْن. طيور سمينة، مشبعة بالكحول، أكثر عنفًا من ذكورها. ابتلع كريم ريقه مُدرِكًا أنه لن يتعامل مع بعض العاطلين المُتفرِّغين كما اعتقد، بل مع عصابة حقيقيَّة تختبئ هنا حتمًا في انتظار عقد سطوٍ أو تصفيةٍ جسديّة. كانت فرص نجاته تتضاءل أمامه. بسرعة جنونية.

تناولت إحدى النِّساء جرعةً من الرّغوة، وفتحت فمها على مصراعَيْه لتتجشَّأ في وجه كريم. انفجرت الأخريات ضحكًا. كانت كلٌّ منهنّ في حجم رجل الشّرطة.

قال بصوتٍ عالٍ وحازم:

- حسنًا يا شباب. أنا شرطيّ. جئت لأطرح بعض الأسئلة.

اقتربت منه الرؤوس الحليقة. شرطيٌّ أم لا، كان كريم قبل كل شيء عربيًّا. وما قيمة جلدٍ عربيٍّ في مستودع مليء بمثل هؤلاء الأوغاد؟ بل حتى بالقياس إلى كروزييه وضبّاط

---

(1) جلد باللغة الإنجليزية وهي تلخيص لعبارة Skinhead التي تدلُّ على انتماء الشخص لمجموعة من النّازيّين الجدد المُتعصِّبين للعرق الأبيض والمشهورين بحلق رؤوسهم. (المترجمة) .

الشُّرطة الآخرين؟ ارتجف الملازم الشاب. ومادت الأرض تحت قدمَيْه جزءًا من الثانية. شعر وكأنَّ المدينة برمَّتها، بل البلد برمَّته، بل العالم بأسره ضدّه.

أخرج مُسدَّسه وصوَّبَه نحو السَّقف. فأوقفت حركتُه هجمتهم.

- أكرِّر: أنا شرطيّ ولا أريد التَّسبُّب بأيَّة مشكلة.

وضع سلاحه ببطء على برميل صدئ ونظرات الحليقين تتابع حركاته بترقُّب.

- سأترك المسدّس هنا. لا أحد يلمسه ونحن نتحدّث.

كان سلاح كريم مُسدَّسًا آليًا من طراز الغلوك 21 -أحد التصاميم الجديدة الخفيفة الوزن- بخمسَ عشرة رصاصةً في مخزن الذخيرة بالإضافة إلى واحدة في الماسورة مع منظار لامع. كان يعلم أن أفراد العصابة لم يروا مثله من قبل. لقد انقلبت الموازين لصالحه مُؤقَّتًا على الأقل.

- من هو زعيمكم؟

أجابه الصّمت. خطا كريم بضع خطواتٍ وكرَّرَ:

- زعيمكم، تبًّا! دعونا لا نضيّع وقتنا.

تقدَّمَ أطولهم نحوه وقامته مشدودة في تأهُّب، وقال بلهجة محليّة حادَّة:

- ماذا يريد منَّا هذا الجرذ؟

- سأنسى إهانتك لي، فلنتحدّث بتحضُّرٍ بضعَ دقائق.

اقترب الحليق منه وهو يومئ برأسه. كان أطول وأعرض من كريم. فكَّرَ الشرطي في ضفائره التي ستجعل الإمساك به سهلًا إذا اندلعت مواجهة. كان الحليق يواصل التقدُّم نحوه بيدَيْن مفتوحتَيْن مثل أذرع أخطبوط.

لم يتراجع كريم قيدَ أُنملة. نظرة خاطفة إلى اليمين، الآخرون يقتربون من سلاحه.

- إذن أيها العربيُّ الحقير، ماذا...

انطلق رأس كريم كالصاعقة مُحطِّمًا أنفَ الحليق الضخم. فانحنى الحليق مُمسكًا بوجهه فدار كريم حول نفسه وركله في رقبته بقوة حتى سقط على بُعد مترين في قوسٍ من الألم الصافي.

اندفع أحدُ الحليقين نحو المسدس الآلي وضغط على الزناد. لم يحدث شيء. فرقعةٌ خاويةٌ فحسب. حاول شحن السلاح لكن خزان الذخيرة كان فارغًا. فسحب كريم مُسدَّسًا آليًّا ثانيًا من طراز بيريتا من خلف ظهره وصوَّبه بكلتي يدَيْهِ نحو الرّؤوس الحليقة مُثبِّتًا ضحيته تحت قدمه، وصرخ:

- هل ظننتم حقًّا أني سأترك مُسدَّسًا محشوًّا بالرصاص لمجانين مثلكم؟

تسمَّرَ الجميع في أماكنهم. تأوَّهَ الرجل على الأرض مختنقًا:

- يا ابن ال... ألم تقل إنّك لا تريد التَّسبُّب بمشكلة؟...

ركله كريم بين ساقيْه. فصرخ من الوجع. ثمّ جثَا الشرطيُّ على ركبتَيْه حذوه وقرص أذنه حتى هشم الغضروف تحت أصابعه.

- لا مشاكل؟ مع قذر مثلك؟ (ضحك كريم بعصبيّة). كم أنت مضحك! استديروا الآن جميعكم! فلتضعوا أيديكم على الحائط أيها الأوغاد! أنتنّ أيضًا أيتها السافلات!

أطلق الشرطيُّ النّارَ على مصابيح النيون. فاندلع وهج أزرق وارتدَّ الهيكل المعدني قبل أن ينفصل ويتحطّم على الأرض في انفجار من الشّرر. تدافع «المرعبون» في كلّ الاتّجاهات. وأخذ كريم يصرخ بأعلى صوته:

- أفرغوا جيوبكم! سأفجر ركبتَيْ كلّ من يقوم بحركة لا تعجبني!

شاهد كريم الغرفة حوله من خلال نبض قلبه، أو لعله نبض البغض داخل رأسه. وألصق فوّهة المُسدَّس في صدر الزعيم وسأل بصوتٍ منخفضٍ:

- ما الذي تتعاطونه؟

كان الرّجل يسعل دمًا.

- ما... ماذا؟

ضغط الفوّهة مرَّةً أخرى.

- ماهي أنواع المخدرات التي تتعاطونها؟

- امممم... فيتامين، بلورات الميث، الحمض، الغراء...

- أيّ غراء؟

- دي... ديسوبلاستين...

- غراء المطّاط؟

أوْمَأَ الحليق برأسه دون فهم.

- «أين هو؟»، استأنف كريم.

- في كيس القمامة قُرب الثَّلّاجة...

- لا تقم بأيَّة حركة، وإلَّا فسأقتلك.

تراجع كريم، مُتفحِّصًا الغرفة بنظراته، مُوجِّهًا سلاحه في الآن نفسه نحو المصاب والآخرين الذين لم يبرحوا أماكنهم حذوَ الجدار. قلب الكيس بيده اليسرى، فانسكبت آلاف الحبوب على الأرض بالإضافة إلى أنابيب من الصّمغ. حمل الأنابيب وفتحها وهو يعبر الغرفة راسمًا شرائط لزجةً على الأرض، خلف جمع الحليقين، دون أن يتردَّد في تسديد بعض الركلات هنا وهناك، في ساقٍ أو خاصرة، بينما كان يُبعد سكاكينهم وأسلحتهم الأخرى.

- انظروا إليَّ.

جرَّ الحليقون أحذيتهم.

- ستقومون يا رفاق ببضع تمارين ضغط من أجلي. أنتنّ أيضًا يا رفيقات. لا تفلّتوا خطوط الغراء!

نزلت جميع الأيدي على الصمغ الذي تدفَّقَ بين الأصابع المشدودة. في حركة السحب الثّالثة، التصقت راحات اليد نهائيًّا. سقط الحليقون وصدورهم على الأرضيّة فأدى ذلك إلى التواء معاصمهم أثناء اصطدامهم بالإسفلت.

عاد كريم إلى خصمه الأوّل. وجلس القرفصاء أمامه، وأخذ نفسًا عميقًا لتهدئة نفسه. فأصبح صوته أكثر رصانة:

- أين كنت ليلة البارحة؟

- أنا... أنت مخطئ، لسنا مَن فعلها.

توقّد ذهنُ كريم. لقد أذلَّ حليقي الرّؤوس بدافع التبجُّح وليس لشكٍّ فعليٍّ فيهم. طرح سؤالًا شكليًّا بحتًا دون توقُّع إجابة مُهمَّة، فهو على يقين من براءة هؤلاء المُتسكِّعين من تدنيس المقبرة. ومع ذلك، يبدو أن هذا الوغد يعرف شيئًا. فانحنى عليه الشرطيّ:

- فعلة ماذا؟

اتَّكأ بصعوبة على كوعه.

- المقبرة... لسنا مَن فعل ذلك.

- كيف علمت بما حدث في المقبرة؟

- نحن... مررنا من هناك...

جالت فكرةٌ في ذهن كريم. إذن كروزييه يملك شاهدًا. أعلمه أحدهم هذا الصباح أنّ بعض حليقي الرّؤوس حاموا بالقرب من المقبرة. لذلك أرسله إليهم دون إبلاغه بشيء. سيصفّي كريم حسابه لاحقًا.

- أخبرني.

- كنا نتسكّع في تلك المنطقة...

- متى؟

- لا أعرف... السَّاعة الثَّانِيَة، ربما...

- لماذا؟

- لا أعلم... أردنا العبث قليلًا... كنَّا نبحث عن ثكنات مواقع البناء لتعنيف المهاجرين...

ارتجف كريم.

- ثم؟

- مررنا بالقرب من المقبرة... اللَّعنة! البَوَّابة كانت مفتوحة... رأينا ظلالًا... رجالًا يخرجون من القبو...

- كم كان عددهم؟

- اث... اثنين على ما أعتقد...

- هل يمكنك وصفهما؟

ضحك الجريح.

- يا رجل، كنا في منتهى الثّمالة...

صفعه كريم على أذنه المسحوقة، فكتمَ صرخةً انتهت بفحيحٍ كفحيحِ الثُّعبان.

- أُكرِّر، هل يمكنك وصفهم؟

- لا! كانت ليلة مظلمة...

استغرق كريم في التفكير. إنّهم محترفون، كرَّرَ في نفسه، هذا هو اليقين الوحيد الذي يملكه بشأن المخرّبين.

- ثم؟

- اللَّعنة! تملّكنا الخوف... غادرنا المكان بسرعة. كنَّا مُتأكِّدين أنهم سيُلصقون التُّهمة بنا.. بسبب «كاربينترا»...

- هذا كلّ شيء؟ ألم تلاحظ أيّ تفصيلٍ آخر؟

- كلّا... لا شيء..... السَّاعة الثَّانِيَة صباحًا في هذه البلدة... لا يوجد شيء...

تخيَّلَ كريم عزلةَ الطريق الصغيرة، مع مصباح الشارع الوحيد، مخلب ضوءٍ أبيض وسط عتمة اللَّيْل يجذب العثّ والفراشات. وذوو الرّؤوس الحليقة يتدافعون منتشين إلى النّخاع، ويلهجون بشعاراتٍ نازيّةٍ. ثم كرَّرَ:

- فكِّر مرَّةً أخرى...

- هذا... بعد بضع دقائق... أظنّ أننا رأينا سيَّارة آسيوية الصنع، لادا أو شيء من هذا القبيل، تسير في الاتِّجاه المقابل... كانت قادمة من المقبرة... على الطَّريق د 143...

- ما كان لونها؟

- بَيْ... بَيْضاء.

- هل مِن خاصِّيّةٍ تميِّزها؟

- هي... كانت مُغطَّاة بالوحل...

- هل رأيت رقم اللّوحة؟

- اللَّعنة! لسنا رجال شرطة، يا صاح، أنا...

ركله كريم في خاصرته. فتلوّى الرّجل مُصدرًا غرغرةً دمويّةً. ثمّ وقف الملازم ونفض الغبار عن ملابسه لم يَعُد لَدَيْهِ شيءٌ آخر يلتقطه هنا. سمع الآخرين يتأوّهون ألمًا وراءه. أيديهم بدأت حتمًا بالاحتراق. ختم كريم:

- ستذهب بكلِّ وداعةٍ إلى مركز الشرطة في «سارزاك». اليوم. للإدلاء بشهادتك. أخبرهم أنك من طرفي، ستحصل على معاملة خاصّة.

أوْمَأَ الحليق برأسه لاهثًا، ثمّ نظر إليه بعينَيْ حيوانٍ جريح.

- لماذا... لماذا... فعلتَ هذا يا رجل؟

تَمْتَم كريم:

- حتَّى تتذكَّر. رجل الشُّرطة هو دومًا مصدر مشاكل لكم. لكنْ رجل شرطةٍ عربيًّا هو مشكلةٌ قادمة من أعماق الجحيم. حاوِلْ ضرب المهاجرين مرَّةً أخرى وستتعرَّف على عُمق المشكلة.

وجَّهَ كريم إليه ركلةً أخيرةً قبل أن يلتقط مُسدَّسه الآليّ الفارغ في طريقه للخروج.

انطلق بسيارته مُسرِعًا، ثم توقَّفَ بعد بضعِ كيلومتراتٍ ليُهدِّئ أعصابه ويُفكِّر في المعلومات الأخيرة. وقع التدنيس إذن قبل السَّاعة الثَّانِيَة صباحًا، وكان الفريق مُتكوِّنا من رجُلَيْن يقودان -ربّما- سيَّارة آسيويّة. نظر إلى ساعته، الوقت لا يكاد يكفيه لكتابة كل هذا في تقريره قبل الساعة الواحدة. التّحقيق على وشك أن يبدأ جدّيًا. يجب إطلاق إشعار بحثٍ عن السَّيّارة، تفحّص البطاقات الرَّماديّة، استجواب المتساكنين حذوَ طريق د 143...

شعر بالحماس يسري في عروقه. لقد أنجزَ مهمّته. سيتركه كروزييه وشأنه الآن. أخيرًا سيستطيع تولّي التحقيق بطريقته الخاصّة: التَّنقيب مثلًا في حياة طفلٍ لقيَ حتفَه سنة 1982.

11

«كَشَفَ فحصُ الجذع عن جروح عموديّةٍ طويلةٍ ناتجةٍ عن استخدام أداةٍ حادَّة. نلاحظ أيضًا وجود خدوشٍ أخرى بالأداة نفسها في مستوى الكتفَيْن والذراعَيْن...».

ارتدى الطبيب الشرعيّ زيًّا عسكريًّا مُجعَّدًا ونظّارة صغيرة. مارك كوست، شاب ذو ملامح حادَّة وعينَيْن غامضتَيْن، أثار إعجاب نيمانز منذ اللِّقاء الأوَّل وبدا له شخصًا ألمعِيًّا ومُحقِّقًا فعلِيًّا، قد يفتقر إلى الخبرة ولكن ليس إلى الشغف. قرأ تقريره بصوتٍ واثق:

«حروق مُتعدِّدة على الجذع والكتفَيْن والخاصرتَيْن والذراعَيْن. أحصينا حوالي خمسٍ وعشرين علامةً من هذا النّوع يتطابق عددٌ منها مع الجروح التي سبق وصفها...».

تدخَّلَ نيمانز:

- ماذا يعني هذا؟

نظر الطَّبيب بحرجٍ من فوق نظارته.

- أعتقد أن القاتل كوى الجراح بالنّار. ربّما سكبَ عليها قليلًا من البنزين لإشعالها. أعتقد أنّه استخدم بخَّاخًا يدوِيًّا، ربّما من نوع كارشر.

جال نيمانز مرَّةً أخرى في قاعة الأشغال التَّطبيقيّة التي صارت مقرَّه الرَّئيسيّ، بالطابق الأول من مبنى «علم النفس/علم الاجتماع». كان النقيب بارنز والملازم جوانو حاضرَيْن إلى جانب الطبيب الشرعي وجالسَيْن باحتشام على مقعدَيْن من مقاعد الطلاب.

- واصِل رجاءً.

«...لاحظنا أيضًا وجود العديد من الكدمات والتورُّمات والكسور، منها ثماني عشرة كدمةً على الجذع وحده. بالإضافة إلى أربعة أضلُع مكسورة، عظما التّرقوة مُفتَّتان كلّيًّا.

سُحِقت ثلاثة أصابع من اليد اليسرى وإصبعان من اليد اليمنى. الأعضاء التَّناسليّة أرجوانيّة من أثر الضرب. نرجِّح أن السلاح المُستخدَم قضيبٌ حديديٌّ أو رصاصيٌّ يبلغ سُمكه سبعةَ سنتيمترات. من الضَّروريّ طبعًا فرزُ الجروح النّاتجة عن نقل الجثَّة وتثبيتها في الصخر، لكنّ التورُّمات لا تتفاعل بالطريقة نفسها بعد الوفاة...».

تفحَّصَ نيمانز الحاضرين سريعًا، فقابلتْهُ نظراتٌ زائغةٌ وجِباه تتصبَّب عرقًا.

«...بخصوص الجزء العلوي من الجسم، الوجه سليم. لا وجود لكدماتٍ واضحة على مؤخّرة العنق...».

سأل الشرطي:

- لا وجود لأيّ أثر ضربٍ على الوجه؟

- لا، وكأنَّ القاتل تجنَّبَ لمسَ الوجه تحديدًا. نَظَرَ كوست إلى تقريره وواصل القراءة، لكن نيمانز قاطعه مرَّةً أخرى:

- انتظر! أعتقد أن الأمر سيستمرّ على هذا النحو فترةً طويلة.

رمش الطَّبيب بعينَيْه بعصبيّة، وهو يتصفَّح تقريره.

- نعم، الكثير من الصفحات...

- حسنًا، سيقرؤه كل واحدٍ منَّا على حِدة، هاتِه.

- ما يهمّنا الآن هو سبب الوفاة. هل تسبَّبت هذه الجروح في وفاة الضحية؟

- لا، مات الرَّجل خنقًا. لا شكَّ في ذلك. خُنِق بسلكٍ معدنيٍّ يبلغ قُطره حوالي ملّيمترَيْن، في اعتقادي سلك فرامل أو سلك بيانو، شيء من هذا القبيل. قَطَعَ السّلك اللَّحم على طول خمسة عشر سنتيمترًا وفي طريقه مزَّقَ الحبال الصوتية وعضلات الحُنجرة والشّريان الأبهر، مما تسبَّبَ في النَّزيف حتى الموت.

- ماذا عن ساعة الجريمة؟

- من الصَّعب تحديدها بصفةٍ قطعيّة. وضعيَّة الجسم المُلتوية غيَّرَت مراحل التَّيبُّس...

- أعطني ساعةً تقريبيّة.

- أعتقد... مساء السّبت، بين السَّاعة الثَّامنة ومنتصف اللَّيل.

- هل فاجأ القاتل كايوا عند عودته من جولته يا ترى؟

- ليس بالضّرورة. في رأيي دامَ التّعذيب ساعاتٍ طويلة. وقع اختطافه في الصَّباح على الأرجح واستمرَّت معاناته طيلة اليوم.

- هل دافع كايوا عن نفسه؟

- من المستحيل معرفة الإجابة نظرًا إلى تعدُّد الإصابات. هناك شيءٌ واحدٌ مؤكّد: لم يكن غائِبًا عن الوعي. كان مُقيَّدًا وواعيًا أثناء جلسة التعذيب. آثار الحبال على ذراعَيْه ومعصمَيْه واضحة. من ناحيةٍ أخرى، بما أنّ الجثَّة لا تحمل أيّ أثرٍ لتكميم الفم، أفترض أن جلّاده لم يكن يخشى أن يسمع أحدٌ صراخَه.

جلس نيمانز على عتبة إحدى النوافذ.

- ما رأيك في طرق التعذيب؟ هل هو محترف؟

- محترف؟

- هل استعمل تقنيات حربيّة مثلًا؟ أساليب معروفة؟

- لست خبيرًا في هذا المجال. لكن لا، لا أعتقد ذلك. أظن أنها وسائل... رجل ناقم حتَّى الجنون. مهووس أراد انتزاع إجابات صحيحة على أسئلته.

- لماذا تظنُّ هذا؟

- كان القاتل يحاول جعل كايوا يتكلَّم، ونجح في ذلك.

- كيف عرفت؟

انحنى كوست بتواضع، لم يخلع سترته رغم حرارة الغرفة.

- لو أراد القاتل تعذيب كايوا من أجل المتعة فحسب لواصل تعذيبه حتى يلفظ أنفاسه. لكنه لم يفعل ذلك، بل قتله بطريقةٍ سريعة. باستخدام السِّلك.

- هل توجد آثار اعتداء جنسي؟

- لا، لا شيء من هذا القبيل. هذا لا يدخل في الصُّورة إطلاقًا.

استغرق نيمانز في التفكير مُحاوِلًا تخيُّل الوحش الآدميّ القادر على التَّنكيل بشخصٍ بهذه الطريقة، لكنّه لم ينجح في رؤية شيء، لا وجه ولا جسم. ثم فكَّرَ في الضَّحيَّة، بما رآه كايوا وهو يصارع الموت والألم. تصوَّرَ حركاتٍ ضارية وألوانًا بُنِّيّة وترابيّة وحمراء

وسط إعصارٍ رهيبٍ من الضّرب والنّار والدّم. ماذا كانت آخر فكرةٍ جالت بذهنه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة؟ قال بتأنٍّ:

- حدّثنا عن العينَيْن.

- العينان؟

طرح بارنز السؤال وقد جعلت المفاجأة صوته يرتفع. فقرَّرَ نيمانز التّنازل والإجابة:

- نعم العينان، هذا ما لاحظته قبل قليلٍ في المستشفى. اقتلع القاتل عينَيْ ضحيّته. لقد بدا المحجران مليئَيْن بالماء...

- بالضَّبط. قال كوست.

أمره نيمانز:

- ابدأ من الأوَّل.

تصفَّحَ كوست ملاحظاته.

- ولجَ القاتل تحت الجفون باستخدام أداةٍ حادَّة وقطع عضلات العين والعصب البصريّ، ثمّ سحب المُقلتَيْن. بعد ذلك كشط بعناية ونظَّف داخل التّجويفَيْن العظميَّيْن.

- قبل موت الضَّحيَّة أو بعده؟

- لا أستطيع الجزم. لكني وجدتُ علاماتِ نزيفٍ في تلك المنطقة. الأرجح أن كايوا كان على قيد الحياة أثناء تلك العمليّة.

ران الصمت بعد كلماته وشحب وجه بارنز وزاغت عينا جوانو.

- وبعد ذلك؟ سأل نيمانز لتجاوُز القلق الذي أطبق على صدور الجميع.

- فيما بعد، عندما مات المسكين، ملأ القاتل محجرَيْ العينَيْن بالماء. مياه النهر حسب ظنّي. ثمّ أغلق الجفنَيْن برفق. لهذا كانت العينان تبدوان مُغلقتَيْن ومُنتفختَيْن كأنها لم تتعرَّضَا للتّشويه.

- لنعُد إلى اجتثاث العينين. هل تعتقد أنَّ للقاتل خلفية طبِّيّة أو جراحيّة؟

- لا أعتقد. أظن أنه متفانٍ في وحشيّته وحسب.

- ما هي الأدوات التي استخدمها؟ أدوات التّعذيب نفسها؟

- حتى لو لم تكن نفسها فهي تنتمي إلى العائلة نفسها.

- أيّ عائلة؟

- الأدوات الصِّناعيّة. مثل القاطع وما إلى ذلك.

وقف نيمانز أمام الطَّبيب.

- هل هذا كلُّ ما يمكنك إخبارُنا به؟ ألا نخرج من تقريرك بأي دليل مادي أو أيّ تصوُّر؟

- لا شيء للأسف. غُسِلَ الجسد بالكامل قبل وضعه في الجُرف الصَّخريّ. لا يمكن للجثَّة أن تخبرنا بشيء عن مسرح الجريمة أو عن هوية القاتل. لا يسعنا إلَّا أن نفترض أنه رجل قويّ وماهر، لا غير.

تذمَّرَ نيمانز:

- هذا ليس بالكثير.

صمت كوست برهةً وعاد إلى تقريره:

- ثمَّة جزئيّة لم نتطرَّق إليها... جزئيّةٌ لا علاقة لها بجريمة القتل في حدِّ ذاتها.

استقام المحافظ في جلسته.

- ما هي؟

- ريمي كايو لا يملك بصمات أصابع.

- ماذا تعني؟

- كانت يداه مُتآكلتَيْن إلى درجة اختفاء الأخاديد والحلقات من أصابعه. ربَّما يكون قد حرق يديه في حادثٍ ما، لكنه حادثٌ يعود إلى ماضٍ بعيد.

نظر نيمانز بتساؤلٍ إلى بارنز، الذي هزَّ حاجِبَيْه علامةً على عدم الفهم.

- سوف نتثبَّت من الأمر. غمغم المحافظ، ثم اقترب من الطَّبيب حتى تلامست ثيابهما.

- ما رأيك في جريمة القتل هذه، رأيك الشخصي؟ كيف تشعر حيالها؟ ما هو حدسك العميق من موقع الطبيب، أمام هذا التَّنكيل؟

خلع كوست نظَّارته وفرك جفنَيْه. عندما وضع عدستَيْه من جديد، بدت نظرته أكثر

وضوحًا وصوته أكثر حزمًا:

- اتَّبَع القاتل طقسًا غامضًا، طقسًا مُعَدًّا مُسبقًا ينتهي بالجثَّة في وضعيّة الجنين وسط الصّخر. يبدو المُخطَّطُ شديدَ الدِّقة والنُّضج. كان اقتلاع العينَيْن بتلك الطَّريقة ضروريًّا. هناك أيضًا هذا الماء تحت الجفون. كأنَّ القاتل أراد تنظيف المحجرَيْن بل تنقِيَتهما. نحن بصدد تحليله. مَن يدري، ربّما تحتوي المياه على دليل... دليلٍ كيميائيّ.

تجاهل نيمانز الكلمات الأخيرة بإشارةٍ من يده. تحدَّثَ كوست عن مراسم تنقيةٍ أو تطهير. منذ زيارته إلى البحيرة الصغيرة، لم تفارقه فكرةُ تفريغ العواطف، تصفية الذهن. كان يتَّفق مع الطَّبيب في هذا. فوق البحيرة، أراد القاتل إزالة رجسٍ مّا -ربّما ببساطة التَّطهُّر من جريمته؟

مرَّت الدقائق دون أن يبرحَ أحدٌ مكانه. تمتم نيمانز أخيرًا وهو يفتح باب القاعة:

- لنعُد إلى العمل. الوقت يمرُّ بسرعة. لا أعرف ما الذي كان ريمي كايوا يخفيه وما الذي باحَ به للقاتل. أتمنَّى فحسب ألا يتسبَّب اعترافه في المزيد من جرائم القتل.

12

عاد نيمانز وجوانو إلى المكتبة. قبل الدخول، ألقى المحافظ نظرةً خاطفةً على الملازم، بدا هذا الثاني منهارًا. ربَّتَ الشرطيُّ على ظهره بقوَّة كما يفعل الرياضيون في الملعب. وبادله إريك ابتسامةً فاترة.

دخل الرّجلان قاعة الكتب الكبيرة، فوجدا عرضًا مُدهشًا في انتظارهما: ضابطان من الشُّرطة القضائيَّة بالإضافة إلى فرقة من الأعوان المُنكبِّين على تفتيش المكتبة تفتيشًا شاملًا ومئات الكتب مفتوحةٌ أمامهم في صفوف وأعمدة. سأل جوانو مُتفاجئًا:

- ما الذي يحدث هنا؟ ماذا تفعلون؟

أجاب أحد الضُّبّاط:

- ننفِّذ الأوامر... نبحث عن كل الكتب التي تتحدَّث عن الشر والطقوس الدينية و...

نظر جوانو إلى نيمانز وقد بدا مفزوعًا من المشهد. ثمّ صرخ في الضابط:

- لكنّي أمرتكم بالتَّحقُّق من معطيات الحاسوب وليس بالبحث عن الكتب وسط الرُّفوف!

- أطلقنا بحثًا على الحاسوب حسب العنوان والموضوع. وفي الوقت نفسه، سنتصفَّح الكتب بحثًا عن أدِلَّةٍ أو نقاط تشابهٍ مع جريمة القتل.

تدخَّلَ نيمانز:

- هل طلبتم النُّصح من الطلبة الدَّاخليِّين؟

تجهَّمَ الضابط.

- إنهم فلاسفة. أمطرونَا خُطبًا وكلامًا هُلاميًّا. أجابَ الأوّل أن فكرة الشَّرّ هي قيمةٌ برجوازيّة، وأنَّه يتعيَّن إعادة النّظر في كل هذا من زاويةٍ اجتماعيّة، بل ماركسيّة. استسلمنا

طبعًا. وحدّثنا الثَّاني عن الحدود وتجاوزها. لكنّه أضاف أن الحدود في داخلنا... وأنَّ ضميرنَا لا يتوقَّف عن التَّفاوض مع رقيب أعلى و... حسنًا، لم نفهم شيئًا. أمَّا الثَّالث فقد ربط الأمر بالمطلق والبحث عن المستحيل، حدّثنا عن التَّجربة الرُّوحية التي يمكن أن تتحقَّق في الخير أو الشَّرّ على قدرٍ سواء. لذلك... أنا... حسنًا، لا تسير الأمور بشكلٍ جيِّدٍ كما ترى، يا حضرة الملازم...

انفجر نيمانز ضاحكًا. وهمس لجوانو: «قلت لك، عليك أن تحذرَ المُثقَّفين».

ثم وجَّهَ كلامه مباشرةً إلى الشرطيّ المسكين:

- أكملوا بحثكم. أضيفوا إلى الكلمات المفاتيح «الشَّر» و«العنف» و«التّعذيب» و«الطّقوس»، كلمات «الماء» و«العيون» و«النّقاء». افحصوا الحاسوب جيِّدًا. ابحثوا بالخصوص عن أسماء الطَّلبة الذين عايَنوا هذه الكتب وعملوا على هذه المواضيع في أطروحة الدكتوراه مثلًا. مَن المُكلَّف بالحاسوب المركزيّ؟

أجاب زميل ممتلئ الجسم:

- أنا يا حضرة المحافظ.

- ماذا وجدت أيضًا في ملفَّات كايوا؟

- قوائم الكتب التَّالفة، الطَّلبيّات وما إلى ذلك. هناك أيضًا قوائم طلَّابٍ يأتون لقراءة الكتب هنا وأماكن جلوسهم.

- أماكنهم؟

- نعم. كان كايوا مسؤولًا عن وضعهم... (أوْمَأَ الملازم برأسه نحو المقصورات الزجاجية)... في الحجرات الصغيرة هناك. كان يحفظ كلّ أماكن جلوسهم في حاسوبه.

- ألم تجدوا أشغال أطروحته؟

- بلى وثيقة من ألف صفحة عن العصور القديمة و... (نظر إلى ورقة كتبها) أولمبيا. إنّها تدور حول الألعاب الأولمبية الأولى والطقوس المقدّسة المنظّمة حولها... أستطيع الجزم أنه عملٌ رفيعُ المستوى.

- اطبعه على الورق ثم اقرأه.

- ماذا؟

أضاف نيمانز بنبرة ساخرة:

- قراءة سطحيّة بالطبع.

بدا الرجل مُرتبِكًا. فواصل المحافظ:

- هل مِن شيءٍ آخر في الجهاز؟ ألعاب فيديو؟ صندوق بريد إلكتروني؟

نفى ضابط الشُّرطة القضائية برأسه. ولم يتفاجأ نيمانز. لقد شعر منذ البداية أن كايوا يقضي كل حياته داخل الكتب. أمين مكتبة صارم لا يُلهيه عن واجباته المهنيّة سوى كتابة أطروحته الخاصة. ما السِّرّ الذي يمكن أن يخفيه زاهدٌ مثله؟

خاطب بيير نيمانز جوانو:

- تعالَ إلى هنا. أريد سماع استنتاجات تحقيقك.

عزلا نفسَيْهما عن الآخرين في أحد الأروِقة المليئة بالكتب، وشاهدَا عونًا يتصفَّح كتابًا بمزيج من التركيز والحيرة في آخر الممر. واجه المحافظ صعوبةً حقيقيَّةً في كتم ضحكه بينما فتح الملازم دفتر ملاحظاته.

- أجريت مقابلاتٍ مع العديد من المقيمين ومع زملاء كايوا في المكتبة. لم يكن ريمي محبوبًا جدًّا لكنه كان مُحترَمًا.

- ماذا كانوا يعيبون عليه؟

- لا شيء على وجه الخصوص. أظنُّه يثير فيهم نوعًا من القلق. كان شخصًا مُتكتِّمًا ومنطويًا على نفسه لا يبذل أيّ جهد في التواصل مع الآخرين، وهو أمرٌ منطقيٌّ بشكلٍ ما ومتناسق مع مهنته. (نظر جوانو حوله بتوجس) تخيَّل... أن تقضي كلّ اليوم هكذا.. في هذه المكتبة، مُحاطًا بالصّمت...

- هل أخبروك عن والده؟ هل تعلم أنه كان أيضًا أمين مكتبة؟

- نعم، لقد حدّثوني عنه. كان يملك الصِّفات نفسها. رجلٌ صامتٌ جامدُ الملامح، لا يمكن سبر أغواره. أجواء غرفة الاعتراف هذه على المدى الطويل لا يمكن إلّا أن تصيب المرء بخللٍ نفسيّ.

اتَّكأَ نيمانز على الكتب.

- هل أخبروك أنه لقيَ حتفه في الجبل؟

- طبعًا، لا شيء يبدو مريبًا في موته. فوجئ العجوزُ المسكين بانهيارٍ جليديّ و...

- أعرف ذلك. حسب رأيك، لا أحدَ يحقد على كايوا، الأب أو الابن؟

- باللَّهِ عليك يا سيّدي! تتلخَّص حياة الضَّحيَّة في جلب الكتب من غرفة التَّخزين وملء النَّماذج وووضع الطلبة خلف مكاتب مُرقَّمة. من سيحقد عليه إلى درجة قتله؟ طالبٌ سلّمه الطَّبعة الخطأ؟

- حسنًا، ماذا عن موضوع تسلُّق الجبال؟

تصفَّحَ جوانو مرَّةً أخرى ملاحظاته.

- كان كايوا مُتسلِّقَ جبالٍ ماهرًا. لكنّه يوم السّبت الماضي ذهب في رحلة استكشافيّة سيرًا على القدمَيْن على بُعد حوالي ألفي مترٍ دون معدّات، وفقًا لشهود عيان.

- هل يرافقه أحدٌ في العادة؟

- إطلاقًا، حتى زوجته لا ترافقه. كان مُنعزِلًا، بل أقرب إلى التوحُّد.

صرَّحَ نيمانز بمعلوماته الأخيرة:

- عندما عدت قرب النهر اكتشفتُ آثار مسامير في الصّخر. أعتقد أن القاتل استخدمَ تقنيةَ تسلُّقٍ لرفع الجثَّة.

انقبضَ وجه الملازم:

- اللَّعنة، صعدتُ أنا أيضًا إلى المكان و...

- كانت الثُّقوب داخل الفجوة. لقد ثبَّتَ القاتل البكرات، ثم رمى بنفسه مُستعمِلًا ثقله لرفع الجثَّة.

- تبًّا!

جمعت ملامحه بين الاستياء والإعجاب. فابتسم نيمانز:

- يعود الفضل لشاهدتي فاني فيريرا، محترفة حقيقيّة. غمز: وفائقة الجمال... على كلٍّ، أريد منك أن تنبش قليلًا في هذا الاتجاه. أعدَّ قائمةً شاملةً في مُتسلِّقي الجبال وجميع من يمكنهم امتلاك هذا النوع من المُعدَّات في المنطقة.

- لا بُدَّ أنهم يُعَدّون بالآلاف!

- اطلب المساعدة من زملائك ومن بارنز. كلّ شيءٍ ممكن. قد نخرج باستنتاج مفيد من هذا البحث. أريد منك أيضًا أن تهتمَّ بالعيون.

- العيون؟

- ألم تسمع الطبيب الشرعي؟ سلب القاتل العينَيْن بحرصٍ خاصّ. ليس لديَّ أدنى فكرة عن معنى هذه الحركة. قد يكون نوعًا من الخطل الجنسيّ، أو رغبة في تطهيرٍ من نوعٍ خاصّ. ربّما تُذكِّره هذه العيون بمشهد رأتْهُ الضَّحيَّة، أو بنظرةٍ تُمثِّل له هوسًا. لا أدري، الأمر مبهم جدًّا، ولستُ من محبّي خزعبلات علم النفس هذه. لكني أريد منك أن تهزَّ البلدة هزًّا وتجمع كل ما يتعلَّق بالعيون.

- مثل ماذا؟

- ما إذا حصلت حوادث تتعلَّق بالعيون في الكُلِّيّة أو في المدينة. ابحث أيضًا في محاضر السّنوات الماضية، في المركز، وفي صفحات الحوادث في الصُّحُفِ المحليّة. شجارات أصيب فيها شخصٌ ما، أو تشويه للحيوانات. لا أعرف: ابحث، تثبَّت أيضًا من حالات العمى وأمراض العيون في المنطقة.

- هل تعتقد حقًّا أني سأجد...

زفر نيمانز:

- لا أعتقد شيئًا، ابحث وحسب.

في نهاية الممرّ، كان العون ذي الزي العسكري يُلقي بنظراتٍ جانبيّةٍ في اتّجاههما. ثمّ أسقطَ كتبه واختفى. تابعَ نيمانز بصوتٍ منخفضٍ:

- أريد أيضًا جدول الأعمال الدقيق للأسابيع الأخيرة من حياة كايوا. أريد أن أعرف بمن التقى ومع مَن تكلّم. أريد قائمة بمكالماته الهاتفية الشَّخصيَّة والمهنيّة. أريد قائمة الرسائل التي تلقَّاها، كلّ شيء. ربّما كان كايوا يعرف قاتله. ربّما كان لديه موعدٌ معه هناك في الأعلى.

- ماذا عن زوجته، ألم تقل شيئًا مهمًّا؟

لم يُجِب نيمانز فأضاف جوانو:

- يُقال إنها صعبة المراس.

خبَّأَ جوانو دفتر ملاحظاته وقد استعاد وجهُهُ بعض الألوان.

- لا أعرف ما إن كان الوقت مناسبًا لقول هذا... مع هذه الجثَّة المشوّهة... وهذا القاتل المجنون الذي يتربَّص بنا في مكانٍ مّا...

- ولكن؟

- ولكن، اللَّعنة! أشعر أنَّني تلميذٌ بصدد التَّعلم منك.

تصفَّحَ نيمانز كتابًا على الرّفّ: خرائط وتضاريس مقاطعة «إيزار». ثم ألقى المُجلَّد بين يدَيْ الملازم وختم:

- حسنًا، ادعُ اللّٰه أن نتعلَّمَ شيئًا عن القاتل أيضًا.

13

جسدُ الضَّحيَّة المشدود، عضلاتٌ ملتويةٌ تحت الجلد كالحبال، جروح سوداء وأرجوانيّة تُمزِّق اللَّحم الشَّاحب والمُزرَقّ.

عند العودة إلى مكتبه، تأمَّلَ نيمانز صور جثة ريمي كايوا.

الوجه، الجفنان المفتوحان على ثقبَيْن أسودَيْن...

ودون خلع معطفه، سرحت أفكاره في معاناة الرّجل وفي رعبٍ ظهر فجأةً بهذه المنطقة البريئة. خَشِيَ الشرطيُّ الأسوأ: حدوث جريمة قتل أخرى، أو جريمة تبقى بلا عقابٍ حتّى تكنسها الأيام والخوف الذي يساعد على النسيان أكثر من التذكُّر.

يدَا الضَّحيَّة مصوّرتان من الأعلى ثمّ من الأسفل. يدان جميلتان نحيفتان، مفتوحتان على أصابع مجهولةٍ دون أدنى بصمة. خدوش على الرّسغَيْن، خشنة داكنة ومعدنيّة.

دفع نيمانز كرسيّه واتَّكأَ على الجدار عاقدًا يدَيْهِ خلف عنقه. فكَّرَ في إحدى جمله «كلّ عنصرٍ من عناصر التحقيق، كل تفصيل، وكل شاهد، هو مرآة تنعكس فيها إحدى حقائق الجريمة. والقاتل يختبئ دومًا في إحدى الزوايا العمياء». لم يستطِع زحزحة الفكرة من عقله. لم يقع الاختيار على كايوا صدفةً، فموتُه مرتبط حتمًا بماضيه، بشخصٍ عرفه، أو فعلٍ اقترفه، أو سرٍّ اكتشفه.

ماذا تراه يكون؟

منذ طفولته أمضى كايوا حياته في مكتبة الجامعة. وكان يقضي كل نهاية أسبوع في عزلته الأثيريّة التي تطلُّ على الوادي. فماذا فعل أو رأى ليستحقَّ الإعدام؟

قرَّرَ نيمانز، بسبب العادة أو الحدس أو الهوس الشَّخصيّ، إجراء تحقيقٍ قصيرٍ في ماضي الضَّحيَّة. وبدأ بتفصيلٍ أثار انتباهه خلال لقائه بصوفي كايوا. بعد بضع مكالمات هاتفيّة تحصَّل أخيرًا على فوج المشاة الرّابع عشر، الواقع بالقرب من ليون، حيث يقضي جميع

المُجنّدين الشُّبان من منطقة «إيزار» أيامهم الثَّلاثة الأولى. بعد تقديم نفسه و شرح موضوع اتِّصاله، كلَّفَ قسم الأرشيف باستخراج ملف ريمي كايوا الذي أُعفِي في التّسعينيّات.

سَمِعَ نيمانز النقر السريع على لوحة المفاتيح، والخطوات البعيدة في الغرفة، ثمّ حفيف الأوراق. فسأل عون الأرشيف:

- اقرأ لي استنتاجات الملف رجاءً.

- لا أعرف إذا... مَن يثبت لي أنك محافظ حقًّا؟

تنهَّدَ نيمانز.

- اتَّصل بفرقة حرس «غيرنون». اطلب النَّقيب بارنز...

- حسنًا، حسنًا لا بأس (صوت تصفّح أوراق) سأتجاوز التَّفاصيل من نوع إجابات الاختبار وما إلى ذلك. الاستنتاج هو أن رجلك تمتَّعَ بإعفاءٍ من نوع ب ٤، بسبب «الفصام الحادّ». أضاف الطَّبيب النَّفسيّ ملاحظةً مكتوبةً بخطِّ اليد في الهامش. كتب: «ضرورة العلاج الفوريّ» وسطّر تحت هذه الكلمات. ثمّ «الرّجاء الاتِّصال بالمركز الاستشفائيّ الجامعيّ بـ«غيرنون». في رأيي، كان رجلك مُختلًّا حقيقيًّا لأن...

- هل لديك اسم الطّبيب؟

- بالطبع، إنه الطَّبيب الرَّئيسيّ إيفينز.

- ألا يزال يعمل في حاميتكم؟

- نعم، إن مكتبه في الأعلى.

- هلَّا حوَّلت إليه المكالمة؟

- أنا.. حسنًا.. لا تقفل الخط.

دوَّى ضجيجٌ اصطناعيّ في السماعة، تبعه صوتٌ عميق. قدَّمَ نيمانز نفسه وشرح من جديد، لكنّ الدكتور إيفينز ظلّ غير مقتنع. سأل:

- ما اسم المعنيّ؟

- ريمي كايوا. لقد أعفيته قبل خمس سنوات. فصام حادّ. هل تذكره؟ أودُّ معرفة ما إن كان مرضه النَّفسيّ حقيقيًّا، أم كان يتظاهر بالجنون حسب رأيك.

اعترض الصوت:

- هذه الوثائق سرِّيّة.

- وجدنا جثته مُثبَّتةً وسط صخرة. حلقٌ مفتوح، عينان مُقتلعتان، آثارُ تعذيبٍ مُتعدِّدةٌ ومتنوعة. دعاني قاضي التّحقيق برنارد تيربنتيس من باريس للتَّحقيق في جريمة القتل هذه. يمكنه أن يتَّصِل بك بنفسه لكنّي أفضّل توفير الوقت. هل تذكر...

قاطعه إيفينز قائلًا:

- نعم أذكره جيِّدًا. مريض، بل مجنون دون أدنى شكّ.

توقَّعَ نيمانز إجابةً كهذه، لكنه مع ذلك تفاجأ. فكرّر:

- لم يكن يتظاهر بالجنون؟

- كلا. أفحص المُتمارِضين على مدار السنة. يملك الأسوياء خيَالًا شاسعًا أكثر من أيّ مخبولٍ حقيقيّ. يقولون أي هراء، ويصفون هلوسات لا تُصدَّق. من السَّهل فرز المرضى الحقيقيّين فهم ملتحمون بجنونهم. مهووسون، متآكلون. حتّى الجنون يخضع لمنطق... عقلانيّ. كان ريمي كايوا مريضًا، بل حالة يمكن تدريسها.

- ما هي أعراض مرضه؟

- ازدواجية الأفكار، تفكُّك الروابط مع العالم الخارجي، الصّمت... أعراض الفصام التّقليديّة.

- دكتور، كان الرّجل أمين مكتبة في جامعة «غيرنون». كان على اتِّصال يومي بمئات الطلاب و...

ضحك الطَّبيب.

- الجنون عابرٌ يا حضرة المحافظ. ويعرف كيف يتوارى عن عيون الآخرين وكيف يختبئ وراء قناعٍ عاديّ. أنت أفضل مَن يعرف.

- لكنك أخبرتني للتوِّ أن جنونه بدا لك واضحًا.

- لديَّ خبرة كافية. وربما تعلّم كايوا أن يتحكّم في نفسه بعد ذلك.

- لماذا كتبت «ضرورة العلاج»؟

- نصحته بطلب العلاج، هذا كلّ شيء.

- هل اتَّصلت من جهتك بالمركز الاستشفائيّ الجامعيّ بـ«غيرنون»؟

- بصراحة، لا أذكر. كانت الحالة مثيرةً للاهتمام، لكن لا أعتقد أنني أبلغت المستشفى. كما تعلم، إذا كان المعنيّ...

- هل قلت «مثيرة للاهتمام»؟

تنهَّدَ الطبيب.

- عاش هذا الرجل في عالمٍ مُغلق، عالم في منتهى الصرامة، حيث تفكَّكت شخصيته. ربّما تظاهر ببعض المرونة أمام الآخرين، لكنّه كان حرفيًّا مهووسًا بالنظام والدّقة. تبلورت كل مشاعره في شخصيّة محدّدة، شخصيّة منفصلة تقريبًا. لقد كان بمفرده جيشًا كاملًا. حالة... رائعة.

- هل كان خطيرًا؟

- دون أدنى شك.

- وتركته رغم ذلك حرًّا طليقًا؟

ساد الصَّمت. ثم:

- كما تعلم، المجانين يجولون في الطَّبيعة...

- دكتور (قال نيمانز بنبرة أهدأ) كان هذا الرجل مُتزوِّجًا.

- أنا أُشفق على زوجته إذن.

أقفل الشرطيُّ الخطّ. فتحت له هذه المعطيات آفاقًا جديدة. وعمَّقت قلقه.

قرَّرَ نيمانز القيام بزيارة أخرى.

«لقد كذبتِ عليّ!».

حاولت صوفي كايوا إغلاق الباب، لكن المحافظ وضع مرفقه في الإطار.

- لماذا لم تخبريني أن زوجك كان مريضًا؟

- مريضًا؟

- انفصام الشخصية. وفقًا للمختصّين، كان جديرًا بالإقامة في مصحَّةٍ عقليّة.

- أيها النَّذل!

حاولت الشّابّة مرّةً أخرى إغلاق بابها، لكن نيمانز صمد دون صعوبة. رغم شعرها الخفيف وقميصها الفضفاض، بدت له المرأة أجمل من أيّ وقتٍ مضى.

- من الواضح أنك لم تفهمي بعد! صرخ. نحن نبحث عن قاتل. نحن نبحث عن دافع. ربّما ارتكب ريمي كايوا فعلةً يمكن أن تفسِّر فظاعةَ موته، فعلةً قد يكون نسيها. أتوسَّل إليكِ! أنتِ الوحيدة القادرة على مساعدتي!

تجمَّدَت نظرتها. وارتجف جمال وجهها في خطوطٍ خفيّة متوتّرة، وبالخصوص حاجباها المرسومان اللّذان استقامَا في خطٍّ رائعٍ ومثيرٍ للشّفقة.

- أنت مجنون.

- يجب أن أعرف ماضيه...

- أنت مجنون.

كانت المرأة ترتجف. انزلقت نظراتُ نيمانز على جسدها ليتأمَّل نتوء عظام التّرقوة تحت قميصها، كما لمح عبر الصوف حزام حمّالة الصدر الملتوي. فجأةً، في حركة غريزيّة، أمسك معصمها ورفع كمها ليجد خطوطًا زرقاء ممتدَّة على ساعدها. زأر نيمانز:

- كان يضربك.

أشاحَ بنظره عن العلامات الدّاكنة وحدَّقَ في عينَيْ صوفي كايوا.

- كان يضربك! كان زوجك مريضًا. كان يحبّ التسبب بالألم. أنا متأكد. لقد ارتكب فعلةً شنعاء ولا بُدَّ أن بعض الشكوك تساورك حوله. أنتِ لم تخبريني بعُشر ما تعرفين!

بصقت المرأة في وجهه. فتراجع نيمانز مُترنِّحًا. وانتهزت الفرصة لتُغلق الباب بقوَّةٍ في وجهه. أغلقت كلّ الأقفال في سلسلة من النقرات. فاندفع نيمانز مُحاوِلًا فتحه عنوةً. في الردهة، أطلَّ المقيمون بقلق من خلال الأبواب الموارِبة، فركل الشرطي إطار الباب بكعبه.

- لنا عودة! صرخ.

وسادَ الصّمت.

وجَّهَ لكمةً أخيرةً إلى الباب أحدثت صدًى قويًّا ثمّ سكن بضعَ ثوانٍ.

تردَّدَ صوت المرأة خلف الباب وقد تخلّله النحيب، كما لو أنَّه قادم من قبوٍ عميقٍ: «أنت مجنون...».

14

- أريدُ شرطيًّا في زيٍّ مدنيٍّ ليتعقَّبها. اتَّصلوا بوحداتٍ أخرى من الشُّرطة القضائيّة، في «غرونوبل».

- صوفي كايوا؟ ولكن لماذا؟

نظر نيمانز إلى بارنز. كان كلاهما في الغرفة الرَّئيسيّة لقوّات جندرمة «غيرنون». ارتدى النّقيب السّترةَ الرّسميّة: لون أزرق داكن يقطعه شريطٌ أبيض جانبيّ، فبدا أشبه ببحّار.

أوضح نيمانز:

- هذه المرأة تخفي عنّا شيئًا مهمًّا.

- أنتَ لا تعتقد أنها مَن...

- لا، لكنها لا تريد إخبارنا بما تعرفه.

أوْمَأَ بارنز برأسه دون اقتناع، ثمّ وضع ملفًّا كبيرًا بين يدَيْ نيمانز، مليئًا برسائل الفاكس، ومختلف الوثائق والتقارير. وقال:

- النّتائج الأوَّليّة للتَّحقيق الشّامل. لا شيء لافت في الوقت الحالي.

تصفَّحَ نيمانز الملفّ غير مكترثٍ لضجيج المكان حيث تدافع الجندرمة، وهو يسير ببطءٍ نحو مكتبٍ منعزلٍ. كان يُقَلِّب حزم الأوراق التي لخَّصت تحقيقات بارنز و فيرمونت. لم يكن هناك ما يكفي لاستخلاص أيّ ملاحظة بنّاءة، رغم عدد التقارير والشهادات. لم تُسفِر جلسات الاستماع والاستجوابات والبحث الميداني عن شيء. تذمَّرَ نيمانز وهو يدلف إلى المكتب ذي الجدران الزجاجية. جريمة شنعاء كهذه، في بلدة صغيرة كهذه! كيف لا يجد إلى الآن أيّ أدِلَّة أو مُتَّهمين!

احتلَّ كرسِيًّا خلف المكتب الحديدي وقرأ بعناية.

لم يفرز جانبُ المتجوّلين عن أيَّةِ نتيجة، وأدَّت المطالب المقدّمة إلى السجون والمحافظات والمحاكم إلى طرق مسدودة. أمّا سرقة السيارات المسجلة خلال اليومَيْن السابقَيْن، فلم يمكن ربط أيٍّ منها بجريمة القتل. كما تبيّن أنَّ البحث في الجرائم الواقعة في العشرين سنة الماضية غير ذي جدوى. لم يتذكّر أحدٌ جريمةً مُروِّعةً أو غريبةً أو أي شيء من هذا القبيل. وفي المدينة نفسها، اقتصرت المحاضر المُحَرَّرة خلال عشرين عامًا على بعض عمليات الإنقاذ في الجبال وبعض السّرقات الصغيرة والحوادث والحرائق.

انتقل نيمانز إلى الرُّزمة التالية. لكنّ الاستجوابات المنتظمة في الفنادق لم تُقدِّم أي معلومة مفيدة.

مر إلى سجلّات فيرمونت الذي يواصل رجاله تمشيط الأراضي المُحيطة بالنهر. لقد زاروا إلى حدِّ الآن خمسة ملاجئ فقط من أصل سبعة عشر بعضُها ملتصقٌ بالجبل، على ارتفاعٍ يزيد عن ثلاثة آلاف مترٍ فوق مستوى البحر. هل يُعقل أن تُنفَّذ جريمة قتل في ذلك الارتفاع؟ استجوبَ رجالُه الفلاحين أيضًا. ابتسم نيمانز عند قراءة محاضر الجلسات لأنها كُتِبت بلغة الجندرمة المعتادة في مزيج من بعض الأخطاء الإملائيّة الخاصَّة بالشُّرطة وبعض المصطلحات العسكريّة. كان الرّجال قد زاروا كذلك محطّات الوقود ومحطّات القطارات والحافلات دون نتيجةٍ تُذكر. لكن الناس بدؤوا يتساءلون في الشوارع والمنازل. لِمَ كل هذه الأسئلة؟ لِمَ كل هؤلاء الضُّباط؟

وضعَ نيمانز الملفّ على المكتب، وألقى نظرةً عبر النّافذة، فشاهد دوريّةً عادت لتوِّها. خدودٌ حمراء وعيونٌ مُتجمِّدة من البرد. أَوْمأَ برأسه إلى النقيب فيرمونت، الذي ردَّ بحركةٍ لا لبس فيها: «لا شيء».

حدَّقَ المحافظ في الأزياء الرّسميّة بضعَ ثوانٍ، لكن أفكاره كانت تنجرف نحو مكانٍ آخر. فكَّرَ في المرأتَيْن. كانت إحداهما قويَّةً وداكنةً مثل لحاء الشّجر. لا بُدَّ أنها تمتلك عضلاتٍ قويَّةً وبشرةً داكنةً مُخمليَّة بطعم النّسغ والأعشاب المسحوقة. أمَّا الأخرى فنحيلةٌ وحامضةٌ تلفظ التَّوتُّرَ من كلّ مسامها مع عدوانيّةٍ ممزوجة بالخوف سحرت نيمانز أيضًا. ما الذي يختبئ وراء وجهها العظمي الجميل؟ هل كان زوجها يضربها حقًّا؟ ما السِّرّ الذي ترفض إفشاءه؟ وما مدى حزنها على زوجٍ تحملُ جثَّته آثار تعذيبٍ لا متناهٍ؟

نهض نيمانز، والتفتَ إلى إحدى النوافذ. خلف الغيوم وفوق الجبال، ألقت الشَّمس بخطوطٍ من الضّوء بدت كندوب طويلة محفورة في جلد العاصفة الأسود. في الأسفل، رأى الشرطيُّ المنازلَ الرَّماديّة المتشابهة. الأسطح الهندسيّة التي تمنع الثلج من التَّكتُّل

فوقها. النّوافذ الدّاكنة الصغيرة والمربّعة مثل لوحات تشكيليّة غارقة في الظّلام، والنّهر الذي يعبر المدينة ويحاذي المركز.

فرضت صورةُ المرأتَيْن نفسها في عقله مرَّةً أخرى. الإحساس نفسه يمزّقه في كلّ تحقيق. لقد أيقظ ضغط القضيَّة حواسه، وأمره بنوعٍ من الصَّيد العاطفيّ الحارق. كان لا يقع في الحبّ إلا خلال حالات الطَّوارئ الجنائيّة: شهود، مشتبه بهنّ، سافلات، نادلات.

السّمراء أم الشّقراء؟

رنَّ هاتفه الخلويّ. أنطوان ريمس.

- لقد عدت للتوِّ من مستشفى «هوتيل ديو».

مرَّ الصباح دون أن يتَّصِل بباريس. ستنفجر قضيّة ملعب الأمراء في وجهه الآن كالقنبلة. تابع المدير:

- يحاول الأطبَّاء إجراء عمليَّة زرع جلد خامسة لإنقاذ وجهه. لم يبقَ للرجل أيّ جلد فوق فخذَيْه جرَّاء أخذ العيّنات المتواصل. هذا ليس كل شيء، ثلاث إصابات في الرأس، عين مفقودة، سبعة كسور في الوجه، سبعة! نيمانز. الفك السُّفلي مغروس في أنسجة الحنجرة، كما مزّقت شظايا العظام الحبال الصوتية. الرّجل في غيبوبة ولكن مهما حدث فلن يتكلَّم بعد الآن. وفقًا للأطباء، حتّى أشنع حوادث السير لا تتسبَّب في كلّ هذه الأضرار. ماذا عساني أن أقول لهم؟ وللسّفارة البريطانيّة؟ ولوسائل الإعلام؟ أنا وأنتَ يعرفُ أحدنا الآخر منذ زمن طويل. وأعتقد أننا صديقان. لكني أعتقد أيضًا أنَّك وحشٌ كاسر.

ارتجفت يدا نيمانز وقال:

- ذلك الرّجل قاتل.

- بحقِّ الجحيم! وماذا عنك أنت؟

لم يُجِب الشُّرطيّ. ومرَّرَ السَّمّاعةَ المُتلألِئةَ بالعرقِ إلى يده اليسرى. فاستأنف ريمس:

- كيف تتقدَّم قضيّتك؟

- ببطء. لا أدلّة، ولا شهود. الأمر أكثر تعقيدًا مما توقَّعت.

- لـــقد حذّرتك! عندما تكتشفُ وسائل الإعلام أنَّك في «غيرنون»، ستتساقط على

رأسك مثل البقِّ على كلبٍ أقرع. عليَّ اللعنة، كيف فكَّرتُ في إرسالك إلى هناك!

أقفلَ ريمس الخطّ فجأةً. وحدَّقَ نيمانز في العدم دقائق، وقد جفَّ حلقه. وأخذ يسترجع عنفَ الليلة السابقة في ومضات سريعة. لقد أفلتت أعصابه. فضرب القاتل في موجة غضبٍ سيطرت عليه وحطَّمت كل إرادةٍ أخرى غير الرَّغبة في التّدمير.

عاش بيير نيمانز كل حياته في عالمٍ يسوده العنف، عالمٍ من الفساد بحدودٍ قاسية ووحشيّة، ولم يخَف يومًا من خطرٍ وشيك. بل على العكس، كان يسعى إليه دومًا كي يواجهه بشكلٍ أفضل، ويتحكَّم فيه بشكل أفضل. لكنه لم يَعُد قادرًا على هذا التحكُّم. فقد تسلَّلَ هذا العنف إلى دواخله وغزا كلّ كيانه. أصبح ضعيفًا ولم يتغلَّب على مخاوفه. نعم، لا تزال الكلاب تعوي، في زاويةٍ ما من عقله.

اهتزَّ عند سماع رنين هاتفه الخلوي من جديد. قال مارك كوست، الطبيب الشرعي، بصوتٍ منتصر:

- هناك جديد حضرة المحافظ. لدينا دليل، دليلٌ ملموس. إنه يتعلَّق بالمياه القابعة تحت جفنَيْ الجثَّة. لقد تلقَّيتُ للتوِّ نتائجَ المختبر.

- و؟

- إنها ليست مياهَ النّهر. أمرٌ لا يُصدّق! أنا أعمل على العيِّنة مع عالم كيمياء من الشُّرطة العلميّة في «غرونوبل»، باتريك آستييه، عبقريٌّ حقيقيّ. وحسب قوله فإنّ آثار التلوّث في مياه جثَّتنا ليست متطابقة مع تلك التي يحويها السَّيل. بل هي مختلفة تمامًا.

- هلَّا كنتَ أكثر دقَّة.

- مياه الجثَّة تحتوي على حمض الكبريت وحمض النيتريك. درجة حموضتها ٣، أي حموضة عالية جدًّا، خلٌّ تقريبًا. رقمٌ كهذا يمثِّل معلومة قيِّمة.

- لا أفهم شيئًا. ماذا تعني؟

- لا أريد أن أستعمل مصطلحات تقنية، لكن حمض الكبريت وحمض النيتريك من مشتقات ثاني أكسيد الكبريت وثاني أكسيد النيتروجين. وفقًا لأستييه، وحدها محطّات الطَّاقة الحراريّة التي تحرق الفحم البُنِّيّ أي اللّيغنيت تُنتج هذا الخليط، محطات من طرازٍ قديمٍ جدًّا. هكذا استنتج آستييه أنّ كايوا قُتِل أو نُقِل حذوَ مكانٍ من هذا النوع. ابحث عن محطَّة فحم بُنِّيّ في المنطقة وستجد مسرح الجريمة.

حدَّقَ نيمانز في السَّماء التي لمعت قشورها الدّاكنة تحت الشَّمس العنيدة، مثل سمكة سلمون فضِّيّةٍ هائلة. ربّما كان يُمسك أخيرًا بطرف خيط.

- أرسل إليَّ تركيبة هذا الماء على الفاكس، مكتب بارنز.

شرع المحافظ في فتح باب المكتب عندما ظهر إيريك جوانو.

- بحثت عنك في كل مكان. لديَّ معلومات مُهمَّة.

هل بدأت الأدِلَّةُ تظهرُ أخيرًا؟ تراجع الشّرطيان وأغلق نيمانز الباب. ضغط جوانو بتوتُّرٍ على دفتر ملاحظاته.

- اكتشفت وجود مركز للأطفال المكفوفين بالقرب من «البحيرات السبع»[1]. ويبدو أن أغلب روّاده من «غيرنون». هؤلاء الأطفال يعانون من مشاكل مختلفة. السّاد الخلقيّ[2]، التهاب الشبكيّة الصباغيّ، عمى الألوان... عدد هذه الحالات في «غيرنون» أعلى بكثيرٍ من المعدل.

- استمرّ. ما هو أصل هذه الأمراض؟

ضمَّ جوانو يدَيْه.

- الوادي، عزلة الوادي. شرح لي الطَّبيب أنها أمراض وراثيّة تنتقل من جيل إلى آخر بسبب التّزاوج بين الأقارب حتّى إن لم تكن قرابةً مباشرة. يبدو أنّ الأمر شائع في الأماكن المعزولة. نوعٌ من العدوى التي تنتقل عبر الجينات.

مزَّقَ الملازم صفحةً من دفتره.

- هذا عنوان المركز. درس مديره الدكتور شامبلاز هذه الظَّاهرة بدقَّة. اعتقد أن...

رفع نيمانز سبّابته في وجه جوانو.

- ستذهب أنت إلى هناك.

أضاء وجه الشُّرطيّ الشاب.

---

(1) البحيرات السبع (Les Sept Laux): جزء من الكتلة الجبليّة «بالدون» في منطقة «إيزار» تتخلّلها عِدَّة بحيرات مرتفعة (المترجمة).

(2) السّاد الخلقي (Congenital cataract): هي حالة مرضيّة تتمثَّل في عتامة أو تكثّف الجسم البلوري (عدسة العين) منذ الولادة. (المترجمة).

- هل تثق بي؟

- أثق بك طبعًا. هيَّا اذهب.

استدار جوانو لكنه غيّر رأيه، وقال مقطِّبًا.

- حضرة المحافظ... معذرة، ولكن... لماذا لا تذهب لاستجواب المدير بنفسك؟ قد يكون خيطًا مهمًّا. هل وجدت شيئًا أفضل من جانبك؟ هل تعتقد أن أسئلتي ستكون أفضل لأني أصيل المنطقة؟ أنا لا أفهم.

اتَّكأَ نيمانز على إطار الباب.

- هذا صحيح، لديَّ طرفُ خيطٍ آخر. لكني أعطيك أيضًا درسًا جانبيًّا صغيرًا. توجد في بعض الأحيان دوافع غير مُتعلِّقة بالقضيّة.

- أيّ نوع من الدوافع؟

- دوافع شخصيّة. لن أذهب إلى هذا المركز لأنّني أعاني من رهاب.

- رهاب ماذا؟ المكفوفين؟

- كلَّا، الكلاب.

أعربت ملامح الملازم عن عدم التَّصديق.

- لا أفهم!

- فكِّر قليلًا. من يَقُلْ فقدان البصر، يَقُلْ الكلاب. (قلّد نيمانز رجلًا ضريرًا مقوّسًا، مُسترشِدًا بكلبٍ خياليّ) كلاب مرافقة المكفوفين، هل تفهم الآن؟ لذلك لن تطأ قدماي ذلك المكان.

خرج المحافظ فور انتهاء جملته تاركًا الملازم المندهش مسمّرًا في مكانه.

طرقَ بابَ مكتب النّقيب بارنز، وفتحه دون انتظار الإذن بالدخول. كان العملاق يضعُ أكوامًا منفصلةً من رسائل الفاكس: ردود الفنادق والمطاعم ومرائب السيّارات لا تزال تتساقط. بدا مثل بقّال يوزّع مخزونه.

- حضرة المحافظ؟ تفضّل. لقد تلقّيت للتوّ...

- أعرف.

تناول نيمانز رسالة كوست وقرأها سريعًا. كانت قائمة أرقامٍ وأسماءٍ معقّدة، التّركيبة الكيميائيّة للماء الذي وُضِع مكان عينَيْ كايوا.

سأل الشرطيّ:

- حضرة النَّقيب، هل تعرف محطَّة طاقة حراريّة في المنطقة؟ محطَّة تحرق الفحم البُنِّيّ؟

عبسَ بارنز في حيرة.

- لا، لا علم لي بمكانٍ كهذا. ربّما غربًا... يتزايد عدد المناطق الصِّناعيّة في طريق «غرونوبل»...

- أين يمكنني التثبُّت من ذلك؟

أجاب بارنز:

- ربَّما اتِّحاد الأنشطة الصناعية في «إيزار»، لكن... انتظر. لديّ حلّ أفضل. محطّتك هذه، لا بُدَّ أنها ملوّثة إلى أقصى حد، أليس كذلك؟

ابتسم نيمانز ورفع الفاكس المرصّع بالأرقام.

- حموضة ليس لها مثيل.

كان بارنز يكتب.

- إذن جِد هذا الرّجل. آلان ديرتو. بستانيّ يمتلك بيوتًا مُكيّفة استوائية في مخرج «غيرنون». وهو اختصاصيُّ التلوّث لدينا وناشطٌ بيئيّ. لا يوجد غازٌ ولا انبعاثٌ في المنطقة يجهل أصله وكنهه ومكوّناته وعواقبه على البيئة.

كان نيمانز يغادر عندما ناداه النقيب مرَّةً أخرى. رفع كلتَي يدَيْه وكفَّاه ممدودتان نحو المحافظ. يدان هائلتان كيَدَيْ عملاق.

- بالمناسبة، لقد استفسرت عن مشكلة البصمات... كما تعلم، يدا كايوا... نتيجة حادث وقع في طفولته. كان يساعد والده في ترميم المركب الشِّراعيّ الصَّغير العائليّ على بحيرة «آنيسي». احترقت كلتا يدَيْه في وعاءٍ من المواد المنظّفة المسبّبة للتّآكل. لقد تذكَّرَ بعض الشُّهود الحادثة، سيّارة الإسعاف والمستشفى وما إلى ذلك. يمكننا التَّحقُّق من روايتهم طبعًا. ولكن، في رأيي، لا يوجد شيء آخر يمكن استخراجه من هذا الجانب.

استدار نيمانز وضغط على مقبض الباب.

- شكرًا لك حضرة النقيب. (أشار إلى أوراق الفاكس). حَظًّا موفَّقًا.

أجاب بارنز:

- حظًّا موفَّقًا لكَ أيضًا. عالم البيئة، ديرتو، وغدٌ حقيقيّ».

15

- منطقتنا بأكملها تحتضر، منطقتنا محكوم عليها بالفناء متسمّمةً! انبثقت المناطق الصِّناعيّة في كلّ مكان، في الوديان، على سفوح الجبال، في الغابات، ملوّثةً المياه الجوفيّة والأرض والهواء الذي نتنفّسه... هذه هي «إيزار»: غازاتٌ وسمومٌ على كل الارتفاعات!

كان آلان ديرتو رجلًا جافًّا ذا وجهٍ منقبضٍ مُجعَّد. لحيته الصَّغيرة ونظّارته المعدنيّة جعلتاه يبدو ككاهن مورمون هاربٍ منعزلٍ في أحد بيوته المكيّفة. كان يتعامل مع برطماناتٍ صغيرةٍ تحتوي على قطنٍ وترابٍ متحرّك. قاطع نيمانز الرَّجل الذي شرع على الفور في تقديم خطبته العصماء.

- اعذرني. أحتاج إلى معلومة... عاجلة.

- ماذا؟ آه، نعم، بالطبع... (اتّخذ نبرة متعالية). أنت شرطيّ...

- هل تعلم بوجود محطَّةٍ حراريّةٍ قد تستهلك الفحم البُنِّيّ في المنطقة؟

- الفحم البُنِّيّ؟ إنّه فحمٌ طبيعيّ... سمٌّ نقيّ...

- هل تعرف موقعًا صناعيًّا من هذا النوع؟

نفى ديرتو برأسه، وأدخلَ أغصانًا صغيرة في إحدى البرطمانات.

- لا. لا وجود لفحمٍ بُنِّيّ في المنطقة، حمدا لله. منذ السَّبعينيّات، شهدت هذه الصناعات انخفاضًا حادًّا في فرنسا والدول المجاورة. الكثير من التَّلوُّث مع انبعاثات وأدخنة حمضيّة ترتفع مباشرةً نحو السماء، مُحوِّلةً كلّ غيمة إلى قنبلة كيمياويّة...

أخرج نيمانز ورقة الفاكس التي أعطاه إياها مارك كوست.

- هلا تفضَّلت بإلقاء نظرة على هذه المكوِّنات الكيميائيّة؟ إنه تحليل لعيِّنة مياه اكتُشِفَت في مكان قريب من هنا.

قرأ ديرتو الورقة بعنايةٍ بينما جال الشرطيُّ بنظره في المكان. جدران زجاجيّة مظلمة ومتصدّعة ومُلطَّخة بخطوط سوداء طويلة وأوراقٍ بحجم نوافذ، براعم متردِّدةٌ صغيرة وأغصانٌ ملتوية ومتشابكة. بدا الأمر وكأنَّه صراعٌ لاحتلال أكبر حيِّزٍ ممكن من الأرض. رفع ديرتو رأسه حائرًا.

- هل قلت إنّ هذه العيِّنة متأتِّيةٌ من الجوار؟

- نعم.

عدَّل ديرتو نظارته.

- هل يمكنني أن أسألك من أين بالضبط؟

- وجدناها داخل جثَّة.

- ماذا؟ نعم... طبعًا... بما أنَّك شرطي. (فكر مرَّةً أخرى، بريبة متزايدة). جثَّة هنا؟ في «غيرنون»؟

تجاهل المحافظ السؤال.

- هل تشير هذه التركيبة حقًّا إلى التَّلوُّث المرتبط باحتراق الفحم البُنِّيّ؟

- نعم، أو بصفة أشمل، إلى تلوّثٍ شديد الحموضة. لقد حضرت ندواتٍ عن الموضوع. (قرأ التّقرير مرَّةً أخرى). مستويات حمض الكبريت والنّيتريت... استثنائيّة. لكني أكرّر: لم يَعُد هناك أيّ محطَّةٍ من هذا النّوع في المنطقة. لا هنا ولا في فرنسا ولا في كلّ أوروبا الغربية.

- هل يمكن أن ينتج عن نشاطٍ صناعيٍّ آخر؟

- لا، لا أظن.

- أين يمكن أن نجد نشاطًا صناعيًّا يولِّد مثل هذا التلوّث؟

- على بُعد ثمانمائة كيلومتر من هنا. في إحدى دول الشّرق.

ضغط نيمانز على فكّيه. كيف يقبل أن يُبتَر خيطه الأوّل بهذه السرعة.

- ربَّما هناك حلّ آخر.... غمغم ديرتو.

- أيّ حلّ؟

- قد تكون هذه المياه متأتِّية بالفعل من مكانٍ آخر. جمهوريّة التّشيك، سلوفاكيا، رومانيا، بلغاريا... (همس بنبرة من يكشف سرًّا) إنهم بدائيّون حقيقيّون في كل ما يتعلّق بالبيئة.

- هل تقصدُ أنَّ أحدهم عبّأها في حاويات؟ شاحنة عابرة...

انفجر ديرتو ضاحكًا.

- أفكِّر في وسيلة نقلٍ أبسط بكثير، الغيوم.

- هلّا شرحت لي من فضلك.

فتح آلان ديرتو ذراعَيْه ورفعهما ببطء نحو السَّقف.

- تخيَّل محطَّة حراريّة في مكانٍ ما بأوروبا الشَّرقيّة. تخيَّل مداخن كبيرة تبصق ثاني أكسيد الكبريت وثاني أكسيد النّيتروجين طوال اليوم دون انقطاع... يبلغ ارتفاع هذه المداخن أحيانًا ثلاثمائة متر. ترتفع فقاعات الدخان السميكة وترتفع وترتفع ثمّ تختلط بالغيوم... في غياب الرّياح لا تبرح السموم مكانها. ولكن إن هبَّت الرِّياح مثلًا باتِّجاه الغرب، فإنّ السّموم ستنتقل على متن الغيوم التي تنفجر فوق جبالنا وتتحوّل إلى أمطار غزيرة. هذا ما يُسمّى المطر الحمضيّ، وهو يدمّر غاباتنا. كأنَّ سمومنا المحلّية غير كافية! لكني أؤكِّد لك أننا نحن أنفسنا نطلق الكثير من المنتجات السامة عبر سُحبنا...

ارتسم مشهدٌ واضحٌ في ذهن نيمانز، كأنه مرسومٌ بمبضعٍ دقيق. كان القاتل يُجهِز على ضحيّته في مكانٍ ما بالجبل في الهواء الطَّلق. كان يعذِّبُ ويمزِّق ويشوِّه حين هطلت الأمطار. المحجران الفارغان المفتوحان على السماء يمتلئان بمياه المطر، هذا المطر المسموم. يغلق القاتلُ الجفنين في نهاية عمليّته الشَّنيعة على الخزّانَيْن الصغيرَيْن المليئَيْن بالمياه الحمضيّة. هذا هو التَّفسير الوحيد.

لقد أمطرت السماء أثناء ارتكاب الوحش لجريمته.

- كيف كانت حالة الطقس يوم السبت؟ سأل نيمانز فجأةً.

- معذرةً؟

- هل هطلت الأمطار في المنطقة يوم السّبت؟

- لا أعتقد ذلك، لا. كان الطَّقس رائعًا. شمس صيفيّة حقيقيّة...

احتمالٌ واحد. إن ظلَّت السَّماء جافَّةً خلال ساعة الجريمة المُفترَضة، فربما يكتشف مكانًا -مكانًا واحدًا فقط- تساقطت فيه الأمطار. أمطار حمضية من شأنها أن تُحدِّد بدقَّةٍ

مكان ارتكاب الجريمة كدائرةٍ من الطباشير. فهم الشرطيُّ هذه الحقيقة الغريبة: للعثور على مسرح الجريمة عليه أن يتبع طريق الغيوم.

- أين تقع أقرب محطَّة رصد جوِّيّ؟ سأل بصوتٍ متلهِّف.

فكَّرَ ديرتو، ثمّ أجاب:

- على بعد ثلاثين كيلومترًا من هنا، بالقرب من مضيق «منجم الحديد». هل تريد التَّحقُّق من تساقط الأمطار؟ إنها فكرة مثيرة للاهتمام. أنا أيضًا أودُّ أن أعرف ما إذا كان هؤلاء البدائيون لا يزالون يرسلون إلينا قنابلهم السَّامة. إنها حربٌ كيميائيّةٌ حقيقيَّةٌ ومستمرَّةٌ يا حضرة المحافظ، في كنف اللَّامبالاة الشَّاملة!

توقَّفَ ديرتو. سلَّمه نيمانز ورقة.

- رقم هاتفي الجوال. لا تتردَّد في الاتِّصال بي إذا خطرت ببالك أيّ فكرةٍ جديدة عن الموضوع.

استدار نيمانز مُغادِرًا وأوراق الأبنوس تصفع وجهه.

16

قاد المحافظ سيّارته بأقصى سرعة مُلاحِظًا أن الطَّقس بدأ يتحسَّن رغم السماء الدّاكنة. تطايرت ذرّاتُ ضوءٍ فضيّة عبر الغيوم على أوراق شجر الصّنوبر، فاكتست بالأسود والأخضر وهي تهتزُّ على إيقاع الرياح. استمتع نيمانز بهذا الباليه الطبيعيّ، كما لو أن الغابة تحتفي برقصة الرِّياح والشَّمس.

فكَّرَ المحافظُ في الغيمة المسمومة التي انتهت وسط محجرَيْن فارغَيْن.. في وجه جثَّة. عندما غادر باريس لم يكن يتخيَّل قضيَّةً كهذه.

بعد أربعين دقيقةً وصل الشرطيُّ إلى المضيق وعثر بلا صعوبة على محطة الرَّصد الجوِّيّ بقبَّتها المُطِلَّة على سفح الجبل. سلك الطريق المُؤدِّية إلى المبنى العلمي، فوقع على مشهدٍ مفاجئ، فعلى بُعد مائة مترٍ من المختبر، كان الرّجالُ يجاهدون لنفخ بالون مطّاطيّ ضخم وشفاف. ركن سيارته، واقترب من الرّجال ذوي المعاطف الطويلة والوجوه الحمراء المُجهَدة، وأخرج بطاقته الرَّسميّة، فنظر إليه خُبراء الرَّصد الجوِّيّ دون فهم. بدت له الجوانب الطويلة المجعَّدة للبالون أشبه بنهرٍ من الفضَّة. أما في الأسفل، فقد نفخَ لهبٌ أزرق في النّسيج ببطء. واتَّخذ المشهد كله طابع تعويذةٍ أو طقوس سِحْرٍ قديم.

- أنا المحافظ نيمانز.

أشارَ الشرطيُّ إلى القبَّة الإسمنتيَّة وهو يصرخ ليغطّي هدير المنطاد:

- أحتاج إلى أن يرافقني أحدكم إلى المحطّة.

وقف أحدهم، رجَّحَ نيمانز أنه المسؤول.

- ماذا هناك؟

- أريد أن أعرف مكان هطول الأمطار يوم السّبت الماضي، من أجل تحقيقٍ جنائيّ.

قطّب خبير الرّصد الجوّيّ حاجِبَيْه وغطاءُ الرّأس يجلدُ وجهه. وأشار إلى البالون الضَّخم الذي كان يكبر تدريجيًّا. انحنى نيمانز في حركة اعتذارٍ مُفتعَلة.

- يستطيع البالون الانتظار، أما العدالة فلا تنتظر.

توجَّهَ الخبير نحو المختبر وهو يُغَمغِم:

- لم تمطر يوم السّبت.

- سنرى.

كان الرّجل مُحِقًّا. فعند عودتهما إلى المحطَّة المركزيّة، لم يجدا أيّ أثرٍ كان لاضطرابٍ أو أمطارٍ أو عواصف رعديّة فوق «غيرنون» في الفترة المعنيَّة. كانت خرائط الأقمار الصِّناعيّة المعروضة على الشَّاشة واضحةً وضوحَ الشمس: لم تسقط نقطة مطرٍ واحدة يوم السبت. وفي زاوية الشَّاشة ظهرت عناصر أخرى: مستوى الرُّطوبة، الضّغط الجوّيّ، درجات الحرارة... تنازل العالم لإعطاء بعض التفسيرات الفاترة، إذ أنّ إعصارًا عكسيًّا فرض نوعًا من الاستقرار على تحرُّكات السماء لما يقارب ثماني وأربعين ساعة.

لكن نيمانز طلب من المهندس تمديد البحث حتّى صباح الأحد، ثمّ عشيّة الأحد. لا نتيجةَ تُذكَر. وسّع البحث على دائرةٍ بشعاع مائة كيلومتر، لا شيء، مائتي كيلومتر، لا شيء. فضرب المحافظ سطح المكتب.

- لا يمكن! لقد انهمرت الأمطار في مكانٍ مّا، لديَّ الدليل. في جوف وادٍ مّا. على قمّة هضبةٍ مّا. في مكانٍ مّا في الجوار.

هزَّ الخبير كتفَيْه ناقرًا فأرةَ الحاسوب بينما تموَّجت ظلالٌ مُلوَّنةٌ ورسومٌ دائريّةٌ على الشَّاشة فوق خارطة الجبال، لتتبّع نشأة يومٍ صحوٍ وصافٍ في وسط «إيزار».

- لا بُدَّ من وجود تفسيرٍ منطقيّ. تمتم نيمانز. اللَّعنة، أنا... قاطعه رنين هاتفه الخلويّ..

- حضرة المحافظ؟ آلان ديرتو على الخطّ. لقد كنت أفكِّرُ في قصَّة الفحم البُنِّيّ. وأجريتُ تحقيقًا صغيرًا بمفردي. عذرًا، لكنّي أخطأت.

- أخطأت؟

- نعم، من المستحيل أن تهطل أمطارٌ بهذه الحموضة هنا خلال نهاية الأسبوع، ولا في أيّ وقتٍ آخر.

- لماذا؟

- تقصَّيتُ عن صناعات الفحم البُنّيّ. حتّى في الدّول الشرقية، تُزوَّدُ المداخن التي تُحْرِق هذا المكوّن بمصافٍ خاصّة، أو يُنتزَعُ الكبريت من المصادر الخام. باختصار، انخفض هذا التَّلوُّث بشكلٍ كبيرٍ منذ السِّتينيّات. لم يَعُد العالم يشهد تساقط أمطارٍ على هذا القدر من التَّلوُّث منذ خمسة وثلاثين عامًا. لحسن الحظّ! لقد ضلَّلتك دون قصد، المعذرة.

التزم نيمانز الصّمت. وتابع عالم البيئة بارتياب:

- هل أنتَ واثق من أن جثَّتك تحتوي على آثار الماء تلك؟

- كلّ الثّقة.

- إنه أمرٌ لا يُصدّق، لكنّ جثَّتك قادمةٌ من الماضي، لقد تلقَّت مياهَ أمطارٍ هطلت منذ أكثر من ثلاثين عامًا و...

أقفل الشرطي الخطّ بعد عبارة «إلى اللّقاء» خافتة.

عاد إلى سيّارته بخطًى متثاقلة. لقد خُيِّل إليه برهةً أنه يُمسك خيطًا قد يقوده إلى الفاعل، لكن الخيط ذابَ بين أصابعه مثل هذا الماء المشحون بالحموضة الذي لم يكن سوى خيط دخان.

رفع نيمانز نظره مرَّةً أخيرة إلى الأفق.

صارت أشعةُ الشَّمس تملأ الآن الفراغات الضيِّقة بين السُّحب المُتعانقة، وانعكس البريقُ على قِمَّة «بالدون» الكبرى لينكسر على الثلوج الأبدية. كيف أمكنه، وهو الشرطيُّ المحترفُ والرّجل العقلاني، أن يعتقد لحظةً أنَّ بعض الغيوم ستقوده نحو مسرح الجريمة؟

كيف أمكنه...

فجأةً، فتح ذراعَيْه في اتِّجاه المشهد الطَّبيعيّ الخلَّاب مُقلِّدًا حركة فاني فيريرا، مُتسلِّقة الجبال الشّابة. في لحظة إلهامٍ خارقة، تجلَّى له المكان الذي قُتِل فيه ريمي كايوا. أدرك أين يمكن أن يوجد ماءٌ يزيد عمره عن خمسة وثلاثين عامًا.

ليس على الأرض.

ليس في السّماء.

بل وسط الجليد.

قُتِل ريمي كايوا على ارتفاعٍ يزيد عن ألفَيْ متر. لقد قضى نحبَه في نهرٍ جليديّ[1] على ارتفاع ثلاثة آلاف متر فوق مستوى سطح البحر. حيث تتبلور أمطار كلّ سنةٍ وتظلّ حبيسةَ الجليد الأبديّ.

هذا هو مسرح الجريمة، وليس خيط دخان.

(1) النهر الجليديّ أو الجليديّة أو المَجلَدة: كتلة ضخمة من الجليد تتشكَّل في المناطق القطبيّة أو في المنحدرات والجبال، وقد تتكوَّن على مدى مئات السنين أو الآلاف. (المترجمة).

17

كانت السَّاعة تُشِيرُ إلى الواحدة بعد الزّوال عندما دلف كريم عبدوف إلى مكتب هنري كروزييه ووضع التّقرير أمامه. لكنّ الرّجل لم يرفع عينَيْه عن رسالةٍ كان يكتبها، وتركه ينتظر دقائق قبل أن يسأله:

- ماذا لديك؟

- حليقو الرّؤوس ليسو الفاعلين، لكنهم رأوا شخصَيْن يغادران القبو في تلك اللّيلة.

- هل استطاعوا وصفهم؟

- لا، كان الظَّلام حالكًا.

رفع كروزييه عينَيْه عن الرّسالة.

- ربما كذبوا.

- لم يكذبوا. وليسوا من دنّس القبر.

سكت كريم، وامتدَّ الصَّمت بين الرَّجليْن حتّى تابع الملازم:

- كان لديك شاهدٌ حضرة المحافظ. أشار بسبّابته نحو الرّجل الجالس:

- كان لديك شاهد عيان ولم تخبرني. «أحدهم» أخبرك أن حليقي الرّؤوس تجوَّلوا بالقرب من المقبرة تلك الليلة، واستنتجت أنهم الجُناة. لكن الحقيقة أكثر تعقيدًا. وإذا سمحت لي باستجواب شاهدك، ف...

رفع كروزييه يده ببطء في حركة تهدئة.

- اهدأ يا فتى. النّاس هنا يثقون في القدماء، في أصيلي مدينتهم. لم يكن أحدٌ ليخبرك بعُشر ما أخبروني به، من تلقاء أنفسهم. هل هذا كلّ ما باحَ به الحليقون؟

نظر كريم إلى ملصقات تمجيد «أعوان حفظ السّلام» والكؤوس التي فاز بها كروزييه في مختلف مسابقات الرّماية وأجاب:

- لقد شاهدوا أيضًا سيّارةً بيضاء تغادر المكان حوالي الساعة الثانية صباحًا. كانت تسلك طريق د 143.

- ما نوع السَّيّارة؟

- لادا، أو علامة آسيويّة مشابهة. علينا أن نُكَلِّف عونًا بالأمر. السّيارات من هذا النوع ليست كثيرة في المنطقة...

- لِمَ لا تتولّاه أنت؟

- حضرة المحافظ، أنتَ تعرف ما أريد. لقد استجوبت النّازيّين الجدد، والآن أريد أن أفتِّش القبو كما ينبغي.

- أخبرني الحارس أنَّك دخلت بالفعل.

تجاهل كريم الملاحظة.

- ماذا عن التّحقيق في المقبرة؟

- لا شيء، لا توجد بصماتٌ ولا أدنى قرينة. سنوسّعُ عمليات التّمشيط. إن كانوا مُخرّبين، فقد اتَّخَذُوا احتياطاتٍ كبيرة.

- إنهم ليسوا مُخرّبين عاديّين. إنّهم محترفون. ويعرفون تمامًا ما يبحثون عنه. هذا القبو يُخفي سرًّا يريدون معرفته. هل أعلمتم العائلة؟ ماذا قال الوالدان؟ هل سيسمحون لنا بـ...؟

لم يُكمل كريم جملته، لأنّ سحنة مخاطبه صارت تعبّر عن خليط من الامتعاض والحرج. وضع الملازم كلتَي يدَيْه على المكتب وانتظر ردّ المحافظ. همس هذا الثاني:

- لم نعثر على العائلة. لا يحمل أحدٌ هذا اللَّقب في المدينة، ولا في الولاية كلّها.

- تعود الوفاة إلى سنة 1982، لا بُدَّ من وجود مستندات ووثائق.

- لا شيء بحوزتنا حدَّ اللَّحظة.

- ماذا عن شهادة الوفاة؟

- لا توجد شهادة وفاة. ليس في «سارزاك».

أضاء وجه كريم. استدار، وسار بضع خطوات.

- هناك مشكلة في هذا القبر، مع هذا الطفل. أنا مُتأكِّد. وهذه المشكلة مرتبطة بعمليّة السَّطو على المدرسة الابتدائيّة.

- كريم، خيالك خصبٌ أكثر مما ينبغي. هناك ألف طريقة لشرح هذا اللغز. ربّما مات جود الصغير في حادث سير. ربّما نُقل إلى المستشفى في بلدةٍ مجاورة ودُفن هنا لأنه الحل الأكثر عمليّة. ربّما لا تزال والدته تعيش هنا لكنّها لا تحمل اللّقب نفسه. ربّما...

- لقد تحدّثتُ إلى حارس المقبرة. هناك مَن يعتني بالقبر بانتظام.

لم يُجِب كروزييه. فتح درجًا حديديًّا، وسحب منه زجاجة كحول برونزيّة. سكب لنفسه كأسًا صغيرة.

تابع كريم:

- إذا لم نجد هذه العائلة، فهل يمكننا الحصول على إذن بدخول القبر؟

- لا.

- إذن دعني أجد الوالدين.

- والسَّيّارة البيضاء؟ وجمع القرائن حول المقبرة؟

- التعزيزات قادمة. رجال دائرة الشّرطة القضائية سيضطلعون بالأمر. أعطني بضع ساعاتٍ حضرة المحافظ لتولِّي هذا الجزء من التحقيق بمفردي.

رفع كروزييه كأسه لكريم.

- هل أعرض عليك كأسًا؟

رفض كريم بحركة من رأسه. ابتلع كروزييه كأسه في جرعة واحدة.

- لديك حتى السَّاعة السَّادسة لتُتِمَّ تحقيقك، بما في ذلك كتابة التقرير.

غادر العربيُّ قبل أن تنتهي الجملة.

18

هاتف كريم مرَّةً أخرى مديرة مدرسة جان جوريس لمعرفة ما إذا كانت قد جمعت بعض المعلومات عن جود إيتيرو في الأكاديميّة. رغم محاولاتها لم تجد المرأة شيئًا، لا وجود لأيّ ملف ولا بطاقة. لا وجود لأيّ أثرٍ له في الأرشيف كله.

- قد تكون مخطئًا، ربّما لم يعش الطفل الذي تبحث عنه في منطقتنا.

أقفل كريم الخط، ونظر إلى ساعته التى أشارت إلى الثانية بعد الظهر. و منح نفسه ساعتين لزيارة المدارس الأخرى والتَّثبُّت من تركيبة الأقسام الموافقة لعمر الطفل.

في أقل من ساعة وربع كان قد أكمل جولته المدرسية دون أن يصادف أي أثرٍ لجود. عادَ مرَّةً أخرى إلى مدرسة جان جوريس، فقد خطرت له فكرة أثناء تصفُّحه للسجلات. استقبلته المديرة بحماسها المعتاد.

- لقد فعلت المزيد من أجلك يا حضرة الملازم.

- كُلِّي آذان صاغية.

- لقد بحثتُ عن أسماء وعناوين لمن درّسوا هنا من المعلمين في الفترة التي تهمّك.

- وماذا وجدتِ؟

- من سوء الحظ أنّ المديرة السابقة أُحِيلت على التّقاعد.

- كان جود الصَّغير في التَّاسِعة ثمّ العاشرة من العمر خلال العامين 81 و 82 على التّوالي. هل يمكننا العثور على مدرّسات هذَيْن القسمين؟

نظرت المرأة إلى ملاحظاتها المكتوبة.

- نعم. ولا سيَّما أنَّ المعلّمة المسؤولة كانت هي نفسها في القسميْن. من الشَّائع أن «يصْعَد» المعلّم الأقسام من سنةٍ إلى أخرى...

- أين هي الآن؟

- لا أعرف. غادرت المؤسَّسة في نهاية العام الدراسي 81 - 82.

زمجر كريم.

- هناك جانب تغاضينا عنه.

- ما هو؟

- الصُّوَر المدرسيّة. نحتفظ بنسخةٍ من كلّ صورة، كما تعلم. لجميع الأقسام.

عضَّ الملازم شفته، كيف لم يفكّر في ذلك؟ وأردفت المديرة:

- تثبتُّ من أرشيف الصُّوَر. صور الأقسام المعنيَّة سُرقت أيضًا. إنّه أمرٌ لا يُصدَّق...

أضاءت الفكرةُ دهاليزَ عقل الشُّرطيّ. فكَّرَ في الإطار البيضاويّ المُسمَّر على شاهد القبر، وأدرك أن أحدهم «محَا» الطّفل الصغير عن طريق إزالة اسمه وسرقة وجهه. تدخَّلت المرأة:

- لماذا تبتسم؟

أجاب كريم:

- اعذريني. انتظرت هذه اللّحظة فترةً طويلة، فأنا أجد نفسي أعمل أخيرًا على قضيّة حقيقيّة، هل تفهمين؟ (صمت الملازم برهةً ثم استأنف بصوتٍ جادّ) لديّ فكرةٌ أخرى. هل تحتفظين بدفاتر الأقسام من سنواتٍ سابقة؟

- دفاتر الأقسام؟

- في حقبة دراستي، كان لكل قسم دفتر يوميّ تُسجَّل فيه أسماء المتغيّبين والواجبات المنزلية التي يتعيَّن إعدادها لليوم التالي...

- هذا ما نفعله نحن أيضًا.

- هل تحتفظين بها؟

- نعم. لكنّ هذه الدّفاتر لا تحتوي على قائمات التّلاميذ.

- أعلم ذلك، فقط أسماء المتغيّبين.

التمعت عينا المرأة مثل مرآتيْن صغيرتيْن.

- هل تأمل أن يكون جود الصغير قد تغيَّبَ يومًا ما؟

- آمل خصوصًا ألّا يكون المتسلّلون قد فكّروا في الأمر نفسه.

فتحت المديرةُ الخزانة الزجاجيَّة التي تحتوي على الأرشيف. مرَّرَ كريم إصبعه على المجلّدات الخضراء والتقط الدفاتر الخاصة بالسنوات الحاسمة. خيبة أمل أخرى، لم يظهر اسم جود إيتيرو ولو مرَّةً واحدة.

لقد أخطأ الطريق. رغمَ قناعته العميقة، لا يوجد دليلٌ مادِّيٌّ واحدٌ يُشير إلى أنّ الطّفل قد زاول تعليمه هنا. لكنّ كريم واصل تقليب الصفحات بحثًا عن علامة قد تُبيِّن أنه ما زال على الطريق الصحيح رغم كل شيء.

انفجرت العلامة في وجهه، من خلال خطٍّ طفوليٍّ تولّى ترقيم صفحات الدّفتر في الأعلى على اليمين. هناك صفحات مفقودة!

فتح الشرطيُّ الدّفتر على مصراعَيْه واكتشف -بالقرب من خيوط الربط- بقايا الورق الممزّق. من 8 إلى 15 جوان 1982 من قسم السّنة الخامسة. كانت هذه التّواريخ مثل كمّاشة تُمسك بأسنانها شظيّةً من الحقيقة. بدا لكريم أنه «يرى» اسم الطّفل مكتوبًا بالخطّ نفسه في هذه الصّفحات المفقودة...

همس الملازم للمرأة:

- أعطيني دليل هاتف.

بعد بضع دقائق، اتَّصل كريم بجميع الأطباء في «سارزاك»، وهذه القناعة تنبض في دمه: لقد تغيّب جود إيتيرو عن الدراسة من 8 إلى 15 جوان 1982. بسبب المرض دون شكّ.

استجوب كلّ الأطباء، وأمرهم بالعودة إلى ملفّاتهم مُوضِّحًا اسمَ الطّفل في كل مرَّةٍ دون أن يتذكَّر أيٌّ منهم هذا اللّقب. أطلق الشرطيُّ سيْلًا من الشتائم الغاضبة، ثمّ انتقل إلى القرى المجاورة: «كايلهاك»، «تيارمون»، «فالوك». في «كامبوز» فحسب، وهي بلدة تبعد ثلاثين كيلومترًا عن «سارزاك»، أجابه طبيب بنبرةٍ مُحايِدة:

- جود إيتيرو؟ نعم بالتأكيد. أذكره جيِّدًا.

لم يُصَدِّق كريم أُذنَيْه.

- بعد مرور أربعة عشر عامًا، تذكره جيِّدًا؟

- تعال إلى عيادتي. سأشرح لك.

19

كان الدّكتور ستيفان ماسيه نسخةً مُحدَّثةً وأنيقةً من طبيب الرّيف، بملامح بسيطة، ويدَيْن شاحبتَيْن بأصابع طويلة، وبذلةٍ باهظة. كان النموذج المثاليّ للطّبيب المتفهِّم البورجوازيّ الرّاقي الذّوق. شعر كريم بالبغض تجاه الطبيب وحركاته المتكلّفة منذ أن وقعت عليه عيناه. كان يخشى أحيانًا موجات الغضب الفجئية التي تنتابه بعنفِ أمواجٍ عاتيةٍ وسط محيطٍ هادئ.

جلس على طرف الكرسيِّ دون خَلْعِ سُترته الجلديّة. كان مكتب الطبيب خشبِيًّا لامعًا تعلوه بعضُ عناصر ديكور تبدو ثمينةً وجهازَ حاسوبٍ وقاموسًا للأدوية. عيادة رصينة، صارمة، وفخمة.

- هلَّا شرحت لي دكتور. أمرَ كريم دون مقدّمات.

- هل ستخبرني في أيّ إطار...

- لا. (خفّف كريم من فضاضته بابتسامة) أنا آسف.

نقر الطَّبيب على حافة مكتبه، ثمّ اعتدل. من الواضح أن مظهر الشرطيّ فاجأه؛ عربيٌّ ذو قُبَّعةٍ ملوّنة! لم يكن يتوقَّع هذا عندما خاطبه عبر الهاتف.

- حدثت الواقعة في جوان 1982. بدأت بمكالمة تشبه الكثير من المكالمات. طفل صغير، حُمّى شديدة. كانت جولتي الأولى وكنت في الثامنة والعشرين.

- لهذا تتذكَّر المريض؟

ابتسم الطبيب. ابتسامةٌ عريضةٌ ضاعفت حنَق كريم.

- كلَّا كلَّا. تلقَّيتُ المكالمة وسجّلت العنوان دون أن أعرف أين يقع المسكن بالضّبط. كان منزلًا صغيرًا تائهًا في سهلٍ صخريٍّ على بُعد خمسة عشر كيلومترًا من هنا... لديَّ العنوان... سأمدّك به.

أوْمَأَ الملازم برأسه. واستأنف الطّبيب:

- باختصار، اكتشفتُ كوخًا حجريًّا معزولًا تمامًا. كانت الحرارة خانقة، وأزيز الحشرات يملأ الأعشاب الجافة. عندما فتحت المرأة الباب، راودني إحساس غريب بأنها لا يمكن أن تنتمي إلى هذا المكان الفلاحيّ الخشن...

- لماذا؟

- لا أعرف، لمحت آلة بيانو في الغرفة الرّئيسيّة...

- لأن الفلّاحين لا يحبّون الموسيقى؟

- لم أقل ذلك...

صمت الطَّبيب.

- يبدو أنَّك لا تستسيغني...

رفع كريم عينَيْه إلى السّقف.

- هذا لا يهمّ!

أوْمَأَ الطَّبيب برأسه مُتفهِّمًا، مُحافِظًا على تكلّفه.

لم تختفِ ابتسامته، لكنّ عينَيْه امتلأتَا بالخوف. لقد لاحظ للتو المسدّس المُثبَّت في الجراب. وربّما آثار الدماء الجافة على سترة كريم الجلديّة. استأنف بقلق مُتزايد:

- عندما دخلتُ إلى غرفة الطّفل صارت الأمور غريبة حقًّا.

- لماذا؟

هزَّ الطَّبيب كتفَيْه.

- كانت الغرفة خاوية. لا وجود لأيٍّ لعبة أو رسمة أو قلم زينة، لا شيء.

- كيف كان الصغير؟ كيف كان وجهه؟

- لا أدري.

- لا تدري؟

- لا، هذا أغرب ما في الأمر. استقبلتني المرأةُ في الظَّلام. كل النوافذ كانت مُغلقة. لم يوجد أيّ مصدر ضوءٍ في المنزل كلّه. عند دخولي اعتقدت أنّ المرأة تنشدُ شيئًا من الظّل، أو تتفادى الحرَارَة، لكنَّ كلَّ قطع الأثاثِ كانت مكسُوَّةً بالشّراشفِ. كان المشهد... غامضًا جدًّا.

- ماذا قالت لك؟

- إنَّ طفلها مريض، إنّ الضّوء يؤذي عينَيْه.

- وهل تمكَّنت من فحصه... بشكلٍ عاديّ؟

- نعم. في الظِّلّ.

- مِمَّ كان يشتكي؟

- التهاب بسيط في الحنجرة. أتذكَّر أيضًا...

انحنى الطَّبيب ورفع سبّابته إلى شفتَيْه في حركةٍ جافّة ورسميّة يستخدمها حتمًا لإثارة إعجاب الحرفاء. لكن كريم لم يتأثّر.

- أدركت في تلك اللّحظة... عندما أخرَجْتُ مصباحي اليدويّ الصَّغير لفحص حلق الصبي، أمسكَت المرأة بمعصمي. كانت الحركة عنيفةً بحقّ. لم تُرِد أن أرى وجه ابنها.

فكَّرَ كريم وإحدى قدمَيْه تضرب الأرضيّة في الإطار الفارغ المسمّر في القبر وفي الصور المسروقة.

- ماذا تعني بـ «عنيفة»؟

- الأحرى أن أقول قويّة. كانت المرأة تملك قوَّةً غير طبيعيّة. يجب الإشارة إلى طولها الذي تجاوز المتر والثّمانين، عملاق حقيقي.

- هل رأيت وجهها؟

- لا، أكرِّر لك أن كل شيء حدث في ظلامٍ شبه دامس.

- ثمّ؟

- كتبتُ الوصفة الطبيّة، وغادرت.

- كيف تصرَّفَت المرأة؟ أعني مع ابنها؟

- بدت مهتمَّةً ومتحفِّظة في الوقت نفسه. كلّما أطلتُ التَّفكير في الموضوع... لم يكن هناك شيءٌ عاديٌّ واحدٌ في تلك الزّيارة...

- ألم تَعُد لرؤيتها؟

واصل الطَّبيب ذَرْعَ الغرفة جيئةً وذهابًا. نظر إلى كريم بجدِّيّةٍ وقد اختفى كلّ المرح من وجهه. وفهم الشرطيُّ فجأةً لماذا تذكَّرَ ماسيه هذه الزّيارة. مات الصَّغير بعد شهرَيْن من تلك الاستشارة الطّبية. الطَّبيب يعرف ذلك حتمًا.

استأنف:

- بدأت العطلة ثمّ.. حسنًا... عدت بداية سبتمبر. لم أجد العائلة هناك. أخبرني جارٌ بعيد أنهما غادرا...

- غادرا؟ لم يخبرك أحدٌ أن الطّفل فارق الحياة؟

هزَّ الطَّبيب رأسه.

- لا، لم يعرف الجيران شيئًا، لكنّي اكتشفت الأمر لاحقًا، عن طريق الصدفة.

- كيف؟

- في مقبرة «سارزاك» أثناء حضور مراسم جنازة.

- مريضٌ آخر من مرضاك؟

- لقد أصبحت فظًّا، أيها المفتِّش أنا...

وقف كريم فتراجع الطَّبيب.

قال الشرطيّ:

- منذ ذلك الوقت وأنت تتساءل عمّا إذا كنت قد تغاضيت عن علامة مرض أكثر خطورة في ذلك اليوم. منذ ذلك الوقت وضميرك ينهشك. لا بُدَّ أنك أجريت تحرّياتك الخاصَّة. هل تعرف كيف مات الطفل؟

فتح الطَّبيب ياقة قميصه وقد تعرّق فوداه.

- لا، هذا صحيح، لقد.. لقد حاولت، لكني لم أجد شيئًا. اتَّصلتُ بزملائي بالمستشفيات... دون جدوى. صرت مهووسًا بالقصة، هل تفهم؟

استدار كريم نحو باب الخروج.

- ومازالت المفاجآت في انتظارك.

- ماذا؟

صار وجه الطَّبيب أشدّ شُحوبًا من ضمّادة.

ردَّ كريم:

- ستعرف قريبًا.

- اللَّعنة، بماذا أسأتُ إليك؟

- بلا شيء. لكنّي قضّيت شبابي في سرقة سيَّارات رجالٍ مثلك...

- ولكن.. مِن أين أتيتَ؟ مَن أنتَ؟ أنتَ... لم تُرِني أيّ وثيقة رسميّة، أنا...

ابتسم كريم.

- لا تقلق، أنا أمزح.

ولج الرّدهة. كانت غرفة الانتظار مكتظّة. لحق الطَّبيب به.

- انتظر، قال لاهثًا.

- هل تعلم شيئًا أجهله؟ أعني... عن سبب الوفاة...

- لا للأسف.

أدار الشرطيُّ المقبض. فضرب الطَّبيب بقبضته على الباب وارتجفت بذلته الأنيقة كجناح طير.

- إذن ماذا يحدث؟ لماذا تنفض الغبار عن هذه القصّة بعد كل هذا الزمن؟

- زار أحدهم تابوت الطّفل خلال الليلة الماضية. وسطا على مدرسته.

- مَن... مَن فعل ذلك، حسب رأيك؟

قال الملازم:

- لا أعلم بعد. ثمة شيءٌ واحدٌ مُؤكَّد: جرائم اللّيلة الماضية ليست سوى الأشجار التي تخفي الغابة.

20

قاد سيارته فترةً طويلةً سالكًا طرقًا مهجورةً تمامًا. في هذه المنطقة، تُشبه الطُّرُقُ الوطنيّةُ الطُّرُقَ الجهويّةَ، وتشبه الطَّرُقُ الجهويَّة المسالك الريفيّةَ. امتدَّت الحقول تحت السماء الزرقاء خاليةً من الزّراعات والمواشي. ومن حين إلى آخر، كانت القمم الصخريّة ترتفعُ وسط المشهد مُطِلَّةً على الوديان الفضّيّة التي تبدو مُخيفةً كفِخاخ الذّئاب. كان عبور هذه المقاطعة بمثابة سفرٍ عبر الزمن، سفرٍ إلى ماضٍ سحيقٍ سبق الثّورة الزّراعية.

توقَّفَ كريم أمام منزل جود الصَّغير في العنوان الذي مدَّه به ماسيه، فأدرك أن الكوخ اختفى مخلِّفًا كومةً من الأنقاض والصخور. كان بإمكانه الذهاب إلى السّجل العقاريّ ليبحث عن اسم المالك، لكنه فضَّلَ التَّوجُّه إلى بلدة «كاهور» بهدف استجواب جان بيير كاو، المصوّر الرَّسمي لمدرسة جان جوريس، الذي التقط الصُّوَر المدرسيّة المسروقة.

لابُدَّ أنّ وجه الطفل هناك، بين الوجوه الطُّفوليّة المجهولة التي انطبعت على النسخة السالبة من الصُّوَر الفوتوغرافيّة للقسميْن الدراسيّيْن. صار كريم مهووسًا برؤية هذا الوجه، حتى لو إن يتعرّف عليه. فقد كان يأمل في قرارة نفسه رَصْدَ إشارةٍ ما، رعشةٍ ما، لحظةَ رؤية الصّور.

كانت السَّاعة تُشير إلى الثّالثة بعد الظُّهر عندما رَكَن سيارته في مدخل الحَيِّ السكنيّ بـ «كاهور». نوافذ حجريّة، وشرفات من الحديد والقرميد تُلخِّص كل الجمال التقليديّ لوسط المدينة العتيق، وكلّ ما يكفي لإثارة غثيان كريم، ابن الضّواحي.

سار مُحاذيًا الجدران، ورأى أخيرًا لافتة جان بيير كاو، المُتخصِّص في «تصوير حفلات الزّفاف والتّعميد». في الطّابق الأوَّل.

صعد مجموعةً من السّلالم، فوجد غرفةً فارغةً وغارقةً في الظلام. لمح الشرطيُّ بصعوبة الإطارات المعلّقة حيث يبتسم أزواجٌ في أبهى حللهم متصنّعين سعادةً لا نراها إلّا مطبوعةً على ورقٍ لامع.

شعر كريم بندمٍ فوريٍّ على موجة الازدراء التي انتابته. مَن هو لينصّب نفسه حكمًا على هؤلاء الناس؟ ماذا قدَّمَ وهو الشرطيُّ المنفيُّ الذي لم يقدر يومًا على قراءة عيون النِّساء وحوّلَ كلَّ الحبّ داخله إلى نواةٍ مُتكلّسةٍ بعيدةٍ عن الأنظار وعن كلّ دفءٍ إنسانيّ؟ كانت المشاعر تعني عنده هشاشةً لطالما رفضها مثل سحلية متغطرسة. كان شديد الكبرياء في هذا المجال. والآن، في قوقعته المعزولة، يجفّ على مرأى من الجميع.

- هل تستعدّ للزواج؟

التفت كريم إلى مصدر الصّوت. كان جان بيير كاو رمادِيًّا ومليئًا بالبثور مثل حجر الخفّاف. يحمل سوالف عريضةً منفوشةً وعينَيْن مُتعبتَيْن مُحاطتَيْن بالهالات السوداء. أشعل الرّجل ضوء الغرفة.

وأضاف ناظرًا إلى كريم:

- لا، أسحب سؤالي لستَ تستعدّ للزّواج.

كان الصَّوت أجشَّ كصوتِ مُدخِّنٍ قديم. خلف النَّظّارة وتحت الجفنَيْن المُتهدِّليْن امتزج التعب بالريبة في نظراته. فابتسم كريم. لم يكن لديه أي إذن أو أدنى سلطة في هذه المدينة. كان عليه أن يكسب ودّ الرّجل بطريقة أو بأخرى. قال:

- أُدعى كريم عبدوف. أنا ملازم شرطة وأحتاج إلى بعض المعلومات في إطار تحقيق جنائيّ.

سأله المُصوِّر وقد غلب الفضول قلقه:

هل أنت من «كاهور»؟

- من «سارزاك».

- هل لديك بطاقة أو شيء من هذا القبيل؟

أخرج كريم بطاقته المهنيّة. فتأمّلها المُصوِّر ثوانيَ. وتنهَّدَ الشرطيّ، فقد كان يعرف حقَّ المعرفة أنه لم يسبق للرّجل رؤية بطاقةٍ مثلها عن قرب رغم لعبه دور المُحقِّق الماهر. أعادها كاو إليه أخيرًا بابتسامة مُتوتِّرة والتّجاعيد تملأ جبينه.

- ماذا تريد منّي؟

- أنا أبحث عن صور مدرسيّة.

- أيّ مدرسة؟

- جان جوريس في «سارزاك». أبحث عن صور قسمَيْ الرّابعة أساسيًّا لسنة 1981 والخامسة أساسيًّا لسنة 1982 بالإضافة إلى قوائم التّلاميذ إن وُجِدَت. هل تحتفظ بهذا النّوع من الوثائق؟

ابتسم الرجل مرّةً أخرى.

- أنا أحتفظ بكلّ شيء.

- هل يمكننا إلقاء نظرة؟ سأل الشرطيُّ بألطف نبرةٍ ممكنة.

أشار كاو إلى الغرفة المجاورة.

- طبعًا، اتبعني.

كانت الغرفة الثّانية أكبر من الأستوديو، تتوسّطها منضدة طويلة ثُبِّتَت فوقها آلةٌ سوداء مُعقّدة مليئة بالعدسات والهياكل. ملات صورُ حفلات التّعميد الجدران. اللّوْن الأبيض.. دومًا. الابتسامات، الأطفال..

تبع كريم المُصوِّر إلى الخزانة الخشبيّة. انحنى المُصوِّر ليقرأ الملصقات فوق المقابض المعدنية، ثمّ فتح درجًا ضخمًا مملوءًا بالأظرُف البُنِّيّة.

- جان جوريس. ها هي.

أخرج كاو ظرفًا يحتوي على ملفّات عديدة. تصفّحها مرّتَيْن، وتضاعفت تجاعيد جبينه.

- هل قلت الرّابعة والخامسة لسنَتَيْ 81 و 82؟

- بالضّبط.

رفّت الجفون المُتعبة.

- هذا غريب. أنا... لا أجدها. لقد اختفت.

اهتزّ جسد كريم. هل سبقه اللصوص؟ سأل:

- عندما وصلت هذا الصّباح، ألم تلاحظ شيئًا غير مُعتاد؟

- ماذا تعني؟

- عمليَّة سطو مثلًا.

انفجر كاو ضاحكًا وهو يُشير إلى آلات الاستشعار بالأشعة تحت الحمراء الموضوعة في كلِّ أركان الأستوديو.

- لا يستطيع أحدٌ الدّخول إلى هنا دون علمي، فقد أنفقت مبلغًا باهظًا لتأمين المكان...

ارتسمت ابتسامةٌ خفيفةٌ على شفتَيْ كريم، وقال:

- دعنا نتثبَّت. نظام مراقبتك ليسَ أكثر إزعاجًا من ممسحة أقدامٍ بالقياس إلى لصوصٍ عديدين أعرفهم. أنت تحتفظ بالصُّوَر السّالبة، أليس كذلك؟

تغيَّرَ تعبير كاو.

- لماذا؟

- ربما وجدتُ ما يهمني...

- لا عذرًا، هذا سريّ...

رأى الشرطيُّ وريدًا بارزًا في رقبة المُصوِّر. لقد حان الوقت لتغيير النبرة.

- الصُّوَر السّالبة أيها العجوز! حتى لا أغضب!

حدَّقَ الرّجل في وجه كريم مُتردِّدًا، ثم أوْمَأَ برأسه. ذهب إلى خزانةٍ أخرى. فتح كاو القفلَ الاسطوانيّ ثم أخرج أحد الأدراج بيدَيْن مُرتجفتَيْن. نظر الملازم باهتمامٍ إلى المُصوِّر الذي تزايد قلقه بوضوحٍ مع مرور الدّقائق، قلقٌ غير مُبرَّر. كأنّ كاو، أثناء بحثه، تذكَّرَ حقيقةً ما، ذكرى سمَّمت كل عقله الآن. عاد المُصوِّر إلى المغلّفات ومرَّت الثّواني. نظر إلى كريم أخيرًا بوجهٍ مُمتقع.

- أنا... لا. ليست هنا.

دفع كريم الدرج بعنفٍ تجاهه، فتعالى صراخ المُصوِّر وقد سُحقت يداه في الفخِّ المعدنيّ. سيستعمل كريم اللُّطف في مرَّةٍ قادمة. أما الآن، فقد رفع جسم الرّجل عن الأرض وهو يضغط على حلقه بكلتَي يدَيْه. وقال بصوتٍ هادئ:

- كن عاقلًا، كاو. هل تعرَّضت للسّرقة، نعم أم لا؟

- لا... لا... أقسم...

- إذن ماذا فعلتَ بالصُّوَر اللَّعينة؟

تلعثم كاو:

- أنا... بعتها...

تراخت قبضة كريم بفعل الصدمة. وتأوّه الرجل وهو يُدلّك رقبته ومعصمَيْه. همس الشرطيّ:

- بعتها؟ لكن.. متى؟

أجاب الرجل:

- يا إلهي! إنها قصَّة قديمة.. يحقُّ لي فعل ما أريد بـ...

- متى بعتها؟

- لا أذكر... منذ حوالي خمسة عشر عامًا...

صدمةٌ أخرى. دفع المُصوِّرَ على الخزانة مرَّةً أخرى فتطايرت الملفّات من حولهما.

- فلتروِ لي كلّ شيء من البداية يا أبتاه. لأنني لم أفهم شيئًا.

تجهَّمَ كاو:

- ذات مساءٍ صيفيّ... أتت امرأة.. أرادت الصُّوَر.. مثلك.. الصور نفسها التي تبحث عنها.. تذكّرتها الآن...

زعزعت أقوال الرجل كل قناعات كريم، فالبحث المحموم عن صور جود الصَّغير كان يعود إلى سنة 1982.

- هل حدّثتك عن جود؟ جود إيتيرو؟ هل أعطتك هذا الاسم؟

- لا. أخذت الصُّوَر والصُّوَر السّالبة، وهذا كلّ ما في الأمر.

- هل دفعت أموالًا؟

أوْمَأَ الرّجل برأسه.

- كم دفعت لك؟

- عشرون ألف فرنك.. يعتبر المبلغ ثروةً صغيرةً في ذلك الوقت... مُقابل بضعِ صورٍ مدرسيّة.

- لماذا أرادت هذه الصور؟

- لا أدري. لم أسأل.

- هذه الصُّوَر، لا بُدَّ أنّكَ نظرت إليها. هل فيها طفل لديه ميزة أو وصمٌ على وجهه؟ شيء ربّما أراد أحدٌ إخفاءه؟

- لا. لم أرَ شيئًا... لا أعرف... لا أذكر.

- والمرأة؟ كيف كانت؟ هل كانت امرأةً طويلةً ضخمةَ البُنية؟ هل كانت والدته؟

فجأةً تسمَّر الرّجل في مكانه، ثمّ انفجر ضاحكًا. ضحكة عميقة من الأعماق، قال:

- من المستحيل أن تكون أمّه.

أمسك كريم الرّجل بكلتَي قبضتَيْه فحسب، ودفعه فوق المكتب.

- لماذا؟

دارت عينا كاو في محجرَيْهما.

- لأنها كانت راهبة. راهبة كاثوليكيّة لعينة!

21

توجد ثلاثُ كنائس في «سارزاك». إحداها وسط أشغال ترميم، الثّانية تحت وصاية كاهنٍ عجوزٍ محتضر، والثّالثة يديرها قسٌّ شابٌّ تطارده الشّائعات. يُقال إنه يشرب حتى الثّمالة رفقة والدته في القلاية[1]. كان على الملازم، وهو يكره سكّان «سارزاك» وشغفهم بالشّائعات، أن يعترف بأنهم على حقٍّ هذه المرّة. لقد دُعيَ مرّةً لفصل الأم عن الابن في معركة سكارى حامية الوطيس. ووقع اختيار كريم على رجل الدّين هذا للحصول على معلوماته.

ركن سيارته أمام القلاية. منزلٌ إسمنتيٌّ قبيحٌ يتكوَّن من طابقٍ واحدٍ يجاور كنيسةً حديثةً بنوافذ زجاجيّة غير متناظرة. تشابكت أغصان العوسج والقرّاص على المدخل حيث حملت لوحةٌ صغيرةٌ كلمة «رعيّتي». دقَّ كريم الجرس وانتظر دقائق قبل أن يسمع صرخاتٍ مكتومة. ردَّدَ سيْلًا من السّباب الصَّامت، فلم يكن بحاجةٍ إلى مزيدٍ من التّعقيدات.

أخيرًا، فُتِح الباب.

شَعَرَ كريم أنه أمام حطام شخص. في منتصف النّهار، كانت رائحة الكحول تفوح من القسّ. غابَ وجهه النّحيل بين شعره الأشعث ولحيته الكثَّة، كما لو كان مُغطًّى بالرّماد، حتى عيناه بدتَا مُصطبغتَيْن بلونِ النّيكوتين. انتهت حياة هذا الرَّجل بوصفه رجلَ دين، احترق، وذبل. كما ينتهي عودٌ من أعوادِ العنبر.

- ماذا تريد يا بنيّ؟

كان الصوت خشنًا وحازمًا.

---

[1] مسكن الرّاهب/القسّ/الكاهن/البطريرك في الكنيسة. (المترجمة).

- كريم عبدوف، ملازم شرطة. لقد التقينا في السّابق.

حاول الرّجل تعديل ياقته المُتهالكة.

- آه نعم، أعتقد...

ألقى نظراتٍ مُتوتِّرة حوله.

- هل اتَّصل بك الجيران؟

ابتسم كريم.

- مُطلقًا. قدِمت لأنَّني أحتاج إلى مساعدتكم يا أبتاه، في تحقيقٍ جنائيّ.

- حقًّا؟ تفضَّل إذن بالدخول.

دلف الشرطيُّ إلى المنزل وشعر على الفور بلزوجةٍ تلتصق بنعليه. نظر إلى الأسفل حيث لطَّخت خطوط لامعة الأرضيّة الفاتحة.

همس الكاهن:

- إنها أمّي. لم تَعُد تصلح لشيء. إنّها تلوّث كل شيء بالمربي. (يفرك شعره، مهزومًا) الجنون بعينه! لم تَعُد تأكل سوى هذا الشيء.

كان الدّيكور فظيعًا. قِطَعٌ من الأشرطة اللّاصقة تُحاكي مظهر الخشب والخزف والقماش. ومن خلال فجوة باب، لمح الشرطي مستطيلاتٍ من الإسفنج الأصفر مقصوصة بقاطعٍ مكوّنةً وسائد غير متناسقة في مُحاوَلةٍ فاشلةٍ لمحاكاة غرفة معيشة. مجموعة من أدوات البستنة مُلقاة على الأرض، غرفة أخرى تحوي طاولةً خشبيّةً تعلوها صحون مُتَّسخة بجانب سريرٍ غير مرتَّب.

توجَّهَ الكاهن نحو غرفة المعيشة. تعثّر، ثم استعادَ توازنه. قال له كريم:

- تناول كأسًا من الشّراب. ستوفّر علينا الوقت.

استدار الكاهن بعدوانيّة.

- من الواضح أنك لم تنظر إلى نفسك يا بني. أنت ترتجف من رأسك إلى أخمص قدمَيْك.

ابتلع كريم ريقه بصعوبة. كان لا يزال مصدومًا. فمنذ لقائه بالمُصوِّر لم يأخذ أيّ وقت للتّفكير ولا للتّنفس بعـــــمق. شعر أنّ رئتَيْه ستنفجران وأنّ كلّ جسده تحوَّلَ إلى نبضٍ

سريع. سمع طنينًا في رأسه وفرك وجهه بكُم سترته مثل طفلٍ باكٍ يمسح مُخاطه.

ملأ الكاهن كأسًا لنفسه.

- هل أقدم لك شيئًا؟ سأل بابتسامةٍ غير ودودة.

- أنا لا أتناول المشروبات الرُّوحيّة.

ابتلع الرّجل جرعةً وتصاعدت الدّماء إلى وجهه الهزيل. التهبت عيناه المحمومتان مثل الكبريت وهو يضحك بسخريّة.

- الإسلام، أليس كذلك؟

- لا. إنّما هو الحرص على صفاء ذهني أثناء تأدية العمل.

لوَّحَ الرّاهب بكأسه.

- إذن في صحَّة عملك.

رأى كريم الأمَّ تذرع الممرَّ جيئةً وذهابًا. وقفت منحنيةً كأنَّها دمية مكسورة، وعانقت جرّةَ مربّى. فكَّرَ في التَّابوت المفتوح، في حليقي الرّؤوس، في الرّاهبة التي تشتري صورًا مدرسيّة، والآن يقف أمام هذَيْن الشَّبحَيْن. لقد فتح صندوق باندورا طافحًا بالكوابيس.

تابع الكاهن نظراته:

- دعها يا بني، انسَ أمرها. (جلس على إحدى الحشايا الإسفنجيّة) كُلِّي آذانٌ صاغية.

رفع كريم يده برفق.

- طلبٌ واحدٌ قبل أن نبدأ. من فضلك لا تناديني «بنيّ».

أجاب الرّجل بضحكة خافتة:

- أنت مُحِقٌّ لكنّه الاعتياد.

بعد الجرعة الثانية استعاد وجهه نوعًا من الهدوء الممزوج باليأس.

- ما هو نوع التّحقيق الذي تقوده؟

شعر كريم بالارتياح لأنَّ خبر تدنيس المقبرة لم يبلغ بعدُ مسمع الكاهن. لقد تمكَّنَ كروزييه بطريقةٍ ما من تفادي التّسريبات إلى حدِّ الآن.

- اعذرني، لا يمكنني إخبارك. اِعْلم فحسب أنَّني أبحثُ عن دير، في أرجاء «سارزاك»

و «كاهور»، أو في مكانٍ آخر بالمنطقة. وأعتمد عليك لمساعدتي في العثور عليه.

- هل تبحث عن جماعة مُعيَّنة أو حلقة صلاة مُعيَّنة؟

- لا.

- سكب الرجل كوبًا ثانيًا.

- يوجد العديد من الأديِرة هنا. (ابتسم بسخرية مرَّةً أخرى). يبدو أن المنطقة تشجِّع على العبادة...

- كم تحديدًا؟

- ما لا يقلُّ عن عشرة في المقاطعة.

أجرى كريم حسابًا ذهنيًّا قصيرًا. زيارة هذه الأديِرة المُنتشرة في أنحاء المنطقة ستستغرق يومًا على الأقل. إنها الرّابعة الآن، ولم يتبقَّ له سوى ساعتَيْن، مهمّة مستحيلة.

وقف الكاهن، وفتَّشَ داخل خزانة.

- آه! ها هو ذا!

تصفَّحَ دليل هاتفٍ بأوراق رقيقة. دخلت الأمّ الغرفةَ، وهرعت إلى الزجاجة ساكبةً الشّراب لنفسها دون أن تنظر إلى كريم. لم تحد عيناها عن ابنها، عينان كالرصاص، عينان محفوفتان بالكراهية. فأمر الكاهن دون أن يرفع عينَيْه عن الدليل:

- اتركينا وحدنا يا أمي.

لم تُجِب المرأة. حملت كأسَها بكلتَي يدَيْها اللّتَيْن برزت مفاصلهما مثل هيكلٍ عظميّ. وفجأةً حدَّقَت في كريم وصرخت:

- مَن أنت؟

- اتركينا. (التفت الكاهن إلى كريم)، هذا كلّ شيء. لقد طويت صفحات الأديِرة العشرة، إن أردت تدوينها... لكنَّها بعيدةٌ بعضها عن بعض...

تفحَّصَ كريم الصّفحات. كان يعرف أسماء القرى المُشار إليها، ثم أخرج دفتر ملاحظاته ودوّن بعناية.

- مَن أنت؟ كرَّرَت الأمّ.

- عودي إلى غرفتك! صرخ الكاهن.

اقترب من كريم.

- عَمَّ تبحث بالضبط؟ ربما يمكنني مساعدتك...

رفع كريم قلمه، وحدَّق في رجل الدين.

- أنا أبحث عن راهبة. راهبة مهتمَّة بالصُّوَر.

- أيّ نوع من الصُّوَر؟

رصد كريم بريقًا خاطفًا في عينَيْ الكاهن.

- هل سمعت بأمرٍ مُماثل؟

حكَّ الرَّجل شعره.

- أنا؟ لا.

سأل كريم:

- كم عمرك؟

- أنا؟ لكن... خمسة وعشرون عامًا.

سكبت الأم كأسًا جديدًا، مُنتبهةً إلى كل كلمةٍ تُقال. تابع كريم:

- هل وُلدت في «سارزاك»؟

- نعم.

- هل زاولتَ تعليمكَ هنا؟

رفع الكاهن كتفه.

- نعم، حتّى التّعليم الثانويّ. ثم دخلت...

- في أيّ مدرسة؟ جان جوريس؟

- نعم، لكن...

لمعت الحقيقة فجأةً كشهاب يعبر ظلمات ذهنه.

- لقد قدمَتْ إلى هنا.

- ماذا؟

- الرّاهبة، الرّاهبة التي أبحثُ عنها. لقد جاءت لشراء صورك المدرسيّة. تبًّا! لقد جمعت كلّ الصُّوَر المدرسيّة التي يمكن أن توجد في المنازل. هل درسْتَ مع جود إيتيرو في القسم نفسه؟ هل تعرف هذا الاسم؟

شحب وجه الكاهن.

- أنا... لا أفهم ما تقول.

ارتفع صوت الأم:

- ما هذه القصة؟

مرَّرَ كريم يدَيْهِ على وجهه وكأنَّه يقلب صفحةً على ملامحه.

- سأبدأ من الأوّل. إن كنتَ قد دخلت المدرسة في السادسة من العمر مثل معظم الأطفال، فلا بُدَّ أنك كنتَ في قسم الخامسة من التعليم الابتدائيّ سنة 1982، أليس كذلك؟

- لكن... مضى ما يُقارب الخمسة عشر عامًا!

- وفي الرّابعة سنة 1981.

تصلَّبَ الكاهن وتهدّجت كتفاه، وضغطت أصابعه على ظهر الكرسي حتى بانت عروقه. رغم صغر سنه، كانت يداه تشبهان يدَيْ أمّه. يدان باليتان ونحيلتان ومخطّطتان بالشّرايين الزرقاء.

- نعم... يمكن أن تتطابق التواريخ...

- درست إذَنْ مع صبيٍّ صغير اسمه جود، جود إيتيرو. هذا ليس اسمًا شائعًا. حاوِلْ التذكُّر. الأمر مُهمٌّ جدًّا.

- لا، بصراحة، أنا...

تقدَّمَ كريم خطوةً.

- لكنك تتذكَّر راهبةً تبحث عن صور مدرسية، أليس كذلك؟

- أنا...

كانت الأم مُنتبهةً إلى كلّ كلمةٍ تُقال.

- أيها الوغد، هل صحيح ما يقوله هذا العربي؟ قالت.

استدارت وقفزت نحو الباب. استغلَّ كريم ابتعادها ليضغط على كتفَيْ الكاهن ويهمس في أذنه:

- أخبرني. اللَّعنة! أخبرني بما تعرفه!

انهارَ الكاهن على ركن الحشيّة الإسفنجيّة.

- لم أفهم يومًا ما حدث تلك الليلة...

جثا كريم على ركبتَيْه حين قال الكاهن بصوتٍ مكتوم:

- لقد جاءت... ذات مساءٍ صيفيّ.

- جويلية 1982؟

طأْطَأَ برأسه.

- دقَّت على بابنا... كان الجوّ... حارًّا بشكلٍ خانق... كأنَّ السّاعات الأخيرة من اليوم تريد طبخ كل الكائنات الحيّة... لا أذكر السبب، لكنّي كنت وحدي... فتحت... يا ربّ السّماوات! هل تتخيَّل المشهد؟ كنت لا أكاد أبلغ العاشرة من عمري وظهرت لي هذه الرّاهبة في الظَّلام بثوبها الأسود والأبيض...

- ماذا قالت لك؟

- حدَّثتني أوَّلًا عن المدرسة، عن درجاتي، عن المواد المفضَّلة لديَّ. كان صوتها رقيقًا جدًّا... ثم طلبت رؤية زملائي التّلاميذ... (مسح الكاهن وجهه المتعرّق) أنا... أحضرت لها صورة القسم... الصورة الجماعيّة... كنتُ فخورًا جدًّا بتعرّفها على أصدقائي، هل تفهم؟ حينها أدركتُ أنها تبحث عن شيءٍ ما. نظرَتْ إلى الصورة طويلًا ثم سألتني عما إذا كانت تستطيع الاحتفاظ بها... كتذكار، قالت...

- هل طلبَتْ منك المزيد من الصُّوَر؟

أوْمَأَ الكاهن برأسه. قال بصوتٍ مكتوم:

- أرادت أيضًا صورة الصفِّ الرّابع للعام السابق.

بدا الأمر جليًّا لكريم. حتى لو استجوبَ كل أولياء تلاميذ هذَيْن القسمَيْن، فلن يملك أحدهم أدنى صورة. لكن لماذا تجمعُ راهبة كاثوليكيّة هذه الصُّوَر؟ شَعَرَ كريم أنه يسير وسط أدغالٍ مظلمة.

عادت الأمُّ وهي تحمل صندوقَ أحذيةٍ على صدرها.

- الوغد الصّغير. لقد أعطيتَها صورنا، صور قسمك. عندما كنت مُهذَّبًا جدًّا، ولطيفًا جدًّا...

- اخرسي أُمّاه! (نظر الكاهن إلى كريم). حتّى في ذلك العمر سمعتُ النّداءَ الباطنيّ الذي يدعوني إلى خدمة الرّبّ، هل تفهم؟ كأنَّ تلك المرأة الطّويلة نوّمتني..

- طويلة؟ هل كانت طويلة؟

- لا... لا أعرف... كنتُ في العاشرة من عمري... لكن لا يزال بإمكاني رؤيتها بعباءتها السّوداء... تحدَّثت بصوتٍ هادئ... أرادت تلك الصُّوَر فأعطيتها إياها دون تردّد. فباركتْني واختفت. كنت أعتقدُ أنَّها إشارة ربَّانيّة... أنا...

- أيّها الوغد!

نظر كريم إلى الأُمّ العجوز التي استشاطت غضبًا. وعندما عاد إلى الابن فهم أنه سينغلق على ذاكرته مثل محارةٍ عنيدة. فاستعمل نبرته الأكثر هدوءًا:

- هل أخبرتك لماذا أرادت تلك الصّورة؟

- لا.

- هل سألتك عن جود؟

- لا.

- هل دفعت لكَ مُقابلًا؟

تجهَّمَ الكاهن.

- لا طبعًا! لقد طلبت الصّورتَيْن، هذا كلّ شيء! يا ربّ السّماوات... أنا... ظننت أن تلك الزيارة علامة، هل تفهم؟ تجلٍّ إلهيّ!

كان يبكي.

- لم أكن أعرفُ حينها أنَّني لا أصلح لشيء، أنَّني سأصير مدمنًا على الكحول، مخبولًا وغارقًا في الخمر. وابن هذه الـ... كيف أمارس عملي؟ فاقد الشيء لا يُعطيه! كيف سأمنح إجاباتٍ لا أملكها؟

كان الآن يتوسل إلى كريم وهو يتشبَّثُ بسترته الجلدية:

- كيف تشعُّ بنورك وأنت غارق في الظلام؟ كيف؟ كيف؟

أسقطت والدته الصندوق فتناثرت الصور على الأرضيّة. ثمّ ارتمت عليه وانهالت عليه ضربًا، على ظهره، على كتفَيْه، بضرباتٍ قصيرةٍ متتاليةٍ كرصاص مدفعٍ رشّاش.

- أيّها الوغد، أيّها الوغد، أيّها الوغد!

تراجع كريم مذعورًا. نبضت الغرفة بأكملها حوله وأدرك أنه يجب أن يغادر هذا المنزل، وإلا فسيصيبه الجنون هو أيضًا. لكنّه لا يزال يفتقرُ إلى الإجابات. فدَفَع المرأة وانحنى على الكاهن.

- سأغادر بعد بضع ثوانٍ، كلّ شيء سينتهي في لحظات. لقد التقيتَ الرّاهبة مرّةً أخرى، أليس كذلك؟

أوْمَأَ الرّجل برأسه باكيًا.

- ما اسمها؟

شهق الكاهن. وذرعت والدته البَهو وهي تُهَمهِم بكلماتٍ غير مفهومة.

- ما اسمها؟

- الأخت أندريه.

- أيّ دير؟

- «سان جان دي لا كروا». إنَّها من الكرمليّين[1].

- أين يقع الدير؟

دفن الرّجل رأسه بين ذراعَيْه. فهزَّه كريم بصبرٍ نافدٍ:

- أين؟

- بين... بين «سات» و «كاب آغد»، بالقرب من البحر. أنا أذهب لرؤيتها أحيانًا، عندما تحاصرني الشكوك. هي تُمثِّل ملاذي البشريّ الوحيد، هل تفهم؟ هي سندي... أنا...

[1] الرهبنة الكرمليّة: طائفة كاثوليكيّة نشأت في أواخر القرن السابع عشر في جبل الكرمل في فلسطين. (المترجمة).

لكن كلماته ارتطمت بالباب الذي أغلقه الشرطيُّ خلفه وهو يركض نحو سيارته.

22

اكفهرَّت السماء مرَّةً أخرى. تحت الغيوم، ارتفعت قِمَّةُ «بالدون» الكبرى مثل موجةٍ سوداء شيطانيّةٍ تجمَّدَت في ذروتها، وبدت منحدراتها المليئة بالأشجار الصَّغيرة وكأنّها تذوب في ضباب المرتفعات. وامتدَّت أسلاك العربات المعلّقة مثل أشرطة رقيقة منتشرة فوق الثلج.

- أعتقد أن القاتلَ صعد إلى هناك مع ريمي كايوا وهو على قيد الحياة. أعتقد أنهما ركبَا واحدةً من قاطرات التليفيريك المُعلَّقة. يمكن لأيّ مُتسلِّقِ جبالٍ مُتمرِّسٍ تشغيلُ إحداها بسهولة في أيّ ساعة من اللّيل أو النّهار.

- كيف خمَّنت أنّهما صعدَا إلى المرتفعات؟

كانت فاني فيريرا، أستاذة الجيولوجيا الشّابة، فاتنةً حقًّا. بدا وجهها، وسط ياقة غطاء الرّأس المضادّ للعواصف، ينزّ حيويّةً وشبابًا صاخبًا، مثل صرخة انتصارٍ في وجه الزّمن. تطاير شعرها حول فوديها والتمعت عيناها الفاتحتان في سمرة بشرتها. شعر نيمانز برغبةٍ شديدةٍ في ضمّ هذا الجسد المضمّخ بالحياة في أنقى صورها، وأجاب:

- ثمّة دليلٌ على أنّ الجثّة عبرت نهرًا جليديًّا في أحد هذه الجبال. يخبرني حدسي أن الجبل المعنيّ هو القمّة الكبرى وأنّ النَّهر الجليديّ المعنيّ هو نهر فاليرن. لأنّها القمّة التي تطلُّ على الكُلِّيّة والمدينة. ولأنّ هذا النَّهر الجليديّ هو منبع النَّهر الذي يدخل الجامعة. أعتقد أن القاتل نزل بعد ذلك عبر السيل بقارب سريع أو شيء من هذا القبيل، مرفوقًا بجثّة ضحيّته. عندها فحسب ثبَّتها وسط الصخور، ليعرضها في انعكاسات النّهر...

ألقت فاني نظراتٍ مُتوتِّرةً حولها. وطاف رجال الجندرمة حول عربات التليفيريك. أسلحة، أزياء رسميّة، توتّر. قالت بعناد:

- كلّ هذا لا يُبرِّر وجودي هنا.

ابتسم المحافظ. تحرّكت الغيوم ببطءٍ في السّماء، مثل موكبٍ جنائزيٍّ يُشيِّع جثمان الشّمس. كان يرتدي هو أيضًا سترةً مُضادّة للرياح، وسروال حماية مضادًّا للماء يلتصق عند الكاحل بحذاء التسلُّق.

- الأمر بسيط جدًّا. بما أنَّني أنوي الصعود بحثًا عن قرائن، فأنا بحاجة إلى مرشد.

- ماذا؟

- سوف أحوم فوق نهر فاليرن الجليديّ حتّى أجد علامةً مّا. وبما أنَّني أحتاج إلى خبير لتوجيهي، فكَّرت بكِ طبعًا (ابتسم نيمانز). لقد أخبرتِني بنفسك أنك تحفظين هذا الجبل عن ظهر قلب.

- وأنا أرفض.

- أرجو أن تراجعي موقفك. يخوّل لي القانون استدعاءك شاهدًا على الميدان. بل يمكنني ببساطة تسخيرك بوصفك دليلًا ميدانِيًّا، فقد قيل لي إنّ لديك شهادة احتراف وطنيّة. لكنّي فضَّلت أن أطلب منكِ الحضور بطريقة وديّة. لا داعي إلى التّعقيدات الرَّسميّة. كلّ ما في الأمر أننا سنحلّقُ فوق هذا الجانب ونعبر الحلبة الطَّبيعيّة في طائرةٍ مروحيّة. لن يستغرق الأمر أكثر من ساعات قليلة.

أشار نيمانز إلى رجال الجندرمة، وكانوا ينتظرونه بالقرب من شاحنةٍ صغيرة. فوضعوا أكياسًا كبيرة من القماش المُقاوِم للماء على المنحدر على بُعد أمتار قليلة.

- لقد أحضرت المُعدَّات اللّازمة للرّحلة الاستكشافيّة. إن أردتِ التَّثبُّت من...

- لماذا اتَّصلت بي، لماذا أنا بالذّات؟

قالت بعنادٍ ينافس عنادَ الثّيران وهي تُشير إلى رجال الجندرمة خلفها.

- يستطيع أيّ رجلِ درك الاضطلاع بهذا الدّور. الإغاثة في المرتفعات من اختصاصهم. ألا تعلم ذلك؟

مال الشرطيُّ نحوها.

- حسنًا، لنفترض إذَنْ أنَّني أحاول التَّقرُّب منك.

نظرت إليه فاني بسخط.

- حضرة المحافظ، لقد اكتشفت جثَّةً مُعلَّقةً في منحدرٍ صخريٍّ قبل أقلَّ من أربع وعشرين ساعة وخضعتُ لاستجواباتٍ عديدةٍ، وقضيت وقتًا طويلًا في المركز. لو كنت

مكانك لتعاملت بحذرٍ مع صمّامات الفحولة!

راقب نيمانز محاوِرَته. رغم جريمة القتل، ورغم هذا الجوّ الكئيب، فقد وقع تحت سحر هذه المرأة القويَّة والبرِّيّة. قالت فاني وهي تعقد ذراعَيْها:

- أُكرِّر السؤال، لماذا أنا؟

أمسك الشرطيُّ غصنًا ميّتًا مُغطًّى بفطرٍ أخضر، واختبر مرونته في حركةٍ عصبيّة.

- لأنك خبيرة جيولوجيا.

قطَّبت فاني حاجبَيْها. فاستطرد نيمانز شارحًا:

- أسفرت التّحاليل التي أجريناها على آثار المياه عن نتيجة مفاجئة. فقد اتَّضح أن المياه التي وجدناها وسط جسد الضَّحيَّة تعود إلى فترة ما قبل الستينيّات وتحتوي على مواد ملوّثة لم تَعُد موجودة، أي على بقايا ترسّباتٍ ناتجة عن أمطارٍ هطلت في المنطقة منذ أكثر من خمسة وثلاثين عامًا. أنت تفهمين ماذا يعني هذا، أليس كذلك؟

بدت الشَّابّة مهتمّة، لكنّها لم تُجِب. فجثا نيمانز على الأرض ورسم خطوطًا متوازيةً بغصنه الميّت.

- سألت خبراء في المجال. تتكثّفُ تساقطات الأمطار السَّنويّة في طبقةٍ يبلغ سُمكها عشرين سنتيمترًا فوق أعلى الأنهار الجليديّة، حيث لا يوجد ذوبان. (أشار إلى الخطوط التي رسمها). تُحفظ هذه الطبقات في الأعلى إلى الأبد، كما لو كانت في علبة أرشيف بلوريّة. لذلك يمكننا أن نستنتج أن الجثّة وُجدت في أحد هذه الأنهار الجليديّة وحُجزت داخلها المياه التي ظهرت من الماضي.

نظر إلى فاني.

- أريد الغوصَ في تلك الصفائح الجليديّة فاني. أريد النّزول إلى تلك المياه القديمة. لأنّ القاتل أجهز على ضحيّته هناك. وأنا بحاجة إلى مختصٍّ يعرف بالضبط كيف يجد الشّقوق التي تصلنا بذلك الجليد العميق.

تفحَّصَت فاني الطبقات المرسومة على العشب. كان الضوء رمادِيًّا، معدنيًّا، يموج بالانعكاسات. لمعت عينا الشَّابّة مثل نجمَيْن باردَيْن، دون أن تفصِحَا عمَّا يدور في عقل صاحبتهما قبل أن تهمس:

- ماذا لو كان فخًّا؟ ماذا لو جمع القاتل تلك الشظايا الجليديّة ووضعها في جثّتك فقط لاجتذابك إلى القمّة؟ تـــقع الطبقات التي تتحدَّث عنها على ارتفاعٍ يفوق ثلاثة آلاف

وخمسمائة متر. إنها ليست نزهةً مرحة. ففي الأعلى، ستكون هشًّا ومُعرَّضًا للـ...

أجاب نيمانز:

- سبق وفكَّرت في هذا الاحتمال. لكن ذلك يعني أنها رسالة، أنَّ القاتل يريد منَّا الصعود. وهذا ما سنفعله. هل تعرفين شقوقًا في حلبة فاليرن تمكِّننا من الوصول إلى جليد الماضي؟

أَوْمأَتْ فاني برأسها إيجابًا.

- كم عددها؟

- على هذا النَّهر الجليدي يوجد، على حدِّ علمي، شقٌّ واحدٌ. ويمتاز بعمقه الشّديد.

- ممتاز. هل نستطيع النّزول، أنا وأنت، في هذه الفجوة؟

شقَّ أزيز المروحيّة السَّماء فجأةً واقترب الهدير بسرعة، فاهتزَّ العشب مُتموِّجًا، واهتاجت مياه السَّيْل على بُعد بضعِ أمتار. ثمّ كرَّرَ المُحافظ:

- هل نستطيع، فاني؟

نظرت إلى الطّائرة التي صمَّ ضجيجُها الآذان ومرَّرت يدها عبر خصلات شعرها المجعّد. فقفز قلب نيمانز بين ضلوعه عندما ابتسمت له في شيءٍ من الدهاء:

- تمسَّك جيِّدًا سيّدي الشرطيّ.

23

بدا المشهد من نافذة المروحيّة أشبة بلوحةٍ فنيّةٍ من إبداع الطّبيعة، إذ رسم التّباين بين القمم والوديان وبين الأضواء والظلال حدودًا مدهشة بين الأرض المنبسطة والأشجار والصّخور. تأمَّلَ نيمانز بحيرات الأشواك القائمة شاعرًا أنه يفهم أخيرًا حقيقةً عميقةً عن كوكبنا، حقيقةً صارت فجأةً عارية، عنيفة، صافية، حقيقةً ستقاوم إرادة الإنسان دومًا.

طافت المروحيّة عبر متاهة التّضاريس صاعدةً بسلاسة مجرى النهر الذي تجمَّعت كلّ روافده هنا، بطريقة عكسيّة، في تيَّارٍ واحدٍ متلألئ. تفحَّصَت فاني -الجالسة بجانب الطَّيّار- السّيول وهي تُلقي بانعكاسات خاطفة هنا وهناك. كانت هي المسؤولة عن العمليّة.

تضاءل أخضر الغابات تدريجيًّا. وتراجعت الأشجار وانزلقت في ظلالها، كما لو أنها عدَلَت عن تحدّي السَّماء. حان دور التّراب الأسود الذي شكَّلَ ممرًّا عقيمًا لا بُدَّ أنه شبه مُتجمِّدٍ على مدار السّنة، مزيج من طحالب قاتمةٍ وفطريّاتٍ باهتةٍ ومستنقعاتٍ جامدةٍ يثير شعورًا شديدًا بالوحشة. سرعان ما ظهرت بعده هضابٌ رماديّةٌ عريضةٌ وتلالٌ صخريّةٌ تبرز كما لو كانت ناجمةً عن زفير الأرض. ثمّ تجاويف جديدة، مثل خنادق سوداء تُحيط بقلعة منيعة. كان الجبل هناك. كان يتمطّى ويتمدّدُ ويتعرّى عارضًا سفوحه وهُوَاهُ.

الوهج أخيرًا، البياض الناصع. القببُ المُغطّاة بالثّلوج. صدوعُ جليدٍ بدأت حوافّها تلتئمُ مع قدوم الخريف. لمحَ نيمانز مجرى المياه المتجمِّدة وسط مسارها. رغم السّماء الرَّماديّة، كان سطح هذا الضَّوء الثُّعبانيّ باهرًا مثل لهبٍ أبيض. وضع نظارته الواقية وجال بنظره في النَّهر الموصوم. واستطاع أن يرصد في القاع خطوطًا مزرقَّةً، مثل ذكرياتٍ من السَّماء سجنها الجليد. امتصَّ الثّلج هنا كلّ ما يُحيط به، حتّى هدير المراوح.

في المقدمة، كانت فاني تُدقِّق باستمرارٍ في جهاز تحديد المواقع المرتبط بالأقمار الصِّناعيّة (GPS) الخاصّ بها. أمسكت بلاقط الصَّوت المتّصل بخوذتها وخاطبت الطّيار:

- هناك، إلى الشّمال الشّرقي، الحلبة الطَّبيعيّة.

أومأ الطّيار، وانعطف بحركةٍ تشبه ألعاب الفيديو نحو فوّهةٍ كبيرةٍ بطول ثلاثمائة متر على الأقلّ في شكل هلال، بدت وكأنها تتّكِئ على منحدر القمّة الأقصى. داخل هذا الحوض الطبيعيّ، امتد لسانٌ جليديّ وحشيّ ناشرًا شظايا لامعةً في الأعلى وانعكاساتٍ قاتمةً في الأسفل، حيث تراكم الجليد وتكثّف وتشظّى مُشكِّلًا نِصالًا مُتحجّرة. صرخت فاني مُخاطِبةً الطّيار:

- هنا، في الأسفل الشّقّ الكبير.

توجَّهت المروحيّة إلى حدود النَّهر الجليديّ، حيث انفتحت النّتوءات الشّفّافة على شقٍّ طويل، صدعٍ من الظّلام بدا شبيهًا بابتسامةٍ وسط وجهٍ مطليٍّ بالأبيض. هبطت المروحيّة وسط زوبعة من مسحوق الثّلج ورسمت عاصفةُ الدّوّارات أخاديد واسعةً على القاع الثّلجي.

صاح الطّيار:

- ساعتان. سأعود بعد ساعتَيْن، قبل حلول اللَّيل.

عدَّلت فاني نظامَ تحديد المواقع، ثمّ سلّمته إلى الرَّجل، مشيرةً إلى نقطةٍ سيلتقيانه فيها، ثمّ قفزت مع نيمانز وكلاهما مُحمَّلٌ بكيسٍ ضخمٍ مضادٍّ للماء.

ابتعدت المروحيّة على الفور كما لو أن السَّماء ابتلعتها، تاركةً ظلَّيْن بشريَّيْن وحيدَيْن وسط صمت الثّلج السَّرمديّ.

بعد لحظةٍ وجيزةٍ من التَّأمُّل، تفحَّصَ نيمانز الأخدود الجليديّ الذي يقفان على حافّته مثل جُسَيْمَيْن مجهريَّيْن في صحراء بيضاء. كان الشرطيُّ منبهرًا، وقد تأهَّبت كلّ حواسّه. خُيِّل إليه أنه يسمع، رغم ثقل المشهد الطَّبيعيّ المُحيط به، همس الثّلج الخفيف الذي تفتَّتت جزيئاته في ارتجافٍ سرّيٍّ وحميم.

نظر إلى الشَّابّة الواقفة بثقة وهي تتنفَّس بعمقٍ كما لو أنها تملأ رئتَيْها بالبرد والنقاء، وكأنَّ الجبل حسّن مزاجها. وفكَّرَ أن سعادة هذه المرأة مرتبطةٌ بهذه الانعكاسات المتموِّجة وهذا الضَّغط الخفيف. بدت له أشبه بجنِّيّة، بحوريّةٍ جبليّةٍ ساحرة. ثمّ سأل وهو يُشير إلى الشقّ:

- لماذا هذا الشّق دون غيره؟

- لأنه الشّق الوحيد العميق بما يكفي للوصول إلى الطّبقات التي تريدها. فهو مفتوحٌ حتّى عمق مائة متر.

اقترب نيمانز.

- مائة متر؟ لكننا نحتاج إلى النّزول بضعة أمتارٍ فحسب للوصول إلى الطّبقات الموافقة للستينيّات. أجريت الحسابات اللّازمة: بمعدل عشرين سنتيمترًا في السّنة...

ابتسمت فاني.

- هذه الأرقام نظريّة. فالنّهر الجليديّ لا يلتزم بالمعدّل، لأن الجليد يُسحق بشكلٍ مائل. بعبارةٍ أخرى، الجليد يستطيل. على أرض الواقع، تُمثِّل التَّساقطات السَّنويّة في هذا الأخدود طبقةً يبلغ سُمكها مترًا. أَعِد الحساب سيّدي الشرطيّ. للعودة خمسةً وثلاثين عامًا إلى الوراء، سيتعيَّن علينا نزول..

- أكثر من خمسةٍ وثلاثين مترًا؟

أَوْمأَتْ الشَّابّة برأسها إيجابًا وأشارت إلى الهوّة خلفها.

- اخترت هذا الشّق لسببٍ آخر أيضًا. لا تفصله عن محطَّة التلفيريك سوى ثمانمائة متر. إذا كنتَ على حقّ، إذا كان القاتل قد استدرج ضحيّته حقًّا إلى فجوة في الجليد، فالأرجح أنه فعلها هنا. إنه الشّق الوحيد الذي يسهل الوصول إليه سيرًا على الأقدام.

جلست فاني على الأرض وفتحت حقيبتها لتُخرِج زوجَيْن من قواعد الأحذية الفولاذية وتُلقي بزوجٍ منها إلى نيمانز.

- ثبِّتها في قدمَيْك.

امتثل نيمانز. ثبَّتَ النعلَيْن المعدنيَّيْن وعدَّلهما على حوافّ فردَتَيْ حذائه. ثمّ ربط الأشرطة مثل ركاب السّرج. فجعله ذلك يتذكَّر أربطة حذاء التَّزلُّج في طفولته.

أخرجت فاني براغي طويلةً مُجوَّفةً تنتهي بحلقاتٍ بيضويّة. «مسامير تسلُّق الجليد» وأجابت باقتضابٍ عن سؤاله الصَّامت وأنفاسها تُشكِّل ضبابًا لامعًا. ثمّ تناولت معولًا ذا مقبضٍ منبعجٍ تبدو كلّ قطعة فيه مستقلّة، وأعطت خوذةً لنيمانز وهو ينظر إلى كلّ هذه المُعدَّات بفضول.

بدت هذه الأدوات شديدة التّعقيد وبسيطة جدًّا في الآن ذاته.

- اقترب.

عدَّلت فاني حزامًا مُبطَّنًا يشبه متاهةً من الأربطة والحلقات حول خصره وفخذَيْه. ورغم تعقيد الحزام، لم يستغرق منها غلقه سوى بضعِ ثوانٍ. ثمّ تراجعت مثل مُصمِّم أزياء يُقيِّمُ عارضه.

- أنت رائع. ابتسمت.

بعد ذلك، التقطت مصباحًا معقّدًا يتكوّن من أحزمةٍ متقاطعةٍ ودارة كهربائيّة وفتيل مُسطَّح موضوع أمام عاكس. تأمَّلَ نيمانز صورته في المرآة الصّغيرة. فبدا أشبه برجل ثلوج قادم من المستقبل وهو يرتدي القناع والخوذة والحزام والنّعلَ الفولاذيّة. ثبَّتَتْ فاني المصباح في خوذة الشرطيّ، ثمّ مرَّرَتْ أنبوبًا خلف كتفه. ونظرت إلى الخزّان المربوط بحزام نيمانز وهمست:

- إنّه مصباح كربيديّ يعمل بغاز الأسيتيلين. سأريك عندما يحين الوقت.

ثمّ رفعت نظرها وخاطبت نيمانز بنبرةٍ جادَّة:

- الجليد عالمٌ منفصلٌ، حضرة المحافظ. انسَ ردود فعلك وعاداتك وطرق استنتاجك الأرضيّة. لا تثق بشيءٍ هنا، لا الانعكاسات ولا الصّلابة ولا مظهر الحوافّ. (أشارت إلى الهاوية وهي تغلق حزامها). في هذه الفجوة، يصبح كلّ شيءٍ مذهلًا وخارقًا، لكن كلّ شيءٍ مفخّخ. إنه جليدٌ لم تعرف مثله من قبل، جليدٌ مضغوطٌ بشدّة، أكثر صلابة من الخرسانة، لكنه يمكن أن يُخبّئ حفرةً تحت قشرةٍ من بضعِ ملّيمترات. أنا الوحيدة التي ستُعطي التّعليمات، وأنت ستنفّذها.

صمتت فاني، وتركت الشرطيّ يهضم ثقل كلماتها وقد رسمت أنفاسها هالةً سحريّةً حول وجهها. ربطت شعرها في شكلِ كعكة، ووضعت قناعها، وتابعت:

- سننزل من هنا لأنّ هذا الانخفاض سيسهّل دخولنا. سأسير في الصدارة وأغرس المسامير. الغاز المحتبس الذي سأطلقه بكسرِ الجليد سيرسم خطًّا عملاقًا بطول عشرات الأمتار يمكن أن يمتدّ عموديًّا أو أفقيًّا. عليك الابتعاد عن الجدار. سيسبّب الأمر صوتًا كهزيم الرّعد. إنّه ليس خطيرًا في حدّ ذاته، لكنه قد يحرّر كتلًا من الجليد مثل الهوابط. يجب أن تكون عيناك في كلّ مكان. كُن في حالة تأهُّب دومًا، ولا تلمس شيئًا.

فكَّرَ نيمانز في تعليمات المرأة. هذه أوّلُ مرّة في حياته يخضع فيها لأوامر شابّةٍ صغيرةٍ ذات شعرٍ مُجعَّد. بدا أن فاني أدركت أنها زلزلت كبرياءه، فاستأنفت بنبرة ساخرة وآمرة في الوقت نفسه:

- سوف نفقد مفاهيم الزّمان والمكان والوقت والمسافة. سيكون مرجعنا الوحيد هو الحبل. لديَّ أكياس عديدة يحوي كلّ منها مائة متر من الحبل وأنا الوحيدة التي أستطيع قيس المسافة المقطوعة. ستتبع خطاي، وستتبع أوامري. المبادرات الشَّخصيَّة ممنوعة. الحركات العفويّة ممنوعة. هل تفهم ما أقول؟

- حسنًا، همس نيمانز. هل هذا كلّ شيء؟

- لا.

تأمَّلت فاني السَّماء المشبعة بالغيوم مرَّةً أخرى.

- قبلت هذه الحملة الاستكشافيّة بسبب العاصفة فحسب، إذا عادت الشَّمس سيتعيَّن علينا الصُّعود فورًا.

- لماذا؟

- لأن الجليد سيذوب. ستستيقظ السّيول وتسقط فوق رؤوسنا على طول الجدران. مياهٌ لا تزيد حرارتها عن درجتَيْن فوق الصّفر. في حين أن أجسادنا ستكون ساخنة بسبب الجهد العضليّ. الصّدمة الحراريّة الأولى قد تصعق قلوبنا وتسكتها. وحتّى إذا نجونا، فسيقضي علينا الماء. خدر الأطراف، بطء الحركات... لن أفسّر أكثر. ستتحجّر أجسامنا خلال بضعِ دقائق لتبدو كتماثيل متدلّية من الحبل. لهذا، مهما حدث، ومهما يكن ما سنجده، سنصعد دون تردُّدٍ عند أوَّلِ بوادرٍ لظهور الشّمس.

توقَّفَ نيمانز.

- هل يعني كلامك أن القاتل احتاج إلى عاصفة لنزول هذا الشّق أيضًا؟

احتاج إلى عاصفة، أو ليلًا.

فكَّرَ المحافظ: عند تحقيقه في قصَّة الغيوم، علم أن الشَّمس كانت تشرق طوال يوم السّبت في المنطقة. إذا كان القاتل قد نزل فعلًا مع ضحيّته في هذا الشّق، فهذا يعني أنه انتظر حلول الليل. لماذا تكبَّدَ كلّ هذا العناء؟ ولماذا العودة إلى الوادي مُحمَّلًا بالجثّة؟

سار نيمانز بشكلٍ متخبّط وقد أعاقت قواعد الحذاء خطواته إلى حافة الشّق. خاطر بإلقاء نظرة إلى الأسفل فلم تسبّب له الفجوة إحساسًا بالدوار. على عمق خمسة أمتار، انتفخت الجدران حتّى كادت تتلامس، ثمّ تحولت الهوّة إلى خندقٍ رقيق يشبه فتحة محارة عملاقة، انضمَّت إليه فاني وقالت وهي تُعلِّق عددًا من المسامير والمشابك حول خصرها:

- ينزلق السَّيل داخل الشّق وينتشر على بُعد أمتارٍ قليلةٍ في الأسفل. لهذا تتَّسع الهوّة بعد هذا الجزء الأوَّل. في الأسفل، ترشّ المياه الجدران وتُجوِّفها. يجب أن ننزلق إلى الدّاخل، أن نعبر بين هذَيْن الفكَّيْن.

حدَّقَ نيمانز في حافّتَيْ الجليد وقد بدتَا وكأنَّهما تنفتحان على مضضٍ فوق الهوّة.

- إذا نزلنا إلى أسفل النّهر الجليديّ، فهل سنعثر على مياه القرون الماضية؟

- حتمًا. في القطب الشمالي، يمكننا النزول بهذه الطريقة إلى عصورٍ ساحقة. في عمق آلاف الأمتار، توجد مياه الطوفان التي حملت سفينةَ سيّدنا نوح، وربما الهواء الذي تنفّسه أيضًا.

- الهواء؟

- فقاعات الأكسجين المسجونة في الجليد.

اندهش نيمانز، في حين ارتدت فاني حقيبة ظهرها وجثت على حافّة الصّدع. ربطت المسمار الأوّل وعلّقت حلقة تسلُّقٍ مرَّرَتْ الحبل من خلالها. ثمّ نظرت مرَّةً أخرى إلى السماء العاصفة، وقالت بنبرةٍ مرِحة:

- مرحبًا بك في آلة السَّفَر عبر الزَّمن يا حضرة المحافظ.

24

بدأ الاثنان رحلة النّزول.

تدلّى الشرطيُّ من الحبل المُثبَّت في مقبضٍ ذاتيّ الإغلاق. للنزول، لا بُدَّ أن يضغط برفقٍ على المقبض الذي يُطلق الحبل. عندما يُرخي قبضته، يغلق النّظام نفسه ويبقى مُعلَّقًا في الفراغ كأنَّه جالسٌ على حزامه.

كان نيمانز يستمع إلى أوامر فاني وهو مُركِّزٌ على هذه الحركة البسيطة. وكانت هي تخبره، على بُعد أمتارٍ قليلة في الأسفل، متى يمكنه التحرُّك. عند الوصول إلى المسمار الموالي، يُغيِّر الشرطيُّ قيدَه، مع الحرص على تأمين نفسه بمربط -حبل قصير مُتَّصل بحزامه- مع كلّ هذه الأربطة المتشعّبة، فبدا نيمانز أشبه بأخطبوطٍ له مجسّات رنَّانة.

لم يكن المحافظ يستطيع رؤية فاني أثناء نزوله، لكنه شعر بثقة فطريّة في كفاءتها، وكان يكتفي بسماعها تتحرّك على بُعد أمتارٍ قليلةٍ تحته. في تلك اللحظات، لم يُفكِّر في شيء. وكان، وسط تركيزه، يختبرُ ببساطة أحاسيس مختلطةً وغير مسبوقة. هواء الجدار البارد، دعامة الحزام الذي يُبقي جسده مُعلَّقًا فوق الفراغ، جمال الجليد الذي يلمع بالأزرق الدّاكن مثل كتلة ليلٍ مسروقةٍ من السّماوات.

سرعان ما اختفى النّور مُعلنًا أنَّهما تجاوزَا الحوافَّ المُتضخِّمة واخترقَا قلب الهاوية. شعر نيمانز أنه يغوص في بطن وحشٍ بلّوريّ. واحتدّت أحاسيسه وتضاعفت تحت هذا الجرس الجليديّ المكوّن من الرُّطوبة الصّرفة. تأمّل الجدران المُظلمة الشَّفّافة التي تبعث ومضاتٍ خاطفةً مثل أصداء ضوئيّة. وكانت كلّ حركة من حركاتهما تُسبِّب دويًّا يتردَّد في كلّ الشّق، وسط الظَّلام الدّامس.

أخيرًا وطأت قدمُ فاني معْبَرًا شبه أفقيٍّ يمتدُّ على طول الجدار. وصل نيمانز أيضًا إلى الدرج الطَّبيعيّ حيث تقاربت حافّتَا الصَّدع مرَّةً أخرى وأصبحتَا منفصلتَيْن بأمتارٍ قليلة.

أمرت فاني:

- اقترب.

امتثلَ الشرطيُّ على الفور. ضغطت بنقرةٍ واحدةٍ على أعلى خوذته، فانطلق توهُّجٌ قويٌّ، وكأنَّها أشعلت قدّاحة. رأى الشرطيُّ صورته مرَّةً أخرى في عاكس خوذة المرأة، كما رأى لهب الأسيتيلين في شكله المخروطيّ وهو ينشر هذا الضّوء المبهر. أشعلت فاني مصباحها هي أيضًا وتنهّدت:

- إن صدق حدسك وقدم قاتلك إلى هذا الصّدع، فقد مرَّ بالتأكيد من هنا.

نظر إليها نيمانز دون فهم. شوَّهَ وهجُ المصباح الأصفر الأفقيّ وجه المرأة، وحوَّلَ ملامحها الرّقيقة إلى ظلالٍ بارزةٍ ومخيفة.

أردفت مشيرةً إلى سطح الجدار الأملس:

- نحن في العمق المناسب. تحت ثلاثين مترًا من السطح، أي في مستوى الثّلوج التي تشكّلت في السِّتينيّات...

تناولت فاني كيسًا جديدًا من الحبال وثبّتت مسمارًا في الجدار ببضعِ ضرباتِ مطرقة، ثمّ مرَّرَتْ فيه حلقة تسلُّق وأدارته مثل البرّامة. أذهلت قوَّتُها الجسديّةُ نيمانز. نظر إلى الجليد المتدفِّق من خلال الثُّقب الجانبيّ، وفكَّرَ أنه يعرف قِلَّة قليلة من الرّجال القادرين على القيام بأمرٍ كهذا.

انطلقا من جديد، أفقيًّا هذه المرّة، على طول الوتر المتلألئ. سارَا فوق الهاوية وهما مربوطان أحدهما في الآخر وظهر انعكاسهما مُشوَّشًا على الجدار المقابل. بعد كلّ عشرين مترًا، كانت فاني تقسمُ الحبل، أي تغرس مسمارًا جديدًا وتفصل الجزءَ المُوالي. كرَّرَت المناورة مرَّاتٍ عديدةً حتّى وصلا إلى مائة متر.

- هل نواصل؟ سألت.

نظر إليها الشُّرطيّ. أصبح وجهها بفعل ضوء المصباح شرّيرًا. وأوْمَأَ برأسه مُشيرًا إلى ممرِّ الجليد الممتدّ في انعكاساتٍ لا متناهية مثل مدينة مرايا. فأخرجت المرأة كيسًا جديدًا واستأنفت عمليّتها المنظّمة. مسمار تسلُّق، حبل عشرون مترًا، ثمّ مسمار آخر، فحبل، فعشرون مترًا...

غطّيَا بذلك أربعمائة متر. لا شيء، لا وجود لأيِّ علامة تُشير إلى مرور القاتل من هنا. وسرعان ما شعر نيمانز أن الجدران تهتزُّ أمام عينَيْه. سمع أيضًا نقراتٍ خفيفة، وضحكاتٍ ساخرةً بعيدة. صار كلّ شيءٍ مضيئًا ورنّانًا ومُريبًا. هل يوجد مرضٌ اسمه دوار

الجليد؟ مثل دوار البحر؟ نظر إلى فاني وقد أمسكت بكيس حبال جديد. يبدو أنها لم تلاحظ شيئًا غريبًا.

سيطر عليه القلق. ربما أصابه الهذيان. ربّما أبدى جسدُه وعقلُه، تحت تأثير التّعب، علامات الاستسلام. ارتجف والبرد يهزُّ عظامه هزًّا. تشبَّثت يداه بالمسمار الأخير وتحرَّكت قدماه بشكلٍ أخرق. حاول الاقتراب من فاني بعينَيْن دامعتَيْن. ثمّ شعر أنه يوشك على السّقوط، وأن ساقَيْه لم تعودا قادرتَيْن على حمله. وتضاعفت هلوساته. بدت له الجدران المُزرَقّة أكثر تموُّجًا مع مرور مصباحه، تردّد صدى الضحكات الصغيرة من كلّ الجهات. كان على وشك السقوط في الفراغ، في الجنون. وبصعوبة تمكَّنَ من نطق كلمة واحدة بصوتٍ مُختنق:

- فاني...

استدارت الشّابة، وفهم نيمانز فجأةً أنه لا يهذي.

لم يَعُد وجه المتسلِّقة مليئًا بظلال المصباح. بل غمر توهُّجٌ مبهرٌ ملامحها بقوَّةٍ جعلته لا يستطيع تحديد مصدره. استعادت فاني جمالها الوضّاء. وحين نظر نيمانز حوله، تألَّقَ الجدار بكلّ قوته واندفعت الجداول العموديّة في سرعةٍ جنونيّة.

لا، لم يكن يهذي. على العكس من ذلك، فقد تنبَّهَ إلى الظاهرة بينما كانت فاني منشغلةً بتنظيم حبالها. الشَّمس على السّطح. تبدَّدَت غيوم العاصفة بلا شك وعادت الشَّمس إلى الظّهور. لهذا انتشر النّور في فجوات الجليد. لهذا رأى الانعكاسات وسمع قهقهة المنافذ.

كانت درجات الحرارة ترتفع. كان النَّهر الجليدي يذوب.

- تبًّا. همست فاني وقد فهمت للتوّ.

نظرت إلى أقرب مسمار تسلُّقٍ مُثبَّتٍ في الجدار الذي كان يذوب تدريجيًّا ذارفًا دموعًا طويلة. قريبًا سيخرج اللّولب من مكانه. وحين يحدث ذلك فهي النّهاية، السقوط الحر إلى قاع الهاوية. أمرت فاني:

- ابتعد!

تراجع نيمانز خطوةً إلى الوراء، وحاول التحرُّك إلى اليسار، فانزلقت قدمه. استقام ظهره في الفراغ وسحب الحبل بكل قوته لاستعادة توازنه. حدث كلّ شيء في اللحظة نفسها: صوت اقتلاع المسمار، نعلاه المسنّنان يخدشان الجدار، قبضة فاني تجذبه من

مؤخّرة رقبته في اللّحظة الأخيرة. ألصقته بالجدار فعضّ الماءُ الجليديُّ وجهه، وهمست في أذنه:

- لا تتحرَّك.

تسمَّرَ نيمانز في مكانه، ملتفًّا حول نفسه، مُحاوِلًا التقاط أنفاسه. خطت فاني فوقه فشعر بأنفاسها وعرقها ونعومة شعرها. ربطته بالحبل مرَّةً أخرى وثبّتت مسمارَيْن آخرَيْن بسرعةٍ مذهلة.

في الأثناء، أصبحَ حفيف الهاوية هديرًا، وأصبحت الدُّموع الطّويلة شلّالات. انهمرت التَّساقطات على الجدران الجليديّة من كلّ الجهات، وأرغتْ وأزبدت. انفصلت أجزاءٌ كاملةٌ من الجليد لتتكسر على النّتوءات الصَّخريّة. أغلق نيمانز عينيه، وشعر أنه يبتعد، ينزلق، يختفي في هذا القصر المتلألئ حيث تتوارى الزّوايا والمسافات.

أعادته صرخة فاني إلى الواقع.

استدار، فرآها على يساره ملتصقةً بحبلها وهي تحاول الابتعاد عن الجدار. بذل نيمانز جهدًا خُرافيًّا للنهوض والاقتراب تحت زخات المياه العنيفة. تشبَّثت أصابعه بحبله وترك نفسه يدور مثل المشنوق عابرًا سيْلًا حقيقيًّا. لماذا تحاول الابتعاد عن الجدار في حين أن الهوّة تنتظرهما؟ مدَّت فاني إصبعها نحو الجليد:

- هناك، إنه هناك. زفرت.

تبع اتِّجاه إصبعها بظره.

ففهم.

مستحيل!

عبر السّور المائيّ الشَّفّاف، ظهر جسَدٌ مسجونٌ وسط الجليد في وضعية الجنين، بفمٍ مفتوح في صرخةٍ صامتةٍ أبديّة. مرَّت طبقات الماء فوق الصُّورة مُشوِّشةً مشهد الجسم الأزرق المُثخن بالجروح.

رغم الصّدمة ورغم البرد الذي يقتل كليهما ببطء، أدرك المحافظ أنهما لم يريا إلَّا انعكاس الحقيقة هنا. تثبَّتَ من توازنه على الممرّ الضيِّق، ثمّ دار حول نفسه في شكل قوسٍ مثاليٍّ يمكِّنه من اكتشاف الجدار المقابل. وغمغم:

- لا، بل هناك!

ها هو الجسد الحقيقيّ مغروسٌ في الجدار المقابل، وقد اختلطت ملامحه الدّامية بانعكاسهما.

25

وضع نيمانز الملفّ فوق المكتب وخاطب النَّقيب بارنز:

- كيف تأكَّدت أنّ هذا الرَّجل المُختفي هو صاحب الجثّة؟

- جاءت والدته لرؤيتنا قبل قليل لتبلغنا عن اختفاء ابنها خلال الليلة الماضية...

عاد المحافظ إلى مكتبٍ من مكاتب الدّرك، في الطّابق الأوَّل. بدأت الحرارة للتوِّ تسري في أوصاله بفضل سترة صوفيّة بياقةٍ عالية. قبل ساعة، تمكَّنت فاني من إخراجهما من براثن الهاوية، سالمَيْن تقريبًا، جسديًّا على الأقل. لقد حالفهما الحظ لأنّ المروحيّة مرَّت فوق الموقع في اللحظة نفسها.

تركا فرق الإنقاذ في الجبال تكافح لانتشال الجثّة من ملاذها الجليديّ، بينما عاد المحافظ صحبة فاني فيريرا إلى المدينة وخضعا لفحصٍ طبّيٍّ شامل.

في المركز، أعلن بارنز فور دخوله عن مفقودٍ جديدٍ يمكن أن تتطابق أوصافه مع الجثّة الثّانية. فيليب سيرتيس، ستّة وعشرون سنة، أعزب، ممرّض مساعد في مستشفى «غيرنون». كرَّرَ نيمانز سؤاله وهو يحتسي قهوة ساخنة:

- ما دمنا لم نتحقَّق بعدُ من هويّة الضَّحيَّة، كيف يمكنك التَّأكُّد من أنه فعلًا هذا الرّجل؟

بحث بارنز في ملفّه، ثمّ تلعثم:

- إنّه... بسبب التّشابه.

- التّشابه؟

وضع النَّقيب أمام نيمانز صورة شابٍّ بملامحٍ دقيقةٍ وشعرٍ قصير. ابتسم الوجه بحرارةٍ وبنظرةٍ وديعةٍ وقد انبعث منه تعبيرٌ شبه طفوليّ، لكنه عصبيٌّ أيضًا. فهم المحافظ

مقصد بارنز. يشبه هذا الرَّجل ريمي كايوا، الضَّحيَّة الأولى. العمر نفسه. الوجه الضّيِّق نفسه. الشعر القصير نفسه. شابّان وسيمان ونحيفان، بتعابير تحمل اضطرابًا داخليًّا.

- إنها سلسلة أيّها المحافظ.

شرب نيمانز جرعةً من القهوة. بدا له أنّ حلقه المُتجمِّد قد ينفجر عندما تبلغه هذه الحرارة الشّديدة.

- ماذا؟

- ليست لديَّ خبرتك طبعًا، لكن... إذا كانت الضَّحيَّة الثّانية هي حقًّا فيليب سيرتيس، فمن الواضح أنها سلسلة. أعني أنه قاتل مُتسلسِل. يختار ضحاياه بناءً على صفاتٍ جسديّةٍ مُعيَّنة. هذا... لا بُدَّ أن هذا الوجه يُذكِّره بصدمةٍ مّا و...

صمت النقيب أمام نظرات نيمانز الغاضبة. فحاول المحافظ أن يواري حدّته وراء ابتسامة مُصطنعة.

- حضرة النَّقيب، لن نستنتج نظريّة كاملة من مُجرَّدِ تشابهٍ في الملامح. ليس الآن ونحن لم نثبّت حتّى هويَّةَ الضَّحيَّة.

- أنا... أنت على حق حضرة المحافظ.

ضغط رجل الدّرك بعصبيّة على ملفّه السّميك. بدا مرتبكًا ومتوتّرًا. بإمكان نيمانز قراءة أفكاره كأنها مكتوبة بحروفٍ لامعةٍ فوق جبينه: «قاتل متسلسل في «غيرنون». لن يتجاوز المسكين هذه الصّدمة حتّى يوم تقاعده، بل حتّى بعده. سأل نيمانز:

- أين وصل رجال الإنقاذ؟

- إنهم على وشك إخراج الضَّحيَّة. أطبق الجليد على الجسم بالكامل. وفقًا للزّملاء، وُضِع الرّجل هناك ليلةَ البارحة. يتطلَّب الأمر درجة حرارة منخفضة جدًّا ليتحجَّرَ الجليد بهذه الطريقة.

- متى يمكننا رؤية الجثّة؟

- بعد ساعة على الأقل حضرة المحافظ. آسف.

نهض نيمانز، وفتح النافذة، فتسلّل البرد إلى الغرفة.

السَّاعة السَّادسة مساءً.

أرخى اللّيل سدوله على المدينة وابتلع ظلٌّ كثيفٌ الأسطُحَ الصَّخريّة والأقواس الخشبيّة، بينما زحف النّهر نحو الظَّلام مثل ثعبانٍ يلتوي بين حجرَيْن. ارتجف المحافظ رغم سترته السّميكة. لم يكن الرّيف يومًا عالمه، ولا سيَّما قرية كهذه، بلدة صغيرة محاصرة بسفحٍ جبليّ، في مهبّ البرد والعواصف، ممزّقة بين طين الثّلوج الأسود وقوقعة متدلّيات الكهوف التي لا تصمت. عالم عابس، سرّيّ، عدوانيّ، يتشكَّلُ في صمته كلؤلؤة في قلب محارة.

- هل توصَّلنا إلى شيء مُجدٍ بعد اثنتي عشرة ساعةً من بداية التّحقيق؟

- لا للأسف لم تقدنا التّحقيقات إلى شيء. لا وجود لمُتشرّدٍ ولا لسجينٍ مُفرَجٍ عنه يمكن أن تتطابق صفاته مع القاتل. لا شيء من جانب الفنادق أو محطّات الحافلات والقطارات. كما لم تحقّق الدّوريّات والحواجز المروريّة هي أيضًا أيّ نتائج تُذكَر.

- والمكتبة؟

- المكتبة؟

بظهور الجثّة الثّانية صار طريق الكتب ثانويًّا، لكنّ الشّرطي أرادَ غلق كلّ مسارٍ بدأه في التّحقيق. شرح:

- يُجري رجال الشُّرطة القضائيَّة الجهويَّة بحثًا عن الكتب التي اطَّلَعَ عليها الطَّلبة أو استعاروها من المكتبة.

هزَّ النَّقيب كتفَيْه.

- آه هذا... لا يخصُّ رجالي. يجب أن تسأل جوانو حتّى...

- أين هو؟

- ليست لديَّ أدنى فكرة.

اتَّصل نيمانز على الفور بالهاتف الخلويّ للملازم الشّاب. لم يُجِب. انقطع الاتّصال. استأنف وقد زاد استياؤه:

- ماذا عن فيرمونت؟

- لا يزال هناك في الأعلى، مع رجاله، يفتّشون الملاجئ وجوانب الجبل.

تنهَّدَ نيمانز.

- ستطلب تعزيزات من «غرونوبل». أريد خمسين رجلًا آخر على الأقل. أريد أن تُوجِّه الجهود نحو نهر فالين الجليديّ وقاطرات التليفريك التي تؤدّي إليه. أريد أن يقع تمشيط الجبل حجرًا حجرًا حتّى قمته.

- سأتولّى ذلك.

- كم عدد الحواجز المرورية؟

- ثمانية. محطَّة الاستخلاص على الطَّريق السَّريعة، حاجزان على طريقَيْن وطنيّتَيْن، وخمسة على طُرُقٍ جهويّة. «غيرنون» برمَّتها تحت الرَّقابة المشدّدة حضرة المحافظ، لكن كما أخبرتك...

قاطعة نيمانز وهو يُحدِّق في عينَيْه مباشرةً.

- حضرة النَّقيب، الحقيقة الوحيدة التي نمتلكها الآن هي الآتية: القاتل مُتسلِّق جبالٍ مُتمرِّس. استجوبُوا جميع الأشخاص القادرين على عبور نهرٍ جليديٍّ في منطقة «غيرنون» وما جاورها.

- لن يكون الأمر هيِّنًا. تسلُّق الجبال هي الرِّياضة المحلّيَّة هنا...

- أنا أتحدَّث عن محترفٍ حقيقيٍّ يا بارنز، عن رجلٍ قادرٍ على النّزول إلى عُمق ثلاثين مترًا تحت الجليد وهو يحمل جثَّة. سبق وحدّثتُ جوانو بالأمر. جِدْه واعرف منه ما توصَّل إليه.

انحنى بارنز.

- نعم فهمت. لكنّي أكرِّر: نحن سكّان جبال. سوف تجد مُتسلِّقين مُتمرِّسين في كلّ قرية، بل في كلّ شارع، على جوانب كلّ الكتل الصَّخريّة. إنّه تقليدٌ هنا، ما زال بعض رجال المنطقة يعملون باحثين عن الكريستال أو مربّي مواشٍ... وجميعهم حافظوا على شغفهم بالقمم. وحدهم سكّان المدينة الجامعية بـ«غيرنون» تخلّوا عن هذه العادات.

- ماذا تعني؟

-أعني ببساطة أنه سيتعيَّن علينا توسيع نطاق البحث إلى قرى المرتفعات، وأن الأمر سيستغرق أيَّامًا طويلة.

- اطلب المزيد من التّعزيزات إذن. جهِّز مقرّاتٍ في كلّ قرية. تحقَّق من جداول الأعمال ومن المعدّات والمسافات. اللَّعنة، جِد لي مشتبهين بهم!

فتح المحافظ الباب، وختم:

- ابعث في طلب الأمّ.

- الأم؟

- والدة فيليب سيرتيس، أريد رؤيتها.

26

عاد نيمانز إلى الطّابق الأرضيّ. بدا مقرُّ الجندرمة مثل أي مركز شرطةٍ في فرنسا، وربّما في العالم أجمع. رأى نيمانز، من خلال الجدران المكسوَّة بالزّجاج، تلك الخزائن الحديديّة، والمكاتب غير المتناسقة المُغطّاة بالبلاستيك، والمشمّع المُتَّسخ الملطَّخ بآثار السجائر. كان يحب هذه الأماكن الأحادية اللَّوْن المليئة بأضواء النّيون. فهي تحيلُ على طبيعة مهنة الشرطيّ الحقيقيَّة، أي الشّوارع وفوضاها. لم تكن هذه المقرّات الكئيبة سوى غرفة انتظار المهنة أو مخبأها المظلم الذي ينطلق منه الرجال مرفوقين بعويل صافرات الإنذار.

وقع نظره عليها وهي جالسة في الرّدهة مُلتحِّفةً برداءٍ صوفيٍّ وترتدي سترةَ الجندرمة الزّرقاء. ارتجف عند رؤيتها كأنه صار سجين المرايا من جديد. عندما شعر بأنفاسها الدّافئة في عنقه، ثبَّتَ نظّارته فوق أنفه في مزيجٍ من التوتُّر والاهتمام.

- ألم تذهبي إلى منزلك؟

رفعت فاني فيريرا نحوه عينَيْها الفاتحتَيْن.

- يجب أن أوقّع على شهادتي. للمرَّة الثّانية. لا تعتمد عليَّ لاكتشاف الثّالثة رجاءً.

- الثّالثة؟

- الجثّة الثّالثة.

- هل تعتقدين أن جرائم القتل ستتواصل؟

- ألكَ رأيٌ مُخالف؟

لاحظت الشّابّة ارتسام الألم على وجه نيمانز.

- اعذرني. السُّخرية هي كلّ ما يحول بيني وبين الانهيار العصبي.

قالت وهي تُربِّت على المقعد المجاور لها كأنّها تُغري طفلًا صغيرًا بالجلوس إلى جانبها. امتثلَ نيمانز وجلس حانيًا رأسه عاقدًا أصابعه، ثمّ طقطق بساقَيْه في قلق، وتمتم:

- أردت أن أشكرك، لو لم تكوني معي وسط الجليد لكنتُ...

- لقد أدَّيتُ دوري من موقع المرشدة.

- بالفعل، لم تنقذي حياتي فحسب، بل أوصلتني بالضَّبط إلى ما كنت أنشده...

اكتسى وجه فاني بالجدِّيّة وقد ملأ رجال الجندرمة الرّدهة بهدير الأحذية وحفيف المعاطف الجلديّة، سألت:

- إلى أين وصلتم؟ أعني في التّحقيق؟ لِمَ كلّ هذا العنف المهول؟ لِمَ كلّ هذه الجرائم الرّهيبة؟

حاول نيمانز أن يبتسم، لكن محاولته باءت بالفشل.

- لم نبرح نقطة الانطلاق. كلّ ما لديَّ هو حدسي.

- ماذا تعني؟

- أشعر أنَّنا نتعامل مع سلسلةٍ من جرائم القتل. لكن ليس بالمعنى التقليديّ. إنه ليس قاتلًا يطيع نزواته أو يضرب عشوائيًّا. هذه السّلسلة تستجيب لدافعٍ محدّدٍ وعميقٍ ومنطقيّ.

- مثل ماذا؟

تأمَّلَ الشرطيُّ فاني، وقد لامست الظِّلال وجهها مثل أجنحة طائر.

- لا أدري، لا أدري بعد.

ثمّ صمت كلاهما دقائق. أشعلت فاني سيجارة وسألت دون سابق إنذار:

- منذ متى تعمل في سلك الشرطة؟

- منذ عشرين عامًا تقريبًا.

- ما الذي دفعك إلى هذا الاختيار؟ رغبتك في تحقيق العدالة والقبض على الأشرار؟

ابتسم نيمانز. لاحظ من زاوية عينه وصول فرقة جديدة بمعاطف بلّلتها مياه المطر. استشفَّ من خلال تعابير وجوههم أنهم لم يجدوا شيئًا. فعاد بصره إلى فاني التي كانت تسحب نَفَسًا عميقًا.

- هذا النّوع من الأهداف يضيع بسرعةٍ في الطّبيعة. بالإضافة إلى أنّ العدالة وكل تلك الشّعارات السّخيفة لم تجذبني يومًا.

- ماذا إذن؟ طمع في الكسب؟ رغبة في عمل قارّ؟

فوجئ نيمانز:

- لديكِ أفكارٌ غريبة. كلا، أعتقد أنَّني اتَّخذتُ هذا القرار من أجل الإثارة.

- الإثارة؟ مثل التي خبرناها للتوّ؟

- مثلًا.

أَوْمأَتْ ساخرةً، وهي تنفث دخانًا أصفر:

- هاه، مفهوم. رجل الإثارة القصوى، رجل المستحيل، رجلٌ يُعطي قيمةً لحياته من خلال المخاطرة بها كلّ يوم...

- ولِمَ لا؟

قلَّدَت فاني جلسة نيمانز -الكتفان المحنيّان والأصابع المعقودة في وضعيَّة الصلاة- اختفت ضحكتُها وقد خمَّنت أن نيمانز يكشف لها جزءًا من نفسه عبر هذه الإجابات اللّامبالية. تمتمت والسّيجارة بين شفتَيْها:

- أنت محقّ، لِمَ لا...

خفض الشرطيُّ نظره وتفحَّص يدَيْ الشَّابّة من خلال عدستَيْ نظّارته. لا تحمل أصابعها خاتم زواجٍ أو خطوبة، بل ضمّاداتٍ وجروحًا وشقوقًا فحسب، كما لو أنها مُتزوِّجة من الطّبيعة والعواطف العنيفة.

- لا يستطيع أحدٌ أن يفهم رجل شرطة. تابع بجدِّيّة. أو أن يحكم عليه. نحن نعيش في عالمٍ وحشيٍّ ومتضاربٍ ومغلق، عالمٍ خطيرٍ بحدودٍ راسخة. مَن بالخارج لا يدركون كنهه، ومَن بالداخل يفقدون كلّ موضوعيّة ممكنة. هكذا هو عالم الشُّرطة، كونٌ مقفل، حفرة مُسيَّجة بالأسلاك الشّائكة. ثمّة شيءٌ واحدٌ مؤكّد: البيروقراطيّون الذين لن يخاطروا حتّى بحشر إصبع في بوّابات سيّاراتهم لا يحقُّ لهم أن يقدّموا لنا دروسًا.

انحنت فاني وغرست يدَيْها في خصلاتها المجعّدة. فكَّرَ نيمانز في جذورٍ ممزوجةٍ بالتّراب، جذورِ دُوارٍ شهوانيّ. ثمّ ارتجف الشرطيُّ والدّماء الحارّة في عروقه تقاوم وخزات البرد.

سألت الشَّابّة بصوتٍ منخفضٍ:

- ماذا ستفعل؟ ما الخطوة القادمة؟

- مواصلة البحث، والانتظار.

- انتظار ماذا؟ كرَّرَت بصوتٍ أعلى. سقوط الضَّحيَّة التّالية؟

وقف نيمانز متجاهلًا استفزازها.

- انتظار إنزال الجسد من الجبل. أعطانا القاتل موعدًا. لقد وضع دليلًا في الجثّة الأولى قادني إلى النّهر الجليديّ. أظنّه سيعيد الكَرَّة في الجثّة الثّانية ليقودنا إلى الجسد الثّالث... وهكذا دواليك. إنها لعبة سنكون الخاسرين في كلّ جولة منها.

نهضت فاني هي أيضًا والتقطت سترتها التي كانت تجفّ فوق ظهر المقعد.

- سيتعيَّن عليك إجراء مقابلة معي.

- مقابلة من أيّ نوع؟

- أنا رئيسة تحرير صحيفة الكُلِّيّة «الإيقاع».

قال نيمانز بأعصابٍ مشدودة:

- لا تخبريني أنّ...

- لا تقلق، الصّحيفة لا تهمّني. لا أريد إحباطك، لكن إن تواصَلت الأحداث بهذا النّسق فستسارع جميع وسائل الإعلام الوطنيّة بالقدوم إلى هنا. سيكون عليك تَحمُّل صحفيّين أكثر إصرارًا منِّي.

رفض المحافظ هذا الاحتمال بحركةِ يد.

- أين تسكنين؟ سأل فجأةً.

- في الجامعة.

- أين تحديدًا؟

- تحت علِّيّة المبنى المركزيّ. لي شقّةٌ بالقرب من غرف الطَّلبة الدَّاخليّين.

- قرب مسكن عائلة كايوا؟

- بالضبط.

- ما رأيك في صوفي كايوا؟

اكتسى وجه فاني بالإعجاب.

- إنّها فتاةٌ غريبة، صامتة، وجميلة جدًّا. كان كِلَا الزّوجَيْن مُغلقًا كقبضة اليد... كما لو أنها يُخفيان سرًّا.

أوْمَأَ نيمانز برأسه.

- هذا ما أعتقده. قد يكون الدافع وراء جرائم القتل كامنًا في هذا السِّرّ. سأزورك لاحقًا اللّيلة إن كنت لا تمانعين.

- أما زلتَ تحاول التَّقرُّب منِّي؟

أوْمَأَ المحافظ برأسه إيجابًا:

- أكثر من أيّ وقتٍ مضى. ثمّ إني سأعطيك سبقًا صحفيًّا.

- أكرِّر أنني لا أبالي بهذه الصّحيفة. أنا غير قابلةٍ للرّشوة.

- أراكِ لاحقًا. قالها وهو يغادر.

27

مرّت ساعةٌ ولم تخرج الجثّة الثّانية من الجليد.

استشاط نيمانز غضبًا. كان قد استمع للتوِّ إلى شهادة والدة فيليب سيرتيس المقتضَبة. وهي امرأة عجوز تتكلَّم بلكنة ملتوية. غادر ابنها المنزل البارحة حوالي الساعة التّاسعة مثل كلّ مساءٍ بسيّارته -سيّارة لادا مستعملة اشتراها للتوّ- كان فيليب يعمل ليلًا في المركز الاستشفائيّ الجامعيّ بـ«غيرنون» ويبدأ نوبته في السَّاعة العاشرة مساءً. لم تقلق أمّه من غيابه إلّا صباح اليوم حين اكتشفت وجود السَّيّارة في المرآب وغياب فيليب، ما يعني أنه عاد إلى المنزل ثمّ خرج من جديد. ثمّ توالت المفاجآت. حين اتَّصلت بالمستشفى، علمت أن سيرتيس أبلغ عن عدم قدرته على المناوبة تلك الليلة. لقد ذهب إلى مكانٍ آخر إذن، ثمّ عاد وغادر مرَّةً أخرى مشيًا على القدمَيْن. ماذا يعني ذلك؟ أصيبت المرأة بالهلع وهي تهزُّ كُمّ نيمانز. أين ابنها؟ كان غيابه أمرًا استثنائيًّا حسب أقوالها، ليس لابنها حبيبةٌ ولا رغبةٌ في الخروج، كان ينام كل ليلة «في المنزل».

استوعب نيمانز كل هذه التَّفاصيل دون حماس. مع ذلك، إذا كان سيرتيس أسير الجليد فعلًا، فإنّ هذه الشهادة تمكّنهم من تحديد ساعة الجريمة المُحتمَلة. فاجأه القاتل في السّاعات الأخيرة من اللّيل وقتله، ثمّ نكَّلَ بجثَّته قبل أن يحملها إلى الأعلى. ثمّ أغلق بردُ الفجر جدران الجليد على الضَّحيَّة ليسجنها في قبرها المُتجمِّد الشَّفاف. لكن طبعًا، كل هذه مجرَّد تكهُّنات.

اصطحب المحافظ المرأة إلى عونٍ من أعوانِ الجندرمة حتّى تسجِّل إفادة مُفصَّلة. أمّا هو فقد قرَّرَ العودة إلى عرينه، غرفة الأشغال التَّطبيقيّة الصَّغيرة بالكُلّيّة، حاملًا الملفّ تحت ذراعه.

عند وصوله غيَّرَ ملابسه، وارتدى إحدى بذلاته. ثمّ وضع مختلف الوثائق التي كانت بحوزته على الطاولة ليبدأ دراسةً مُقارِنةً بين ريمي كايوا وفيليب سيرتيس، مُحاوِلًا إيجاد

صلة بين الضَّحيّتَيْن.

لم يجد سوى عددٍ قليلٍ جدًّا من القواسم المُشتركة. يبلغ الاثنان من العمر خمسةً وعشرين عامًا تقريبًا. كان كلاهما طويل القامة ونحيفًا بوجهٍ عاديٍّ وملامح معذّبةٍ وشعرٍ قصيرٍ جدًّا. كلاهما يتيم الأب، فارق والد فيليب سيرتيس الحياة قبل عامَيْن بسبب سرطان الكبد. وفقد ريمي كايوا والدته عندما كان في الثامنة من العمر قبل سنواتٍ من موت والده. النقطة الأخيرة المُشتركة: ورث الشّابان مهنتَيْ أبوَيهما: أمين المكتبة الجامعيَّة في ما يخصُّ كايوا، وممرّض مساعد في ما يخصُّ سيرتيس.

أما الاختلافات فكانت على العكس مُتعدِّدة. فقد زاولا تعليمها في مؤسّسات مختلفة. لم يكبرا في الأحياء نفسها ولا ينتميان إلى الطّبقة الاجتماعيّة نفسها. نشأ ريمي كايوا، المنحدر من بيئة متواضعة، وسط عائلة من المُثقَّفين في حضن الجامعة. أمّا فيليب سيرتيس فكان ابن عاملٍ مغمور، وبدأ العمل في سنّ الخامسة عشرة في المستشفى، على خطى والده. كان أقرب إلى الأمِّيّة ولا يزال يعيش في كوخ العائلة، على حدود «غيرنون».

قضى ريمي كايوا أيَّامه وسط الكتب، وقضى فيليب سيرتيس لياليه في المستشفى. ليس لهذا الثَّاني هوايةً باستثناء الاختباء في الممرَّات المليئة برائحة مواد التّعقيم أو ألعاب الفيديو عند آخر الظّهيرة في الحانة المقابلة للمستشفى. أُعفِي كايوا من الخدمة العسكريّة، أما سيرتيس فقد أدّاها في فرقة المُشاة. كان أحدهما مُتزوِّجًا والآخر أعزب. كان أحدهما مولعًا بالمشي والجبال في حين يبدو أن الآخر لم يغادر مكانه يومًا. أحدهما مصاب بالفصام وعنيفٌ دون شكّ، أما الآخر فكان حسب الجميع «رقيقًا كملاك».

يجب تقبُّلُ الحقيقة: السِّمة المشتركة الوحيدة بين الرَّجلَيْن هي المظهر الخارجي. هذا التّشابه في الوجه الحادّ، وتصفيفة الشّعر، والجسد النّحيل. كما قال بارنز، الأرجح أنّ القاتل اختار فريستَيْه على أساس مظهرهما الخارجي.

فكَّرَ نيمانز لحظةً في جريمة جنسيّة. ربّما كان القاتل مثليًّا مكبوتًا منجذبًا إلى هذا النّوع من الرّجال، لكنّ المحافظ لم يقتنع بهذه النَّظريّة. كان الطَّبيب الشرعيّ حاسمًا: «هذا لا يدخل في الصُّورة إطلاقًا». لاحظ الطَّبيب من خلال جروح الجثّة الأولى وتشوّهاتها برودةً وقسوةً ودقّةً لا علاقة لها بلهفة الرّغبات الشَّاذّة الملتوية. من ناحية أخرى، لا يوجد أيّ أثرٍ للاعتداء الجنسيّ على الجثّة.

ماذا إذن؟

ربما كان جنون القاتل من نوعٍ آخر. على أيَّةِ حال، فهذا التّشابه بين الضَّحيّتَيْن وبداية سلسلة الجرائم -ضحيّتان في يومَين- يدعمان فرضيّة وجود مهووس لن يتوقَّف عن

القتل، مسكونًا بجنونٍ بركانيٍّ جامح. ثمّة إشارات أخرى ترجّح هذه الفرضيّة: الدّليل الذي غُرِس في الجسد الأول ليؤدّي إلى الجسد الثاني، وضعيّة الجنين، اجتثاث العيون، عرض الجثث في أماكن بريّة ومسرحيّة (الجرف المطل على النَّهر والسِّجن الجليديّ الشَّفاف)...

مع ذلك، لم يقتنع نيمانز بهذه الأُطروحة.

أوَّلًا، بسبب تجربته اليوميّة باعتباره شرطيًّا. ورغم أن القتلة المتسلسلين المستوردين من الولايات المتّحدة الأمريكيّة احتلُّوا الأدب والسّينما العالميَّيْن فإنَّ هذا الاتِّجاه الفظيع لم يؤكِّد وجوده على أرض الواقع في فرنسا.

خلال عشرين عامًا من حياته المهنيّة لاحق نيمانز متحرّشين بالأطفال تحوّلوا في لحظةٍ إلى قتَلة، مغتصبين قتلوا ضحاياهم بوحشيّة مفرطة، ساديِّين خرجت ألعابهم القاسية عن السيطرة، ولكن لم يحدث قطُّ أن طارد قاتلًا متسلسلًا بأتمّ معنى الكلمة، يُجهِز على ضحاياه دون دافعٍ واضحٍ أو منطقيّ. لم يكن هذا اختصاصًا فرنسيًّا. لم يهتم المحافظ بتحليل الظَّاهرة، لكنّ الحقائق موجودة، آخر القَتَلة الفرنسيِّين ذوي الجرائم المُتكرِّرة أسماؤهم لاندرو أو الدّكتور بيتيو وتفوحُ منهم رائحة البرجوازيّة الصّغرى، ويلهثون خلف سرقاتٍ أو ميراثٍ ضئيل. لا يوجد أيُّ وجهِ شبهٍ مع الطّفرة الأمريكيّة بوحوشها المتعطِّشة إلى الدّماء.

تأمَّلَ المحافظ مرَّةً أخرى صور فيليب سيرتيس وريمي كايوا المبعثرة على الطاولة. من وسط الملفّ، برزت أيضًا صور الجثّة الأولى. لقد أحرقه تأنيب الضمير، لا يستطيع البقاء هكذا مكتوف اليدَين. في الوقت الذي ينظر فيه إلى هذه الصُّوَر، هناك رجلٌ ثالثٌ يتعرَّض لأبشع أنواع التّعذيب. ربّما دخل المشرط وسط محجر العين في هذه اللّحظة بالضَّبط، ولعلّ يدَيْن مُغطَّاتَيْن بقُفَّازَيْن بلاستيكيَّيْن اجتَثَّتَا عينًا من مكانها.

السَّاعة السَّابعة مساءً. أسدل اللّيل ستاره تدريجيًّا. فنهض نيمانز وأطفأ مصباح الغرفة مُقرِّرًا الغوصَ عميقًا في حياة فيليب سيرتيس لعلّه يجد دَلِيلًا أو إشارة.

أو ببساطةٍ نقطةَ التقاءٍ أخرى بين الضَّحيّتَيْن.

28

عاش فيليب سيرتيس ووالدته في منزلٍ صغيرٍ قريبٍ من حيٍّ سكنيٍّ مُتهالك الأبنية خارج المدينة. سقفٌ بُنِّيٌّ مضلّع، واجهة بيضاء مُتَّسخة، ستائر من الدّانتيل الأصفر تُحيط بالظّلام الدَّاخليّ مثل ابتسامةٍ مسوّسة. ما زالت الأمُّ العجوزُ تُدلي بشهادتها المُفصَّلة في المركز، ولا يوجد أيُّ ضوءٍ في المنزل. ومع ذلك قرع جرس الباب كي لا يجازف.

لا حياة لمن تنادي.

تجوَّل نيمانز حول المنزل. كانت الرّياح تهبُّ بعنف. رياحٌ شديدةُ البرودة تحمل بوادر الشّتاء. يوجد مرآبٌ صغيرٌ على اليسار يأوي سيارة لادا تجاوزت ريعان الشّباب بسنوات. استأنف طريقه. امتدَّت بضعة أمتارٍ مربّعة من العشب القصير خلف المبنى، إنها الحديقة.

ألقى الشرطيُّ نظرةً أخرى حوله باحثًا عن متطفِّلين. لا أحد. صعد الدّرجات الثّلاث وفحص القفل بنظرةٍ خبيرةٍ أعلمته أنَّه من طرازٍ تقليديٍّ رخيص. ثمّ فتح المحافظ الباب دون صعوبة وفرك قدمَيْه على الممسحة، ودخل منزل الضَّحيَّة المحتملة.

بعد البهو، ولج غرفةَ جلوسٍ ضيِّقة وشغَّل مصباحه اليدويَّ. ظهرت في الشّعاع الأبيض سجّادة خضراء مُغطَّاة بزَرابِيّ صغيرةٍ داكنة، أريكة، بنادق صيد معلّقة، أثاث غير متناسق، خردوات قبيحة للزّينة.

ارتدى الشرطيُّ قفّازَيْن مطّاطيَّيْن وفتَّشَ الأدراج بعناية. لم يجد شيئًا مُميَّزًا. أدوات مائدة مطليَّة بالفضّة، ومناديل مُطرَّزة، ووثائق شخصيّة: قسائم ضريبيّة، استمارات الضّمان الاجتماعيّ... تصفَّحَ الأوراق بسرعة، ثمّ فحص التَّفاصيل الأخرى دون جدوى. كانت غرفةَ جلوسٍ عاديّةً لعائلةٍ عاديّة.

صعد نيمانز إلى الطّابق العلويّ.

عرف غرفةَ فيليب سيرتيس دون صعوبة. ملصقات حيوانات، مجلّات مكدّسة في صندوق، برامج تلفزيونيّة، كل شيء هنا ينضح بالبؤس الفكريّ، بل يقترب من البلاهة. بدأ عمليَّة تفتيشٍ أكثر دقَّة. لم يجد شيئًا باستثناء بعض تفاصيل تدلُّ على حياة سيرتيس اللَّيليّة، مثل كشّافاتٍ يدويّةٍ ومصابيحَ من جميع الأنواع وجميع القدرات الكهربائيّة مبعثرة على الرّف. لاحظ وجود مصاريع مقوّاة متراصَّة ودون فتحات، للحماية من ضوء النّهار أو عدم الكشف عن لحظات يقظته. اكتشف نيانز أخيرًا أقنعةً مثل تلك المستخدمة في الطائرات للحماية من أدنى إضاءة. إمَّا أنَّ سيرتيس يعاني من صعوبة في النّوم أو أنه مصّاصُ دماء.

رفع نيمانز اللّحافات والملاءات ومرتبة السّرير. انزلقت أصابعه تحت السَّجّادة وتحسَّس الأرضيّة. لم يجد شيئًا. وبالخصوص، لاحظ غياب أيّ أثر أنثويّ.

نظر الشرطيُّ في غرفة الأم دون إطالةٍ وقد بدأ جوُّ المنزل الكئيب يخنقه، نزل وفتَّش المطبخ والحمام والقبو بسرعة. ولكن دون جدوى.

في الخارج، واصلت الرّياح الهبوبَ وهزَّ النّوافذ.

فكَّرَ نيمانز. لا يمكن أن يكون حدسُه مُخطِئًا إلى هذا الحدّ. يجب أن يجد عنصرًا، علامة، شيئًا مّا. كلّما أرادت المظاهر إظهار خطئه، ازداد اقتناعه بأنه على حقّ، وبأنّ هناك حقيقةً تنتظره هنا، صلة خفيّة بين كايوا وسيرتيس.

ثمّ خطرت للمحافظ فكرةٌ أخرى.

وسط ألوانٍ رصاصيّةٍ تُغرق غرفة الملابس بالمستشفى، وبين صفوف الخزائن المتتابعة، تقدَّمَ نيمانز دون صوتٍ في المكان المقفر وهو يقرأ الأسماء المكتوبة في الإطارات المعدنيّة الصَّغيرة حتّى لمح اسم فيليب سيرتيس.

ارتدى قفّازَيْه مرّةً أخرى وعالج القفل والذِّكرياتُ تملأ ذهنه، ذكريات الجولات اللَّيليّة والغارات المقنّعة مع فرق مكافحة العصابات. لم يشعر بأيِّ حنينٍ إلى تلك الفترة. كان اختراق المساحات والتَّحكُّم في السّاعات الحاسمة من اللّيل أحبّ الأشياء إلى قلبه، ولكن دون رفقة، مثل مُتطفِّلٍ حقيقيّ، وحدَه، في الصَّمت، وفي الخفاء.

فتح القفل بعد بضعِ نقرات، فلم يجد سوى معاطف بيضاء وحلويّاتٍ ومجلّاتٍ قديمة والمزيد من المصابيح والأقنعة. تلمَّس نيمانز جدران الخزانة الدَّاخليّة ببطءٍ حتّى لا يصدر المعدن أي صدًى، لا شيء. تحقَّقَ من عدم وجود سقفٍ مُعلّق أو درج سرّيّ، ثمّ جثا على ركبتَيْه شاتمًا نفسه. لقد كابر وانساق كبغلٍ خلف فكرة سخيفة. لن يكتشف أيّ حقيقة مخفيّة في حياة هذا الشَّابّ. اللَّعنة! لم يتأكَّد حتّى الآن أن فيليب سيرتيس

هو فعلًا صاحب الجثّة المُتجمّدة في مرتفعات الجبل. قد يظهر الممرِّض المساعد خلال أيام قليلة بعد هروبه رفقة ممرِّضة فاتنة.

ارتسمت على شفتَيْه ابتسامة استسلام، وقرَّرَ الهرب قبل أن يراه أحد. لكن أثناء نهوضه لاحظ رخامةً مُقتَلَعَة جزئِيًّا تحت الخزانة. مدَّ يده ورفعها، فلامست أصابعه شيئًا. سمع طقطقةً وحرَّكَ أصابعه إلى الأمام مرة أخرى، ثمّ شدَّ قبضته. وعندما فتحها كان يُمسك في يده مفتاحًا.

تعرَّفَ نيمانز على الانحناءات المميَّزة المُخصَّصة لفتح قفل مُصفَّح. إن كان سيرتيس يحمل سرًّا فهو يكمن حتمًا خلف بابٍ يفتحُ هذا المفتاح قفله.

في مقرِّ البلديّة، استقبله موظّف السّجل العقاريّ الذي كان على وشك المغادرة. وعند سماعه اسم «سيرتيس» لم يطرف للموظّف جفن. إذن لا علم لأحدٍ بالقضيّة، ولا بالهويّة المُفترَضة للضَّحيّة الجديدة. أجرى الموظّف على مضضٍ البحث الذي طلبه محافظ الشّرطة.

في الأثناء كرَّرَ نيمانز لنفسه الفرضيّة التي قادته إلى هنا، وكأنَّه يزيد من فرص نجاحه. أخفى فيليب سيرتيس مفتاح قفل مُصفَّح تحتَ خزانة ملابسه. في مقابل ذلك، لا يحمل باب منزله أيّ حماية. قد يكون هذا المفتاح خاصًّا بأيّ بابٍ أو خزانة في المستشفى. لكن لِمَ إخفاؤه إن كان الأمر كذلك؟ دفع الحدس نيمانز إلى القدوم إلى هنا، إلى السّجل العقاريّ، للتَّثبُّت من عدم امتلاك فيليب مسكنًا آخر، كوخًا، حظيرة، أيّ مكانٍ يمكن أن يُخفي داخله حياةً أخرى سرِّيّة.

دون أن يكفّ عن التَّذمُّر، مرّرَ الموظف صندوقًا كرتونيًّا تحت الحاجز يحمل على جانبه الأمامي إطارًا نحاسِيًّا صغيرًا فيه مُلصَقٌ مكتوبٌ عليه بالحبر: «سيرتيس». فتح نيمانز الصندوق، وهو يحاول إخفاء حماسه، وتصفَّح الوثائق الرَّسميّة وسندات العدل المنفّذ ومخطّطات الأراضي. فحص كل الأوراق بعناية وتأمَّلَ أرقام قطع الأرض وحدَّدَ مكانها على خارطة المنطقة المرفقة بالملفّ. قرأ، وأعادَ قراءة العنوان.

إذن، كان الأمر بهذه البساطة.

استأجر فيليب سيرتيس ووالدتُه مسكنًا ليُقيمَا فيه. لكن الشَّابّ كان يملك باسمه منزلًا آخر، ميراثًا تركه له والدُه رينيه سيرتيس.

29

لم يقُده العنوان إلى منزلٍ بل إلى مستودعٍ معزول يقع في سفح جبل الدّورنيون الكبير، وتُحيط به الصَّنوبريّات الجافَّة. على جدران المبنى، عكس الطِّلاء الباهت المُتقشِّر مثل جلد السِّحليّة ثقل المواسم والسنوات.

اقترَبَ نيمانز بحذر. كانت النوافذ مُغطَّاةً بقضبانٍ معدنيَّةٍ ومحجوبةٍ بأكياس الإسمنت. ثمّة مدخلان، بوابةٌ ثقيلةٌ رئيسيّة، وبابٌ مُصفَّحٌ على اليمين. يمكن أن يحتوي مبنًى كهذا على براميل أو أكياسٍ من المُعدَّات أو إسطوانات معدنيّة أو أيّ شيءٍ صناعيّ. لكن هذا المستودع كان ملكًا لممرّضٍ مساعدٍ صامتٍ تقبع جثَّته الآن وسط تابوتٍ جليديّ.

طافَ الشرطيُّ أوَّلًا بالمبنى، ثمّ عاد إلى الباب المُصفَّح. وأولَج المفتاح في القفل. فسمع طقطقة الدّبابيس، ثمّ صوت المتاريس الطويلة وهي تُسحَب من إطارها المعدني.

فتح الباب وأخذ نفسًا عميقًا قبل الدخول.

في الدّاخل، انتشر وهج اللّيلِ المُزرَقّ في الفضاء من خلال شقوقٍ رقيقةٍ خلَّفتها الأكياس المُثبَّتة بين قضبان النّوافذ. تبلغ مساحة القاعة مئاتٍ من الأمتار المُربّعة، قاعة مُظلِمة مُتداعية، مُخطَّطة أفقيًا بظلال هياكل السّقف المعدنيّة، وتشقّها أعمدةٌ طويلة ترتفعُ إلى ما لا نهاية.

تقدَّمَ نيمانز بمصباحه اليدوي. كان المكان فارغًا تمامًا. أو بالأحرى، أُفْرِغ مؤخَّرًا. رأى العديد من الأخاديد تحفر إسمنتَ الأرضيّة، كانت آثارًا واضحةً لجرّ أثاثٍ ثقيلٍ نحو الباب. يسودُ هنا جوٌّ فريد، مثل صدًى للذّعر، للعجلة، للفرار.

استعمل المحافظ كلّ حواسّه. تأمّل، واستنشق، وتلمّس. كان مكانًا صناعيًّا، لكنه فائقُ النَّظافة ويعبق بالرّوائح المعقّمة مع بقايا رائحةٍ برّيّة، رائحةٍ حيوانيّة.

تقدَّمَ نيمانز أكثر. ها هو يمشي الآن فوق غبارٍ أبيض وشظايا طباشيريّة. جثَا على ركبتَيْه واكتشف شبكاتٍ معدنيَّةً صغيرة. ففكَّرَ الشرطيُّ في عيّنات من السّياج أو بقايا من فلاتر تصفية الهواء. وضع عيّناتٍ في مظاريفَ بلاستيكيّة، ثمّ جمعَ المسحوق والشّظايا دون أن يتعرَّف على رائحتها الباهتة، رائحة بيضاء، كالخميرة أو الجصّ لا صلة لها بالمخدّرات.

على هامش هذا الاكتشاف الأخير، لاحظ مؤشّراتٍ على حرارةٍ كبيرةٍ حُوفِظَ عليها في هذا المكان سنوات. توجد مقابسُ أرضيّة في كل مكانٍ لعلّها كانت موصولةً بسخّانات كهربائيّة تميَّزت مواقعها بهالاتٍ سوداء على الجدران.

تنازعت نيمانز في ختام جولته فرضيّاتٌ متناقضة. فكَّرَ في مزرعةٍ لتربية حيواناتٍ تتطلَّبُ درجاتِ حرارةٍ عالية، أو ربما مختبرٍ للتّجارب، نظرًا إلى التّعقيم الواضح والرّائحة السَّريريّة.

لم يكن يعرف شيئًا، لكنّه شعر بخوفٍ أعمق وأشدَّ عنفًا ممَّا عاشه في الجبل الجليديّ.

لديه الآن يقينان، الأوّل هو أنّ فيليب سيرتيس، الرجل اللَّيّن الهادئ، كان له نشاطٌ غامضٌ هنا، والثاني أن الشَّابّ أُجبِر قبل وفاته على إخلاء المكان بأقصى سرعة.

تأمَّلَ نيمانز الجدران باهتمامٍ على ضوء مصباحه. ربّما وُجِدَت منافذُ هنا أو مخابئ تحتوي على شيء نسيه سيرتيس. تلمّس، وطرق، واستمع إلى الأصداء ورصد اختلافات الموادّ. كانت الجدران مُغطَّاةً بصفائح من ورق الكرافت المُبطَّنة بصوفٍ زجاجيٍّ مضغوط. الحرارة مرَّةً أخرى.

هكذا فحص جدارَيْن كاملَيْن قبل أن تعثر أصابعه على ارتفاع متر وثمانين سنتمترًا، على نتوءٍ مستطيلٍ لا يتوافق مع السَّطح المنحني، تجويفٍ تمّ سدّه. مزَّقَ الورق، ودفع أظافره في الفجوة، فظهرت الفتحة ومحتوياتها: رفوف، تراب، وفطريّات.

أدخل ذراعَه، فشعر بشيءٍ مُسطَّحٍ مُغطًّى بفيلمٍ لاصقٍ على أحد الألواح. ثمّ أمسكه، كان دفترًا صغيرًا.

عبرت رجفةٌ طويلةٌ جسده وهو يتصفَّح الدّفتر. لقد امتلأت جميع صفحاته بأرقامٍ صغيرةٍ غير مفهومة. لكن إحدى الصّفحات، فوق الأرقام، كانت تحمل جملةً مائلةً، بخطٍّ غليظ، بدا أن حروفها كُتِبت بالدّم. كان الخطُّ عنيفًا إلى درجة أنّ الكلمات اخترقت الورقة في بعض المواضع، كنوبة غضبٍ مسعورة، كانفجار نبعٍ دمويّ، كما لو أن كاتب هذه السّطور لم يستطِع كبح جماح جنونه فبصقَه عبر أحرفٍ دمويّة. قرأ نيمانز:

نحن الأسياد، نحن العبيد.

نحن في كلّ مكان، ولسنا في أيّ مكان.

نحن الضّاربون في الأرض.

نحن مهندسو الأنهار القرمزيّة.

انحنى الشرطيُّ على الجدار بين أشلاء الورق البُنِّيّ وخيوط الصُّوف. وأطفأ مصباحه، لكنّ وهجًا مجهولًا أنار فؤاده. لم يجد صلة بين ريمي كايوا وفيليب سيرتيس. لقد وجد شيئًا أفضل: سرٌّ في قلب حياةٍ عاديّةٍ لممرّضٍ مساعدٍ شابّ. ماذا تعني الأرقام والجمل المُبهمة في الدّفتر الصّغير؟ ما الذي فعله سيرتيس في مستودعه السِّرّيّ هذا؟

استعرضَ نيمانز استنتاجاته عقليًّا، كمَن يجمّع أولى القشّات المشتعلة في نارٍ وسط رياحٍ جليديّة. كان ريمي كايوا مُصابًا بفصامٍ حادٍّ ورجلًا عنيفًا ربّما ارتكب في الماضي فعلًا شائنًا. أما فيليب سيرتيس فكان يمارس هوايةً سِرِّيّةً في هذه الورشة المُخيفة، هوايةً سعى إلى محوِّلًا كلّ آثارها قبل أيام معدودة من اختفائه.

لا يملك المحافظ إلى حدِّ اللّحظة أيّ دليلٍ ملموس، ولكن صار من الواضح أن كايوا وسيرتيس ليسا شخصَيْن واضحَيْن وعاديَّيْن كما تقول الرّواية الرَّسميّة.

لا أمين المكتبة ولا الممرّض المساعد كانَا ضحيَّتَيْن بريئتَيْن.

30

قاد كريم سيّارته مدَّة ساعتَيْن وهو يشعر بالتَّوتُّر يعقد أحشاءه.

فكَّرَ في الوجه، وجه الطفل. تخيّله تارةً وحشًا بوجهٍ أملس تمامًا دون أنفٍ ولا عظامِ خدٍّ تتوسّطه كرتان بيضويّتان لامعتان. وتارة، على العكس، طفلًا عاديًّا، بسماتٍ ناعمةٍ ومطمئنة، عاديّ إلى درجة أنه تاهَ من جميع الذاكرات. أحيانًا كان يرى ملامحَ مستحيلة، ملامحَ مُتموِّجةً ومتغيِّرةً تعكس وجه النّاظر، ملامح برَّاقةً تعكس صورةَ كل وجهٍ وتُفشي سرَّ النّفوس المختبئة وراء الابتسامات المنافقة. ارتجف الشرطيُّ من رأسه إلى أخمص قدميْه. فقد اعتصر هذا اليقين قلبه. إن مفتاح الحقيقة يكمن في ذلك الوجه وحده، دون أدنى شكّ.

سلك الطريق السريعة في أجين، باتِّجاه تولوز. ثمّ حاذى قناة ميدي مرورًا بكاركاسون وناربون. كانت سيّارته لعنةً حقيقيّة. ليست سوى مزيج من سعال الإسطوانات والقطع المتحشرجة، كهيكلٍ معدنيٍّ مصابٍ بالسُّلّ. لهذا لم يتجاوز الشرطيُّ سرعة مائة ميلٍ في الساعة حتّى عندما كانت الرِّياح مواتية.

واصل عقله اجترار المعلومات وتفكيكها بينما كان يتَّجه نحو «سات» عبر الطريق الشَّاطئيّة، ويقترب من دير سان جان دو لا كروا.

غمره مشهدُ السّاحلِ الطَّبيعيِّ الرَّماديّ والضبابيّ بالهدوء. واسترجع ما جمعه من عناصر منطقيّة وهو يضغط على دواسة الوقود.

غيَّرَت زيارته إلى المصوّر والكاهن مسار التحقيق. أدرك كريم فجأةً أن الوثائق المفقودة من مدرسة جان جوريس ربّما سُرقت قبل وقت طويل من عملية سطو البارحة. وفي طريقه عاود الاتِّصال بالمديرة. وسألها:

- هل يمكن أن تكون كلُّ هذه الوثائق قد اختفت عام 1982 ولم يلاحظ أحد غيابها طوال هذه السنوات؟

أجابت بنعم.

ثمّ أضاف:

- هل يمكن أنّ اكتشاف اختفاء الوثائق وقع اليوم فقط بسبب عمليَّة السَّطو؟

فأجابت كذلك بنعم.

فسألها مرَّة أخرى:

- هل سمعتِ يومًا عن راهبة كانت تسعى إلى الحصول على صور مدرسيّة من تلك الفترة؟

فأجابت بلا.

ومع ذلك، قبل أن يغادر، تثبَّت كريم مرَّة أخيرة في «سارزاك»، بفضل سجلات الحالة المدنية، من تواريخ الميلاد وعناوين الإقامة. اتَّصل هاتفيًّا بالعديد من التّلاميذ السّابقين بالقسمَيْن المعنيَّيْن: الرابع والخامس من التّعليم الابتدائيّ، لسنَتَيْ 1981 و 1982. لم تعد الصُّوَر المدرسيّة في حوزتهم، تارةً بسبب حريق شبّ «صدفة» في الغرفة التي تحتوي على الصُّوَر، وتارةً بسبب عمليَّة سطو لم يسرق اللصوص فيها شيئًا باستثناء الصُّوَر المعنيّة، ومرَّةً أخرى، ولكن نادرًا، بسبب راهبةٍ قدِمت للحصول على الصُّوَر في زياراتٍ ليليّةٍ خاطفة لا تُتيح لأحدٍ منهم التعرُّف عليها. حدث كلّ هذا خلال الفترة القصيرة نفسها: جويلية 1982. قبل شهرٍ واحدٍ من وفاة جود الصغير.

في السَّاعة الخامسة والنصف مساءً، بينما كان يمرُّ بجانب بحيرة ثاو، عثر على هاتف عموميّ واتَّصل بكروزييه. كانت القضيَّةُ تتجاوز حدود المألوف، وهذا ما يثيره. ها هو يتخلَّص أخيرًا من المرساة ليبحر في مياهٍ مجهولة. صرخ المحافظ:

- أرجو أن تكون في طريقك إلى هنا يا كريم. موعدُنا على السَّاعة السَّادسة.

- حضرة المحافظ، لقد وجدت طرف خيط.

- خيط ماذا؟

- اسمح لي بتتبّعه. كل خطوة أخطوها تؤكِّد حدسي. هل لديك أيّ معلوماتٍ جديدةٍ بخصوص المقبرة؟

- أنت تلعب بمفردك وتريد مني...

- أجبني، هل وجدت السَّيّارة؟

تنهَّدَ كروزييه.

- لقد حدّدنا مالكي سبع سيَّارات لادا وسيَّارتَيْ ترابان وسيَّارة سكودا في مقاطعات لو، ولو-إي-غارون ودوردوني، وأفيرون، وفوكلوز. واستبعدناها جميعها. السيَّارة التي نبحث عنها ليست بينها.

- هل يملك كل السَّائقين حجج غياب؟

- لا، لكننا وجدنا جزيئاتٍ من الإطارات بالقرب من المقبرة، إطاراتٍ كربونيّة رديئة الجودة. مالك السيَّارة لا يزال يستعمل الإطارات الرّوسيّة الأصليّة، بينما تملك جميع السّيارات التي رصدناها عجلات ميشلان أو غوديير. هذا أوَّلُ ما يغيّره مشترو هذا النوع من السّيارات. البحث متواصل، في مقاطعات أخرى.

- هل هذا كل شيء؟

- هذا كل شيءٍ إلى حدِّ اللَّحظة. الكرة في ملعبك الآن. أخبرني بما لديك.

- أنا أتقدَّم إلى الوراء.

- إلى الوراء؟

- كلّما قلت الأدلّة، ازداد يقيني بأنني في الطَّريق الصّحيحة. عمليًّا سطو اللّيلة الماضية تخفيان مسألةً أكثر خطورةً يا حضرة المحافظ.

- من أيّ نوع؟

- لا أعرف. شيء مُتعلّق بطفل. جريمةُ اختطافٍ أو قتل. لا أعرف، سأعاود الاتِّصال بك.

أغلق كريم الخطّ دون أن ينتظر إجابة كروزييه.

في ضواحي مدينة سيت، عبَرَ قريةً شاطئيّةً صغيرةً اختلطت فيها مياه «خليج الأسد» بالأراضي في مستنقعٍ شاسعٍ تحدُّه أعواد القصب. خفَّض الشرطيُّ سرعته وهو يمرُّ بجانب ميناءٍ غريبٍ خالٍ من القوارب لا تظهر فيه سوى شباك صيدٍ طويلة سوداء تمتدُّ بين المنازل المغلقة.

كلّ شيءٍ كان مهجورًا.

ملأت الهواء رائحةٌ ثقيلة. لم تكن رائحةً بحريّة، بل رائحةَ سمادٍ محمّل بالأحماض والفضلات.

كان كريم عبدوف يقترب من وجهته. أشارت اللّافتات إلى اتّجاه الدير بينما أضاءت الشّمس الغاربة بِرَكًا مالحةً تألّقت كالنّصال الحادّة على سطح المستنقعات. بعد خمس كيلومترات، رأى الشرطيُّ لافتةً جديدةً تُشير إلى طريق معبّدة تصعد نحو اليمين. واصل سبيله سالكًا منعرجاتٍ ومنحدراتٍ أخرى يحدّها القصب والأسل.

ظهر الدير أخيرًا، ففغر فاه من الدّهشة. ارتفعت كنيستان ضخمتان بين الكثبان المظلمة والأعشاب البرّيّة، تحمل إحداها أبراجًا منحوتةً بدقّة تنتهي بقبابٍ مُخطّطةٍ تشبه حلويّاتٍ ضخمة. أما الأخرى فحمراءُ وهائلةٌ مُزيّنةٌ بأحجارٍ صغيرةٍ ويعلوها برجٌ عريضٌ بسقفٍ مُسطّحٍ مثل عجلة. بدت مثل بازيليك حقيقيّة جعلها الهواء البحريّ أشبه بحطامٍ منسيّ. لم يفهم كريم سبب وجودها في هذا المكان المهجور الكئيب.

عند اقترابه اكتشف مبنًى ثالثًا، مبنى من طابقٍ واحدٍ بنوافذ متسلسلة ضيّقة. لا بُدَّ أنه الدير نفسه الذي بدا كأنه ينكمش ليتجنّب ملامسة المباني المقدّسة المجاورة.

ركن كريم سيّارته. لم يسبق له أن واجه الدين عن كثب أو بانتظام قبل هذه القضيّة. تذكّرَ محاضرةً سمعها عندما كان في مدرسة المفتشين بـ «كان-إيكلوز». كان المحافظون يزورونهم أحيانًا لسرد تجربتهم. أحدهم رسخ في ذهن كريم، رجلٌ طويلُ القامة بقصّة شعرٍ عسكريّة يرتدي نظّارةً صغيرةً بإطارٍ معدنيّ. كان خطابه مذهلًا. فسّرَ الرّجل أن الجريمة تنطبع في أذهان الشّهود والأقارب، وأن كل عنصر من عناصر التّحقيق هو مرآة تنعكس فيها إحدى حقائق الجريمة. والقاتل يختبئ دومًا في إحدى الزوايا العمياء من مدينة المرايا هذه.

بدا الرّجل مخبولًا، لكنه سحر الحاضرين. وقد تحدّث أيضًا عن الهياكل الذرّيّة. وقال إنه عندما تظهر عناصر وتفاصيل مُعيّنة، حتّى التّافهة منها، بانتظام في التّحقيق، فلا بُدَّ من حفظها، لأنها تخفي حتمًا معنًى عميقًا. كلّ جريمة هي نواةٌ ذرّيّة، والعناصر المتكرّرة هي الإلكترونات التي تدور في فلكها راسمةً حقيقةً لا واعية. ابتسم كريم. كان الشرطيُّ ذو النّظّارة المعدنيّة على حقّ. فهذه النّظريّة يمكن أن تنطبق على قضيّته. لقد أصبح الدّين عنصرًا مُتكرّرًا منذ هذا الصباح. ثمّة حقيقةٌ مخفيّةٌ بصدد الارتسام، وعليه أن يجدها.

شقّ طريقه إلى رواقٍ حجريٍّ صغيرٍ ودقَّ الجرس. بعد بضعِ ثوانٍ، ظهرت ابتسامةٌ في فتحة الباب، ابتسامةٌ قديمةٌ مُتّشحة بالأبيض والأسود. وقبل أن ينبس بكلمة، تنحّت الرّاهبة جانبًا:

- تفضّل بالدّخول يا بنيّ.

دلفَ الشرطيُّ وسط دهليزٍ بسيطٍ خالٍ من كلّ زينة باستثناء صليبٍ خشبيٍّ مُعلَّق على أحد الجدران البيضاء فوق لوحة داكنة. على اليمين، على طول الممرّ، رأى عبدوف بضعة أبواب مفتوحة. ورأى من خلال أقربِها إليه صفوفًا من الكراسي المصقولة وأرضيّةً مشمّعةً فاتحةً شكَّلت مظهرَ مكان عبادةٍ خام ونظيف.

قالت الرّاهبة:

- اتبعني، نحن بصدد تناول العشاء.

- في هذه السّاعة؟ تساءل كريم.

أخفت الأختُ ضحكتها بمكرِ فتاةٍ صغيرة.

- ألا تعرف أوقاتَ الكرمليّين؟ يجب أن نستأنف الصّلاة كل يومٍ على السَّاعة السَّادسة.

تبعها كريم وهو ينظر إلى ظلَّيْهما المنعكسَيْن على الأرضيّة. وصلا إلى قاعة كبيرة حيث كانت ثلاثون راهبةً بصدد الأكل وتبادل الحديث تحت ضوءٍ ساطع. كانت الأشكال والأثواب جافَّةً كالورق المقوّى أو كخبز القربان. اتَّجهت بعض النظرات نحو الشرطيّ مع بعض الابتسامات دون أن تنقطع أيّ محادثة. تعرّف كريم على عددٍ من اللّغات المختلفة: الفرنسيّة والإنجليزيّة ولغة سلافيّة أيضًا ربّما كانت البولنديّة. ثمّ جلس في نهاية الطاولة أمام وعاءٍ مليءٍ بحساءٍ أصفر، ممتثلًا لنصيحة الراهبة.

- كُل يا بنيّ. فتًى طويلٌ مثلك...

«بنيّ» دائمًا وأبدًا... لكنّ كريم لم يجرؤ هذه المرة على الاعتراض. نظر إلى طبقه، وتذكّر أنه لم يأكل شيئًا منذ ليلة البارحة. ابتلع الحساء في بضعِ ملاعق، ثمّ التهم عددًا من شرائح الخبز والجبن، مُستمتِعًا بالطَّعم المميَّز للأطباق المُعَدّة في المنزل بالوسائل المتاحة. سكب لنفسه الماء في قدح معدنيّ ثمّ رفع نظره. كانت الرّاهبة تراقبه وتتبادل بعض الكلمات مع رفيقاتها. همست:

- كنا نتحدَّث عن تسريحة شعرك...

- هكذا إذن؟

ضحكت.

- هذه الضفائر، كيف حصلت عليها؟

أجاب:

- بشكلٍ طبيعيّ. يتكثّف الشّعر المُجعَّد بشكلٍ طبيعيٍّ إلى جدائل إذا تركته ينمو. في جامايكا، يُطلق عليهم dreadlocks أو المجدل. لا يقصُّ الرّجالُ هناك شعورهم ولا يحلقون لحاهم البتَّة. الأمر ممنوعٌ في ديانتهم، مثل الحاخامات. عندما يصبحُ المجدل طويلًا يملؤونه بالتراب كي يصبح أثقل و...

صمت كريم فجأةً حين تذكَّرَ الهدف من زيارته. وفتح فمه ليبدأ الشرح، لكن الراهبة سبقته بالسؤال:

- ماذا تريد يا بنيّ؟ ولماذا تحمل مسدّسًا تحت سترتك؟

- أنا رجل شرطة. يجب أن أقابل الأخت أندريه.

واصلت الرّاهبات الحديث، لكنَّ الملازم فهم أنَّهنّ سمعن طلبه.

قالت المرأة:

- سنتّصل بها.

وأشارت إلى إحدى جاراتها في الطاولة، ثمّ خاطبت كريم:

- تعال معي.

انحنى الشرطيُّ لبقية الرّاهبات الجالسات في حركةِ وداعٍ وعرفان، مثل قاطع طريقٍ يحيّي مَن أكرم ضيافته. سارا في الممرّ اللّامع مرَّةً أخرى دون أن تُصدِر خطواتهما أي صوت. فجأةً، التفتت إليه الرّاهبة.

- لقد حذّروك، أليس كذلك؟

- ممّ؟

- يمكنك التحدُّث إليها، لكن لا يمكنك رؤيتها. يمكنك الاستماع لها، لكن لا يمكنك الاقتراب منها.

تفحَّصَ كريم حوافّ الحجاب المشدودة. وفكَّرَ في صحن كنيسة، في قبّة مضاءة بالأزرق السماوي، في أجراس تُمزّق سماء روما، في كلّ تلك الكليشيهات التي تدور في رأسك كلما أردت تخيّل وجه إله الكاثوليك.

همست المرأة:

- الظّلام، نذرت الأخت أندريه نفسها للظّلام. لقد مرَّت أربعة عشر عامًا منذ تخلّت عن النور ولم يرها أحد. لا بُدَّ أنها فقدت بصرها الآن.

في الخارج، اختفت أشعّة الشَّمس خلف المباني الضَّخمة وسرى البرد في الفناء المهجور. سارا نحو الكنيسة ذات الأبراج العالية. على الجانب الأيمن من المبنى، توقَّفَا أمام بابٍ خشبيٍّ صغير. فتَّشت الرّاهبة في ثنايا ثوبها، ثمّ سمع كريم صرير الخشب على الحجر.

تركته الأخت أمام الباب الموارب بمفرده.

بدا الظَّلام مأهولًا بالحياة مليئًا بالرّوائح الرّطبة والشّموع المترنّحة والحجارة البالية. خطا كريم بضع خطواتٍ ونظر إلى أعلى لكنه لم يستطِع رؤية السَّقف. حتّى الانعكاسات النادرة لنوافذ الزّجاج المُعشَّق اختفت بسبب غروب الشمس، وبدت ألسِنةُ لهب الشُّموع محاصرةً وسط البرد وضخامة الكنيسة.

مرَّ بوعاء مياه مقدّسة على شكل صدَفة، ثمّ بغرف الاعتراف، سار على طول تجويفات بدا أنها تُخفي أيقونات دينيّة سرِّيّة، ولاحظ شمعدانًا أسود يحمل عددًا من شموع مشتعلة تسبح في بِرَكٍ من الشَّمع الذَّائب.

أيقظت فيه هذه الأماكن ذكرياتٍ صمّاء مُبهمة. رغم أصوله، ورغم لون بشرته، فإنّ لاوعيه كان مشبعًا بالعقيدة الكاثوليكية. تذكَّرَ أيام الأربعاء الباردة في الملجأ، حين كانت حصص الفرجة التِّلفزيونيّة مسبوقةً دومًا بدروس التّعليم المسيحيّ، درب الصَّليب، كرم المسيح. تكثير الخبز، كلّ تلك التُّرّهات. شعر كريم بموجةٍ من الحنين وبحنانٍ غريبٍ نحو مدرّسيه وغضبَ من نفسه لمشاعره هذه. لم يكن يريد أيَّة ذكرياتٍ أو ضعف في ما يتعلَّق بماضيه. كان ابن الحاضر، إنسان اللَّحظة. على الأقل هكذا كان يحب أن يرى نفسه.

مرَّ بجانب الأقبية. خلف الشّبكات الخشبيّة في آخر المقصورات، رأى سجّاداتٍ داكنةً وحصًى أبيضَ ولوحاتٍ منسوجةً بالذّهب. كانت رائحة الغبار تغلّف كل خطوة يخطوها. وفجأةً، سمع صوتًا عميقًا جعله يستدير لامسًا سلاحه. استغرق الأمر بضع ثوانٍ لتمييز الظّل وسط الظّل، وتركَ مسدسه.

وسط إحدى المقصورات، وقفت الأخت أندريه بلا أدنى حراك.

31

كان وجهها مائلًا، ما جعل حجابها يخفي كل ملامحها. أدرك كريم أنه لن يراها كما قالت الرّاهبة، وخطرت له فكرة. ربما تشترك الأخت أندريه والطفل الصغير جود في علامةٍ فارقة، أمارةٍ على الوجه تكشف عن وجود قرابةٍ بينهما. ربّما كان الصبي ابنها. استحوذت الفكرة على عقله مثل الكمّاشة، لذلك لم يسمع الكلمات الأولى التي نطقتها المرأة.

- ماذا قلتِ؟ غمغم.

- سألتك ماذا تريد؟

كان الصوت عميقًا وناعمًا في الآن نفسه.

- أخت أندريه، أنا رجل شرطة. أودُّ الحديث معكِ عن جود.

لم يتحرَّك الحجاب المظلم.

- قبل أربعة عشر عامًا، في بلدة صغيرة اسمها «سارزاك»، سَرَقْتِ أو دَمَّرْتِ جميع الصُّوَر المُتعلِّقة بصبيٍّ صغير، جود إيتيرو. في «كاهور»، رشوتِ مصوِّرًا وخدعتِ أطفالًا أبرياء. افتعلتِ حرائق وارتكبتِ سرقات. كلّ ذلك لمحو وجهٍ طفوليٍّ مرسومٍ على ورقٍ لامعٍ لبضع صور. لماذا؟

ظلَّت الأخت بلا حراك، وقد شكَّلَ حجابها طوقًا من العدم.

قالت أخيرًا:

- كنتُ أمتثل للأوامر.

- أوامر مَن؟

- والدة الطّفل.

شعر كريم بوخزٍ في كامل جسده. كان يعلم أنّ هذه المرأة التي نذرت نفسها للظلام تقول الحقيقة. وفي لحظةٍ تخلّى الشرطيُّ عن فرضيّة الأخت/ الأم/ الابن.

انفتح الحاجز الخشبي الذي يفصل الرّاهبة عن كريم وسمع وقع خطواتها. عبرت أمامه بحركاتٍ بطيئة لكن واثقة، واتَّجهت نحو الكراسي المصنوعة من القش، ثمّ جثت على ركبتَيْها فوق كرسيّ صلاة. سحب كريم جسده إلى الصف العلويّ وجلس قبالتها. فخنقته رائحة القش والرماد والبخور.

قال وهو يُحدِّق في الظِّل الذي حلَّ محلَّ الوجه أمامه:

- كُلِّي آذانٌ صاغية.

- جاءت لرؤيتي في ليلة أحدٍ من شهر جوان 1982.

- هل كنت تعرفينها؟

- لا. التقينا لأوّل مرّةٍ هنا. لم أرَ ملامحها. لم تعطني اسمها ولا أيَّة معلوماتٍ عنها. أخبرتني أنها تحتاج إليَّ فحسب. لمهمة خاصّة... أرادت أن أتلف كل الصُّوَر المدرسيّة التي يظهر فيها جود. أرادت محو كل أثرٍ لذلك الوجه.

- لماذا أرادت محوه؟

- كانت مجنونة.

- أرجوك، جِدي تفسيرًا آخر.

ران الصَّمت وهو يحاول اختراقَ حُجُبِ الظّلال، ثمّ أتاه صوتها:

- قالت إن الشّياطين كانت تطارد ابنها.

- الشّياطين؟

- هذا ما قالته. قالت إنّهم يبحثون عن وجهه...

- ألم تُقدِّم أي تفسير آخر؟

- لا. قالت إنّ ابنَها ملعون، إنّ وجهه كان دليلًا، إثباتًا يعكس لعنة الشّياطين. قالت أيضًا إنها وابنها سبقا اللّعنة بسنتَيْن، لكنها لحقت بهما، وإن الشّياطين كانت تجول مرَّةً أخرى. كلمات لا معنى لها. مجنونة، لقد كانت مجنونة.

كان لكلّ كلمة تصدر منها وقعٌ كابوسيٌّ ومذاق حِرّيف. لم يفهم ما تعنيه قصة «الإثبات» هذه، لكنّ هناك حقيقةً جليّةً واحدة، السَّنتان المعنيّتان كانتا السَّنتَيْن اللّتَيْن قضياها في «سارزاك»، دون أن يعرفهما أحد. من أين أتت هذه الأم وابنها؟

- إذا كان جود الصَّغير مُهدَّدًا حقًّا من طرف كائناتٍ مخيفة، فلماذا عهدت بهذه المهمة السِّرِّيّة إلى راهبةٍ سيتذكّرها الجميع؟

تكرَّرَ صدى السّؤال وقد ردّدته الظِّلال التي صنعت حاجزًا متماسكًا كاد يكون ملموسًا.

همس كريم:

- أرجوك أخت أندريه.

- قالت إنها حاولت بشتّى السُّبل إخفاء طفلها، لكن الشّياطين أقوى من ذلك بكثير. قالت إن ما عليها فعله هو طرد الأرواح الشِّرّيرة من الوجه.

- ماذا؟

- حسب قولها، كان يجب عليّ أنا بالذات الحصول على تلك الصُّوَر ثمّ حرقها. سيكون ذلك بمثابة طقوس طرد الأرواح الشريرة. وبهذه الطريقة سيتحرّر وجه طفلها.

- أنا لا أفهم شيئًا.

- أخبرتك أنها كانت مجنونة.

- لكن لماذا أنتِ بالذات؟ بحق السماء، يقعُ ديركُم على بُعد أكثر من مائتَي كيلومتر من «سارزاك»!

الصَّمت مرة أخرى. مرّت اللحظات ببطءٍ شديدٍ قبل أن تجيبه:

- لقد بحثَتْ عنّي، لقد اختارَتني.

- ماذا تعنين؟

- لم أكن دومًا راهبةً كرمليّة. قبل أن تنير الدَّعوة صدري، كنت أُمًّا وزوجة. اضطررتُ إلى التَّخلّي عن زوجي وطفلي. ولهذا السَّبَب ظنّت المرأة أنني سأكون أكثر تفهُّمًا لطلبها. وكانت محقَّة.

كان كريم لا يزال يحاول إماطة لثام الظَّلام عن وجهها. فقال بعناده المعتاد:

- أنت تخفين عنّي شيئًا. إذا كنتِ حقًّا تعتقدين أن هذه المرأة مجنونة، فلماذا أطعتِها؟ ولماذا قطعت مئات الكيلومترات من أجل بعض الصُّوَر؟ لماذا كذبت وسرقت ودمّرت؟

- بسبب الطّفل. على الرّغم من خرف المرأة أو ذُهانها، وعلى الرغم من كلامها العبثيّ، شعرت... أن جود في خطر، وأن الطريقة الوحيدة لمساعدته هي تنفيذ أوامر الأم. حتّى إن كان الهدف تهدئة غضبها فحسب.

ازدردَ كريم لعابه بصعوبة. لقد عاد وخز الإبر يغزو جسده بكل قوّته. اقترب واستعمل نبرة صوته الأكثر هدوءًا.

- أخبريني عن الأم. كيف كانت تبدو جسديًّا؟

- كانت طويلة جدًّا وقويّة جدًّا. طولها ستُ أقدامٍ على الأقل. كتفاها عريضتان. لم أرَ وجهها، لكنَّني أتذكَّر أن شعرها كان لبدةً حقيقيَّةً سوداءَ مُتموِّجةً تحيط برأسها. وكانت ترتدي نظَّارةً بإطارٍ كبير. كانت متوشِّحةً بالسّواد على الدّوام...

- ووالد جود؟ ألم تُحدِّثكِ عنه؟

- لا، إطلاقًا.

أمسك كريم كرسيَّ الصّلاة وانحنى نحوها، فتراجعت المرأة غريزِيًّا.

- كم زارتك من مرّة؟

- أربع مرَّاتٍ أو خمسًا. يوم الأحد دومًا، صباحًا. سلّمتني قائمةً بالأسماء والعناوين، المُصوِّر والعائلات التي قد تكون في حوزتها صور. كنت أجمع الصُّوَر خلال أيام الأسبوع. وجدتُ العائلات، كذبتُ، سرقتُ، ورشوتُ المُصوِّر بالمال الذي أعطتْهُ لي...

- وكانت تأتي يوم الأحد لتستعيد الصُّوَر؟

- كلَّا، أخبرتك، أرادت مني أن أحرقها... عند زيارتها، كانت تشطب الأسماء الموجودة في قائمتها. عندما شطبت جميع الأسماء... أنا... شعرتُ أنها اطمأنَّت. ثمّ اختفت دون رجعة. أما أنا، فغمرتُ نفسي في الظّلام. اخترتُ الظُّلمة والعزلة. النّظرة الوحيدة التي أحتملها الآن هي نظرة الله. منذ ذلك الوقت، لم يمرَّ يومٌ لا أدعو فيه للصَّبي الصَّغير. أنا...

توقَّفَت بغتةً عن الكلام، وفجأةً بدت وكأنها فهمت حقيقةً غابت عنها حتّى الآن.

- لماذا أتيت إلى هنا؟ لماذا هذا الاستجواب؟ يا إلهي، جود لم...

نهض كريم ورائحة البخور تحرقُ حلقه. وأدرك أنه كان يتنفَّس بصعوبة، بفمٍ مفتوح. ابتلع لعابه، ثمّ نظر إلى الراهبة وقال بهدوء:

- لقد فعلتِ كل ما أمكنكِ فعله. لكنّ ذلك كان بلا جدوى. بعد شهر، فارقَ الطِّفل الصَّغير الحياة. لا أعرف كيف ولماذا. لكن المرأة لم تكن مجنونةً كما تعتقدين. لقد دنّس مجهولون قبر جود ليلة البارحة في «سارزاك». أنا مُتأكِّد أنّ الجُناة هم الشّياطين الذين حدَّثَتْكِ عنهم. كانت تلك المرأة تعيش كابوسًا يا أخت أندريه. وقد عاد هذا الكابوس.

صدر عن الأخت صوتٌ يشبه الأنين وانحنى رأسُها الغارق في الظِّلال إلى أسفل، فرسم حجابُها منحدراتٍ من الحرير الأسود والأبيض. وتابع كريم بصوتٍ أعلى فأعلى دون أن يعرف إلى من يُوجِّه كلامه، إليها، إليه، أم إلى جود:

- أنا شرطيٌّ عديم الخبرة، أخت أندريه. أنا مارقٌ يشقُّ طريقَه وحيدًا. لكن بطريقةٍ مّا، لم يسعف الحظُّ أوغاد اللّيلة الماضية. (أمسك بالكرسيّ مرَّةً أخرى). لأنني قطعتُ وعدًا للطّفل الصّغير، هل تفهمين ما أقول؟ لأنني أتيتُ من العدم ولا شيء، ولا أحد، يستطيع إيقافي. أنا لا أدين بالولاء إلا لرايتي الخاصَّة، هل فهمتِ؟ عَلَمِي الخاصّ وألواني الخاصّة!

انحنى الشرطيُّ وشعر بالخشبة تتصدّع تحت أصابعه.

- الآن حان وقت التفكير، يا أخت أندريه. جدي لي شيئًا، أي شيء، يضعني على المسار الصحيح. لا بُدَّ لي من تقصِّي أثر والدة جود.

اهتزَّ رأس الراهبة نفيًا:

- لا أعلم شيئًا..

- فكِّري! أين يمكنني أن أجد تلك المرأة؟ بعد «سارزاك»، إلى أين ذهبت؟ وقبل كل هذا من أين أتت؟ أعطني تفصيلًا، إشارةً، تسمح لي بمواصلة التحقيق!

حاولت الأخت أندريه كتم نشيجها.

- أنا... أظنّ أنها كانت تأتي معه.

- معه؟

- مع الطفل.

- هل رأيتِه؟

- لا. كانت تتركه في البلدة، بالقرب من المحطة، في مدينة ملاهٍ، لا يزال المتنزه موجودًا، لكني لم أجرأ على الذهاب إلى العارضين هناك... ربّما كان أحدهم يذكر الطّفل. هذا كلّ ما أعرف.

- شكرًا أيتها الأخت الموقّرة.

انطلق كريم مسرعًا. في الفناء الأمامي الواسع. صرَّت نعله المعدنيّة مثل حجر الصوّان. توقَّفَ في الهواء القارس، صارمًا وحادًّا كالطّود، وتأمَّل السَّماء. ثمّ تمتمت شفتاه في خوفٍ مناقضٍ لوقفته:

- اللَّعنة، ولكن أين أنا الآن... أين أنا؟

32

امتدَّت مدينة الملاهي في الغسق، بمحاذاة سكّة الحديد عند مخرج البلدة الصغيرة المهجورة. عرضت الأكشاك أنوارها وموسيقاها للفراغ. لم يكن هناك متفرِّجٌ واحدٌ ولا عائلةٌ واحدةٌ تتنزَّه هنا مساءَ يوم الاثنين. في الأفق، فتح البحر المظلم فكَّيْه الأبيضَيْن بأمواجٍ عاليةٍ ذات زبد.

اقترب كريم، ودار حول دولاب الهواء ببطءٍ. كانت العربات المُعلَّقة مُرصَّعةً بفوانيس صغيرة نصفها فقط يضيء بالتناوب، كما لو كانت تحتَ تأثير دارة كهربائية قصيرة. تقافزت السيارات المتصادمة بشكلٍ أعمى، ووقفت الألعاب الثابتة تحت خيام هزتها الرياح، ألعاب اليانصيب، ألعاب الرماية، عروض بائسة... لم يعرف أيهما أكثر كآبة، الكنيسة أم المتنزّه.

أخذ يستجوب العارضين دون اقتناع. طفل اسمه جود إيتيرو، بتاريخ جويلية 82. في معظم الأوقات، تبقى وجوههم على جمودها كمومياواتٍ مجعّدة. كان يحصل في بعض الأحيان على غمغمة نافية، وفي أحيان أخرى تعليقاتٍ غير مُصَدِّقة:

- قبل أربعة عشر عامًا؟ ثمّ ماذا؟

شعر كريم بإحساس متزايد بالإحباط. مَن سيستطيع التذكُّر؟ كم عدد أيام الأحد التي قدِمَ فيها جود إلى هذا المكان؟ ثلاثة، أربعة، خمسة على الأكثر؟

أجرى كريم، بإصرارٍ لا متناهٍ، جولةً كاملةً في المتنزّه، ربّما تحمَّسَ جود لهذه اللّعبة، ربما تودَّد إلى هذا العارض...

ومع ذلك، أكمل جولته دون نتيجة تُذكَر. تأمَّلَ البحر، ما زالت الأمواج تُحيط ركائز الجسر بألسِنة زبدٍ في مشهدٍ ذكَّرَ الشُّرطيّ ببحرٍ من القطران. بدا له أنه وصل إلى منطقةٍ قاحلة لن يجد فيها شيئًا. فاسترجع ذكرى من طفولته، مدينة بينوكيو السِّحريّة، حيث وقع الصغار في فخ الألعاب الرَّائعة، قبل أن يتحوَّلوا إلى حمير.

إلامَ تحوَّلَ جود يا ترى؟

كان الشُّرطيّ على وشك العودة إلى سيّارته عندما لاحظ سيركًا صغيرًا في نهاية قطعة أرضٍ مُقفرة.

قال في نفسه: «عليّ طرق كلّ الأبواب من أجل التحقيق» ثمّ استأنف المشي بخطواتٍ متعبةٍ حتّى وصل إلى القبّة القماشية. لم يكن سيركًا حقيقيًّا، بل خيمةً باليةً تضمّ عددًا من الألعاب الخرقاء. فوق البوابة المتهالكة، عُرِضَت لافتةٌ بلاستيكيّةٌ بأحرف ملتوية: «ألسِنة اللّهب». يا للبهجة! رفع الشُّرطيّ ستارةً كانت تُغطِّي المدخل بإصبعَيْن، وتوقَّفَ عند مشهدٍ ساطعٍ كان ينتظره في الداخل: اللّهب، أجيج النّيران، روائح البنزين المحمولة بالتَّيّارات الهوائية... فكَّرَ الملازم لحظةً في آلةٍ مصنوعةٍ من النَّار والعضلات، من الجمر والجذوع البشريّة. ثمّ فهم أنه كان ببساطة ينظر، تحت إضاءة ضعيفة، إلى عرض نافخي النَّار. رجالٌ عُراةُ الصُّدور يتلألؤون بالعرق والبنزين ويبصقون لعابهم القابل للاشتعال على مشاعل غاضبة. تحرَّكَ الرّجال في قوسٍ منتظمٍ مشكِّلين دائرةً جهنَّميّة. جرعة بنزين أخرى، فنفخة أخرى، فنيران أخرى. انحنى بعضُهم، وقفز آخرون فوق ظهورهم وهم يلفظون تعويذتهم النَّاريّة.

فكَّرَ الشُّرطيُّ في الشّياطين التي تطارد والدة جود. كلّ شيء في هذا الكابوس الطّويل متناسقٌ تناسقًا مخيفًا، القلق السام نفسه والفوضى المنتظمة نفسها. «كلّ جريمة هي نواة ذرّيّة»، كما قال الشُّرطيُّ ذو النَّظّارة.

جلس كريم على المدرَّجات الخشبيّة، وشاهد التَّنانين المبتدئة بضع لحظات. يجب عليه البقاء هنا واستجواب هؤلاء الرجال. لماذا؟ لم يُحر جوابًا. أخيرًا لاحظ أحد نافخي النّار وُجُودَه، فأوقف عرضه، وسار نحوه حاملًا دبوسًا أسودَ لا يزال بعد انطفائه يطلق بضع شرارات. لم يتجاوز العارض الثّلاثين من العمر، لكن ملامحه بدت كأنها قُدَّت من سنين تُحتسب عشرة أضعافها، سنين أمضاها في السجن بلا شك. شعرٌ بُنِّيّ، جلد بُنِّيّ، عينان بُنِّيّتان، وملامح شخصٍ دائم الإقدام على فعلٍ شائنٍ.

- هل أنت واحدٌ منّا؟ سأل.

- منكم؟

- نعم. هل أنت عارض؟ هل تبحث عن عمل؟

عقد كريم أصابعه.

- لا، أنا شرطي.

- شرطي؟

اقترب نافخ النار، ووقف حذوَ المدرّج السُّفليّ، تحت كريم مباشرةً.

- أنت لا تشبه رجال الشُّرطة في شيءٍ، يا صاح.

تسلَّلت رائحة الاحتراق إلى أنف كريم، وقال:

- هذا يتوقَّف على فكرتك عن رجال الشُّرطة.

- ماذا تريد؟ لا تقل لي إنك من الشُّرطة البلديّة.

لم يُجِب كريم. نظر إلى القبَّة القماشيّة المرقَّعة وإلى البهلوانات في وسط الحلبة، ثمّ فكّر أنّ هذا الشَّابّ كان طفلًا سنة 1982. هل هناك أيّ أملٍ أنه التقى بجود؟ لا. لكن حدسه دفعه إلى المواصلة. فسأل:

- قبل أربعة عشر عامًا، هل كنت موجودًا هنا؟

- نعم، ربّما، فالسّيرك ملكٌ لوالديّ.

قال كريم بنفَسٍ مُتسارعٍ:

- أنا أتقصّى أثر طفلٍ صغيرٍ ربّما قدِمَ إلى هنا في جويلية 82 أيَّام آحادٍ عديدةً متتاليةً. أنا أبحث عن أناسٍ يتذكّرونه.

حدَّقَ نافخُ النَّارِ في عينَيْ كريم.

- هل أنت جادٌّ يا صاح؟

- هل يبدو عليَّ المزاح؟

- ما اسم الطّفل الذي تبحث عنه؟

- جود، جود إيتيرو.

- هل تعتقد حقًّا أنه يمكننا تذكُّر طفلٍ ربّما قدِمَ إلى عرضنا قبل أربعة عشر عامًا؟

نهض كريم.

- انسَ الأمر.

فجأةً أمسكه الشَّابّ من سترته.

- جاء جود مرّاتٍ عديدة. كان يتسمّر أمامنا ونحن نتدرّب، كأنَّه منوّم. أو كتمثالٍ من الحجر.

- ماذا تقول؟

صعد الرّجل درجةً ووقف قبالة كريم. فاشتم الشُّرطيُّ رائحة أنفاسه المحمّلة بالبنزين:

- كان صيفًا حارًّا يا صاح، حرارة فرنٍ آليّ. ظهر جود أربعة أيام آحاد متتالية. كان في مثل عمري. لعبنا معًا وعلّمته أن ينفخ النار، إنها حكاياتٌ طفوليّةٌ خرقاء.

حدَّقَ كريم في الشاب.

- هل تتذكَّر ذلك الطّفل بعد مرور أربعة عشر عامًا؟

- أليس هذا ما كنت تأمله؟

رفع الشرطي صوته:

- أنا أسألك كيف يمكنك تذكُّره.

قفز الرجل على الأرض، وألصق أحد كعبَيْه بالآخر، ثمّ قرَّبَ دبّوسه المُتفحِّم من شفتَيْه. أحيى شعلته ببضعِ قطراتٍ من اللّعاب المحمّل بالوقود فانطلق وابلٌ من الشّرر.

- لم يكن جود طفلًا عاديًّا.

ارتجف كريم:

- وجهه؟ هل كان يحمل علامةً مميَّزةً في وجهه؟

- لا، ليس في الوجه.

- ماذا إذن؟

بصق الشاب بضع شرارات أخرى، ثمّ انفجر ضاحِكًا:

- كانت جود فتاةً صغيرةً يا صاح، فتاةً فائقةَ الجمال.

33

بدأت الحقيقة تتشكّل ببطء.

حسب ما قاله نافخ النار، فإنّ جود التي التقى بها أربع مرَّاتٍ كانت فتاةً مُتنكِّرةً بعنايةٍ في زيٍّ صبيّ. شعر قصير، ملابس ذكوريّة، سلوكات ولدٍ صغير. كان الرّجل مُتأكِّدًا: «لم تخبرني أنها أنثى... كان ذلك سرّها، هل تفهم؟ ببساطة، لاحظتُ على الفور تفاصيل غريبة. أوَّلًا، كانت جميلة جدًّا. قنبلة حقيقيّة. ثمّ صوتها. وحتى قوامها. كانت في الثانية عشرة من العمر، وليس من السهل إخفاء ثنايا جسدها. توجد أيضًا تفاصيل أخرى. فهي تضع على عينيها أشياء تغيّر لون القزحية. كانت عيناها سوداوَيْن، لكنه أسودٌ حبريٌّ اصطناعيّ. أدركت ذلك حتّى وأنا طفل. كانت تشكو دومًا من ألمٍ في عينَيْها. آلام تصل إلى مؤخّرة رأسها، هكذا كانت تصفها...».

سجَّل كريم كلامه، وأضاف العناصر الجديدة إلى معلوماته. كانت والدة جود تخشى الشّياطين الذين يريدون القضاء على ابنتها. ولهذا السبب غادرت مدينتها الأولى وقدمت إلى «سارزاك». هناك، اتَّخذت هويَّة جديدة، وغيّرت اسم طفلتها، بل غيّرت مظهرها وجنسها الرَّسمي أيضًا فلا يستطيع أحدٌ إيجادها أو التعرُّف عليها. مع ذلك، بعد سنتَيْن، عادت الشّياطين إلى الظهور في البلدة الجديدة، في «سارزاك»، مواصلةً بحثها المحموم عن الطفلة.

كانت الشّياطين على وشك العثور عليها.

أصيبت الأم بالذعر، فأتلفت كل الوثائق والسّجلات والبطاقات التي تضمّنت اسم ابنتها حتّى إن كان اسمًا مستعارًا. ولا سيَّما الصُّوَر، لأن الشّياطين، وإن جهلت اسمها الجديد، كانت حتمًا تعرف وجهها. لا تعرف وجهها فحسب، بل هو بالذات ما تبحث عنه. الوجه، الدليل، الإثبات. لهذا السبب كان على الشّياطين التركيز أوَّلًا على الصُّوَر

المدرسيّة، لإيجاد هذا الوجه المطارَد. لكن، من أين أتى هؤلاء الرجال الشّياطين؟ ومَن هم؟

استجوب كريم نافخ النَّار الشاب:

- ألم تُحدِّثك الفتاة الصَّغيرة عن شياطين؟

أجاب مواصِلًا اللّعب بشعلته.

- شياطين؟ لا. الشّياطين... (أشار إلى زملائه بسخرية) نحن هم الشّياطين. كانت جود قليلةَ الكلام. قلت لك كنّا أطفالًا، علّمتها كيف تنفخ النّارَ فحسب...

- هل كانت مهتمّة؟

- بل كانت منبهرة. قالت إنَّها تريد أن تتعلّم كي تدافع عن نفسها، وأيضًا عن أمّها... لقد كانت طفلة.. غريبةً بحقّ.

- ألم تخبرك بشيء عن أمّها؟

- لا. ولم أرها مطلقًا. كانت جود تقضي معي ساعةً أو ساعتَيْن، ثمّ تختفي فجأةً... مثل سندريلا. وبعد أربع أسابيع ذهبت دون رجعة...

- هل تتذكَّر أي جزئيّة يمكن أن تساعدني، حدثًا مُميَّزًا مثلًا؟

- لا.

- اسمها... ألم تخبرك قطُّ باسمها... الحقيقيّ؟

- لا. لكنها كانت تُصرُّ على طلبٍ غريب...

- ما هو؟

- عند تعارفنا دعوتها على الفور «جيود». باللّكنة الانجليزيّة، مثل أغنية البيتلز. لكنّ ذلك كان يزعجها، بل يثير غضبها. فتلحُّ أن أنطقه باللّهجة الفرنسيّة «جو-د». ما زلتُ أتذكَّر شكل فمها الصغير وهي تزمّ شفتَيْها: «جو-د.».

ابتسم رجل الاستعراض ابتسامةً مليئةً بالحنين وقد التمعت حدقتاه. وشعر كريم أنّ التِّنّين أحبَّ الفتاة الصَّغيرة بجنون. سأله الرّجل من جهته:

- لماذا هذا الاستجواب؟ ماذا حدث لها؟ صارت تبلغ من العمر...

لم يَعُد كريم يستمع إليه. كان يفكّر في جود الصَّغيرة التي زاولت تعليمها سنتَيْن تحت اسمٍ مستعار. كيف استطاعت الأم تزوير وثائق هويَّة ابنتها عند التَّسجيل في المدرسة؟ كيف استطاعت أن تجعلها ذكرًا في عيون الجميع، ولا سيَّما في عينَيْ المدرِّسة التي تراها كلَّ يوم؟

فجأةً خطرت للشُّرطيّ فكرة. فسأل رجل النَّار:

- هل يوجد هاتفٌ هنا؟

- هل تظنّنا متشرّدين؟ اتبعني..

اصطحبه رجل الاستعراض إلى كوخ خشبيّ صغير في نهاية المسار الرّملي فيه هاتفٌ يتوسَّط طاولة. اتَّصل الشُّرطيُّ بمديرة مدرسة جان جوريس بينما هبَّت الرِّياح بشدّة وهزَّت قماش الخيمة. كان يرى نافخي النَّار من بعيد. وبعد ثلاث رنّاتٍ أجاب صوتٌ رجاليّ.

- أودُّ الحديث إلى المديرة. أوضح كريم وهو يحاول تمالك نفسه.

- من طرف مَن؟

- الملازم كريم عبدوف.

بعد ثوانٍ، تردَّدَ صوت المرأة اللَّاهث عبر سمَّاعة الهاتف. وبدأ الشرطي دون مُقدِّمات:

- هل تتذكرين المُعلِّمة التي أخبرتِني عنها، والتي غادرت «سارزاك» في نهاية عام 1982؟

- طبعًا.

- أخبرتِني أنها أشرفت على الصَّفّ الرّابع سنة 81 ثمّ الصَّفّ الخامس سنة 82.

- تمامًا.

- لقد تَبعت جود إيتيرو من فصلٍ دراسيّ إلى آخر، أليس كذلك؟

- بلى. يمكننا صياغة الأمر على هذا النحو، لكنّي أخبرتك، إنه أمرٌ شائعٌ مع المدرّسات أن...

- ما اسمها؟

- انتظر، سأعود إلى ملاحظاتي...

تصفَّحت المديرة أوراقها.

- فابيان باسكو.

لم يعنِ هذا الاسم لكريم شيئًا. لم تكن فيه أيّة نقطة مشتركة ولا أيّ شبهٍ مع الاسم المستعار. كان عقلُ الشُّرطيّ يصطدم على كل معلومة جديدة. ثمّ سأل:

- هل تعرفين اسمها الكامل قبل الزّواج؟

- لكن هذا هو اسمها الكامل قبل الزّواج.

- هل كانت عزباء؟

- كانت أرملة. على الأقل هذا ما أراه في ملفّها. هذا غريب، يبدو أنها استعادت لقبها الأول.

- ما هو لقب زوجها؟

-انتظر... ها هو: هيرو Hèrault.

طريقٌ مسدودٌ جديد.

- حسنًا، أشكرك. سأ...

خطف البريقُ المبهر أنفاسه. إن كان حدسه صائبًا، إن كانت هذه المرأة هي بالفعل أمّ جود، فلا بُدَّ أنّ لقب الفتاة كان في الأصل، هيرو. واسمها...

استعاد كريم ملاحظة رجل الاستعراض، حول طريقة نطق اسم الطّفلة. لقد أصرَّت أن يُنطق بالفرنسيّة. لماذا؟ أليس لأنه يُذكِّرها باسمها الحقيقيّ؟ اسمها المؤنّث؟

همس كريم في سمَّاعة الهاتف:

- انتظري قليلًا أرجوك. جثَا على ركبتَيْه. وبيدٍ مرتجفة، كتب الاسمَيْن على الرِّمال بأحرفٍ كبيرة:

فابيان هيرو

جود إيتيرو

الإيقاع نفسه، القافية نفسها. فكَّرَ لحظات، ثمّ محا بيده ما كتبه للتوِّ على التّراب. وكتب وهو يفصل المقاطع الصوتية:

جو - دي – تي – رو

ثمّ

جوديت هيرو

كاد يطلق صرخة انتصار. جود إيتيرو Jude Itéro كانت تُسمّى في الواقع جوديت هيرو Judith Hèrault. كان الولد الصَّغير فتاةً صغيرة. وكانت الأم هي المُعلِّمة بالفعل. لقد استعادت لقبها الأبويّ لطمس أثرهما، وكيّفت اسم طفلتها مع صيغة المذكّر، حتّى تحافظ على قليل من هويتها، أو حتّى لا تخاطر بارتكاب الصَّغيرة خطأً في التّعريف بهويّتها الجديدة.

شدَّ كريم قبضتَيْه. كان مُتأكِّدًا أنّ الأمور سارت على هذا النحو بالضَّبط. لقد زوّرت المرأة وثائق ابنتها في المدرسة لأنها كانت على عين المكان. هذا يفسّر السُّهولة التي خدعت بها الجميع في «سارزاك» والسِّرِّيّة التي استولت بها على الوثائق الرَّسميّة. وبصوتٍ مرتعشٍ، سأل المديرة:

- هل يمكنك الحصول على المزيد من المعلومات عن هذه المعلّمة؟

- هذا المساء؟

- نعم، هذا المساء.

- أنا... نعم، أعرف أشخاصًا قد يساعدونني. هذا ممكن. ماذا تريد أن تعرف؟

- أريد أن أعرف أين استقرَّت فابيان باسكو حرم هيرو بعد مغادرة «سارزاك». أريد أيضًا أن أعرف أين درست قبل المجيء إلى بلدتكم. ابحثي أيضًا عن أناس عرفوها شخصيًّا. هل لديك هاتف جوّال؟

أجابت بالإيجاب وأملت عليه رقمها. وقد بدت شاردةً قليلًا، فتابع كريم:

- كم من الوقت سيستغرق جمع هذه المعلومات؟

- حوالي ساعتين.

- سأعاود الاتِّصال بك بعد ساعتين. لا تبتعدي عن هاتفك الجوّال رجاءً.

خرج كريم من الكوخ وودَّع فرقة نافخي النَّار التي استأنفت رقصة سان-غي.

34

ساعتان. عليه أن يقتل ساعتين.

عدَّل كريم قبّعته وتوجَّهَ إلى سيّارته. اجتاحت الرِّياح المحمّلة بالتَّعفّنات البحريّة التّرابَ والإسفلت. ساعتان، ربما لم تكشف له هذه المنطقة كل أسرارها بعد.

حاول أن يتخيَّل فابيان وجوديت هيرو. كائنان منعزلان يأتيان إلى هنا كل يوم أحدٍ في الصّيف. تخيَّلَ المشهد بدقّة، واستعرض كل الجوانب وكل التَّفاصيل التي يمكن أن تهمس له بطرف خيط جديد. ميَّزَ الأم وابنتها في ضوء الصَّباح وهما تمشيان بتكتُّم في منطقة لا يعرفهما فيها أحد. المرأة، مصمّمة، مهووسة بوجه ابنتها. وهي، الفتى المخنّث أو الفتاة المسترجلة، محتجزة وسط أسوار خوفها.

تصوَّرَ هذا الثُّنائيّ الغريب العالق في المحنة نفسها. رآهما تسيران يدًا بيد في صمت. كيف كانتا تصلان إلى هنا؟ بالقطار؟ بالسيارة؟

قرَّرَ الملازم زيارة جميع محطات القطار في المنطقة، ومحطات الطريق السَّريعة، ومراكز الجندرمة، بحثًا عن أثر، عن محضر، عن ذكرى...

ساعتان، ورهانٌ قد يكون خاسرًا.

شغَّل السيَّارة تحت سماء توهّجت بآخر جمرات الغروب. كانت ليالي أكتوبر تنكمش مُعانقةً ظلامها المبكّر.

عثر كريم على هاتف عمومي واتَّصل أوَّلًا بالدائرة الجهويَّة للشُّرطة القضائيّة، باحثًا دون جدوى عن سيَّارة مسجّلة باسم فابيان باسكو أو فابيان هيرو في مقاطعة «لو» سنة 1982. عاد إلى سيارته وركَّز على المحطَّات المجاورة، دون التَّخلّي تمامًا عن إمكانيّة وجود سيَّارة شخصيّة.

زار أربع محطّات قطار. النتيجة؟ أربعة أصفار. ابتلع عبدوف الكيلومترات حول الدّير ومدينة الألعاب. لم يرَ سوى ظلالٍ طويلةٍ في هالة المصابيح الأماميّة: أشجار وصخور وأنفاق... كان يشعر أنه بحالةٍ جيِّدة. دفَّأ تدفُّق الأدرينالين أطرافه، وأبقت الإثارة جميع حواسِّه في حالة تأهُّب. ها هو يستعيد أخيرًا الأحاسيس التي يحبّها ويفتقدها، أحاسيس اللّيل والخوف. الأحاسيس التي عرفها للمرة الأولى في مواقف السّيارات حين كان يشحذ مفاتيحه على أعمدة الكهرباء قبل خلع البوّابات. لم يكن كريم يخشى الظّلام، فلطالما كان اللّيل عالمه ولحافه ومياهه العميقة. كان وما زال يشعر بالسّكينة وسطه، مشدودًا كقوس جاهزة، قويًّا كحيوانٍ مفترس.

في المحطَّة الخامسة، لم يجد الشُّرطيُّ إلّا منطقة شحن مليئة بالقاطرات القديمة والمحرّكات الزّرقاء. بدأ بالمغادرة على الفور، ثمّ غيّر رأيه وعاد أدراجه. فوجد نفسه على جسرٍ فوق الطَّريق السَّريعة، مخرج «سات» الغربيّة. تفحَّصَ محطّة الاستخلاص الصَّغيرة على بُعد ثلاثمائة متر، وأمره حدسه بالتَّحقُّق من المكان.

«طرْق كل الأبواب»... دائمًا وأبدًا.

استدار يمينًا عابرًا صفًّا من الشُّجيرات فوجد مكاتب محطَّة الاستخلاص مظلمة. لكن، وبالقرب من الحظائر المجاورة للمكاتب، رأى الملازم رجلًا. نزل من السّيّارة، وسار مباشرة نحو الشَّخص الذي بدا مشغولًا حذوَ شاحنةٍ عالية. اشتدَّت الرِّياح الملوّثة. كان كل شيء جافًّا، باهتًا، مغبرًّا، كما لو أنه ملفوفٌ بنفَسٍ مالح. خطا الشُّرطيُّ فوق لافتات مروريّة ومجارف وخيام بلاستيكيَّة. وطرق على حاوية الشّاحنة مُسبِّبًا رنينًا معدنيًّا مُدوِّيًا.

قفز الرَّجل من مكانه. كان غطاءُ رأسه يخفي كلّ وجهه ما عدا عينَيْه، قطَّبَ حاجِبَيْه الرَّماديَّيْن وقال:

- ماذا يحدث؟ مَن أنت؟

- الشّيطان.

- ماذا؟

ابتسم كريم وهو يتّكئ على الحاوية.

- أنا أمزح. أنا شرطيٌّ يا أبتاه. وأحتاج إلى معلومات.

- معلومات؟ لا أحد يعمل هنا حتّى صباح الغد، أنا...

- تعمل محطّات الطُّرُق السَّريعة كل ساعات اليوم.

- جهاز الاستقبال في المكتب وأنا أعمل هنا...

- هذا ما أعنيه. سنذهبُ أنا وأنتَ إلى المكتب. سنتناول قدحًا من القهوة بينما أُلقي نظرةً على مركز الإعلام الرَّئيسيّ.

- مركز... الإعلام؟ لكن... عَمَّ تبحث؟

- سأشرح لك كلّ شيء لاحقًا.

كانت المكاتب مثل كلّ شيء في المنطقة، ضيِّقة ومؤقّتة. بجدرانٍ صغيرة وأبواب جوفاء وطاولاتٍ من الخشب المضغوط. كان كلُّ شيءٍ مطفأً وميِّتًا باستثناء جهاز حاسوبٍ يهتزُّ في الظّلام. مركز الإعلام الرَّئيسيّ، المفاعل المعلوماتيّ الذي يعمل دون توقُّف على مدار السّنة ويضمن نقل المعلومات إلى شبكة الطُّرُق السَّريعة بأكملها. كلّ حادث، كل عطب، كل تحرُّك من طرف أعوان المرور مسجّل في هذه الذاكرة العملاقة.

أصرَّ العجوز على استعمال الحاسوب بنفسه، فهمس كريم في أذنه:

- جويلية ٨٢. الكرة في ملعبك الآن. أريد معرفة كلّ شيء: الحوادث، عمليات الإنقاذ، عدد المستخدمين، كلّ شيء.

خلع الرَّجل العجوز غطاء رأسه وقفّازَيْه ونفخ على أصابعه لتدفئتها. نقر على لوحة المفاتيح بضع ثوانٍ، فظهرت قائمةٌ موافقةٌ لشهر جويلية ٨٢. أرقام، بيانات، تواريخ. دون أي حدث خارج عن المألوف.

- هل يمكن إجراء بحث بالاسم؟ سأل كريم وهو منحنٍ على الرجل.

- تفضّل، ما هو الاسم؟

- لديَّ أكثر من واحد: جود إيتيرو، جوديت هيرو، فابيان باسكو، فابيان هيرو.

- كلّ هؤلاء؟ تذمَّر الموظّف، وهو يُدخِلُ الأسماء والألقاب.

لكن الجهاز أجاب بعد بضعِ ثوانٍ. اقترب كريم.

- ماذا يحدث؟

- هناك نتيجة مُتعلِّقة بأحد الأسماء. لكن ليس في جويلية ٨٢.

- استمرّ في البحث.

كتب الرّجل عددًا من الكلمات المفاتيح. وعرضت الشاشة المظلمة النّتائج بأحرفٍ لامعة. شعرَ الشُّرطيُّ بجسده يتحجّر عندما صرخ التاريخ في وجهه 14 أوت 1982. اليوم المنقوش على شاهد قبر جود. الاسم المطابق للملفّ: جود إيتيرو.

غمغم العجوز:

- لا أتذكَّر الاسم، لكني أتذكَّر الحادث. كان حادثًا مُروِّعًا بالقرب من هيرون-سندري. حادث السَّيّارة عن مسارها فاجتازت الرّصيف المركزيّ واصطدمت بزاوية الجدار العازل للصّوت. وجدنا الرّاكبَيْن، المرأة والطّفل، وسط الهيكل المهشّم. وحده الصبي فارق الحياة بينما نجت المرأة دون إصابات خطيرة. جثَّة الطّفل كانت... يا للسّماء! كان المشهد كابوسيًّا.

ارتجف جسد كريم. هكذا انتهت إذن رحلة فرار فابيان وجوديت هيرو. انتهت في جدارٍ عازلٍ بسرعة مائة وثلاثين كيلومترًا في السَّاعة. نهاية سخيفة وبسيطة بشكلٍ محبط. كتم الشُّرطيُّ صرخةَ غضب. كيف يصدِّق أن كل تلك المغامرة وكلّ احتياطات المرأة تحطَّمت في حادث مرور؟

كان يعرفُ منذ البداية أنّ جوديت فارقت الحياة في أوت 1982 كما يشهد قبرها. الآن اكتشف فقط مُلابسات موتها. لكن الدموع أحرقت جفنَيْه وكأنَّه علم للتَّوّ بوفاة شخصٍ عزيزٍ على قلبه، شخصٍ أحبَّه بضعَ ساعاتٍ فقط، ولكن بقوّة إعصار، متجاوزًا الكلمات والسّنوات، متجاوزًا المكان والزمان.

أمر بصوتٍ خنقته العبرات:

- واصل، كيف وجدتم جثَّة الطفل؟

- إنه... كان مطمورًا بالكامل في هيكل السَّيّارة. كدسٌ من اللَّحم والصّفائح المعدنيّة. اللَّعنة. لقد استغرقوا أكثر من سِتِّ ساعاتٍ لجمع الـ... المشهد محفورٌ في ذاكرتي... كان وجهه... بل لم يكن هناك وجه، ولا رأس، ولا شيء.

- ماذا عن الأمّ؟

- الأمّ؟ لا أعرف ما إذا كانت والدته. على أيَّة حال، لم يكن لديها اللَّقب نفسه...

- أعرف، هل أصيبت؟

- لا، ليس كثيرًا. بعض الكدمات والخدوش فحسب. إصاباتٌ طفيفة. لأنّ السَّيّارة دارت حول نفسها واصطدمت بالجدار من جانب الرّاكب. وقعــت حوادث مماثلة في

هذا المنعطف و...

- صِفها لي.

- مَن؟

- المرأة.

- لن أنساها ما حييت. عملاقةٌ حقيقيَّةٌ بشعرٍ أسودٍ مجعّد. ترتدي نظَّارةً كبيرةً وكلُّ ثيابها سوداء. كانت غريبة الأطوار. لم تذرف دمعةً واحدةً. بدت باردةً جدًّا. ربّما كانت تحت تأثير الصّدمة، لا أدري...

- كيف كان وجهها؟

- جذَّابًا.

- ماذا تعني؟

- من النّوع الممتلئ، لا أدري... بشرة صافية جدًّا، شفّافة تقريبًا.

غير كريم اتِّجاه الأسئلة:

- هل تحتفظ بملفٍّ خاصٍّ بكلّ حادث؟ بتقريرٍ كتابيٍّ مع شهادة الوفاة وكلّ الوثائق الأخرى؟

نظر العجوز الأشعث إلى الشُّرطيّ بعينَيْن ضيِّقتَيْن.

- ما الذي تبحث عنه بالضَّبط؟

- أرني الملف.

مسحَ الرّجل يدَيْهِ على معطفه وفتح مصاريع الخزانة. ثمّ فحص الملفّات مُتهجِّيًا أسماء المصابين.

- جود إيتيرو، ها هو. أحذّرك، إنه...

تناول كريم الملفّ وتصفّحه بلهفة: الشّهادات، المحاضر، تقارير التّأمين... كانت فابيان باسكو تقود سيَّارة مُستأجرة من «سارزاك». عنوان السَّكَن هو العنوان الذي أخبره به الدّكتور ماسي -الخربة المعزولة في التلّ الصّخري- لا جديدَ من هذا الجانب. المذهل في الأمر أنَّ الأمّ أعلنت وفاة طفلها باعتباره جود إيتيرو، الجنس ذكر.

قال الشُّرطيّ:

- لا أفهم. هل كان ذكرًا حقًّا؟

- نعم... (نظر العجوز إلى الملفّ) هذا ما قالته المرأة على أيَّةِ حال...

- ألم يحدث أيّ مشكلٍ طبّيٍّ أو إداريّ؟

- مشكل؟ ماذا تعني؟

حاول الشُّرطيُّ التَّحكُّم في صوته.

- أنا أسألك فحسب عمَّا إذا كان من الممكن تحديد جنس الطّفل.

- أنا لست طبيبًا! لكن بصراحة لا أعتقد ذلك. كان الجسد أقرب إلى الشّظايا... لكُتلٍ من اللّحم... (مسح وجهه بيده)... عملتُ مدَّة خمسة وعشرين عامًا في هذا المكان، وشهدت حوادث مرور لا تُحصى ولا تُعدّ... الفظاعة نفسها دومًا... (لوّح بيدَيْه عاليًا). مثل حربٍ لامرئيّة تظهر من وقتٍ إلى آخر بعنفٍ مرعب!

فهم كريم أن حالة الجثَّة سمحت للمرأة باستكمال كذبتها المتقنة حتّى النّهاية. ولكن لماذا؟ هل كان الخطر يترصّدها؟ حتّى بعد موت الطّفلة؟

راجع الملازم الملفّ مرّةً أخرى، ووجد صورًا للحادث: دماء، صفائح معدنِيَّة مُحطَّمة، قطع لحم وأطراف بارزة من هيكل السَّيّارة. مرّ عليها بسرعة لأنّ قلبه لم يتحمّل رؤية بقايا جود. ثمّ اطّلع على شهادة الوفاة وتوصيف الطَّبيب للجثّة أو ما تبقى منها، وتأكَّد من أن أوصاف الجسد كانت مجرَّدة من كلّ معلومةٍ مفيدة.

اتّكأ كريم على المكتب وهو يشعرُ بالدوار. ثمّ نظر إلى ساعته. لقد قتل ساعتَيْن مثلما أراد. لكن السَّاعتَيْن أيضًا أصابتاه في مقتل.

ألقى نظرةً أخيرةً على الصّفحات. رأى بصمات أصابع مطبوعة بالحبر الأزرق على ورقةٍ مستقلّة. تأمَّلَ الحلقات والمنحنيات بضعَ ثوانٍ ثمّ سأل:

- هل هذه بصماته؟

- ماذا تعني؟

- هذه البصمات، هل هي بصمات الطفل؟

- أنا لا أفهم أسئلتك. لكنّ الإجابة هي نعم بالتأكيد. لقد حملتُ علبة الحبر بنفسي. كانت بقايا الجثَّة في الكيس المُخصَّص للغرض. ضغط الطبيب على اليد الصَّغيرة أمامي

لأخذ البصمات، يدٌ مُلطَّخة بالدّماء. تبًّا! كنا جميعًا مستعجلين لإنهاء الأمر ونسيانه. تنتابني الكوابيس حتّى اليوم. اللَّعنة...

حشرَ كريم الملفّ تحت سترته الجلديّة.

- حسنًا. سأحتفظ بالوثائق.

- طبعًا، احتفظ بها. مع السّلامة.

خرج الملازم من المكتب مُترنِّحًا والنجوم تتراقص تحت جفنَيْه. وصرخ العجوز وراءه:

- انتبه لنفسك.

استدار كريم. كان الرّجل يراقبه وسط الرِّياح المالحة وانعكاسه في الباب الزُّجاجيّ يُضفي لمسةً عجائبيّةً على المشهد.

- ماذا؟

- قلت انتبه لنفسك. ولا تعتبر أيّ شخصٍ آخر بمثابة ظلّك.

حاول كريم أن يبتسم:

- لماذا؟

أنزل الرَّجلُ غطاء رأسه.

- لأنَّني أعرف، وأحسّ: أنت تمشي بين الأموات.

35

- أنا لا أتوانى عن فعل أيّ شيءٍ من أجلك يا حضرة الملازم... لقد ذهبت للقاء زميلي في الأكاديمية...

قالت المديرة بمرحٍ حين رفعت السّماعة.

- لحسن الحظّ لم يمانع الحارس...

- ماذا وجدتِ؟

- الملفّ الكامل لفابيان باسكو حرم هيرو، لكنَّه يقود إلى طريقٍ مسدودة. بعد عامين من العمل في «سارزاك»، اختفى كلّ أثرٍ لها. يبدو أنها تركت سلك التعليم.

- ألا توجد طريقة أخرى لمعرفة وجهتها بعد «سارزاك»؟

- ليس على حدٍّ علمي. يبدو أنها لم تُجدِّد عقدها مع وزارة التّعليم بعد انتهاء تلك السّنة الدراسية. هذا كلّ ما لدينا. لم تَعُد الأكاديميّة تعرف عنها شيئا بعد مغادرتها.

كان كريم يتحدّث من هاتفٍ عموميٍّ أسفل حيٍّ سكنيٍّ في ضواحي سيت. جال ببصره من خلال الحاجز الزُّجاجيّ في السّيارات المركونة اللّامعة تحت أعمدة الإنارة. لم تفاجئه معلومات المرأة. فقد أقفلت فابيان باسكو الباب خلفها عند مغادرتها. أغلقته على لغزها، على مأساتها وعلى شياطينها.

- وأين كانت تعملُ قبل قدومها إلى «سارزاك»؟

- في «غيرنون»، مدينةٍ جامعيَّةٍ تقعُ في مقاطعة «إيزار» شمال «غرونوبل». درَّست هناك بضعة أشهر فحسب. قبل ذلك، كانت مسؤولة عن مدرسة ابتدائيّة صغيرة في «تافيرلاي»، وهي قرية تقع في مرتفعات بالفو.

- ماذا عن معطياتها الشَّخصيّة؟

واصلت بنبرةٍ آليةٍ:

- ولدت فابيان باسكو عام 1945 في كوريفييه بأحدِ منحدرات «إيزار». تزوّجت من سيلفان هيرو عام 1970، وحصلت في السّنة نفسها على الجائزة الأولى في العزف على آلة البيانو بمعهد الموسيقى في «غرونوبل». كان بإمكانها أن تصبح أستاذةً أو...

- واصلي رجاءً.

- سنة 1972 دخلت دار المعلّمين العليا. وبعد سنتَيْن، التحقت بمدرسة «تافيرلاي» الابتدائيّة، في «إيزار» دومًا. درَّست هناك مدَّة سِتِّ سنوات. وفي العام 1980، أغلقت مدرسة «تافيرلاي» أبوابها وانتقل التّلاميذ بفضل بناء طريقٍ جديدةٍ إلى مدرسةٍ أكبر في قريةٍ مجاورة. نُقِلَتْ فابيان إلى «غيرنون» في ضربة حظٍّ حقيقيّة، فالبلدة لا تبعُد سوى خمسين كيلومترًا عن «تافيرلاي»، وهي مدينةٌ مشهورةٌ بين المدرِّسين لأنها مدينةٌ جامعيَّةٌ، مليئةٌ بالعلم والثقافة، ومناسبة للعيش.

- قلتِ إنها أرملة. متى توفِّي زوجها؟

- صبرًا عليَّ أيّها الشاب، صبرًا عليَّ! سنة 1980 عند وصولها إلى «غيرنون»، استعملت فابيان لقب زوجها، بينما قدَّمَت نفسها في «سارزاك»، بعد ستَّة أشهر، على أنَّها أرملة. توفِّي الزّوج إذَنْ خلال فترة عملها في «غيرنون».

- هل تملكين أيّ معلومة عنه في ملفّك؟ عمره؟ مهنته؟

- هذه أكاديمية التّعليم العموميّ، وليست وكالة المباحث أو جهاز المخابرات.

تنهَّدَ كريم.

- واصلي رجاءً.

- بعد فترةٍ وجيزةٍ من وصولها إلى «غيرنون»، طلبت نقلتها إلى أيّ مكانٍ ما دامَ كان بعيدًا عن تلك المدينة. طلبٌ غريب، أليس كذلك؟ تحصَّلت بسرعة على منصبٍ في «سارزاك». طبعًا، فلا أحد يريد العمل في منطقتنا الجميلة... استعادت حينها لقبها الأبويّ. ربّما أرادت طيَّ الصّفحة والمضيّ قُدُمًا في حياتها.

- لم تقولي شيئًا عن نسلها.

- أنت محقّ، أنجبت ابنة سنة 1972.

- هل هذا ما يقوله الملف؟

- نعم...

- ما اسمها؟

- جوديت هيرو. ولكن مرةً أخرى، لم يَعُد لها أيُّ ذِكْر في «سارزاك».

أكَّدت معلومات المديرة نظريّة كريم بكلِّ تفاصيلها.

- هل تمكَّنتِ من الاتِّصال بأشخاص يعرفونها في «سارزاك»؟

- نعم، تحدَّثتُ مع المديرة السّابقة ماتيلد سارمان. إنّها تذكر فابيان جيِّدًا، فهي امرأة غريبة على ما يبدو، غامضة، صموتة، فائقه الجمال، وقويّة جدًّا، متر وثمانون، كتفان عريضتان... كانت تعزف على البيانو بانتظام، موهوبة جدًّا. أنا أكرِّر ما سمعته...

- هل عاشت بمفردها في «سارزاك»؟

- حسب ماتيلد نعم، عاشت بمفردها في وادٍ منعزلٍ على بُعد عشرة كيلومترات من المدينة.

- ولا أحد يعرف لماذا غادرت «سارزاك» فجأةً؟

- لا أحد يعرف.

- ولا سبب فرارها من «غيرنون»، قبل سنتَيْن؟

- لا. يجب الذَّهاب إلى هناك، ربّما. أنا... (تردّدت المرأة ثمّ تجرَّأت على السّؤال) يا حضرة الملازم... يمكنك على الأقلّ أن تشرح لي العلاقة بين هذا التّحقيق والسّطو على مدرستي، أنا...

- فيما بعد. هل أنت ذاهبة إلى المنزل؟

- أه... نعم، طبعًا...

- خذي معك كلّ ملفّ فابيان باسكو وانتظري مكالمتي.

- حسنًا. متى ستعاود الاتِّصال بي؟

- لا أعرف، قريبًا. سأشرح لك كلّ شيءٍ حينها.

أقفل كريم الخطّ وفحص من جديد السّيارات المركونة في الموقف المقابل. سيّارات أودي، وبي إم دبليو، ومرسيدس... سيَّارات ألمانيّة فخمة وسريعة ومدجّجة بأجهزة

الإنذار. نظر إلى ساعته، إنها الثَّامنة مساءً. حان الوقت لمواجهة الذّئب العجوز. اتَّصل الملازم بهنري كروزييه على رقمه المباشر وسمع الصّراخ فورًا:

- اللَّعنة! أين أنت بحقِّ الجحيم؟

- أنا أواصل التّحقيق.

- أرجو أن تكون في طريقك إلى المركز.

- لا. عليَّ أن أؤدّي أوَّلًا زيارة أخيرة، إلى الجبل.

- الجبل؟

- نعم بلدة جامعيّة صغيرة بالقرب من «غرونوبل»، «غيرنون».

صمت كروزييه لحظةً ثمّ أجاب:

- أتمنى أن يكون لديك سببٌ وجيه لـ....

- الأكثر وجاهةً يا سيادة المحافظ. الخيط الذي أمسكته قادني إلى هذه المدينة. سأجد أثر المخرّبين هناك.

لم يقل كروزييه شيئًا. بدا أن وقاحة كريم أخرسته. وسأل كريم مُستغِلًّا صمته:

- هل من جديد عن السَّيّارة؟

تردَّدَ المحافظ. رفع كريم صوته:

- هل من جديد، نعم أم لا؟

- حدّدنا موقع السَّيّارة وصاحبها.

- كيف؟

- بفضل شاهدٍ عيانٍ على الطَّريق د 143. فلّاح على جرّاره رأى سيّارة لادا بيضاء تمرُّ عند الساعة الثانية صباحًا وحفظ رقم المقاطعة. عند التَّثبُّت وجدنا سيَّارة لادا مُسجَّلة حديثًا هناك. أظهر تقرير المراقبة الفنِّيّة أنها لا تزال تحتفظ بإطاراتها الرُّوسيّة الأصليّة، إنها سيارتنا. هذا أكيدٌ بنسبة ثمانين بالمائة على الأقل.

فكَّرَ كريم. بدت هذه المعلومة مريبة، لأنها ظهرت في وقتٍ مناسبٍ أكثر من اللّازم.

- لماذا قدِمَ الفلّاح للإدلاء بشهادته؟

ضحك كروزييه.

- لأن «سارزاك» في حالة غليان. وصل رجال الشُّرطة القضائيَّة بضجيجهم المعتاد. إنّهم يعتقدون أنهم أبطال فيلم بوليسيّ ويتعاملون مع القضيَّة كما لو كانت قضيَّة تدنيسٍ من أعلى طراز. (تذمّر كروزييه) قدمت وسائل الإعلام أيضًا. إنّها الفوضى!

كظمَ كريم غيضه.

- أعطني الاسم والمدينة بسرعة.

- لا أحد يتحدَّث معي بهذه النَّبرة يا كريم. أنا...

- الاسم يا حضرة المحافظ. ألا تفهم أن هذه قضيّتي؟ وأنّني الشَّخص الوحيد الذي يعرف جذورها الحقيقيّة؟

لزم كروزييه الصَّمت في مُحاوَلةٍ لتمالك نفسه دون شك. وعندما تكلّم، كان صوته جامدًا:

- كريم، طوال مسيرتي المهنيّة، لم يتحدّث معي أحدٌ بهذه الطَّريقة المُهينة. لذلك أريد استنتاجات عن «قضيّتك»، وأريدها حالًا. وإلا فسألصق بطاقة تفتيش على مؤخّرتك.

أشارت نبرة صوته إلى أنّ وقت التَّفاوض قد ولّى. لخَّصَ كريم في كلماتٍ قليلةٍ نتائج بحثه. وروى له قصّة فابيان وجوديت هيرو الهاربتَيْن. ووصف فرارهما العبثيّ، وتغيير هويّتَيْهما، وحادث السَّيّارة الذي أودى بحياة الطّفلة. قال كروزييه في حيرة:

- قصّتك هذه تصلح رواية.

- الموت في حدِّ ذاته روايةٌ يا حضرة المحافظ.

- نعم... على أيّ حال، لا أرى أيّ رابطٍ بين قصّتك وقضيّة البارحة...

- أعتقد أنّ فابيان هيرو لم تكن مجنونة. كان هناك رجال يطاردونها حقًّا. وأعتقد أنهم عادوا إلى «سارزاك» ليلة البارحة وفعلوا ما فعلوه.

- ماذا؟

أخذ كريم نفسًا عميقًا.

- أعتقد أنهم عادوا للتَّأكُّد من شيءٍ ما، شيءٍ كانوا يعرفونه في الماضي لكن حدثًا جديدًا جعله محلَّ تساؤل.

- من أين تأتي بهذه الأفكار العجيبة؟ ومَن هم هؤلاء الرّجال؟

- ليست لديَّ أدنى فكرة. لكنّ الشّياطين عادت يا حضرة المحافظ.

- هذا هراء!

ربّما، لكن الحقائق موجودة. وقعت بالفعل عمليَّةُ سطوٍ على مدرسة جان جوريس ووقع بالفعل انتهاك قبر جود إيتيرو. لهذا، من فضلك، أعطني اسم الفاعل ومدينته. أريد أن أعرف ما إن كانت «غيرنون». في رأيي أنَّ مفتاح الكابوس يوجد هناك...

- سجِّل، الاسم: فيليب سيرتيس، العنوان: ٧ شارع موريس بلاش.

اهتزَّ صوت كريم:

- أيّ مدينةٍ يا حضرة المحافظ؟ أهي «غيرنون»؟

صمت كروزييه بضعَ ثوانٍ، ثمّ أجاب أخيرًا:

- نعم هي «غيرنون». لا أعرف أيّ شيطانٍ قادك إلى هناك، لكن، اللَّعنة! يبدو أنّك حقًّا أقربنا إلى الحقيقة.

36

دبَّت الحياة في صور المصوّرة الألمانيّة.

ركضَ الرِّياضيّون برؤوسهم الحليقة في ملعب برلين ما قبل الحرب، مَتِينون، جبابرة، مَهيبون. اتَّخذ سباقهم إيقاع فيلم مهتزّ، قديم، باهتٍ مثل سطح تابوت. رأى الرّجال يركضون. سمع وقع أقدامهم على الأرض. وشعر بأنفاسهم، حارقة، خافقةً مع كلّ خطوةٍ من خطواتهم.

لكن سرعان ما تسلَّلت تفاصيلُ مُقلِقةٌ إلى المشهد. كانت الوجوه مُظلِمةً جدًّا ومغلقةً جدًّا. الجِباهُ قويَّةٌ جدًّا وبارزة جدًّا. ماذا تُخبِّئ هذه النّظرات؟

بينما تصاعدَ الصّخب الهستيريّ من المدرّجات، برزت فجأةً محاجرهم الخالية من العيون، والتي لم تمنعهم من الرُّؤية أو الجري. بل على العكس اهتاجتْ، وسط تلك الجراح الدّامية، حركاتٌ جديدة، طقطقاتُ ألسن، وميضٌ حيوانيّ...

استيقظ نيمانز مكسوًّا بعرقٍ باردٍ. أبهره الضَّوء الأبيض المنبعث من الحاسوب فور فتح جفنَيْه. تمالك نفسَه في صمتٍ ودسَّ رأسه في ياقة سترته. ثمّ ألقى نظرةً دائريَّةً حوله، لم يلاحظ أحدٌ أنه استسلم للنّوم وأنّ الرعب تسلّل من الصُّوَر إلى أحلامه، تلك الصُّوَر المُعلَّقة في منزل صوفي كايوا، صور مخرجةٍ نازيّةٍ نسِيَ اسمها.

التَّاسِعة مساءً.

إذن، لم ينَمْ سوى خمسٍ وأربعين دقيقة. بعد زيارته إلى المستودع، أرسل اكتشافاته (الدّفتر الصغير، الشّظايا المعدنيّة وعيّنات المسحوق الأبيض) إلى مهندس «غرونوبل»، باتريك آستييه، مع مارك كوست الذي كان ينتظر وصول جثَّة الجليد إلى المستشفى.

ثمّ قدم إلى هنا، إلى مكتبة الجامعة، لإجراء بحثٍ عن كلمتَي «أنهار» و «قرمزيّة» لعلّ الحظَّ يحالفه. تفحَّصَ الخرائط أوَّلًا، بحثًا عن شبكة مائيّة تحمل هذا الاسم، ثمّ راجع الفهرس الرَّقميّ بحثًا عن كتاب أو دليل أو ملف يمكن أن يحتوي على هذَيْن المصطلحَيْن دون جدوى. ثمّ باغته النّوم أثناء القراءة. لقد قضى أربعين ساعةً مستيقظًا، ثمّ خذلته أعصابه فجأةً مثل دمية متحركة قُطعت خيوطها.

جال المحافظ ببصره في قاعة القراءة مرّةً أخرى. وبين الطّاولات والمقصورات الزُّجاجيّة، واصل أفراد الشُّرطة بالزِّيّ المدنيّ بحثهم محاولين فكَّ رموز الكتب التي تدور حول الشَّرّ أو النّقاء أو العيون... تولَّى اثنان منهم وضع قائمة بالطّلاب الذين استعاروا بشكلٍ مُتكرِّرٍ هذه الكتب «المشبوهة»، بينما لا يزال آخرٌ بصدَدِ الاطِّلاع على أطروحة ريمي كايوا.

لكن نيمانز لم يعد مقتنعًا بخيط الكتب. صار مثله مثل هؤلاء الشُّرَطِ الذين ينتظرون قدوم الفريق الذي سيأخذ مكانهم. كان الجميع يعلم منذ ساعتين أنّ الدَّائرة الجهويَّة للشُّرطة القضائيَّة بـ«غرونوبل». ستتولَّى التّحقيق نظرًا إلى النّتائج الهزيلة للثُّلاثيّ نيمانز-بارنز-فيرمونت.

وبالفعل، لم يحرز التّحقيق أيّ تقدُّم رغم مضاعفة اليد العاملة لمساعدة فريق النَّقيب فيرمونت في تمشيط أراضي طرف موريه والجانب الغربيّ من جبل بيلدون. سُخِّر ثلاثمائة جنديٍّ متمركزين في قاعدة رومان لهذا الغرض. وصل الجنود بالشاحنات على السَّاعة السَّابعة مساءً وبدؤوا فورًا في تنظيم دوريّات تحت إمرة فيرمونت. وبالإضافة إلى الجنود، سخَّر النقيب أيضًا فرقتَيْن من سرايا الأمن الجمهوريّ المتمركزة في «فالنس».

مشَّط الرّجال أكثر من ثلاثمائة هكتار دون أن يسفر هذا التّفتيش المنهجيّ عن أيّ نتيجة حدَّ اللّحظة -ولن يسفر عن أيّ نتيجة في الأيَّام القادمة- كان نيمانز مُتأكِّدًا. لو ترك القاتل أيّ دليل خلفه، لكانوا اكتشفوه الآن. ومع ذلك، ظلَّ المحافظ على اتِّصالٍ مع فيرمونت بجهاز الإرسال ذي التردّد العالي جدًّا، وسطّر بنفسه الأماكن المهمَّة في القضيَّة على خارطة المعهد الوطنيّ للمعلومات الجغرافية (IGN): مواقع اكتشاف الجثّتَيْن الأولى والثّانية، موقع الكُلِّيَّة، مستودع سيرتيس، ومواقع كلّ الملاجئ الجبليّة...

وتمَّ تعزيز مراقبة الطّرقات، فتضاعف عدد الحواجز المرورية من ثمانية إلى أربعة وعشرين. وأصبحت الدَّوريّات الآن تُغطِّي مساحةً كبيرةً جدًّا من أرجاء «غيرنون». وأُغلِقَت جميع المدن والقرى ومداخل الطُّرُق السَّريعة والطُّرُق الوطنيّة والجهويّة ومخارجها.

تزايد النّشاط أيضًا من جانب الوثائق الإداريّة تحت إمرة النقيب بارنز واستمرّت أوراق الفاكس في التّوافد: شهادات، إجابات على الاستبيانات، تعليقات... أرسل رجال الدَّرَك استماراتٍ أخرى إلى محطّات التَّزلُّج المجاورة بالإضافة إلى إرساليّاتٍ ونشرات، واقتنى المركز عددًا من أجهزة الفاكس الجديدة.

تولَّت إحدى الفِرَق استجواب جميع من تواصَل بشكلٍ أو بآخر مع الضَّحيَّة الأولى خلال الأسابيع الماضية. وركَّزت أخرى على أفضل مُتسلِّقي الجبال في المنطقة، ولا سيّما أولئك الذين سبق وزاروا نهر فاليرن الجليديّ. رجالُ برِّيّةٍ لا يعيشون في «غيرنون» بل في قرى المرتفعات، متشبّثين بالمنحدر الصَّخريّ المُطِلّ على المدينة الجامعيّة. لقد أصبح المقرّ أشبه بخليَّة نحل.

عمل فريقٌ ثالثٌ، تحت إمرة فيرمونت، على إعادة تمثيل المسار المحتمل لجولة ريمي كايوا الأخيرة، بينما انكبَّ آخرُ على خطّ سير الضَّحيَّة الثّانية، وعلى مسار القاتل نفسه، حتّى قِمَّة الجبل الجليديّ. رُقِّمتِ الطُّرُق وخُزِّنت وقُورنت على الحاسوب.

في قلب هذه المعمعة، استمرَّ نيمانز في التَّركيز على الجانب النَّفسيّ الحميم. كان مقتنعًا أكثر من أيّ وقتٍ مضى أنه سيجد القاتل من خلال اكتشاف دافعه. ربّما كان دافعه الانتقام، لكن يجب أن يتعامل مع هذه الفرضيّة بكثير من الحذر، فلا السُّلطات ولا الجماهير تستسيغ مفارقاتٍ كهذه في المسائل الإجراميّة. رسمِيًّا، قتل المجرم أشخاصًا أبرياء. وها هو نيمانز يسعى الآن لإثبات أن الضَّحايا كانوا أيضًا جُناةً بطريقةٍ مّا.

كيف سيمضي قُدُمًا؟ أقفل كايوا وسيرتيس وجودهما على أسرارهما. لن تفشي صوفي كايوا شيئًا ولم يُحقِّق اقتفاء خطاها أيّ نتيجة تُذكَر. أمَّا والدة سيرتيس وزملاؤه، فلم يعرفُوا إلّا الصُّورة السَّطحيّة لفيليب سيرتيس. لم تكن والدته على علمٍ حتّى بوجود المستودع.

ماذا إذن؟

إذن، كان كلُّ تفكير نيمانز في تلك اللّحظة مُنصبًّا على لغزٍ جديدٍ بدأ يحلُّ محلَّ كلّ الألغاز الأخرى في ذهنه. فهاتف بارنز مرةً أخرى:

- هل من أخبار عن جوانو؟

الملازم الشَّابّ، الشُّرطيّ المثاليّ المُتحمِّس لاكتساب معرفة «الأستاذ»، لم يعاود الظُّهور بعد.

قال بارنز:

- نعم، لقد أرسلتُ أحد رجالي إلى معهد المكفوفين، لمعرفة وجهته التالية.

- و؟

أجاب النَّقيب بصوتٍ متعبٍ:

- غادر جوانو المعهد على السَّاعة الخامسة مساءً. يبدو أنه توجَّهَ نحو «آنيسي» لزيارة طبيب عيون، أستاذ مبرّز في كُلِّيّة «غيرنون»، يعتني بمرضى المعهد.

- هل اتَّصلت به؟

- طبعًا، لقد جرَّبنا رقمَيْه الشَّخصيّ والمهنيّ. ولم يُجِب أحد.

- هل لديك العناوين؟

أملى بارنز على نيمانز عنوانًا واحدًا. كان الطَّبيب يقيم في منزلٍ يضم عيادته.

- سأقوم بزيارة سريعة.

ولكن لماذا؟ سوف ينتهي جوانو بـ...

- أشعر بالمسؤوليّة.

- المسؤوليّة؟

- أخشى أن يأتيَ فعلًا غبيًّا أو مخاطرةً لا داعي إليها إلّا إبهاري، هل تفهم قصدي؟

ردَّ بارنز بنبرةٍ هادئةٍ:

- سوف يظهر جوانو. إنّه شرطيٌّ شابّ، لا بُدَّ أنه يتبع الخيط الخطأ...

- أوافقك الرّأي. لكنَّه قد يكون في خطرٍ دون علمه.

- في خطر؟

لم يُجِب نيمانز. عمّ الصَّمت ثواني. يبدو أن بارنز لم يفهم قصده. فأضاف فجأةً:

- آه نسيت أن أخبرك. اتَّصل جوانو أيضًا بالمستشفى. وطلب زيارة الأرشيف.

- الأرشيف؟

- دهاليز جوفيّة تمتدُّ تحت المركز الاستشفائيّ الجامعيّ وتحتوي على كلّ تاريخ المنطقة، من ولادات وأمراض ووفيّات.

شعر الشُّرطيُّ بالقلق يعتصر قلبه. إذن يريد الوغدُ الصَّغيرُ سلك طريقٍ منفردة، طريقٍ لاحت بدايتها في المعهد الذي قاده إلى طبيب العيون ثمّ إلى أرشيف المستشفى الجامعيّ.

- لكن لم يره أحدٌ هناك، في المستشفى؟

أجاب بارنز بالنّفي، فأنهى نيمانز المكالمة. وسرعان ما رنَّ الهاتف من جديد. لم يَعُد هناك أيّ وقتٍ للإرساليّات وأجهزة الاستقبال والأسماء المشفّرة والاحتياطات. كلّ المحققين يعملون الآن في أقصى سرعةٍ ممكنة. اهتزَّ صوت كوست:

- لقد تسلّمت الجثَّة للتوّ.

- هل هو سيرتيس؟

بلا أدنى شكّ.

تنهَّدَ المحافظ. كلّ العناصر المُتعلّقة بفيليب سيرتيس والتي جمعها في السّاعات الثّلاث الماضية ستجد مكانها الآن في إطار التّحقيق. يستطيع أخيرًا إرسال فريقٍ رسميٍّ لتفتيش كلّ شبرٍ من المستودع. تابع كوست:

- هناك فرق واضح بين الجثّتَيْن.

- كيف؟

- هذه المرَّة، لم يكتفِ القاتل باقتلاع العينَيْن، بل اليدَيْن أيضًا. لقد قطع الرّسغَيْن. لم تستطِع رؤية ذلك وسط الجليد بسبب وضعية الجثَّة، فموضع البتر كان مُخبَّأً بين الرّكبتَيْن.

العيون، الأيدي.. أحسَّ نيمانز بوجود رابطٍ غامضٍ بين هذه الأعضاء. لكنه لم يعرف في أيّ منطقٍ جهنميٍّ يندمج هذان التّشويهان.

- أهذا كلّ شيء؟

- إلى حدِّ الآن. سأبدأ التّشريح فورًا.

- كم سيستغرق الأمر؟

- ساعتَيْن على الأقلّ.

- ابدأ بمحجرَيْ العينَيْن واتَّصل بي لتخبرني بالنتيجة. أنا واثق من وجود دليلٍ تركه لنا القاتل.

- أشعر وكأنَّني مبعوثُ الجحيم يا حضرة المحافظ.

عبر نيمانز قاعة المكتبة، فلاحظ قرب الباب ذلك الشُّرطيّ الممتلئ مُنحنِيًا على أطروحة ريمي كايوا. فذهب إليه وجلس قبالته في إحدى حجرات القراءة.

- كيف تسير الأمور؟

نظر إليه عون الشُّرطة القضائيَّة.

- إنّي أغرق.

ابتسم المحافظ وهو يُشير إلى الدّراسة السّميكة.

- لا جديد يذكر؟

هزَّ الشُّرطيُّ كتفَيْه.

- اليونان دومًا، والأولمبياد والمسابقات الرِّياضيّة، وما إلى ذلك: السّباق، ورمي الرُّمح، والمصارعة الإغريقيّة... يتحدَّث كايوا عن قدسيّة الاختبارات الجسديّة، والأرقام القياسيّة... (زمّ العون شفتَيْه في عدم تصديق) نوعٌ من.. الانصهار مع قوى خارقة. وفقًا له، كان تحقيق رقمٍ قياسيّ في ذلك الوقت بمثابة جسرٍ حقيقيٍّ للتَّواصل مع الآلهة. على سبيل المثال، يمكن للرِّياضيّ الأصليّ «أثلون»، من خلال تجاوز حدوده، أن يطلق طاقات الأرض... الخصوبة والتّكاثر. في حقيقة الأمر، عندما نرى جنونَ بعض مباريات كرة القدم، من المنطقي التَّفكير في أنّ الرِّياضة تثير قوًى مفاجئة...

- ماذا وجدت أيضًا؟

- وفقًا لكايوا، في العصور القديمة، كان لاعبو القوى شعراء وموسيقيّين وفلاسفة أيضًا. أمين المكتبة يلحُّ على هذه النّقطة. يبدو أنه يتوق إلى الزمن الذي كان فيه العقل والجسد مُلتحمَيْن داخل الكائن البشريِّ الواحد. وهذا معنى العنوان: «حنين أولمبيا». الحنين إلى زمن الإنسان الأعلى، الرجل الخارق، الذّكي والقويّ، الرّوحاني والرِّياضيّ. يقارن كايوا تلك الحقبة المتطلّبة بفترتنا الحالية، حيث لا يستطيع المثقّف أن يرفع ثقلًا واحدًا ولا يملك الرِّياضيّ من العقل شيئًا. ويرى في هذا الانفصال علامة انحطاط وقطيعة بين العقل والجسد.

استذكر نيمانز فجأةً صورة الرّياضيّين في كابوسه. شرحت له صوفي كايوا أنّ الرّياضيّين في برلين، وفقًا لزوجها، قد أعادوا إحياء هذه الوحدة بين الجسد والفكر.

فكَّرَ الشُّرطيُّ أيضًا في أبطال الجامعة: أطفال الأساتذة الذين تحدَّث عنهم جوانو، المتحصِّلين على أفضل النّتائج في جميع المواد، حتّى الرّياضيّة منها. بطريقتهم الخاصة، كان هؤلاء المتفوِّقون يقتربون أيضًا من مفهوم الرّياضيّ المثاليّ. عندما تأمَّلَ نيمانز صور الطَّلبة الفائزين بميداليّاتٍ في غرفة انتظار مكتب عميد الجامعة، لاحظ صرامةً طفوليّة مُقلِقة على سحناتهم. كتجسّدٍ لقوّةٍ مّا، وأيضًا لعقلٍ متميّز. لفلسفةٍ ربّما؟ ابتسم للشُّرطيّ الشَّابّ الذي راقبه بنظرةٍ متوتِّرة.

- يبدو أنَّك فهمت الكثير.

- إنّي أبحر دون منظار. أستطيع القول إنّي لا أفهم نصف الجمل المكتوبة. (نقر الرّجل على طرف أنفه). لكنّي أثق في حاسَّة الشَّمّ لديَّ. أتعرَّف على الفاشيّين من بعيد.

- هل تعتقد أن كايوا ينتمي إلى اليمين المتطرّف؟

- لا أستطيع التحديد... يبدو لي الأمر أكثر تعقيدًا... ومع ذلك، فإن أسطورته عن الإنسان الخارق، عن الرّياضيّ ذي العقل النَّقيّ، تذكِّرني بأوهام العرق المتفوّق وهذا النّوع من الترّهات...

مرَّةً أخرى، استذكر نيمانز صور أولمبياد برلين في شقّة كايوا. يوجد سرٌّ وراء هذه الصُّوَر، ووراء الأرقام القياسيّة الرّياضيّة بـ«غيرنون». كلّ هذا يُشكِّل كلًّا بطريقةٍ مّا، لكن ما كُنهه؟

- ألا توجد أيّ إشارة إلى الأنهار؟ سأل أخيرًا. أنهار قرمزيّة؟

- ماذا؟

نهض نيمانز.

- لا عليك.

تبعه العون بنظره، وقال:

- بصراحة أيها المحافظ، كان بإمكانك أن تسأل طالبًا أو شخصًا مؤهَّلًا أكثر مني...

- أريد نظرةَ محترف. أريد قراءة تدخل في إطار التّحقيق.

عبس الضّابط.

- هل تعتقد حقًّا أن هذا الهراء يلعب دورًا في قضيّتنا؟

أمسك نيمانز بحافّة النّافذة، وانحنى فوقها.

- في أيّ قضيّة، يلعب كلّ عنصرٍ دورًا. لا وجود لصدفٍ ولا لتفاصيلٍ غير ضروريّة. كلّ شيء يعمل مثل تركيبة الذَّرّة. هل تفهمني؟ تابع القراءة.

ترك نيمانز الرّجل يتخبَّط وسط شكوكه، وخرج.

داخل الحرم الجامعيّ، رأى ومضاتٍ بعيدة من الأضواء الكاشفة لطاقم التِّلفزيون. وعندما أطال النظر، لمح فنسون لويز، عميد الجامعة وهو يتلعثم على مدرج المبنى في مُحاوَلةٍ للإدلاء بتصريح مطمئن. ورأى أيضًا الشّعارات المميّزة للقنوات التِّلفزيونيّة الجهويَّة والوطنيَّة وحتى السّويسريَّة الناطقة بالفرنسيّة... تدافع الصَّحفيّون وتهاطلت الأسئلة، ولم يَعُد هناك مجال للفرار. فقد تسلّطت الأضواء على «غيرنون». ستنتشر أخبار جريمتَيْ القتل في جميع أنحاء فرنسا وسَيَسْري الذُّعر في البلدة الصّغيرة.

وكلّ هذا.. ليس سوى البداية.

37

في الطّريق، تذكَّرَ نيمانز أنطوان ريمس.

- هل من جديدٍ عن الإنجليزيّ؟

- أنا في مستشفى أوتيل ديو. لم يستعد الوغد وعيه بعد، والأطباء متشائمون. وقد أطلقت السّفارة البريطانيّة العنان لترسانة من المحامين القادمين مباشرةً من لندن. الصَّحفيّون هنا أيضًا. هيِّئ نفسك للأسوأ.

كانت جودة الاتِّصال ممتازة، وصوت ريمس صافيًا كالبلّور.

تخيَّلَ نيمانز المدير في «جزيرة المدينة».[1] ورأى بعينِ الذَّاكرة نفسه وهو يجوب المستشفى ذاته مستجوبًا بائعات الهوى بملامحهنّ المتورّمة وشفاههنّ الممزَّقة بعد أن أبرحهنّ قوّادوهنّ ضربًا. ورأى وجوهًا مُدماةً لمتّهمين عنّفهم بنفسه. رأى أيديهم المُكبَّلة إلى السرير، تحت الأضواء المتأرجحة وسط شحوب الغرفة الجنائزيّ.

تذكَّرَ فناء كاتدرائيّة نوتردام الذي رآه وهو يغادر المستشفى منهك القوى مثخنًا بالكدمات على السَّاعة الثالثة صباحًا. كان بيير نيمانز محاربًا تزخر ذكرياته بالحديد والنار وحرائق ساحات المعارك. غمرته موجةٌ مفاجئةٌ من الكآبة بسبب هذه الحياة الفريدة من نوعها، حياة لا تجذب إلَّا عددًا محدودًا جدًّا من الرّجال، لكنّها السبب الوحيد لوجوده على الأرض.

- ماذا عن قضيتك؟ سأله ريمس.

---

[1] جزيرة المدينة Lile de la Cité: جزيرة صغيرة تقع في نهر السين وسط باريس. (المترجمة).

كانت نبرته أقلَّ عدوانيّةً ممَّا كانت عليه أثناء المكالمة الهاتفيّة الأولى. لقد تفوّقت كفّة التّضامن المهنيّ والسّنوات المشتركة على كلّ الاعتبارات الأخرى.

- لدينا الآن جريمتا قتل، دون أيّ مشتبهٍ به. لكنّي أواصل طريقي، وأنا أعلم حقَّ العلم أني على الطَّريق الصَّحيحة.

لم يُعقِّب ريمس، لكن نيمانز شعر أن صمته هذا بمثابة اعتراف بثقته به. سأله:

- ماذا عني؟

- ماذا عنك؟

- أعني، ألم تبدأ الإجراءات بشأن المشجّع الإنجليزيّ؟

ضحك ريمس بسخرية.

- تقصد التَّفقُّديّة العامَّة للشُّرطة؟ لقد انتظروا هذه اللّحظة فترةً طويلة. لن يضيرهم الانتظار بضعة أيام.

- انتظار ماذا؟

- أن يموت الوغد الانجليزيّ، لاتّهامك بقتله.

وصل نيمانز إلى «آنيسي» على السَّاعة الحادية عشرة ليلًا. مشى في شوارع طويلة مُغطّاة بأغصان الشّجر المتشابكة والأوراق المزيَّنة بأضواء مصابيح شوارع أشبه بمرايا صغيرةٍ متناثرة. رأى في نهاية كلّ شارعٍ معالم تخرج من آبار الضّوء: أكشاك موسيقى ونوافير وتماثيل... وقد بدت، على بعد مئات الأمتار، ضئيلةً مثل صناديق موسيقى. كأنَّ المدينة، على طول ساحاتها وميادينها تحمي كنوزها في علبٍ من الحجر والرّخام والأوراق.

بمحاذاة القنوات، بدت «آنيسي» كأمستردام مزيّفةٍ مفتوحةٍ على بحيرة سويسرا وأضوائها. لم يُصَدِّق الشُّرطيُّ أنه على بُعد بضعِ كيلومتراتٍ فحسب من «غيرنون» وجثثها وقاتلها المُتوحِّش. وصل إلى الحيِّ السَّكنيّ من المدينة، شارع الأورم، نهج فوفير، زقاق بريز العليا، أسماء تتردّد لدى سكان «آنيسي» مثل أحلامٍ من الحجر الأبيض وعلامات على القوّة والنّجاح والثّراء.

ركن السّيّارة في مدخل الزّقاق. كانت المباني الطّويلة متلاصقةً وتخلّلتها حدائق مخبّاةٌ خلف جدران خزفيّة قصيرة. تطابق عنوان منزل الطَّبيب مع قصرٍ من الحجر المقطوع

الذي يحمل سُرادق مستطيلة. قرع الشُّرطيُّ على جرس الباب الماسيّ مرَّتَيْن، وقرأ لوحة الرُّخام الأسود: «الدّكتور إيدموند شيرنيسيه. طبّ وجراحة العيون».

لم يُجِب أحد. نظر نيمانز إلى البوابة. لن يُشكِّل هذا القفل مشكلةً ولن تكون أوّل عمليَّة اقتحام يُقدِم عليها منذ بداية التّحقيق. تلاعب بالدبابيس في براعة، ثمّ ولج رواقًا مرصوفًا بالرّخام. أشارت الأسهم المعلقة إلى اتّجاه غرفة الانتظار على يسار الممرّ، لكن الشُّرطيّ لاحظ بابًا مُغلَّفًا بالجلد على يمينه.

العيادة الطِّبِّيّة.

أدار المقبضَ، واكتشف قاعةً طويلةً أشبه بشرفةٍ واسعةٍ سقفُها وجدرانها من الكتل الزُّجاجيّة. وسمع تردُّد خرير الماء في مكانٍ ما في الظّلام.

استغرق بضع ثوانٍ حتّى يميّز ظلَّ شخصٍ واقفٍ أمام الحوض.

- دكتور شيرنيسيه؟

رفع الرَّجل عينَيْه حين اقترب نيمانز. فلفتت يداه نظر المحافظ. كانتا سمراوَيْن ولامعتَيْن تحت دفقات الماء، كجذور قديمة مُرقَّطة بعلاماتٍ بُنِّيّة وشرايين متشابكة ممتدَّة نحو المعصمَيْن القويَّيْن. قال الرجل بصوتٍ هادئٍ وعميقٍ:

- مَن أنت؟

كان الرّجل صغير الحجم لكنّه قويّ البنية، لا بُدَّ أنه تجاوز السّتين من العمر. خصلات من الشعر الأبيض فوق جبهة عالية سمراء مُغطَّاة هي أيضًا بالبقع البُنِّيّة. بدا أشبه بمنحدرٍ أو بمسلّة، بل بجلمودِ صخر. صخرة غامضة ازدادت غرابتها لأنّ الطّبيب لم يكن يرتدي سوى قميصٍ أبيض وسروالٍ داخليّ.

- بيير نيمانز، محافظ الشُّرطة. قرعتُ جرس الباب ولكن لم يُجِب أحد.

- إذن كيف دخلت؟

حرَّكَ نيمانز أصابعه مثل ساحر السّيرك.

- بالوسائل المتاحة.

ابتسم الرَّجل برصانة دون أن يزعجه سلوك الشُّرطيُّ الفجّ. أغلق الصُّنبور الطَّويل بمرفقه وعبر القاعة الشَّفّافة رافعًا ساعدَيْه وباحثًا عن منشفة. ظهرت في الظِّل أدوات طبِّيّة، مجاهر، مخطّطات تشريحيّة لمقل العيون. قال شيرنيسيه بنبرةٍ جادَّة:

- سبق وقدم ضابط شرطة مساء اليوم. ماذا تريد؟

وقف نيمانز على بُعد أمتارٍ قليلة من الطَّبيب، فرأى سمته الأساسيّة، تلك التي تميِّزه بين آلاف الأشخاص: العينان. كانت نظرة شيرنيسيه عديمة اللّون، قزحيّتاه الرماديّتان أضفتا عليه مظهرًا ثعبانيًّا، وبؤبؤاه يشبهان حوضَي أسماك صغيرَيْن تعيش فيهما مخلوقاتٌ قاتلةٌ مُغطَّاةٌ بحراشف حديديّة. قال نيمانز:

- أعرف أنه قدم لزيارتك وأريد أن أطرح عليك بعض الأسئلة بخصوصه.

ابتسم الرَّجل بتسامح.

- هذا غير معتاد. شرطيٌّ يُحقِّق عن شرطيٍّ آخر؟

- في أيّ ساعة قدم لزيارتك؟

- حوالي السَّاعة السَّادسة مساءً.

- هذه ساعةٌ متأخّرة! هل تتذكَّر أسئلته؟

- طبعًا. سألني عن نزلاء مركز يقع بالقرب من «غيرنون»، وهو معهدٌ يُعنى بأطفال يعانون من مشاكل في عيونهم، وأعالجهم بانتظام.

- ما الذي كان يريد معرفته بالضَّبط؟

فتح شيرنيسيه خزانةً من خشب الزّان وأخرج قميصًا خفيفًا بطيّاتٍ فضفاضة، وارتداه بسرعة.

- أراد أن يعرف سبب الأمراض التي يعاني منها هؤلاء الأطفال. شرحت له أنها أمراض وراثيّة. وسأل عن احتمال وجود سببٍ خارجيٍّ لهذه الأمراض، مثل تسمُّمٍ أو خطإٍ طبِّيٍّ.

- وبمَ أجبته؟

- أنه احتمالٌ غير وارد، بل سخيف. فالأمراض الوراثيّة مرتبطة بعزلة هذه المدينة، بروابط الدم بين الأزواج. زواج الأقارب يعني أمراضًا مُتكرِّرةً محمولةً بالدّم والجينات. هذا النّوع من الظَّواهر شائع في المجتمعات المُغلقة. منطقة بحيرة سان جان في الكيبيك على سبيل المثال، أو مجتمعات الأميش في الولايات المتّحدة. هذه هي الحال أيضًا في «غيرنون». متساكنو هذا المكان ليسوا من محبّي التّرحال. لماذا سنبحث عن تفسير آخر؟

دون أيّ حرجٍ من وجود نيمانز، ارتدى الطبيب بنطالًا أزرق من قماش مُتموِّج. كـــان

شيرنيسيه أنيقًا جدًّا، حتّى تفاصيله وحركاته. تابع الشرطيّ:

- هل طرح عليك أسئلةً أخرى؟

- حدّثني عن عمليات الزرع.

- الزرع؟

كان الرجل يزرِّر قميصه.

- زراعة العيون، نعم. لم أفهم أسئلته.

- ألم يشرح لك سياق التّحقيق؟

- لا. لكنّي أجبته برحابة صدر. أراد أن يعرف إمكانيّة نزع العيون لغرض زراعة القرنيّة مثلًا.

تتبَّعَ جوانو إذَنْ خيط الجراحة.

- و...؟

توقَّفَ شيرنيسيه، وفرك ذقنه بظهر يده كما لو كان يقيّم طول لحيته النّابتة. تراقصت ظلال الأشجار عبر الجدران الزجاجية.

- شرحت له أنّ مثل هذه العمليَّات غير مبرّرة. من السَّهل العثور على قرنيّاتٍ بديلة اليوم. والاصطناعية منها تحرز تقدُّمًا سريعًا. أما الشَّبكيّة، فنحن لا نعرف كيفيَّة حفظها لهذا لا نزرعها (ضحك الطَّبيب ضحكةً خافتة). أتعلم؟ قصص الاتِّجار بالأعضاء لا تعدو كونها خيالًا شعبيًّا.

- هل طرح عليك أسئلةً أخرى؟

- لا. بدت عليه خيبة الأمل.

- هل نصحته بالذّهاب إلى مكانٍ ما؟ هل أعطيته عنوانًا؟

ضحك شيرنيسيه مرَّةً أخرى.

- يا إلهي، يبدو أنك أضعت زميلك.

- أجبني من فضلك. هل يمكنك أن تستنتج وجهته بعد لقائكما؟ ألم يخطِّط للذّهاب إلى مكانٍ محدّد؟

- لا. (اكفهرّ وجهه) أريد أن أعرف سبب هذه الأسئلة.

أخرج نيمانز صور جثّة كايوا من جيب معطفه ووضعها على المكتب.

- هذا هو السبب.

وضع شيرنيسيه نظّارته، وشغّل مصباح المكتب لتأمُّل الصُّوَر. الجفنان المفتوحان. المحجران المشوّهان.

همس:

- يا ربَّ السّماوات...

بدا مرتعبًا، وفي الوقت نفسه مفتونًا بما رآه. لمح نيمانز مجموعةً من المراود[1] المعدنيّة المجمّعة في علبة أقلامٍ صينيّة في نهاية الطّاولة مثل مشارط جراحيّة. وقرَّرَ طرح سلسلةٍ جديدةٍ من الأسئلة، ما دام سيستجوب مُختصًّا، فمن الأفضل طرح أسئلةٍ دقيقة.

- لديَّ ضحيّتان على هذه الحالة. هل تعتقد أن الفاعل محترف؟

رفع شيرنيسيه وجهه المتعرّق. سكت ثواني طويلة، ثمّ سأل:

- يا إلهي! ماذا تعني؟

- اقتلاع العيون. لديّ صور مكبّرة. (أراه نيمانز لقطات قريبة من عينَيْ الضَّحيَّة) هل ترى جراحًا معيّنة لا يمكن أن يقوم بها سوى مختصّ؟ كما ترى، لقد انتزع القاتل العينَيْن وحافظ على الجفون بعناية. هل هي ممارسة شائعة؟ هل يتطلّب الأمر معرفة تشريحيّة كبيرة؟

فحص شيرنيسيه الصُّوَر مرَّةً أخرى.

- مَن يمكن أن يرتكب فعلًا كهذا؟ مَن يكون هذا... الوحش؟ أين حدث هذا؟

- قرب «غيرنون». أجب عن سؤالي دكتور. برأيك هل مَن أجرى هذه العمليّة جرَّاحٌ محترف؟

نهض طبيب العيون.

- أنا آسف. أنا... لا أعرف.

---

[1] المرود الطِّبِّيّ Stylet: أداة جراحيّة صغيرة تُستَخدَم لاستكشاف الأنسجة. (المترجمة).

- ما هي التّقنية الّتي تعتقد أنه استخدمها؟

قرَّبَ الطَّبيب الصُّوَر بعضها من بعض.

- أعتقد أنه دخلَ بشفرةٍ حادَّةٍ تحت المُقلتَيْن... ثمّ قطع الأعصاب البصريّة والعضلات الحركيّة للعين مُستغِلًّا مرونة الجفن. أعتقد أنه قلب العين مُستعمِلًا الشّفرة. مثل عملة معدنيّة، هل تفهمني؟

وضع نيمانز الصُّوَر في جيبه. راقب الطَّبيب كلّ حركاته وسكناته وكأنه لا يزال يرى الصُّوَر من خلال قماش المعطف. وصار قميصه مُلطَّخًا ببقع العرق.

همس نيمانز:

- أودُّ أن أطرح عليك سؤالًا عامًّا. فكِّر جيِّدًا قبل الإجابة.

تراجع الطَّبيب وقد بدت الشُّرفة مسكونةً بانعكاسات الأشجار الرّاقصة، ثمّ أومأ برأسه موافِقًا.

- ما القاسم المشترك بين عينَيْ الإنسان ويدَيْه؟ ما الرَّابط الممكن بين هذَيْن الجُزأَيْن من الجسم؟

خطَا طبيب العيون بضعَ خطواتٍ، ثمّ استعاد هدوءه وهيبته كراهب علم. وقال أخيرًا:

- القاسم المشترك واضح. العين واليد هما الجزءان الوحيدان الفريدان من أجسامنا.

ارتجف نيمانز. «أحسّ» منذ مكالمة كوست بذلك دون أن يحدّد ذهنه الأمر بدقَّة. بدأ يتعرَّق هو أيضًا.

- ماذا تعني؟

- قزحيّة كلّ شخصٍ فريدة من نوعها. آلاف الألياف الّتي تكوّن تصميمًا وحيدًا خاصًّا بإنسانٍ واحدٍ، مثل علامة تجاريّة بيولوجيّة محفورة في جيناتنا. القزحيّة علامةٌ مميَّزةٌ مثلها مثل بصمات الأصابع. هذه هي النُّقطة المشتركة بين العينَيْن واليدَيْن، إنها الأجزاء الوحيدة من أجسامنا التي تحمل توقيعًا بيولوجيًّا أو قياسًا حيويًّا كما يقول المُتخصِّصون. عندما تحرم جسمًا من عينَيْه ويدَيْه فأنت تدمِّر إمضاءه الخارجيّ. إِذَنْ مَن هو الرجل الذي مات دون هذه العلامات؟ لا أحد. ميّت مجهول فقد هويّته العميقة، روحه ربّما. مَن يدري؟ بهذا المعنى لا يمكن للمرء تخيُّل نهايةً أكثر فظاعة. لأن الضَّحيَّة تصبح أشبه بمقبرة جماعيّة من اللّحم المجهول الهويّة.

عكست الكتل الزُّجاجيّة البريق على عينَيْ شيرنيسيه، فزاد ذلك من مظهرهما الشَّفّاف. صارت الغرفة بأكملها تشبه قزحيّة زجاجيّة. اللّوحات التَّشريحيّة، مخالب الأشجار، الانعكاسات. كلّ عنصر يرقص كما لو كان في قاع مرآة.

تذكَّرَ المحافظ يدَيْ كايوا اللّتين لا تحمل أصابعهما بصمات، واللتين لم يتكبّد القاتل عناء قطعهما. لم يهتمَّ المجرم بهاتَيْن اليدَيْن لأنهما كانتا مجهولتَي الهويّة بالفعل.

كان القاتل حقًّا يسرق التّوقيعات البيولوجيّة لضحاياه. يا للهول!

تابع الطّبيب:

- شخصيًّا، أعتقد أنّ العيون أكثر دِقَّةً حتّى من بصمات الأصابع. يجب أن يُفكِّر مُختصُّوكم بالأمر، في جهاز الشّرطة.

- لماذا تظن ذلك؟

ابتسم شيرنيسيه في الظّلام. نعم، استعاد كلّ هيبة الأستاذ فيه.

- يعتقد بعض العلماء أننا بالإضافة إلى معرفة حالة الشَّخص الصِّحّيّة، نستطيع قراءة كلّ تاريخه في أعماق قزحيّة العين. هذه اللّمعات الصَّغيرة التي تتألَّق حول حدقة العين تحمل كامل نشأتنا... ألم تسمع من قبل بعلماء القزحيّة؟

كان نيمانز، بطريقةٍ لا يمكن تفسيرها، مقتنعًا بأن هذه الكلمات تُلقي الضوء على القضيّة بأكملها. لم يعرف بعدُ إلى أين يتَّجه، لكنه شعر أن القاتل يشارك طبيب العيون قناعاته. ثمّ تابع شيرنيسيه:

- إنَّه اختصاص ظهر في نهاية القرن الماضي. لاحظ مُدرِّب نسورٍ ألمانيٌّ ظاهرةً فريدةً من نوعها عندما كُسرت ساق أحد الجوارح، صارت قزحيّةُ عينه تحمل بصمةً جديدة، خطًّا ذهبِيًّا صغيرًا. كأنَّ الحادثة انعكست في عين الطّائر. هذه الأصداء الجسديّة موجودة. أنا مُتأكِّد. مَن يدري؟ ربما أراد قاتلك، من خلال اقتلاع عينَيْ ضحيّته، محو أثر حدث مُعيَّن يمكن قراءته في أعماق القزحيّة.

تراجع نيمانز تاركًا ظلّ الطَّبيب يستطيل، وسأل سؤاله الأخير:

- لماذا لم تردَّ على الهاتف بعد ظهر اليوم؟

ابتسم الطبيب.

- لأنَّني قطعتُ الخطّ. أنا لا أقبل مرضى يوم الاثنين. أردتُ تخصيص الظّهيرة والمساء لترتيب عيادتي.

عاد شيرنيسيه إلى الخزانة وأخرج سترةً ارتداها في حركةٍ دقيقةٍ مدروسة، بذلة زرقاء داكنة. وتابع كأنَّه أدرك أخيرًا سبب زيارة نيمانز:

- هل حاولت الاتِّصال بي؟ أنا آسف. كان بإمكاني إخبارك بكلّ هذا عبر الهاتف. أعتذر لإضاعة وقتك.

لم يقصد الرَّجل كلمةً واحدةً ممَّا قاله. كانت الأنانيّة واللّامبالاة تنزّان من كلّ مسامّ جبينه الأسمر. لا بُدَّ أنه نسيَ الآن محجَرَي ريمي كايوا الفَارِغَيْن.

نظر نيمانز إلى مجسمّات العيون وأوعيتُها الدَّمويّة تتراقص على بياضها، كما لو كانت تتنقّل في ظلال الأشجار عبر زجاج الجدران السّميك.

همس:

- لم أضِع وقتي.

كانت في الخارج مفاجأةٌ جديدةٌ بانتظاره: رجلٌ مُتَّكِئٌ على سيّارته تحت ضوء مصباح الشارع، رجلٌ طويل القامة مثله، بملامح مغاربيّة وجدائل راستا طويلةٍ وقبّعةٍ ملوَّنة ولحية ماعز.

يستطيع كلّ شرطيٍّ مُتمرِّسٍ التَّعرُّف على رجلٍ خطيرٍ عندما يصادفه. وهذا العمود الطّويل، على الرّغم من هدوئه الظاهر، ينتمي إلى هذه الفئة. ذكَّره بتجار المخدّرات الذين طاردهم طويلًا في اللّيالي الباريسيّة. كان له أن يراهن على وجود سلاحٍ ناريٍّ مختفٍ في مكانٍ مّا. اقترب ويده مشدودة على مسدّسه MR ٧٣ ولم يُصَدِّق ما رآه: كان العربيُّ يبتسم له.

- حضرة المحافظ نيمانز؟ سأله حين صَار على بُعد بضعة أقدام.

أدخل العربيُّ يده في سترته. فأشهر نيمانز مُسدَّسه فورًا.

- لا تتحرَّك!

ابتسم الرَّجل في مزيجٍ من الثِّقة بالنَّفس والسُّخرية، بجرأةٍ نادرًا ما واجهها نيمانز حتّى عند أكثر المُتَّهمين مكرًا.

قال العربيُّ بصوتٍ هادئٍ:

- اهدأ يا حضرة المحافظ. اسمي كريم عبدوف. أنا ملازم شرطة. أخبرني النَّقيب بارنز أني سأجدك هنا.

ثمّ أكمل حركته وأخرج بطاقته الثُّلاثيّة الألوان. فأعاد نيمانز سلاحه إلى جرابه بتردُّدٍ مُدقِّقًا في ما للشَّابّ من مظهرٍ غريب. يمكنه الآن أن يميّز بريق الأقراط تحت ضفائره.

- هل تنتمي لوحدة «آنيسي»؟ سأله غير مُصَدِّق.

- لا، لقد جئت من «سارزاك»، في مقاطعة «لو».

- لم يسبق أن سمعت عنها.

أعاد كريم بطاقته.

- نحن لسنا مشهورين كثيرًا.

ابتسم نيمانز، ونظر إليه مرَّةً أخرى.

- أيّ طراز من رجال الشُّرطة أنت؟

ضرب العربيُّ بيده على السَّيّارة.

- الطِّراز الذي تحتاج إليه يا حضرة المحافظ.

38

احتسى الشُّرطيّان القهوة في مقهًى صغير على طريق العودة وهما يشاهدان أضواء الحاجز المروريّ ومصابيح السَّيّارات المتباطئة من بعيد.

استمع نيمانز باهتمامٍ إلى رواية عبدوف، شرطيٌّ ظهر من العدم مع قضيّة عجيبة مرتبطة بشكلٍ مفاجئ بجرائم القتل في «غيرنون». ومع ذلك، كانت القصَّةُ غير مفهومة. تحدّث عن أمٍّ غامضة في حالة فرار، عن طفلة صغيرة تحوَّلت إلى ولد، عن رجال شياطين يسعون إلى تدمير الوجه الطفوليّ الذي يعتبرونه دليلًا خطيرًا... هذيانٌ طويلٌ لا يمتُّ للمنطق بصلة، إلّا أنّ الملازم قدّم له وسط هذه الفوضى دليلًا مادِّيًا على أن فيليب سيرتيس انتهك تابوتًا في بلدة صغيرة في مقاطعة «لو».

كانت هذه المعلومة مصيريّة وحاسمة.

كان فيليب سيرتيس -بلا شكّ- مدنّسَ القبر. طبعًا، لا بُدَّ من مقارنة العيّنات المكتشَفة بالقرب من مقبرة «سارزاك» بإطارات سيّارته اللّادا. ولكن إذا أكّدت هذه الآثار شكوك عبدوف، فعندئذٍ، ولأوَّلِ مرَّة، سيحصل نيمانز على دليلٍ ملموس على ذنبٍ ارتكبه أحد الضّحايا.

في مقابل ذلك، لم يعرف المحافظ كيف يُدرج بقية العناصر في قضيَّة جرائم القتل. هذه الحكاية المدهشة عن الطّفلة الصَّغيرة ووالدتها المطارَدتَيْن من قِبَل «الشّياطين». سأل نيمانز كريم:

- ما هو استنتاجك؟

تململ الشَّابّ العربيّ.

- أعتقد أن الشّياطين استيقظت ليلة البارحة لسببٍ مّا، وعاد سيرتيس للتَّثبُّت، في المدرسة وفي المقبرة، من عنصرٍ يعود إلى سنة 1982 مُتعلِّقٍ بالهاربتَيْن.

- سيرتيس إذن واحد من الشّياطين؟

- بالضَّبط.

ردَّ نيمانز:

- هراء! لم يكن سيرتيس يبلغ من العمر سوى اثنتَي عشرة سنةً عام 1982. هل تتخيّل طفلًا في تلك السِّنّ يرعبُ أُمًّا ويطاردها في جميع أنحاء فرنسا؟

عبس كريم عبدوف.

- أعرف، ليس كلّ شيء واضحًا بعد.

ابتسم نيمانز، وطلب قهوةً ثانية. لم يعرف ما إذا كان يُصَدِّق كلّ ما قاله كريم عبدوف. هل من المنطقيّ أن يثق براستا طوله أكثر من ستة أقدام ويحمل جدائل ومسدّسًا آليًّا غير قانونيّ، ويقود سيَّارة أودي مسروقة؟

لكن قصَّة عبدوف لم تكن أكثر جنونًا من فرضيّته: الضَّحايا المجرمون. ثمّ إن الشَّابّ يحمل جذوة مُعدية.

أخيرًا، قرَّرَ أن يثق به. فأعطاه مفتاح مكتبه الشَّخصيّ بالجامعة حيث يمكن لكريم الاطِّلاع على الملف برمَّته، ثمّ شرح له الجانب السِّرِّيّ من تحقيقه.

عرض عليه بصوتٍ هادئٍ قناعاته العميقة: القتيلان كانا هما أيضًا مذنبَيْن، والقاتل بصدد الانتقام. لخَّصَ القرائن الهزيلة التي تؤيِّد نظريّته. فِصام ريمي كايوا، مستودع فيليب سيرتيس ودفتره، ثمّ أخبره أيضًا عن «الأنهار القرمزيّة»، دون أن يتمكَّن من شرح هذا المصطلح الغريب، لينتهي بملخّصٍ للوضع الحاليّ: انتظار تقرير تشريح الجثَّة الثّانية واحتمال وجود رسالة جديدة وسطها، وكذلك الأمل في أن كلّ الجهود الموزّعة على مختلف الجبهات في المنطقة ستُسفر عن نتيجة حاسمة. أخيرًا، تطرَّق بنبرةٍ حزينةٍ لاختفاء إريك جوانو ومخاوفه بشأنه.

طرح عبدوف أسئلةً عديدةً عن الملازم الذي استحوذ على اهتمامه أكثر من كلّ جوانب القضيّة. فسأله نيمانز:

- هل لديك أيّ فكرة بخصوص جوانو؟

ابتسم الشَّابّ بضجر.

- أعتقد مثلك أنّ رجُلكَ في ورطة. لقد وضع إصبعه على طرف خيطٍ مهمٍّ وأراد أن يتبعه بمفرده لإثارة غضبك أو إعجابك. أظنّه اكتشف دَلِيلًا جوهريًّا، لكن هذا الدليل انفجر في وجهه. أتمنى أن أكون مخطئًا، لكن جوانو توصَّل بطريقةٍ مّا -ربّما- إلى هويَّة القاتل فكلّفه ذلك -ربّما- حياته.

لم يُجِب نيمانز، ونظر إلى أضواء الحاجز المروريّ في الأفق. كان مُتيقِّنًا هو أيضًا من حدوث الأسوأ لجوانو، لكنه رفض الاعتراف بذلك حتّى لنفسه. تابع كريم:

- لا تعتقد أنّي مُتحجِّر المشاعر يا حضرة المحافظ. فأنا أقفز منذ هذا الصباح من كابوسٍ إلى آخر لأجد نفسي الآن هنا في «غيرنون» في مواجهة قاتلٍ يقتلع عيون ضحاياه. وأمامي بيير نيمانز أسطورة الشُّرطة الفرنسيّة الذي يبدو تائهًا مثلي وسط هذه البلدة... لذلك، قرَّرتُ ألّا يفاجئني أيّ شيء. أرى أن جرائم القتل هذه ترتبط ارتباطًا مباشرًا بقضيّتي. صدِّقني، أنا مستعدٌّ لإتمام الطَّريق حتّى نهايتها، كلَّفني ذلك ما كلَّفني.

خرج الشُّرطيّان من المقهى وقد ملأ رذاذ خفيف الجوّ. في الأفق كانت أضواء حواجز الشُّرطة تواجه المطر وسائقو السَّيّارات ينتظرون بصبرٍ السَّماح لهم بالمرور. أخرج بعضهم رؤوسهم من نوافذهم المفتوحة، مُحدِّقين بحذرٍ في المدافع الرّشاشة. حين نظر المحافظ إلى جهاز النداء وجدَ مكالمةً من كوست. اتَّصل الشرطي على الفور بالطَّبيب.

- ماذا هناك؟ هل أتممت تشريح الجثَّة؟

- ليس تمامًا، لكنّي أودُّ أن أُريك شيئًا. هنا في المستشفى.

- ألا يمكنك إخباري بالأمر هاتفيًّا؟

- لا. ثمّ إنَّني أتوقَّع الحصول على نتائج التّحاليل في أيّ لحظة. عندما تصل، سأكون جاهزًا.

أقفل نيمانز الخطّ.

- هل هناك مستجدّات؟ سأل كريم.

- ربّما. عليَّ الذَّهاب لرؤية الطَّبيب الشرعيّ. ماذا عنك؟

- قدمت بنِيَّة استجواب فيليب سيرتيس. بما أنه جثَّةٌ هامدةٌ سأنتقل إلى الخطوة التّالية.

- وهي؟

- اكتشاف ملابسات وفاة والد جوديت. لقد فارق الحياة هنا في «غيرنون»، لا بُدَّ أن للشّياطين يدًا في ذلك.

- فيم تفكّر؟ جريمة قتل؟

- لِمَ لا؟

هزَّ نيمانز رأسه في شكّ:

- لقد قلّبتُ كلّ أرشيفات الجندرمة والشُّرطة المُتعلِّقة بالأعوام الخمسة والعشرين الماضية في جميع أنحاء المنطقة. لا يوجد أثر لجريمةٍ كهذه. ومرَّةً أخرى، كان سيرتيس طفلًا عندما...

- سنرى. على أيَّةِ حال، أنا مُتأكِّد من العثور على صلةٍ بين هذه الوفاة وإحدى ضحاياك.

- من أين ستبدأ؟

- من المقبرة. (ابتسم كريم). صرتُ مُختصًّا. بل لعلَّ زيارة المقابر صارت هوايتي الجديدة. أريد أن أتأكَّد من دفن سيلفان هيرو في «غيرنون». لقد اتَّصلت بـ«تافيرلاي» ووجدت دليلًا على ولادة جوديت هيرو، الابنة الوحيدة لفابيان وسيلفان هيرو، سنة 1972 هنا في المركز الاستشفائيّ الجامعيّ بـ«غيرنون». هذا في خصوص شهادة الميلاد. بقيت شهادة الوفاة.

سلَّمه نيمانز رقم هاتفه الجوّال وجهاز النّداء.

- استخدم جهاز النِّداء للمعلومات السِّرِّيّة.

وضع كريم عبدوف الورقة الصَّغيرة في جيبه، وأعلن بنبرةٍ نصف تلقينيّةٍ ونصف ساخرةٍ:

- في التّحقيق، كلّ تفصيلٍ وكلّ شاهدٍ هو مرآة تنعكس فيها إحدى حقائق الجريمة...

- ماذا؟

- حضرتُ إحدى محاضراتك عندما كنتُ في مدرسة المفتّشين.

- وماذا في ذلك؟

رفع كريم ياقة سترته.

- من ناحية المرايا، تتموقع قضيّتانَا هكذا. (رفع كفَّيْهِ ووضعهما ببطءٍ واحدةً قبالة الأخرى). القضيّتان تعكس إحداهما الأخرى، هل تفهمني؟ وفي إحدى النّقاط العمياء، اللَّعنة! أنا مُتأكِّد، سنجد القاتل بانتظارنا.

- كيف يمكنني الاتِّصال بك؟

- سأتواصل معك. لقد طلبتُ هاتفًا جوّالًا، لكن ميزانيّة «سارزاك» لم تسمح بذلك.

انحنى الشُّرطيُّ الشَّابّ في تحيّةٍ عربيّةٍ، واختفى بسرعة.

استقلَّ نيمانز سيّارته، وألقى نظرةً أخيرةً على سيّارة الأودي اللّامعة وهي تبتعد في ضبابٍ مائيّ. شعر فجأةً أنه أكبر سنًّا، وأكثر تهالكًا، كأنّ اللّيل والسّنوات والشّكوك خدّرته. تصاعد طعم العدم في حلقه. لكنّه شعر أيضًا بأنه أقوى، فقد صار لديه الآن حليف.

حليفٌ فتّاك.

39

لمعت الكريستالات بوميضٍ ورديٍّ وأزرقَ وأخضرَ وأصفر. خرزاتٌ مُلوَّنة، أنوار مكسورة، مشكالٌ متغيِّرُ الألوان تحت الشّرائح الشَّفّافة. رفع نيمانز عينَيْه من المجهر وسأل كوست:

- ما هذا؟

أجاب الطبيب بدهشة:

- زجاج يا حضرة المحافظ. وضع القاتلُ جزيئاتٍ زجاجيّة هذه المرَّة.

- في أيّ جزءٍ من الجسد؟

- في محجرَيْ العينَيْن مرَّةً أخرى، تحت الجفنَيْن. مثل عبراتٍ مُتجمِّدةٍ عالقةٍ في الجلد.

وقف الرّجلان في مشرحة المستشفى وقد ارتدى الطَّبيب الشَّابّ معطفًا مُخضَّبًا بالدّماء. كانت هذه المرّة الأولى التي يراه فيها نيمانز بزيّ العمل وسط الجدران البيضاء المعقّمة. أضفى عليه المكان مع الثّياب نوعًا من الهيبة الجليديّة. ابتسم الطَّبيب الشرعيّ خلفَ نظارَتِه.

- الماء والجليد والزّجاج. العلاقة بين الموادّ واضحة.

- أعرف ذلك.

غمغم نيمانز وهو يقترب من الجسد الذي توسَّطَ القاعة تحت ملاءة بيضاء.

- ماذا يعني هذا؟ أعني، ما نوع المكان الذي يشير إليه هذا الزّجاج؟ هل له ميزة خاصَّة؟

- أنا في انتظار نتائج آستييه. لقد ذهب إلى المختبر لإجراء دراسة مُعمَّقة على العيّنات

وتحديد مصدر هذا الزّجاج. سيتولّى أيضًا تحليل المسحوق والشّظايا التي جلبتها من المستودع. نتيجةُ حبر الدّفتر جاهزة ومخيِّبة للآمال. إنّه حبرٌ عاديٌّ لا أكثر ولا أقلّ. أما في ما يخصُّ صفحات الأرقام، فقد درسنا الخطّ فحسب، بما أننا لا نملك عناصر أخرى... وهو فعلًا خطُّ سيرتيس.

فرك نيمانز رأسه بيديه. لقد كاد ينسى عيّنات المستودع. نظر الشُّرطيُّ إلى الطَّبيب فلمح بريقًا في عينَيْه، مثل حلِّ معادلةٍ رياضيّةٍ يلتمع وسط الحدقتَيْن. وسأله بحنق:

- ماذا هناك؟

- لا شيء. ببساطة... الماء، الجليد، الزّجاج: كلّها بلّورات أو كريستالات.

- أخبرتك أنَّني أعرف...

- ...لكنّها تتوافق مع درجات حرارةٍ مختلفة.

- لا أفهم.

عقد كوست أصابعه.

- بنيات هذه الموادّ تتموقع على درجاتٍ مختلفةٍ من مقياس الحرارة، برودة الثّلج، درجة الحرارة المحيطة بالماء، احتراق الرّمل حتّى يتحوّل إلى زجاج.

تجاهل نيمانز هذه الملاحظة بإيماءة غاضبة.

- وماذا في ذلك؟ ماذا يخبرنا ذلك عن جرائم القتل؟

خفض كوست كتفَيْه، كما لو أنه تقَوْقَعَ من جديدٍ وسط حيائه.

- لا شيء. كان مُجرَّدَ تعليق...

- أخبرني المزيد عن تشويه الجثّة.

- باستثناء بتر اليدَيْن، فالجثّة مطابقةٌ لجسد كايوا دون آثارٍ للتّعذيب.

- ألم يتعرّض سيرتيس للتّعذيب؟

- كلّا. يبدو أن القاتل عرف من كايوا كلّ ما يحتاج إليه، فدخل مباشرة في صلب الموضوع. انتزاع العينَيْن واليدَيْن، فالخنق. كانت معاناة سيرتيس لا تطاق، لأن القاتل بدأ بقطع اليدَيْن ثمّ اقتلع العينَيْن، وعندها فقط أجهز على فريسته.

- ماذا عن تقنية الخنق هذه المرَّة؟

- التّقنية نفسها. استعمل السّلك المعدنيّ الذي كبّل به ضحيته في البداية، مثل الجريمة الأولى. الجروح الموجودة على الأطراف متماثلةٌ مع جروح الجثّة الأولى.

- ماذا عن اليدَيْن؟ كيف قطع المعصمَيْن؟

- لا أعلم بدقّة. ربّما استعمل السّلك أيضًا. مثل سلك قطع الزّبدة، يلفُّ المعصمَيْن ويشدّ بقوّة هائلة حتّى القطع. نحن نبحث عن عملاقٍ يا حضرة المحافظ. قوّة من قوى الطبيعة.

فكَّرَ نيمانز. رغم هذه العناصر التي أضفت دقّةً نسبيّة، لم يستطع تخيُّل القاتل، ولا حتّى ظلّه.

شيءٌ ما يعترضه ويوقفُ خيط أفكاره كلّما أراد ولوج ذلك الجانب. كان يُفكِّر في القاتل بوصفه كيانًا، سُلطةً، طاقةً صافية.

- ساعة الجريمة؟

- انسَ الأمر. مع برودة الجليد، لا مجال لاستخلاص أيّ استنتاجٍ حول ساعة الوفاة.

فُتِح باب المشرحة فجأةً، وظهر رجلٌ طويلٌ بوجهٍ شاحبٍ وأنفٍ مُسطَّحٍ وعينَيْن صافيتَيْن. كانت عيناه واسعتَيْن مثل قوسَيْ قزح. تولّى كوست التّقديم: باتريك آستييه. قال خبير الكيمياء على الفور وهو يضع كيسًا بلاستيكِيًّا صغيرًا على الطّاولة:

- هذه مكوّنات الزّجاج. رمل فونتينبلو، هيدروكسيد الصوديوم، الرّصاص، أملاح البوتاسيوم، البورق. إذن يمكننا استنتاج مصدره. إنّه الزّجاج المستعمل في صنع الكتل الزُّجاجيّة، مثل التي ترونها في أحواض السِّباحة أو منازل الثّلاثينيّات. يقودنا القاتل إلى مكانٍ كهذا، مكانٍ مُغطّى بالكتل الزُّجاجيّة...

استدار نيمانز ليغادر وقد ارتسمت في عقله صورة سقف عيادة طبيب العيون وجدرانها. لا يمكن أن تكون مصادفة. إيدموند شيرنيسيه هو الضَّحيَّة الثالثة.

ناداه مارك كوست وهو يفتح الباب:

- ولكن إلى أين تذهب؟

أجاب نيمانز دون أن يتوقّف:

- أعرف أين سيضرب القاتل ضربته القادمة. إن لم يكن الأوان قد فات.

كان الشُّرطيُّ بصدد الخروج عندما لحق به آستييه في الممرّ وأمسك بكمّه.

- حضرة المحافظ، لديَّ أيضًا مكوّنات غبار المستودع...

فحص بيير نيمانز خبير الكيمياء بتمعُّنٍ من وراء نظَّارته.

- ماذا؟

- العيّنات التي جمعتها في المستودع.

- ماذا عنها؟

- إنها عظامٌ حضرة المحافظ. عظامُ حيوانات.

- أيّ نوعٍ من الحيوانات؟

- مبدئِيًّا أظنّ أنها فئران. يبدو الأمر جنونِيًّا، لكنّي أعتقد أنّ رجُلك، سيرتيس، كان يربّي القوارض و...

رعشة جديدة، حمّى جديدة.

- لاحقًا. (همس نيمانز) لاحقًا، لنا عودة.

حرث نيمانز عجلة القيادة بقبضتَيْه بينما قطع الطَّريق الوطنيّة بسرعةٍ تزيد عن مائة وخمسين كيلومترًا في السَّاعة.

إن كان الدّكتور إيدموند شيرنيسيه هو الضَّحيَّة التّالية، فهذا يعني أنه الجاني الثّالث.

بعد ريمي كايوا.

بعد فيليب سيرتيس.

وإن كان شيرنيسيه مذنبًا، فهذا يعني أن قاتل الشُّرطيّ الشَّابّ إيريك جوانو هو الطَّبيب نفسه.

يا للجحيم! عضَّ المحافظ على شفته حتّى لا يصرخ بأعلى صوته. فكَّرَ في الأخطاء القاتلة التي ارتكبها منذ بداية التّحقيق. في حصيلة عدم كفاءته. لم يُرِد الذَّهاب إلى معهد المكفوفين بسبب رهابه السّخيف من الكلاب، ففوّت أوّل قرينة حقيقيّة.

مِن هناك بدأ الانهيار الكامل.

أثناء تقدُّمه الشَّبيه بمشية سرطان البحر في التّحقيق، عند تقليده لمتسلِّقي الجبال المبتدئين في الأنهار الجليديّة أو استجوابه لأمّ سيرتيس، ذهب إريك جوانو إلى المعهد وتوصَّل إلى حقيقة مُهمَّة، حقيقة قادته مباشرة إلى شيرنيسيه. لكنّ الملازم الشّابّ تقدَّمَ

بسرعةٍ فاقت قدراته، فلم يستطِع تقييم تداعيات اكتشافاته. لم يأخذ حذره كما يجب من الطَّبيب واستجوبه حول جانبٍ مهمٍّ من القضيَّة، حول حقيقةٍ تُشكِّل خطرًا على الطَّبيب ذاته. ولهذا السّبب، تخلَّصَ منه شيرنيسيه دون شكّ.

صاغَ عقل نيمانز يقينًا جديدًا مدوِّيًا ومرعبًا لا يملك أدنى دليلٍ عليه، لا شيء باستثناء حدسه: خطَّطَ كايوا وسيرتيس وشيرنيسيه لشيءٍ معًا وجمعهم إثمٌ مشترك...

وقاتل.

نحن الأسياد، نحن العبيد.

نحن في كلّ مكان، لسنا في أيّ مكان.

نحن الضّاربون في الأرض.

نحن مهندسو الأنهار القرمزيّة.

هل يمكن أن تُحيل هذه الـ«نحن». إلى الرّجال الثّلاثة؟

هل يمكن أن يكون كايوا وسيرتيس وشيرنيسيه هم سادة الأنهار القرمزيّة؟ وأنَّهم نفَّذوا مؤامرةً على المدينة كلها، وأنّ هذه المؤامرة هي الدّافع نفسه إلى جرائم القتل؟

40

كان الباب مواربًا هذه المرَّة. دخل نيمانز مباشرةً إلى العيادة الزُّجاجيّة وسط الظِّلال والصّمت وأدوات قيس البصر الشَّامخة مثل أشباح متغطرسة. استلَّ مسدّسه من جرابه، وجال بنظره في الغرفة. لا أحد. وحدها خطوط الأشجار المتسرّبةُ من خلال الكتل الشَّفّافة تواصلُ الرَّقْصَ على الأرضيّة. ملأ الغياب الهواء. خرج الشُّرطيُّ من العيادة، وقصد المنزل. نظر إلى غرفة الانتظار المظلمة، ثمّ سار في ممرٍّ رخاميٍّ حيث وُضعت عِصيٌّ بمقابض عاجيّةٍ وسط حامل مظلّات. فوجد غرفة جلوسٍ مزدحمةً بالأثاث الضَّخم والستائر الثقيلة، ثمّ غرف نومٍ عتيقةَ الطِّراز بأسرّة خشبيّة لامعة. لا أحد، لا شيء، لا أثر لحدوث مشاجرة أو جريمة، لا إشارة إلى فرار الطَّبيب العجوز.

صعد إلى الطابق العلويّ شاهرًا مسدّسه، وولج مكتبًا صغيرًا تفوح منه رائحة الشَّمع والسِّيجار، رأى فيه حقائب جلديّة ناعمة بأقفال ذهبيّة موضوعة فوق سجّادٍ رثّ.

تقدَّمَ الشُّرطيُّ ببطءٍ. هذا المكان مفعمٌ برائحة التّهديد والموت. رأى من خلال نافذة بيضويّة قمم الأشجار الباسقة وهي تهتزُّ بفعل الرِّياح العاتية. فأدرك أنّ هذه النافذة العلوية تطلُّ على سقف الشُّرفة، سقف العيادة الزُّجاجيّة. فتح النافذة فجأةً وصوَّبَ نظره إلى الحافَّة الشَّفّافة.

تجمَّدَ الدَّم في شرايينه. فعلى طول المربّعات المصبوغة بالمطر، برزت صورة جسد شيرنيسيه مُتموِّجةً بفعل نتوءات الزُّجاج، بذراعَيْن مفتوحتَيْن أفقيًّا وقدمَيْن ملتصقتَيْن، في وضعيَّة المسيح المصلوب، كشهيدٍ منعكسٍ على بحيرةٍ من الأصباغ الخضراء.

تأمَّلَ نيمانز المشهد بصرخةٍ عالقةٍ في حلقه، واستنتج مكان الجسد الحقيقيّ. أخرج رأسه من النافذة، ونظر إلى أعلى، فرأى الجسم مُعلَّقًا فوق النافذة مباشرة.

وسط الرِّياح الرّطبة، كان إيدموند شيرنيسيه مُثبَّتًا على الجدار، مثل واجهة من الرّعب.

عاد الشُّرطيُّ إلى الدّاخل، وخرج من المكتب الصّغير، وصعد سُلَّمًا ثانيًا من درجاتٍ خشبيّةٍ ضيِّقة، تعثَّرَ مرّاتٍ حتّى بلغ العلِّيّة. فعبر نافذةً جديدة وإطارًا جديدًا ليصل إلى مزراب السَّطح ويقترب أكبر قدرٍ ممكنٍ من جثّة إيدموند شيرنيسيه.

وجه دون عينَيْن، محجران فارغان مفتوحان على رياح المطر، ذراعان مشرّعتان على مصراعَيْهما تنتهيان بمعصمَيْن داميَيْن. ثُبِّتَت الجثّة في هذه الوضعية عن طريق شبكة مُحكَمة من الأسلاك اللّامعة الملتوية مزَّقت اللّحم السّميك الأسمر. أحصى نيمانز حصيلة القاتل وزخّاتُ المطر تلسع جلده.

ريمي كايوا.

فيليب سرتيز.

إيدموند شيرنيسيه.

صارت قناعته أقوى من أيّ وقتٍ مضى. كلَّا، جرائم القتل لم يرتكبها مِثْلِيٌّ جنسيٌّ مهووسٌ يبحث عن ملامح أو نوع جسديّ مُعيَّن. كلَّا، لا يتعلَّق الأمر بقاتلٍ متسلسلٍ يستهدف ضحايا أبرياء بشكلٍ عشوائيٍّ لإشباع نزواته أو نوبات غضبه. هذا قاتلٌ عقلانيٌّ، سارقُ هويّات عميقة، لصٌّ بصمات بيولوجيّة، ويتصرَّف بدافعٍ محدّد: دافع الانتقام.

حين عاد إلى العلِّيّة، وحدَه نبض قلبه الجنونيّ كان يتردّد في أرجاء المنزل. كان يعلم أنّ رحلة بحثه لم تكتمل بعد. ويعرف مُسبقًا النّهاية الحتميّة لهذا الكابوس: جثَّة جوانو هنا، في مكانٍ ما بهذا المنزل.

قبل ساعاتٍ قليلةٍ من مقتل الطَّبيب، أجهز هذا الثاني على الملازم الشّابّ. القاتل المقتول، مثل حلقةٍ شيطانيّةٍ أو ثعبانٍ يقضم ذيله.

فحص كلّ غرفةٍ وكلّ قطعة أثاثٍ وكلُّ فجوة. قلَّبَ المطبخ وغرفة المعيشة وغرف النّوم. حفر الحديقة، أفرغ كوخًا تحت الأشجار. ثمّ اكتشف في الطّابق الأرضيّ تحت الدّرج بابًا مُغطًّى بورق الجدران. اجتثَّ الباب من مفاصله بعنف، فوجد القبو وراءه.

هرع إلى أسفل بينما كان يتخيَّل تسلسل الأحداث بدقَّة. حين زار الطَّبيب، فاجأه في قميصه وسرواله الدَّاخليّ. لا بُدَّ أنه أكمل حينها عمليّته الدَّمويّة، قتل جوانو. لهذا السَّبَب فصل خطَّ هاتفه. لهذا السَّبَب كان يرتِّبُ عيادته حيث طعن الملازم الشَّابّ حتمًا بأحد المراود المعدنيّة الحادَّة التي رآها المحافظ في علبة الأقلام الصّينيّة. ولهذا السَّبَب أيضًا كان يرتدي ثيابًا جديدةً ويجمع حقائبه.

إنه غبيّ وأعمى. استجوب نيمانز قاتلًا في أعقاب جريمته الوحشيّة ولم يرَ شيئًا. أيّ غباءٍ هذا! أيّ عمًى!

في القبو، اكتشف الشُّرطيُّ دهاليز ورافعاتٍ معدنِيَّةً مُغطّاة ببيوت العنكبوت ومحمّلة بمئاتٍ من قناني النّبيذ: قعور داكنة، شمع أحمر، ملصقات بُنِّيّة. فتَّشَ الشُّرطيُّ كلّ رُكْنٍ من أركان القبو، حرَّكَ البراميل وسحب الرّافعات نحوه فتسبَّب ذلك في انهيار القناني. وانتشرت برِكُ النّبيذ وروائحها المُسكِرة في أرجاء المكان.

في إعصارٍ من العرق والصّراخ والبصاق، اكتشف نيمانز حفرةً مسدودةً بلوحَيْن مائلَيْن من الخردة. كسر القفل وفتح الأبواب فاحتبست أنفاسه.

كان جسدُ جوانو يرقد في قاع الحفرة نصف مغمورٍ في سوائل سوداء حارقة. طفت عبواتُ منظّف المجاري الخضراء حوله. لقد بدأ المستنقع الكيميائيّ عمليَّة التّخريب مزيلًا غازات الجسم ومُلتهِمًا كلّ ما يعترض طريقه من شحوم ولحوم في إبادة تدريجيّة للكيان المادِّيّ الذي كان يُدعى إريك جوانو، ملازم الشُّرطة القضائيَّة. لمعت عَيْنَا الشَّابّ المفتوحتَيْن في أعماق هذا القبر المريع وكأنَّهما تُحدِّقان في وجه المحافظ.

تراجع نيمانز، وأطلق صرخةً مسعورة. شعر أنّ ضلوعه ترتفع وتتباعد مثل ضلوع المظلّة حين تفتح. تقيأ أحشاءه، غضبه، ندمه، مُتشبِّثًا برفوف القناني، وسط الطّقطقات وشلّالات النّبيذ.

لم يعرف كم مرَّ عليه من الوقت في هذه الحالة، وسط روائح الكحول، وسط أبخرة الأحماض. لكن، سرعان ما استفاقت في أعماق عقله، ببطء، مثل مدٍّ أسودٍ سام، حقيقةٌ مطلقةٌ، لا علاقة لها بقتل جوانو لكنها تُلقي ضوءًا جديدًا على سلسلة جرائم القتل في «غيرنون».

لقد سلَّط مارك كوست الضَّوء على القرابة بين المواد الثّلاث التي ميَّزت الجرائم الثّلاث: الماء، والجليد، والزّجاج. أدرك نيمانز الآن أن هذا لم يكن الأهمّ. الأهمّ هو سياق اكتشاف الجثث.

اكتُشِف ريمي كايوا من خلال انعكاسه في النّهر.

فيليب سيرتيس من خلال انعكاسه في الجبل الجليديّ.

إيدموند شيرنيسيه من خلال انعكاسه على الجدار الزّجاجي.

رتَّب القاتل جثث ضحاياه بحيث يرى النّاظر انعكاس الجسد قبل الجسد الحقيقيّ.

ماذا يعني ذلك؟

لماذا يبذل كلّ هذا الجهد في طريقة عرض الجثّة؟

لم يفهم نيمانز الدّافع وراء هذ العناء، لكنه شعر بوجود صلة بين هذا التّناظر وسرقة الأيدي والعيون التي تحرم الجسد من أيّ هويَّة عميقة، من أيّ تفرّد. إنهما حركتان متقاطعتان لحكم أعلنته محكمة لا تقبل استئنافًا ولا تعقيبًا: تدمير كيان المتّهم تدميرًا كاملًا.

ماذا فعل هؤلاء الرّجال حتّى يُختزل وجودهم في انعكاس، وتُحرم أجسادهم من أيّ بصمةٍ مميِّزة؟

41

لا تشبه مقبرةُ «غيرنون» نظيرتها بـ«سارزاك» في شيء. هنا في «غيرنون»، تقف شواهد القبور الرّخامية البيضاء كجبالٍ جليديّةٍ منظّمةٍ فوق المروج الخضراء الدّاكنة. وتنتصب الصّلبان مثل أشباحٍ واقفةٍ على رؤوس أصابعها. وحدها الأوراق الميّتة تُضفي على المكان لمسةً فوضويّة، وصفراء. مشّط كريم عبدوف كلّ ممرٍّ بمنهجيّةٍ وصبرٍ وهو يقرأ الأسماء والمراثي المنقوشة على الرُّخام أو الحجر.

دون أن يجد قبر سيلفان هيرو.

أثناء سيره، فكّرَ في القضيَّة وفي المنعرج المفاجئ للساعات القليلة الماضية. لقد قدم إلى هذه المدينة بأقصى سرعة ممكنة، ولم يتردَّد في «تحويل وجهة» سيَّارة أودي رائعة مُعتقِدًا أنه في طريقه للقبض على مدنّس قبور، فوجد نفسه غارِقًا في قضيَّة جرائم قتل. الآن وقد قرأ وحفظ ملفّ تحقيق نيمانز كاملًا، اقتنع بطبيعة «التّداخل» في قضيّته. كَشَفَ السَّطو على المدرسة والتّابوت في «سارزاك» المصير المأساويّ لعائلة هيرو. وهذا المصير ينفتح الآن على سلسلة الجرائم في «غيرنون». لعب سيرتيس دور محور الارتكاز بين القضيّتين. وصمّمَ كريم على اتِّباع طريقه الخاصَّة حتّى يكتشف نقاط التقاء وروابط أخرى.

لكن لم يكن هذا التّداخل أكثر ما يثير دهشته، بل وجوده جنبًا إلى جنب مع بيير نيمانز، المحافظ الذي أثَّرَ فيه كثيرًا خلال محاضرات «كان-إيكلوز». شرطيّ المرايا والنَّظريّات الذَّريّة. رجل الميدان المفترس، الغاضب، المثابر، المُحقِّق اللّامع الذي افتكَّ نصيب الأسد في عالم رجال الشُّرطة لكنّه أُزيح جانبًا بسبب شخصيّته العنيفة ونوبات غضبه المخيفة. لبث كريم يُفكِّر في هذه الشّراكة الجديدة. كان فخورًا بالطَّبع

ومُتحمِّسًا. لكنه كان مُضطرِبًا لأنّ الرّجل خَطَر على ذهنه اليوم، قبل ساعاتٍ قليلة من لقائهما. ولطالما كره المصادفات وعلامات القدر!

وصل كريم إلى آخر ممرٍّ في المقبرة دون أن يجد اسم سيلفان هيرو. لم يبقَ له سوى زيارة محرقة الجثث، وهو مبنًى شبيهٌ بكنيسةٍ صغيرةٍ قائمٌ فوق عمودَيْن مُنهَكَيْن. وصل الملازم إلى المبنى في خطواتٍ قليلة. «عليّ أن أطرق كلّ الأبواب، دومًا». وجد ممرًّا مليئًا بصناديق صغيرة تعلوها أسماء وتواريخ. دخل إلى قاعة الرّماد وهو ينظر إلى اليسار واليمين. كانت الأبواب الصَّغيرة الشَّبيهة بصناديق البريد متنوِّعةَ الكتابات والأنماط، ولوّنت بعضُ باقات الأزهار الباهتة رتابة المكان. في الخلفية، عُرِضَت نصوص صلوات وابتهالات على جدارٍ رخاميٍّ منحوت.

اقترب كريم وقد هبَّت رياح رطبة تردَّدت بين الجدران، وتشابكت أعمدةٌ رفيعةٌ من الجبس مع البتلات الجافّة بين ساقي الشُّرطيّ.

ثمّ رآها.

اللّوحة الجنائزيّة. اقترب وقرأ: سيلفان هيرو، ولد في فيفري 1951 ، توفّي في أوت 1980. لم يتوقَّع كريم أن يجد جثمان والد جوديت هنا، لأنّ حرقَ الجثّة لا يتناسب مع معتقدات فابيان الدِّينيّة.

لكن هذا لم يكن أكثر ما فاجأه، بل باقة ورود حمراء قانية مكلّلة بقطرات النّدى، وضعت بجانب اللّوحة. لمس كريم البتلات، هذه الباقة نضِرة لم تمرَّ سوى بضع ساعات أو دقائق على وجودها هنا. لقد وُضعت اليوم بالذّات. استدار الشُّرطيّ، وفرقع أصابعه.

رحلة البحث هذه لن تنتهي أبدًا.

غادر عبدوف المقبرةَ، ودار حول السياج باحثًا عن منزلٍ أو مقصورةٍ يسكنها الحارس، فاكتشف سقيفةً صغيرةً على اليسار بها نافذة يُضيئها وهجٌ خافت. فتح البوّابة في صمت، وولج إلى الحديقة التي تشبه بسقفها المُسيَّج قفصًا عملاقًا. سمع هديلًا قريبًا. ما هذا الجنون؟

خطا كريم بضعَ خطواتٍ وقد تضاعف الزّعيق وصوت رفرفة الأجنحة في هذا المكان الغريب. حدَّقَ الشُّرطيُّ في جدارٍ مملوءٍ بالفجوات المنتظمة ذكَّره بمحرقة الجثث.

حمام، مئات من الحمائم الرَّماديّة النّائمة على أقواسٍ صغيرة خضراء. صعد الشُّرطيُّ الدّرجات الثّلاث ودقَّ جو جرس الباب. ففتح الرَّجل على الفور.

- ماذا تريد أيها الوغد؟

كان يشهر بندقية.

قال كريم بهدوء:

- أنا رجل شرطة. دعني أرك بطاقتي و...

- كفّ عن الكذب أيها العربيُّ القذر. إن كنتَ أنتَ شرطيًّا فأنا الرّوح القدس. لا تتحرّك من مكانك وإلّا ندمت!

تراجع الشُّرطيُّ وقد صعقته الإهانة المفاجئة، وحفّزت رغبته في ارتكاب جريمة.

- لا تتحرّك، أقول لك! صرخَ الرجل مُوجِّهًا بندقيّته نحو وجه الشُّرطيّ وقد أرغى اللّعاب في زوايا شفتيه.

تراجع كريم مرّةً أخرى ببطءٍ. كان الرّجل يرتجف وهو يتبعه مُلوِّحًا بسلاحه مثل فلّاحٍ متعجرفٍ يشهر رفشًا في وجه مصّاص دماء في فيلم رعبٍ رخيص.

- سأمزقك إربًا إربًا، سأ...

- لن يحدث هذا يا أبتاه سلاحك فارغ.

سخر المعتوه:

- أهذا ما تظنّه؟ البندقيّة مشحونة أيها الأحمق.

- ربما، لكنك لم تلقم الرّصاصة، علبة الإطلاق فارغة.

نظر الرجل إلى بندقيّته، واستغلّ كريم الفرصة ليصعد الدّرجتَيْن ويدفع الفوّهة جانبًا بيده اليسرى بينما يخرج مسدسه باليمنى. ألقى بالرّجل نحو إطار الباب وسحق معصمه على القفل الحديديّ.

صرخ حارس المقبرة وأسقط البندقيّة. وعندما نظر إلى أعلى، وجد فوّهة المسدّس الآلي السّوداء على بُعد سنتمتراتٍ من جبهته.

همس كريم:

- اسمعني جيّدًا أيها العنصري الحقير. أنا بحاجة إلى معلومات. لديك خياران، إمَّا أن تُجيب على أسئلتي وحينها أرحل دون مشاكل، أو أن تتغابى فتتعقّد الأمور قليلًا، بل كثيرًا. اتَّفقنا؟

أوْمَأَ الحارس بعينَيْن جاحظتَيْن. تبخّرت كلّ العدوانيّة من ملامحه وأصبح وجهه مستعرًا بـ«الأحمر المذعور»، درجة من درجات اللّون الأحمر يعرفها كريم جيّدًا. ضغط الشُّرطيُّ على الحلق المترهّل مرة أخرى.

- سيلفان هيرو، أوت 1980 ، حُرِقَ جثمانه. تكلّم.

- هيرو؟ (تلعثم حارس المقبرة) لا أعرفه.

شدّه كريم إليه، ثمّ دفعه من جديد على حافّة الجدار، فتأوّه الحارس وتناثر دمه على الحجر. انتقلت عدوى الذعر إلى الفجوات فطار الحمام في جميع الاتّجاهات.

ثمّ همس الشُّرطيّ:

- سيلفان هيرو، زوجته طويلة جدًّا، سمراء، شعر مجعّد، نظّارة، فائقة الجمال، مثل ابنتها الصّغيرة، تذكّر.

أوْمَأَ الحارس برأسه في حركاتٍ عصبيّةٍ صغيرة.

- حسنًا، تذكّرت.. لقد كانت جنازة غريبة جدًّا... لم يحضر أحد.

- ماذا تعني بلا أحد؟

- أعني لا أحد. حتّى الزّوجة لم تحضر. لقد دفعت لي مُقدَّمًا مقابل حرق الجثّة، ولم أرها بعد ذلك في «غيرنون». أحرقتُ الجثّة وكنتُ... كنتُ بمفردي.

- الرّجل، ما سبب وفاته؟

- حادث... حادث سيّارة.

تذكَّرَ كريم الطَّريق السَّريعة والصُّوَر المروّعة لجثّة الطّفلة. عنف الطّرقات صارَ خيطًا أحمر جديدًا، عنصرًا مُتكرِّرًا آخر. أطلق عبدوف سراح الحارس. كان الحمام يحلّق في دوائر ويصطدم بسياج السَّقف.

- أريد معرفة ظروف الوفاة. ماذا تعرف عنها؟

- لقد... لقد دهسه سائقٌ على الطَّريق الجهويَّة المُؤدِّية إلى «بالدون». كان هيرو يقود درّاجة... في طريقه إلى العمل. لا بُدَّ أن السائق كان في حالة سُكْر. أنا...

- هل أجرى رجال الجندرمة تحقيقًا؟

- لا أعرف. على أيّ حال لم يعرف أحدٌ مَن الفاعل... وُجِدَتِ الجثّة على قارعة الطّريق،

مُهشَّمةَ الأوصال.

ارتبك كريم.

- قلت إنَّه كان في طريقه إلى العمل. ماذا كان يعمل؟

- كان يعمل في قرى المرتفعات. كان صائدَ كريستال.

- ماذا؟

- الذين يبحثون عن الكريستال، البلّورات الثَّمينة، في الأعلى. يقال إنَّه كان أفضلهم، ولم يكن يتردَّد في المخاطرة بحياته...

غيَّرَ كريم مسار الأسئلة:

- لماذا لم يحضر أيّ شخصٍ من «غيرنون» جنازته؟

كان الرّجل يدلّك رقبته المحتقنة ويلقي بنظراتِ فزعٍ على طيوره المصابة.

- هو وزوجته وابنته كانوا وافدين جدًا.. قدموا من بلدةٍ أخرى.. «تافيرلاي».. في الجبال.. لم يفكّر أحدٌ في حضور الجنازة. قلت لك، لم يحضر أحد!

طرح كريم سؤاله الأخير:

- توجد باقة ورود أمام صندوق رماده. مَن وضعها هناك؟

جال الحارس في المكان بعينَيْن خائفتَيْن. سقط طائرٌ محتضرٌ على كتفَيْه فكتم صرخةً ثمّ تلعثم:

- هناك دائمًا زهور أمام...

- مَن يضعها؟ كرّر كريم، هل هي امرأة طويلة جدًّا؟ امرأة ذات شعر غزير أسود؟ هل هي فابيان هيرو نفسها؟

هزَّ العجوز رأسه نافيًا بانفعال.

- مَن إذن؟

تردَّدَ الحارس كأنه يخشى نطق كلماتٍ ارتجفت على شفتَيْه في خيطٍ من اللّعاب. تساقط الرّيش فوقهما كندَفِ ثلج رماديّة. وهمس أخيرًا:

- صوفي... صوفي كايوا.

ألجمت الدّهشة لسان الشُّرطيّ. فجأةً، امتدَّ رابطٌ جديد بين القضيّتَيْن، حبل مشدود بقوّة تكاد تفجّر قلبه. مال نحو الرّجل حتّى لم تَعُد تفصل وجهَيْهما سوى ملّيمتراتٍ قليلة:

- مَن؟

- نعم... (شهق الحارس). زوجة ريمي كايوا، تأتي كلّ أسبوع. أحيانًا مرّاتٍ عديدة في الأسبوع... عندما علمتُ بجريمة القتل، عبر قناة إذاعيّة، أردت أن أخبر الجندرمة... أقسم لك... أردت أن أمدّهم بالمعلومة... قد يكون لهذا علاقة بالجريمة... أنا...

ألقى كريم بالرّجل وسط قنّه وطيوره وأسيجَتِه. ودفع البوّابة الحديديّة وركض نحو سيّارته. كان قلبه يخفق مثل طبلٍ مرتاع.

42

قاد كريم سيّارته بسرعةٍ جنونيّةٍ حتّى بلغ مبنى الجامعة المركزيّ، ولمح على الفور الشُّرطيّ المكلف بحراسة المدخل الرئيسيّ. لا شك أنه الضّابط المسؤول عن مراقبة صوفي كايوا. تجاهله، وواصل طريقه. دار حول المبنى، واكتشف مدخلًا جانبيًّا مُتكوِّنًا من بابَيْن زجاجيَّيْن داكنَيْن تحت مظلّةٍ إسمنتيّة مشقّقة مُغطَّاة بمفرشٍ بلاستيكيّ. أوقف كريم سيّارته على بُعد مائة متر، وراجع خارطة الجامعة التي أخذها من مقرّ نيمانز الرَّسميّ، خارطة تفصيليّة تُشير إلى شقّة كايوا: الشّقّة رقم 34.

خرج تحت المطر، واتَّجه نحو البابَيْن المُقفلَيْن بطوقِ درّاجة ناريّة من طرازٍ قديمٍ. وضع يدَيْهِ على جانبَيْ رأسه، وألصقهما بالزّجاج مُحاوِلًا النّظر إلى الدّاخل. تضاعفت زخّات المطر، وضربت على المفرش بإيقاعٍ مدوٍّ. هذه الضَّوضاء ستُخفي حتّى أكثر عمليّات الاقتحام ضجيجًا. تراجع كريم، ثمّ حطّم الزجاج بركلةٍ قويّة، واندفع في ممرٍّ ضيّقٍ موصولٍ بقاعةٍ شاسعةٍ ومظلمة. رأى عبر النَّافذة الشُّرطيّ المسكين مرَّةً أخرى وهو يرتجف في الخارج. تسلَّلَ إلى السَّلالم على يمينه، وصعد الدّرجات بخفَّة تحت أضواء الطَّوارئ الخافتة مُحاوِلًا جاهدًا ألا يُصدِر أيّ صوتٍ على الدّرجات المعلّقة أو الشّفرات المعدنيّة العموديّة التي ترتفع في وسط السّلالم.

ساد صمتٌ مَهيبٌ في الطّابق الثّامن الذي يشغله الطُّلّاب الدَّاخليّون، وواصل كريم المشيَ مُستدِلًّا بخارطة نيمانز. رأى أسماءً مكتوبةً فوق أجراس الأبواب وشعر بتراخي ألواح المشمّع تحت قدمَيْه.

حتّى في السَّاعة الواحدة صباحًا، كان يتوقَّع أن يسمع موسيقى، مذياعًا، أيّ شيءٍ يدلُّ على وجود المُقيمين. لكن لا، لا شيء. ربّما كان الطُّلّاب مُختبئين في مساكنهم خوفًا من

قاتلٍ سيأتي ليقتلع أعينهم. وجد أخيرًا الباب المنشود، فتردَّد في دقِّ الجرس، ثمّ طرق برفقٍ على الخشب.

دون جواب.

طرق مرَّةً أخرى بلطفٍ، دون جواب. لم ينبعث أيّ صوتٍ من الدّاخل. هذا غريب، وجود الحارس في الأسفل يدلُّ على وجود صوفي كايوا في الأعلى، هنا، في منزلها.

أخرج كريم مُسدَّسَه الغلوك، مدفوعًا بغريزته. وفحص القفل عن كثب. لم يكن الباب مُغلقًا بالمفتاح. فلبس الشُّرطيُّ قفّازَيْه المطّاطيّين وتناول طقمًا من العيدان المعدنيّة حشر أحدها تحت مزلاج القفل الرَّئيسيّ وهو يدفع الباب ويسحبُه إلى أعلى. فانفتح في ثوانٍ معدودة، ودلف كريم دون ضجيج.

زار كلّ غرفةٍ في الشّقّة. لا أحد. حذَّره حدسه من هروب المرأة دون رجعة. لكنه استأنف التّفتيش بعنايةٍ أكبر. لاحظ صورًا غريبةً على الجدران، صورًا بالأبيض والأسود لرياضيّين برؤوسٍ نازيّةٍ معلّقين من حلقاتٍ أو راكضين في ملعب. فتَّشَ فوق قطع الأثاث ووسط الأدراج. لا شيء. لم تترك صوفي كايوا أيّ رسالة أو أيّ تفصيل قد يشي بفرارها، لكن كريم شعر أنها هربت. ورغم قناعته هذه، لم يستطِع مغادرة الشّقّة. ثمّة جزئيّة لا يفهم كنهها تدعوه إلى البقاء. دار الشرطي حول نفسه ببطءٍ باحثًا عن حبّة الرّمل التي كانت تعرقل منطق اللّحظة.

ووجدها أخيرًا.

كان المكان مُفعمًا برائحة الصّمغ. وما كاد لصقُ ورق الحائط يجفّ. اقترب كريم من الجدران ليفحصها واحدًا واحدًا. هل قرَّرَ الزّوجان كايوا تغيير الديكور قبل أيَّامٍ قليلة من وقوع الجريمة؟ هل تكون مجرَّد صدفة؟ رفض عقل كريم هذه الفكرة، ففي هذه القضيَّة، لا وجود للصُّدَف ولا لعنصرٍ لا ينتمي إلى جوِّها الكابوسيّ.

أبعد بعض الأثاث جانبًا، وخلع شريطًا أوَّلَ من ورق الحائط. لا شيء. كان خارج نطاق عمله، وكان ينتهك دون إذن بالتّفتيش شقّة امرأة ستصبح مشتبهًا به رئيسيًّا. تردَّدَ برهةً مزدردًا لعابه بصعوبة، ثمّ انتزع قطعةً أخرى من الورق. لا شيء. ذهب إلى جدارٍ مختلف، ووضع أصابعه تحت شريطٍ جديدٍ من ورق الحائط، ثمّ سحبه ليكشف عن ورق الحائط القديم الذي يُغطّي مساحةً واسعةً..

أمكنه قراءة نهاية جملةٍ مكتوبةٍ باللون البُنِّيّ على الجدار. كانت الكلمة الوحيدة التي تبيّنها هي: «قرمزيّة». مزَّقَ الورق المجاور ليكشف عن الرّسالة كاملةً تحت خطوط

الصّمغ.

سأصل إلى منبع

الأنهار القرمزيّة

جوديت

كان خطُّ اليد طفوليًّا لكنّ الجملة مكتوبةٌ بالدَّمّ. نُقِشَت الكلمات على الجبس وكأنها محفورةٌ بسكّين. مقتل ريمي كايوا، الأنهار القرمزيّة، جوديت، لم يَعُد الأمر يتعلَّق بروابط وأصداء وانعكاسات. لقد انصهرت القضيّتان رسمِيًّا في قضيَّةٍ واحدة.

فجأةً، شعر بحركةٍ طفيفةٍ خلفه.

استدار شاهرًا مُسدَّسَه بكلتَي يدَيْه، لكنه لم يستطِع سوى رؤية ظلٍّ يختفي من خلال الباب الموارب. فصرخ واندفع وراءه.

توارى الظِّلُّ في زاوية الممرّ وتسبَّب صوتُ الخطى المتسارعة في إثارة الذُّعر في كلّ الطّابق، وكأنّ ناقوس إنذارٍ بَعَثَ فيه الحياة. فُتِحت الأبواب في هلع على نظراتٍ وجِلةٍ تجاهلها الشُّرطيُّ ودار مع الزاوية راكضًا. سمع أصداء الدّرجات المعلّقة، فقفز هو أيضًا وسط السُّلَّم واهتزّت الشّفرات المعدنيّة بكامل ارتفاعها. كان كريم يقترب من الظِّلِّ الهارب وحذاؤه لا يلمس القاع إلَّا لمامًا.

تتالت الطّوابق وكريم يواصل الاقتراب. لم تَعُد تفصله عن طريدته سوى أنفاسٍ قليلة. صارَا ينزلان الآن درجات السُّلَّم نفسها على جانبَيْ الشّفرات المعدنيّة. لمح الشُّرطيُّ معطفًا أسود لامعًا واقيًا من المطر، فمدَّ ذراعه وأمسك بكم الظِّلّ، لكن ليس بالقوّة الكافية. علّق ذراعه في فخّ الشّفرات ونجا الظِّلّ من قبضته. فاستأنف الرَّكض وهو يعرف أنه خسر ثوانِيَ ليست بالقليلة.

حين وصل كريم إلى القاعة الضَّخمة المهجورة تمامًا، الصّامتة تمامًا، رأى الحارس الذي لم يبرح مكانه في الخارج وهرع إلى الباب الجانبيّ. لا أحد. لقد حجبت ستارة المطر كلّ الأفق.

أطلق كريم سبابًا ساخطًا وهو يعبر الباب الزُّجاجيّ المكسور ويجول بنظره في الحرم الجامعي الذي صار رمادِيًّا بسبب الأمطار الغزيرة. لا وجود لأحدٍ ولا لسيّارة. وحده القماش البلاستيكيّ يرفرف بشراسة ويملأ المكان ضجيجًا. خفض كريم سلاحه، ودار على عَقِبَيْهِ مُتمسِّكًا بأملٍ أخير، ربّما لا يزال الظِّلّ في الدّاخل.

فجأةً، دفعته موجةٌ كاسحةٌ نحو الأبواب الزُّجاجيّة، فسقط وأفلت سلاحه وغمره تيّارٌ جليديٌّ مفاجئ. وعندما نظر إلى أعلى وهو مُلقًى على الأرض، أدرك أنّ القماش البلاستيكيّ أوشك على السّقوط تحت ثقل الأمطار.

اعتقدَ وهلةً أنه حادث.

لكن، خلف القماش البلاستيكيّ الذي لا يزال مُعلَّقًا في السّقف بخيطَيْن رفيعَيْن، ظهر الظّلّ أسودَ ومُتلألِئًا بمعطفٍ أسود وساقَيْن مكسوّتَيْن بجوربَيْن طويلَيْن سميكَيْن ووجهٍ مُغطًّى بلثامٍ جبليٍّ وبخوذةٍ لامعةٍ مثل رأس نحلة طنّانة. كان الظّلّ يحمل مُسدَّسَ كريم ويُوجِّهه مباشرةً نحو رأسه.

فتح الشُّرطيُّ فمه لكن لم يخرج أي صوتٍ من حلقه.

فجأة، ضغط الظّلّ على الزّناد وأفرغ الطَّلقات في انفجارٍ زجاجيٍّ رهيبٍ انكمش كريم حاميًا و جهه بيدَيْه، وصرخ بصوتٍ مختنقٍ بينما اختلط ضجيج الانفجارات بضوضاء الزّجاج المهشّم والأمطار الغزيرة المُحيطة.

أحصى كريم سِتَّ عشرة رصاصة، واستجمع قواه للنّظر إلى أعلى بينما تساقطت أغلفةُ الرّصاص الأخيرة على الأرض. رأى يدًا عاريةً تُسقِطُ السّلاح وتتلاشى وراء ستارة المطر. كانت يدًا سمراء بأظافر قصيرةٍ مشدودةٍ كوترٍ ومثخنةٍ بالخدوش والضّمادات.

يد امراة.

تأمَّلَ الشُّرطيُّ مُسدَّسه الغلوك بضعَ ثوانٍ والدّخانُ لا يزال يتصاعد من فوّهته، ثمّ حدَّقَ في المقبض المخطّط. ما زال صدى الطَّلقات يتردَّد في عقله. تنفَّسَ رائحة البارود الحارقة ملء رئتَيْه. وبعد ثوانٍ، وصل الحارس أخيرًا مشهرًا سلاحه، لكنّ كريم لم يسمع نداءه أو صراخه المذعور. وسط أجواء نهاية العالم هذه، أدرك حقيقتَيْن حاسمتَيْن:

الأولى: لقد تركته القاتلة حيًّا.

الثّانية: صار يملك بصمات أصابعها.

43

- لماذا ذهبت إلى منزل صوفي كايوا؟ أنت خارج نطاق سلطتك الجنائيّة، لقد خرقت كلّ القوانين الأساسيّة للشُّرطة، صرنا...

شاهد كريم النَّقيب فيرمونت وهو يفقد أعصابه ووجهه يتحوَّل تدريجيًّا إلى اللّون الأحمر. أوْمَأَ برأسه وحاول التّظاهر بالنّدم. قال:

- لقد شَرحْتُ كلّ شيءٍ للنّقيب بارنز. جرائم «غيرنون» مرتبطةٌ بقضيّةٍ أتولّى التّحقيق فيها... قضيَّة حدثت في مدينتي، «سارزاك»، في مقاطعة «لو».

- ولماذا لم أعلم بالأمر؟ هذا لا يُبرِّر الاقتحام أو وجودك في منزل شاهدٍ مهم.

- لقد اتَّفقت مع المحافظ نيمانز على...

- انسَ أمر نيمانز. لقد وقع إعفاؤه من القضيّة. (ألقى فيرمونت وثيقة التّفويض القضائيّ على المكتب). وصل رجال الشُّرطة القضائيَّة من «غرونوبل» للتوِّ.

- حقًّا؟

- الجميع يتربَّص بنيمانز الآن. لقد أشبع مشاغبًا انجليزيًّا ضربًا بعد مباراةٍ في ملعب حديقة الأمراء. ونظرًا إلى التّصعيد الذي يمارسه البريطانيّون، دُعِي إلى باريس.

فهم كريم الآن سبب قدوم نيمانز إلى هذه المدينة. أراد الشُّرطيُّ الفولاذيّ أن تنسى السُّلطاتُ أمره بعد خطئه الفادح، لكنَّه لا يظنّه عاد فعلًا إلى باريس. كلّا، لن يتخلّى عن القضيَّة، وبالتأكيد لن يطلب الصّفح من متفقّدي الشُّرطة ولا من مجلس النّواب. سيجد بيير نيمانز القاتل ودوافعه أوَّلًا. وسيكون كريم إلى جانبه. لكنه تظاهر بتصديق الضّابط:

- هل تولّت الشُّرطة القضائيَّة التّحقيق بالفعل؟

أجاب فيرمونت:

- ليس بعد. علينا إخبارهم أوَّلًا.

- يبدو أنَّك لن تشتاق إلى نيمانز.

- أنت مخطئ. إنّه مهووس، لكنّه ملمٌّ على الأقلّ بعالم الجريمة، بل يتعرّقه من جميع مسامه. مع شرطة «غرونوبل»، سيكون علينا أن نبدأ كلّ شيءٍ من الصّفر. إلى أيّ وجهة؟ لا أدري.

وضع كريم قبضتَيْه على المكتب، وانحنى نحو النَّقيب.

- اتَّصل بالمحافظ هنري كروزييه بمركز شرطة «سارزاك». تثبَّت من أقوالي. داخل نطاق سلطتي أو خارجها، هذا لا يهمّ. قضيّتي مرتبطة بجرائم «غيرنون». أحد الضّحايا، فيليب سيرتيس، دنّسَ مقبرة «سارزاك» في اللّيلة الماضية، قبل وفاته بقليل.

ظهر الشَّكّ على وجه فيرمونت.

- اكتب تقريرًا، ضحايا يدنِّسون مقبرة، شرطيُّون قادمون من كلّ مكان يا للجنون. إن كنت تعتقد أن هذه القِصَّة ليست مُعقَّدة بما يكفي...

- لقد ضَرَب القاتل من جديد.

استدار كريم، ووجد نيمانز واقفًا في المدخل بوجهٍ غاضبٍ وملامح محبطة. فكَّرَ العربيُّ في تماثيل الأضرحة التي صادفها في السّاعات الأخيرة.

استأنف نيمانز:

- إيدموند شيرنيسيه، طبيب عيون في «آنيسي».

نظر إلى كريم، ثمّ إلى فيرمونت وأردف:

- خنقه بسلك، واقتلع العينَيْن واليدَيْن، السّلسلة متواصلة.

دفع فيرمونت مقعده ثمّ تذمّر:

- هذا ما قلناه لك... لقد أخبرك الجميع بـ...

- ماذا؟ ماذا قلتم لي؟ صرخ نيمانز.

- أنه قاتلٌ متسلسل، مجرمٌ مختلٌّ عقليًّا، على الطِّراز الأمريكيّ! عليك استخدام الأساليب المُتَّبعة هناك، الاتِّصال بالمختصّين، إعداد ملفٍّ نفسيّ... من أدراني؟ أنا، شرطيّ الرّيف، لا أعرف إلّا...

صرخ نيمانز:

- إنّها سلسلة، لكنه ليس قاتلًا متسلسلًا بالتعريف الأمريكيّ. إنّه ليس مجنونًا، إنّه بصدد الانتقام. لديه دافعٌ عقلانيٌّ يخصُّ ضحاياه. ثمّ صلةٌ بين الرّجال الثّلاثة تفسّر قتلهم! اللَّعنة! هذا ما يجب علينا معرفته.

لم يُجِب فيرمونت واستغلّ كريم صمته:

- حضرة المحافظ، اسمح لي...

- ليس الآن.

ملّس نيمانز معطفه بعصبيَّة في حركةٍ لا تتناسب مع مظهره القاسي. فأصرَّ كريم:

- لقد لاذت صوفي كايوا بالفرار.

اتَّجهت النّظرة الحادَّة إليه من وراء النّظارة.

- ماذا؟ لكنَّنا وضعنا رجلًا لـ...

- لم ينتبه إلى شيء. أظنّها ابتعدت الآن.

نظر نيمانز إلى كريم، مثل حيوانٍ غريبٍ هجين.

- ما هذه الفوضى الجديدة بحقِّ الجحيم؟ لماذا تهرب؟

- لأنّك كنت مُحِقًّا منذ البداية. الضَّحايا يخفون وراءهم سرًّا. وهذا السِّرّ مُتَّصل اتِّصالًا وثيقًا بجرائم القتل. هربت صوفي كايوا لأنها مُطَّلِعةٌ على هذا السِّرّ، ولأنها قد تكون الضَّحيَّة القادمة.

- اللَّعنة...

عدَّلَ نيمانز نظَّارته. فكَّرَ ثوانِيَ قليلةً، ثمّ أوْمَأَ بذقنه مُشجِّعًا كريم على مواصلة الكلام.

- لديَّ معطياتٌ جديدةٌ حضرة المحافظ. اكتشفت في منزل كايوا جملةً مكتوبةً بالدَّمّ على أحد الجدران تحمل توقيع «جوديت» وتتحدَّث عن «أنهار قرمزيّة». إن كنت تبحث عن قواسم مشتركة بين الضَّحايا سأقدِّم لك واحدًا بين كايوا وسيرتيس: جوديت.

فتاتي الصّغيرة، وجهي الممحوّ. دنّسَ سيرتيس قبرها، وتلقّى كايوا رسالةً مُوقّعة باسمها.

سار المحافظ نحو الباب.

- تعال معي.

وقف فيرمونت بغضب

- نعم هذا ما نحتاج إليه، اخرجا، واصلا لعبة ألغازِكُما!

دفع نيمانز بكريم إلى الخارج بينما واصل النَّقيب الصّراخ:

- لم تعُد جزءًا من التّحقيق يا نيمانز! لقد أُعفيت! هل تفهم ذلك؟ لم يَعُد لك أيّ وزن. أنت مجرَّد تيَّارٍ هوائيّ! لذلك يمكنك مواصلة الاستماع إلى هلوسات هذا الرّاستا... أحدهما منبوذٌ والآخر منحرف... يا له من فريقٍ رائع! أنا...

كان نيمانز قد دخل مكتبًا فارغًا على بُعد بضعة أمتار. أشعل الضّوء، وأغلق الباب مقاطعًا خطاب النَّقيب. ثمّ أشار إلى كريم بالجلوس، وقال ببساطة:

- كُلِّي آذانٌ صاغية.

44

ظلّ كريم واقفًا، وبدأ بنبرةٍ محمومةٍ:

- الجملة تقول حرفيًا: «سأصل إلى منبع الأنهار القرمزية». كانت منقوشةً بنصلٍ حادّ، وبحروفٍ من الدَّمّ. مشهدٌ كابوسيٌّ بامتياز. ولا سيَّما أن الجملة مُوقَّعة باسم جوديت. الأكيد أن المعنيَّة هي جوديت هيرو، اسم طفلة ماتت سنة 1982.

- لا أفهم شيئًا.

- ولا أنا. لكنّي أستطيع تخيُّل بعض الأحداث التي ميَّزت نهاية الأسبوع هذه.

أوْمَأَ نيمانز برأسه وهو يقف، فواصل كريم:

- القاتل يبطش أوَّلًا بريمي كايوا، لِنَقُل خلال يوم السّبت. ثمّ يشوِّه الجثّة ويُثبِّتها في المنحدر الصَّخريّ. لماذا كلّ هذا التّعقيد المسرحيّ؟ لا أدري. في الغد، يختار مكانًا في الحرم الجامعيّ لمراقبة كلّ حركات صوفي كايوا وسكناتها. في مرحلةٍ أولى لا تبرح صوفي مكانها. ثمّ تخرج، لِنَقُل خلال صباح الأحد. ربّما حاولت البحث عن زوجها في الجبال، لا أدري. في الأثناء، يقتحم القاتل شقّتها وينقش الجملة الدَّمويّة على جدارها كتوقيعٍ على جريمته. «سأصل إلى منبع الأنهار القرمزيّة».

- تابع.

- تعود صوفي كايوا إلى منزلها وتكتشف التّوقيع الدَّمويّ. لا بُدَّ أنها أدركت معنى الكلمات وفهمت أنّ شبح الماضي قد استيقظ وأنّ زوجها قُتِل. يصيبها الذُّعر فتنتهك سِرِّيّة الأمر وتتّصل بفيليب سيرتيس الذي كان شريك زوجها.

- لكن من أين تأتي بكلّ هذا؟

أجاب كريم بصوتٍ خفيضٍ:

- نظريّتي هي الآتية: كان كايوا وسيرتيس وصوفي أصدقاء طفولة، وارتكبوا فعلًا شائنًا خلال طفولتهم أو مراهقتهم، فعلًا يتعلَّق بعبارة «الأنهار القرمزيّة» وبعائلة جوديت.

- كريم، كما سبق وأخبرتك، في الثَّمانينيّات لم يكن عمر كايوا وسيرتيس يتجاوز العاشرة. كيف تتخيَّل أن...

- استمع لفكرتي حتّى النّهاية. بعد ذلك يصل فيليب سيرتيس إلى منزل كايوا ويرى هو أيضًا الجملة المنقوشة ويفهم معنى «الأنهار القرمزيّة» ويصاب بالهلع. لكنه يبدأ بالأهم، إخفاء الكلمات. أنا مُتأكِّد. رغم موت كايوا، رغم التهديد الموقّع باسم جوديت، لم يُفكِّر سيرتيس وصوفي تلك اللّحظة إلّا في محوِ آثار جريمتهم. يأتي الممرّض المساعد بورق الحائط الجديد ويلصقه فوق الجملة، لذلك تغمر رائحة الصّمغ الشّقّة.

التمعت عينا نيمانز، ففهم كريم أنّ المحافظ انتبه هو أيضًا إلى الرّائحة، أثناءَ استجواب الزّوجة حتمًا. تابع:

- طوال يوم الأحد، ينتظر الاثنان أو يحاولان البحث من جديد، مَن يدري. ثمّ تقرّر صوفي الإبلاغ عن اختفاء زوجها آخر فترة الظّهيرة، ويتزامن ذلك مع اكتشاف جثّته في المنحدر الصَّخريّ.

- هل لديك تتمّة لّلأحداث؟

- في ذلك المساء ينطلق سيرتيس نحو «سارزاك».

- لماذا؟

- لأنَّ قاتل ريمي كايوا وقَّعَ باسم جوديت التي ماتت ودُفنت قبل خمس عشرة سنة في «سارزاك». وسيرتيس يعرف ذلك.

- هذا صعب التَّصديق.

- ربّما. لكن فكِّر في الأمر، كان سيرتيس في مدينتي ليلة البارحة برفقة شريكٍ قد يكون الضَّحيَّة الثّالثة، شيرنيسيه. لقد فتّشا سجلّات المدرسة. ثمّ ذهبا إلى المقبرة وفتحا قبر جوديت. أين نذهب حين نبحث عن شخصٍ ميّت؟ إلى قبره طبعًا.

- واصل.

- لا أدري ماذا وجد سيرتيس ورفيقه في «سارزاك». لا أعرف إن كانا قد فتحا الكفن. لم تُتَح لي فرصة إجراء تفتيشٍ كاملٍ لّلقبر، لكنّي أظن أنّهما لم يجدا شيئًا مطمئِنًا، فعادا إلى «غيرنون» والخوف يغمرهما. تبًّا! هل يمكنك تخيُّل الأمر؟ شبح يستيقظ فجأةً ويشرع في التَّخلُّص من كلّ الذين آذوه.

- ليس لديك دليلٌ واحدٌ على صحَّة هذا التَّصوُّر.

تجاهل كريم الملاحظة.

- فجر الاثنين، بعد عودته، يفاجئ الشّبحُ سيرتيس وتقعُ جريمة القتل الثّانية، دون تعذيب. فالشّبح صار يعرف كلّ ما يريد معرفته. لم يتبقَّ له سوى إتمام انتقامه. يستقلّ قاطرة التليفريك ويصعد رفقة الجثّة إلى الجبل. كلّ شيءٍ مُعدّ عن سابق الإضمار والترصُّد. وكما ترك رسالةً في جسد ضحيّته الأولى، يترك أخرى مع الضَّحيَّة الثّانية. ولن يتوقف. أطروحتك عن الانتقام بصدد الانفجار في وجوهنا يا نيمانز.

جلس المحافظ مُطرِقًا برأسه وقد تصبّب عرقًا.

- الانتقام من ماذا؟ ومَن هو القاتل؟

- جوديت هيرو، أو بالأحرى شخصٌ يظنّ نفسه جوديت.

لزم المحافظ الصَّمت، واقترب منه كريم.

- لقد وجدتُ رفات سيلفان هيرو في محرقة الجثث الملحقة بالمقبرة. لم أعثر على شيءٍ مميَّزٍ في ما يتعلّق بحيثيّات وفاته، لقد دهسه سائقٌ مجنون. ربّما يُخفي موته أمرًا مريبًا، لا أعرف بعد. لكن رماده نفسه دلّني إلى خيطٍ جديد. ثمّة باقة زهورٍ أمام اللّوح التّذكاريّ الذي يحمل اسمه، باقةٌ جديدة. هل تعلم مَن يضع الزُّهور هناك كلَّ أسبوع طيلة السّنوات التي تلت موته؟ صوفي كايوا.

صار نيمانز يهزُّ رأسه نفيًا، كأنَّه مصابٌ بالدوار.

- وما هو التَّفسير الذي ستُتحِفُني به هذه المرَّة؟

- أظن أنها تفعل ذلك للتعبير عن ندمها أو شعورها بالذّنب.

لم يُجِب نيمانز. هتف كريم:

- اللَّعنة! القصّة متكاملة! لا أتخيَّل أنَّ صوفي كايوا مذنبةٌ حقًّا، لكنّها تتقاسمُ السِّرّ مع زوجها، سرًّا واصلت إخفاءَه حبًّا أو خوفًا أو لسببٍ آخر. لكنها في الخفاء كـــــانت تضع

وورودًا أمام رماد سيلفان هيرو، احترامًا للعائلة الصَّغيرة التي حطّمها حبيبها.

جثَا كريم على ركبتَيْه قرب المحافظ.

- نيمانز، فكِّر في الأمر. ظهرت جثَّة زوجها للتوِّ. من الواضح أنَّ جريمة القتل الموقّعة باسم جوديت هي انتقام للفتاة الصَّغيرة المتوفّاة. ومع هذا، ذهبت المرأة اليوم لوضع زهور على رفات الأب. جرائم القتل هذه لا تثير كره صوفي كايوا، بل توقظ ذكرياتها وندمها. اللَّعنة! نيمانز، أنا واثق أنَّني على حقّ. قبل أن تلوذ بالفرار، أرادت صوفي إهداء عائلة هيرو تكريمًا أخيرًا..

لم يُجِب نيمانز. عمّقَ التَّفكير تجاعيد وجهه حتّى صارت ملامحه محفورةً كالأخاديد. امتدَّت الثّواني واستطالت إلى أن فقد كريم صبره، فنهض وتابع بصوتٍ أجشّ:

- نيمانز، لقد قرأتُ بتمعُّن ملفّ تحقيقك، وأستطيع التَّأكيد أن فيه مؤشّرات وتفاصيل أخرى تحيل على جوديت هيرو.

تنهَّدَ المحافظ:

- تفضل، سأصغي إليك. لا أدري ما الذي سأجنيه من وراء قصصك الغريبة لكنّي بصدد الإصغاء.

- في ملفّك، يبدو أنك لا تملك سوى حقيقة واحدة مطلقة عن القاتل، مهارته في تسلُّق الجبال. وماذا كانت مهنة سيلفان هيرو؟ منقّبٌ عن الكريستال. كان يمسح الجبل لاقتلاع البلّورات من الصّخر. كان مُتسلِّقًا لا يُشَقُّ له غبار. لقد قضّى كلّ حياته بين سفوح المنحدرات وقمم الأنهار الجليديّة، أي في أمكنة تشبه تلك التي وُجِدَت فيها الجثّتان الأولى والثّانية.

- مثله مثل مئات المتسلّقين المتمرّسين في المنطقة. هل هذا كلّ ما لديك؟

- كلّا. لا تنسَ النَّار.

- النّار؟

- لقد لاحظت تفصيلًا صغيرًا في تقرير الطِّبّ الشرعيّ الأوَّل. ملاحظة غريبة، ما فتئت تتردَّد في عقلي منذ قرأتها. حملت جثّة ريمي كايوا آثار حروق. كتب كوست أنَّ القاتل رشّ البنزين على جروح ضحيّته. تحدّث عن مرشٍّ تقليديّ، قد يكون من طراز كارشر.

- وماذا في ذلك؟

- في الواقع ثمّة احتمال آخر. ماذا لو كان القاتل نافخ نارٍ محترفًا رشَّ البنزين من فمه على جسم كايوا.

- لقد أضعْتَني.

- لأنك تجهل جزئيّةً مهمّة. كانت جوديت هيرو تتقن نفخَ النَّار. إنّه أمرٌ لا يُصَدَّق لكنّها الحقيقة. لقد التقيتُ برجل استعراض أثناء تحقيقي ولك أن تراهن أنّه علّمها تلك الممارسة قبل أسابيع من وفاتها، استجابةً لطلبها. أرادت استعمال تلك المهارة كسلاح، لتحمي والدتها.

دلَّكَ نيمانز رقبته.

- بحق السّماء، كريم. جوديت ماتت وشبعت موتًا.

- ثمّة إشارة أخيرة يا حضرة المحافظ. خيطٌ أكثر غموضًا لكنه قد يكون منسجمًا مع كلّ العناصر المتداخلة. في تقرير تشريح الجثَّة الأولى، كتب الطَّبيب الشَّرعيّ عن طريقة الخنق «سلك معدنيّ، مثل الأسلاك المستعملة في المكابح أو في آلة البيانو». هل قُتِل سيرتيس بالطريقة نفسها؟

أوْمَأَ المحافظ بالإيجاب، فواصل كريم:

- قد تكون معلومةً غير مُهمَّة، لكنّ فابيان هيرو كانت عازفة بيانو، عازفةً موهوبةً جدًّا. تخيَّل وهلةً أن سلاح الجريمة المستعمل في الجرائم الثّلاث هو فعلًا سلك بيانو. ألا يمكن أن يكون رابطًا رمزيًّا؟ خيطًا حقيقيًّا يربط الحاضر بالماضي؟

وقف نيمانز هذه المرَّة صارخًا:

- ماذا تعني بحقِّ الجحيم؟ عَمَّ نبحث؟ عن شبح؟

غاص كريم وسط سترته الجلدية، مثل طفل مرتبك:

- لا أدري.

- هل اشتبهت بالأم؟

- طبعًا، لكنها ليست الفاعلة. (خفض صوته). أصغِ إليَّ حضرة المحافظ، هذا مسك الختام. أثناء زيارتي إلى منزل كايوا، فاجأني الشبح. رأيته وطاردته لكنّه أفلت مني.

- ماذا؟

ابتسم كريم في مرارة:

- أنا خجل من نفسي.

- صفه لي.

- بالأحرى «صفها»، فهي امرأة. رأيتُ يدَيْها وشعرت بأنفاسها. ليس لديَّ أدنى شك. طولها متر وسبعون سنتمترًا تقريبًا. بدت قويَّةَ البنية، لكنها ليست أمّ جوديت. الأمُّ عملاقة حقيقيَّة يفوق طولها المتر والثمانين، مع كتفَيْ سبّاح محترف. اتَّفقت كلّ الشهادات على هذه النقطة.

- إذن من تُراها تكون؟

- لا أدري. كانت ترتدي معطفًا أسود وخوذة درّاج ولثامًا على الوجه. هذا كلّ ما رأيته.

- يجب تقديم صفاتها لاستخراج مُذكِّرة بحث.

- أيّ صفات؟ سائقة درّاجة ليليّة؟ (ابتسم بدهاء) ربّما أملك شيئًا أفضل.

أخرج مُسدَّسه المغلف في كيسٍ شفّاف:

- بصماتها.

- هل أمسكت مسدّسك؟

- بل أفرغت كلّ خزّان الرّصاص فوق رأسي بسنتمتراتٍ قليلة. إنّها قاتلةٌ من طرازٍ خاصٍّ يا حضرة المحافظ. فهي تتولّى عمليَّة انتقامٍ مجنونة، لكنّي متأكد أنها لا تريد إيذاء أحد باستثناء فرائسها.

فتح نيمانز الباب بعنف:

- اصعد إلى الطّابق الأول. قدِم رجال الشُّرطة القضائيَّة بمقارن بصماتٍ من أحدث طراز، مُتَّصلٌ مباشرةً بقاعدة البيانات، لكنهم يجهلون كيفيَّة استخدامه. أحد رجال الشُّرطة العلميّة بصدد مساعدتهم: باتريك آستييه. اذهب لرؤيته، لا بُدَّ أنّه برفقة مارك كوست الطَّبيب الشَّرعيّ. الاثنان يساندانني. اشرح لهما الأمر على حِدة وقارنوا البصمات التي تملكها بالبصمات المُسجَّلة في قاعدة البيانات.

- وإذا لم نحصل على نتيجة؟

- عندها تبحث عن الأمّ وتجدها. شهادتها ستكون حاسمة.

- أنا أبحث عن هذه المرأة منذ أكثر من عشرين ساعة. إنها تختبى وهي تجيد الاختباء.

- عُد إلى النقطة الصّفر، وأعد دراسة كلّ العناصر. ربّما لم تنتبه إلى أحد التّفاصيل.

- لقد درست كلّ التَّفاصيل بانتباه. لم أسْهُ عن شيء.

- بلى. هذا ما قلته لي بنفسك. تابوت الفتاة الصَّغيرة في بلدتك في حَالَةً ممتازة. أحدهم يعتني به بانتظام. مَن يا ترى؟ ليست صوفي كايوا بالتّأكيد. أجب إذن عن هذا السؤال، وستجد الأمّ.

- لقد استجوبتُ الحارس. لم...

- ربَّما لم تكن تأتي بنفسها. ربّما كلّفت متعهّد دفن، لا أدري. جِدها يا كريم على أيَّةِ حال، يجب أن تعود إلى هناك لتفتح تابوت الصّغيرة.

ارتجف الشرطيُّ العربيُّ:

- أفتحُ...

- علينا معرفة ما بحث عنه مقتحمو المقبرة، أو ما عثروا عليه. ستجد أيضًا رقم متعهّد الدّفن على النّعش (غمزةُ غمزةً مخيفة) النّعش مثل القميص، توضع العلامة التِّجاريّة بالدّاخل.

ازدرد كريم لعابه بصعوبة. واعتصر الخوفُ قلبه بمجرد التَّفكير في العودة إلى المقبرة ليلًا والنّزول إلى التَّابوت من جديد. لكن نيمانز واصل بنبرةٍ لا تقبل النّقاش:

- البصمات أوَّلًا، ثمّ المقبرة. يجب أن نحلّ هذه القضيَّة قبل بزوغ الفجر. أنا وأنت كريم، ولا أحد غيرنا. بعد ذلك، نعود إلى مراكز عملنا ونسلّم تقاريرنا.

- ماذا عنك؟

- أنا؟ سألاحق منبع الأنهار القرمزيّة، على خطى ملازمي السابق إريك جوانو، فهو الوحيد الذي اكتشف جزءًا من الحقيقة.

- السّابق؟

- قتله شيرنيسيه قبل أن يلقى حتفه على يد قاتلنا، أو قاتلتنا. وجدتُ جسد الشُّرطيّ عائمًا وسط الأحماض الكيمياويّة في قبو الطَّبيب. شيرنيسيه وكايوا وسيرتيس كانوا أوغادًا يا كريم. أنا واثق من هذا. وأظنّ أنّ جوانو اكتشف شيئًا في هذا الاتّجاه، وهو ما تسبَّبَ في موته. اعثر على القاتل، سأعثر على دوافعه. جد مَن يختبئ وراء شبح جوديت، وسأجد معنى الأنهار القرمزيّة.

اندفع الرّجلان في الممرّ، متجاهلَيْن تمامًا رجال الشُّرطة الآخرين.

45

- نحن في طريقٍ مسدودة. طريقٍ مسدودة يا رفاق...

- على أيَّةِ حال لا نملك أيّ بصمةٍ لأيّ مشتبهٍ به...

وقف عدد من رجال الشُّرطة بوجوهٍ متجهِّمة في مدخل الغرفة الصَّغيرة متأمّلين الحاسوب المتّصل بماسحٍ ضوئيٍّ ومكبّرة عملاقة.

داخل الغرفة، جلس رجلٌ أشقر طويلٌ بعينَيْن جاحظتَيْن قبالة الشَّاشة وهو يغيّر إعدادات برنامج حاسوبيّ مختصّ. إنّه باتريك آستييه بشحمه ولحمه. وقف بجانبه رجلٌ أسود الشّعر محني الظّهر يختفي نصف وجهه خلف نظَّارة ضخمة، مارك كوست.

غادر رجالُ الشُّرطة المكانَ متذمّرين من عدم جدوى التّقنيات الحديثة، دون أن يلقوا بالًا لكريم، وكان ينتظر ابتعادهم كي يقترب ويُقدِّم نفسه لآستييه وكوست. لم يحتج الثّلاثة إلى تبادل أكثر من بضع كلمات حتّى يدركوا مدى اتّفاقهم. كان ثلاثتهم شبّانًا شغوفين بعملهم ومستعدّين لتجاهل كلّ مخاوفهم الشّخصيّة من أجل هذا التّحقيق. عندما شرح الشُّرطيُّ العربيُّ سبب وجوده، لم يتمالك آستييه نفسه وقال بحماس:

- يا للسماء! بصمات القاتل يا رجل! سنضعها فورًا في برنامج المقارنة.

- هل يعمل البرنامج كما ينبغي؟ ظننت...

- طبعًا يعمل بكفاءة، هؤلاء الحمقى هم الذين لا يعملون كما ينبغي.

فتح آستييه حقيبة معدنيَّة صغيرة تحتوي على معدّات رفع البصمات وآثار الأقدام وأخرج منها فرشاةً مغناطيسيّة. ارتدى قفّازَيْن مطّاطيَّيْن، ثمّ غمس الفرشاة في وعاء من

أوكسيد الحديد فالتصقت الجزيئات المعدنيّة على الفور في شعيرات الفرشاة مُشكِّلةً كريّةً ورديّة.

أمسك آستييه المسدّس الذي جلبه كريم ومرَّرَ الفرشاة فوق مقبضه، ثمّ غلّف السِّلاح بشريطٍ لاصقٍ شفَّافٍ قبل أن ينتزعه ويعيد إلصاقه فوق محملٍ من الورق المقوّى. عندئذٍ ظهرت نتوءات الإصبع وأخاديده بلونٍ فضِّيٍّ لامعٍ تحت الشّريط اللّاصق.

- رائعة! همس آستييه.

وضع الورقة فوق الماسح الضوئيّ، ثمّ جلس من جديد أمام الحاسوب ضاغطًا على بضع مفاتيح لتظهر البصمات بوضوحٍ وسط الشاشة.

- إنَّها بصماتٌ من جودة عالية. نستطيع معالجة واحدٍ وعشرين نقطة، وهو العدد الأقصى...

فوق صورة البصمة، ظهرت نقاطٌ حمراءُ قانيةٌ مُتَّصلة في ما بينها بخطوطٍ مستقيمةٍ مُطلِقةً إشاراتٍ صوتيَّةً صاخبة.

- لنر ماذا سيعطينا مورفو MORPHO برنامج المقارنة مع البصمات المُخزَّنة لدينا.

هذه المرة الأولى التي يشهد فيها كريم بأمّ عينَيْه عمل هذا النّظام. كان آستييه يضيف تعليقاتٍ مُتفرِّقةً بنبرة أستاذٍ محاضر. مورفو هي قاعدة بياناتٍ عملاقة تخزّن بصمات المجرمين في أغلب الدّول الأوروبيّة. كان البرنامج قادرًا على مقارنة أيّ بصمة جديدة في وقتٍ شبه قياسيّ. بعد الأزيز المتواصل للأقراص الصّلبة، أفضى الحاسوب بإجابته القاسية: نتيجة سلبيّة. لم تكن بصمات «الظِّلّ». متطابقةً مع أيّ مجرمٍ معروف. تنهَّدَ كريم. لم تفاجئه هذه النتيجة، لم تكن المشتبه بها مجرمةً عاديّة.

فجأةً خطرت لكريم فكرة أخرى، ورقة الجوكر. أخرج من سترته الجلديّة البطاقة التي تحمل بصمات جوديت هيرو، لقد وجدها في ملفّ حادث السَّيّارة الذي أودى بحياتها قبل أربع عشرة سنة. قال لآستييه:

- هل تستطيع مسح هذه البصمات ومقارنتها أيضًا.

- طبعًا.

ألقى المهندس نظرةً على النّتوءات والحلقات الجديدة وانغمس في التَّفكير ثوانِيَ قبل أن يسأل:

- من أين أتيت بهذه البصمات؟

- من محطة استخلاصٍ في طريق سيّارة. إنها لفتاةٍ صغيرةٍ فارقت الحياة في حادث مرور سنة 1982. مَن يدري؟ ربما هناك شبه أو...

قاطعه آستييه:

- لا أظن أنها فارقت الحياة.

- ماذا؟

أدخل البطاقة تحت المكبّرة ونظر إلى الخطوط اللّامعة.

- لا أحتاج إلى برنامج الحاسوب لأعرف أنها تنتمي إلى اليد نفسها التي لمست المسدّس. شكل الدّوائر نفسه، الخطوط العموديّة والأفقيّة نفسها. مواضع البصمة الدّقيقة نفسها. إنّه حتمًا الشَّخص نفسه.

شعر كريم بالدّوار. قرَّبَ باتريك آستييه الصُّورة المكبّرة من شاشة الحاسوب، فظهرت البصمتان متجاورتَيْن.

- البصمة نفسها، في عمرَيْن مختلفَيْن. تحمل بطاقتك بصمة الطّفولة، ويحمل مقبض المسدّس بصمة سنّ الرّشد.

حدَّقَ كريم في البصمتَيْن مُحاوِلًا إقناع نفسه بالمستحيل.

جوديت هيرو توفِّيت سنة 1982 وسط سيَّارة مُهشَّمة.

جوديت هيرو أفرغت للتَّوِّ خزّان مُسدَّسه فوق رأسه.

جوديت هيرو ميّتةٌ وحيّةٌ في الوقت نفسه، مثل قطّ شرودينغر، لكنها غادرت العلبة لتكتسح واقعه.

46

حان الوقت للاستعانة برفاقه القدامى.

عرف كريم فابريس موسّيه، نابغة الشُّرطة العلميّة بباريس المختصّ في البصمات الجينيّة، أثناء عمله على قضيَّة مُعقَّدة اعترضته خلال فترة تربّصه بمحافظة الدائرة الرّابعة عشرة، شارع ماين. كان عبقرِيًّا يستطيع التّفريق بين توأمَيْن متماثلَيْن فقط من خلال النَّظَرِ إلى بصمات أصابعهما.

- موسّيه؟ هنا عبدوف، كريم عبدوف.

- كيف الحال؟ أمازلت مطمورًا في تلك الحفرة؟

كان صوته دافئًا، بعيدًا كلّ البعد عن الكابوس الرّاهن.

- ما زلتُ، لكنَّني أتجوّل بين حفرةٍ وأخرى.

انفجر ضاحكًا.

- مثل حيوان الخُلد؟

- مثل حيوان الخُلد. سأعرض عليك لغزًا يبدو حلُّه مستحيلًا، وستعطيني رأيك بصفة غير رسميّة، وفي الإبّان. هل أنت موافق؟

- هل تجري تحقيقًا؟ لا مشكل لديَّ.

- لديَّ بصمتان متطابقتان. الأولى لفتاةٍ صغيرةٍ متوفّاة منذ أربع عشرة سنة، والثانية لمشتبهٍ بها مجهولة الهويّة في قضيَّة اليوم. ما رأيك؟

- هل أنت واثقٌ من موت الفتاة الصّغيرة؟

- كلّ الثّقة. لقد استجوبتُ الرّجل الذي وضع أصابع الجثّة بنفسه فوق لوح التّحبير لأخذ بصمتها.

- إذن وقع خطأٌ إجرائيّ. ارتكب أحدهم خطأً خلال رفع البصمات في مسرح الجريمة. لا يمكن بأيَّة حال من الأحوال أن يحمل شخصان مختلفان بصمة الإصبع نفسها. هذا مستحيل.

- ماذا عن الأقارب أو الإخوة؟ التّوائم مثلًا؟ أذكر أنّ...

- وحدها بصمات التّوائم المتماثلة -أحاديّة البويضة- تحمل نقاط تشابه. قوانين الوراثة شديدة التّعقيد، توجد آلاف العناصر التي تؤثِّر على الشّكل النِّهائيّ لحلقات الأصابع ونتوءاتها. وهذا الشّكل يرافقنا طيلة حياتنا، لهذا أكرّر وأعيد، لا يوجد شخصان لديهما بصمات الأصابع نفسها و...

قاطعه كريم:

- هل لديك جهاز فاكس في منزلك؟

- لستُ في منزلي، مازلت في المخبر، (تنهّد). لا أحد يشفق على رجال العلم.

- هل أستطيع إرسال البصمات لتلقي عليها نظرة؟

- لن يغيّر هذا شيئًا.

لزم كريم الصّمت. تنهَّدَ موسيه ثانيةً.

- حسنًا، سأقف حذوَ الجهاز. أعِد الاتِّصال بي فور إرسالها.

غادر كريم المكتب الصَّغير المعزول لاستخدام الفاكس، ثمّ عاد بسرعة وضغط زر إعادة الاتّصال..

- مذهل! تمتم موسّيه. هل أنت واثقٌ من موت صاحبة البصمة الأولى؟ واثقٌ كلّ الثّقة؟

استرجع كريم صوَر الحادث في ذهنه. الأطراف الهزيلة الطُّفوليّة البارزة من الهيكل المعدنيّ المهشّم. وجه عون المرور العجوز الذي احتفظ بالملف والبصمات.

- كلّ الثقة. أجاب.

حدث خلطٌ مّا، في الهويّات، في رفع البصمات، في إجراءٍ مّا. لن تكون المرّة الأولى ولا الأخيرة. نحن...

- يبدو أنك لم تفهمني جيِّدًا. لا تهمّني الهويّات المُسجَّلة في الوثائق الإداريّة، ولا الأسماء ولا الأوراق. ما أقوله لك الآن هو أن يد الطّفلة المهشّمة تحمل بصمات اليد نفسها التي أمسكت مسدّسي ليلة أمس. فقط، اللَّعنة! لا تهمّني هويّتها الرّسمية! إنها ببساطةٍ اليد نفسها!

أجابه الصَّمت في الطَّرف الآخر من الخطّ. أغمض عينيه لحظاتٍ، ثمّ فتحهما عندما انفجر موسّيه ضاحِكًا:

- لغزك مستحيل. هذا كلّ ما يمكنني قوله.

- لقد عرفتك أشدَّ إصرارًا. لا بُدَّ من وجود تفسيرٍ منطقيّ.

- يوجد دومًا تفسيرٌ منطقيّ، وأنا واثقٌ أنَّك ستجده. اتَّصل بي عندما تحلّ قضيّتك، أحب القصص التي تنتهي بنهاياتٍ سعيدة، وبحلولٍ منطقيّة.

وعده كريم بذلك، ثمّ أقفل الخطّ وكلُّ داراته العصبيّة تدور في الفراغ.

التقى من جديدٍ بمارك كوست وباتريك آستييه في البهو. كان الطَّبيب الشَّرعيّ يحمل محفظةً جلديَّةً ووجهًا شاحبًا.

- أنا ذاهبٌ إلى مستشفى «آنيسي». (قال وهو ينظر إلى مرافقه). لقد.. هناك جثّتان بانتظارنا. اللَّعنة! الشُّرطيُّ الشَّابّ... إريك جوانو.. صار أحد الضّحايا. هذه ليست قضيّة، بل مجزرة.

- أنا على علمٍ بموته. كم سيستغرق الأمر؟

- حتّى الفجر على الأقل. يوجد طبيبٌ شرعيٌّ ثانٍ على عين المكان. لقد توسَّع نطاق هذه القضيَّة اللَّعينة.

تأمَّلَ كريم ملامح الطَّبيب الطُّفولية والمذعورة. كان الرَّجل خائفًا، لكن وجوده معه هدَّأ قليلًا من روعه.

- كوست، خطرت لي فكرة وأريد أن أسألك عن تفصيلٍ صغير.

- تفضّل.

- في تقريرك الأوّل عن أداة الجريمة، تحدَّثتَ عن سلك فرامل أو سلك بيانو، هل تعتقد أنّه السّلك نفسه الذي قتل سيرتيس؟

- نعم، السُّمك نفسه، الألياف نفسها.

- إن كان حقًّا سلك بيانو، هل يمكنك استنتاج النّوتة الموسيقيّة؟

- النّوتة؟

- نعم. عند قيس قطر السّلك هل يمكنك معرفة النوتة التي تقابله على السُّلَّم الموسيقيّ؟

ابتسم كوست بعدم تصديق:

- أنا أملك القياس. هل تريد أن...

- أنت أو أحد مساعديك. لكن تلك النّوتة تثير فضولي.

- هل لديك طرف خيطٍ مّا؟

- لا أدري.

حرَّكَ الطَّبيب نظَّارته.

- كيف يمكنني الاتِّصال بك؟ هل لديك هاتف خلويّ؟

- لا.

- بلى.

قالها آستييه وهو يضع هاتفًا جوّالًا صغير الحجم في يدِ كريم. لم يفهم كريم، فابتسم المهندس:

- أملك هاتفَيْن، وأظن أنك ستحتاج إليه في السّاعات القادمة.

سجَّل كوست الرّقم، وغادر مسرعًا. والتفت كريم إلى آستييه:

- ماذا عنك؟ ماذا ستفعل الآن؟

- لا شيء يُذكر. لم يَعُد لديّ ما أطعمه لأجهزتي..

عرض كريم على المهندس مساعدته في تحقيقه وتكليفه بمهمَّتَيْن.

- مهمّتان فقط؟ (كرّر آستييه بحماس). قدر ما تريد يا رجل.

- المهمَّة الأولى، مراجعة سجلّات الولادة في المستشفى الجامعيّ بـ «غيرنون».

- عمّ سأبحث؟

- عن تاريخ 23 ماي 1972. ستجد اسم جوديت هيرو. ابحث عن أخٍ أو أختٍ توأم.

- الطّفلة صاحبة البصمة؟

- بشحمها ولحمها.

- هل تبحث عن طفلٍ آخر قد يحمل البصمات نفسها؟

قال كريم بابتسامةٍ محرجة:

- أنا أعرف أنَّ الأمر لا يستقيم علميًّا، لكني أريد منك أن تتثبَّت من الأمر.

- ماذا عن المهمَّة الثّانية؟

- فارق أبو الطّفلة الحياة في حادث سيّارة.

- هو أيضًا؟

- نعم، هو أيضًا. لكنّه كان يقود درّاجة. أوت 1980. اسمه سيلفان هيرو. ابحث هنا، في أرشيف الجندرمة. أنا واثق أنك ستجد الملفّ.

- وعمّ أبحث؟

- الملابسات الدّقيقة للحادث. لقد دهسه سائق شاحنة، ثمّ لاذ بالفرار. ادرس كلّ التّفاصيل. ربّما تجد شيئًا غريبًا.

- شيئًا مثل حادثٍ متعمّد؟

- شيئًا من هذا القبيل.

عندما أوشك على الخروج، استوقفه صوت آستييه.

- ماذا عنك؟ أين تذهب؟

استدار بخفَّة وبسخريّة من سيواجه كابوسًا في اللّحظات المقبِلة:

- أنا؟ سأعود إلى خانة الانطلاق.

47

كان معهد فاقدي البصر بنايةً ناصعة. لم يكن باهتًا مثل منازل «غيرنون»، بل مشعًّا تحت زخَّات المطر في سفح الكتلة الجبليّة «البحيرات السّبع».

كانت السَّاعة تُشير إلى الثّانية صباحًا والمكان غارقًا في ظلامٍ دامسٍ عندما تقدَّمَ نيمانز نحو البوابة. رغم الأضواء المطفأة، قرع الجرس وهو يجول بنظره في أرجاء البناية. لمح لاقطات ضوئيّة مُثبَّتة في أعمدة على السور. لا شكَّ أن الخيوط المتشابكة جهازُ إنذارٍ مُعَدٌّ لا للصوص محتملين بل لمنع المكفوفين من الابتعاد.

قرع نيمانز الجرس مجدَّدًا. ففتح البوابة هذه المرة حارسٌ مشدوهٌ، واستمع لشرحه وهو شبه نائم، ثمّ أدخله إلى قاعةٍ شاسعةٍ وذهب لإيقاظ المدير.

كانت إضاءة القاعة تقتصر على مصباح بهو الدّخول. أربعة جدران بيضاء، أرضيّة عارية بيضاء أيضًا، سُلَّم مزدوج يرتفع في شكلٍ هرميٍّ بحواجز خشبيّة بسيطة، نوافذ زجاجيّة بلا مقابض تطلُّ على الجبال في الخارج. كان المكان أشبه بيمارستان عصريّ.

لاحظ نيمانز وجودَ لاقطات ضوئيّة أخرى. يتحرَّك المكفوفون إذن في فضاءٍ مُسيَّج على الدّوام. ارتسمت الأمطار اللّامتناهية على الأسوار. كان المكان عابقًا برائحة الإسمنت ومفتقرًا إلى الحرارة أشدَّ الافتقار.

بعد بضع خطواتٍ شدّت لوحاتٌ تشكيليّةٌ غامضةٌ انتباهه. من بعيد، تشبه الرّسوم معادلات رياضيّة معقّدة، أما عن قربٍ فتتضّح معالم وجوهٍ مسكونةٍ بالألم. استغرب المحافظ وجود ورشة رسمٍ في مركزٍ خاصٍّ بالأطفال الفاقدي البصر. أحسَّ خاصّة

بارتياحٍ عميقٍ يغزو كلّ خلايا جسمه. منذ وصوله لم يسمع نباحًا أو أيّ صوتٍ يوحي بوجود حيوانات. هل يمكن ألّا يأوي مركز للمكفوفين كلابًا؟

دوًى وقع الخطوات على الرّخام الأبيض، لهذا كانت الأرضيّة عارية. كانت هندسة المكان صوتيّة، مُصمَّمة بحيث يصبح كلّ صوتٍ علامةً يهتدي بها المقيمون. استدار، ووجد رجلًا بادي الحيويّة يشبه البطريرك بلحيته البيضاء ووجنتَيْه الحمراوَيْن وعينَيْه اليقظتَيْن رغم النّعاس. شكَّلَ نيمانز انطباعًا إيجابيًّا عن الرَّجل فور رؤيته، يبدو جديرًا بالثقة.

- أنا الدّكتور شامبلاز، مدير المعهد. (قال بصوتٍ هادئ). ماذا تريد في هذه السَّاعة المتأخّرة؟

أخرج نيمانز بطاقته المهنيّة الثُّلاثيّة الألوان.

- محافظ الشُّرطة أوّل بيير نيمانز. قدومي في هذه السَّاعة مرتبطٌ بجرائم القتل التي حدثت في «غيرنون».

- مرَّةً أخرى؟

- نعم، مرَّةً أخرى. وأريد بالمناسبة استجوابك حول زيارة زميلي، الملازم إريك جوانو. أظنّ أنّك مددتَه بمعلوماتٍ مصيريّة في سير التّحقيق.

بدا شامبلاز منزعجًا. حدَّقَ في السِّلاح والأصفاد المعلّقة في حزام الشُّرطيّ، ثمّ رفع رأسه.

- يا إلهي! لقد اكتفيت بالإجابة عن أسئلته.

- قادته إجاباتك نحو إدموند شيرنسيه.

- نعم طبعًا، ثمّ ماذا؟

- ثمّ مات كلاهما.

- ماذا؟ كيف؟ مستحيل! لقد...

- عذرًا، لا أملك وقتا للشّرح. كلّ ما أوده منك هو أن تُعيد على مسمعي كلّ ما قلته لزميلي بالتّفصيل. أنت تملك حتمًا دون علمك معطياتٍ في غاية الأهمِّيّة.

- لكن ماذا تريدني أن...

سكت الرَّجل فجأةً، وفرك يدَيْهِ في حركةٍ عصبيّة:

- حسنًا، من الأفضل أن أستيقظ تمامًا، أليس كذلك؟

- أظن ذلك.

- هل ترغب في بعض القهوة؟

وافق نيمانز، واقتفى خطى البطريرك في رواقٍ تتخلّله نوافذ عالية. كان البرق يضيئهما بوهجٍ مباغتٍ ثمّ يتركهما للظّلام الّذي لا تخرقه سوى خيوط المطر.

شعر المحافظ أنّه يعبر غابةً من الأغصان الفسفوريّة. رأى رسومًا أخرى مُعلَّقةً على الجدران قبالة النّوافذ. مشاهد طبيعيَّة هذه المرَّة. رأى جبالًا بخطوطٍ فوضويّة، وأنهارًا ملوّنة بألوانٍ فاتحة، وحيواناتٍ عملاقة بحراشف خشنة وأعمدة فقريّةٍ طويلةٍ تنتمي لحقبة التّاريخ الحجريّ، حقبة كان فيها الإنسان صغيرًا، بل مجهريًّا.

- ظننت أنَّ المركز لا يأوي إلَّا الأطفال المكفوفين.

اقترب المدير.

- نحن نعالج كلّ أمراض العيون.

- مثل؟

أشارالرّجل بأصابعه الضَّخمة إلى إحدى اللّوحات:

- هذه الرّسوم غريبة. لا يرى أطفالنا العالم مثلما نراه أنا وأنت. الواقع، واقعهم، مختلفٌ عن المشاهد الحقيقيَّة وحتى عن رسومهم. هو يقبع في عقولهم. وحدهم مرضانا يعرفون ما أرادوا رسمه. نحن لا نملك سوى التّخمين، عبر لوحاتهم، بنظرنا العاديّ. هذا يثير الاضطراب، أليس كذلك؟

لم يستطع نيمانز إبعاد نظره عن الرّسوم، وكأنها تمارس عليه نوعًا من التّنويم المغناطيسيّ. حدودٌ سميكةٌ ملطّخة، ألوانٌ صارخةٌ متدفّقةٌ عنيفة مثل ساحة حربٍ بين الخطوط والدّرجات ينبعث منها رغم ذلك شيءٌ من الرّقة، كموسيقى الأناشيد القديمة الحزينة.

ربَّتَ الرَّجل على ظهره.

- تعال. سيعدّل قدح القهوة مزاجك. لا تبدو في أفضل حالاتك.

ولجَا مطبخًا شاسعًا كلّ أثاثه ومعدّاته من الفولاذ المضادّ للصّدأ وهو ما ذكَّرَ نيمانز بجدران المشرحة أو غرفة الموتى.

ملأ المدير قدحَيْن من القهوة، وقدّم أحدهما للشُّرطيّ قبل أن يجلس إلى إحدى الطّاولات المعدنيّة. فكَّرَ نيمانز في الجثث، في وجهَيْ كايوا وسيرتيس. المحجران الفارغان، الدّاكنان، مثل ثقوب سوداء تحمل المجهول.

قال شامبلاز بنبرةِ اندهاشٍ:

- لا أستطيع التَّصديق. مات الرّجلان.. لكن كيف؟

تجاهل نيمانز السّؤال.

- ماذا قلت لجوانو؟

هزَّ الطَّبيب كتفَيْه وهو يُحرِّك القهوة:

- لقد سألني عن الأمراض التي نعالجها هنا، وأجبته أنها في أغلب الحالات أمراض وراثيّة، وأنَّ معظم مرضانا أصيلو «غيرنون».

- هل طرح أسئلةً أكثر دقّة؟

- نعم. سألني كيف نصاب بهذه الأمراض، فشرحت له باقتضابٍ نظام الجينات المتنحّية.

- أنا أسمعك.

تنهَّدَ المدير، ثمّ قال دون حنق:

- الأمر بسيط. ثمّة جيناتٌ حاملةٌ للأمراض، جيناتٌ معطوبة، مثل أخطاء إنشائيّة وسط النّظام، نحمل كلّنا مثلها، لكن وجودها لحسن الحظّ لا يكفي لظهور المرض. في المقابل، تتدهور الأمور إن حمل الوالدان الجينة نفسها. في هذه الحالة يمكن للمرض أن يظهر لدى أطفالهما. تلتحم الجينات وتنقل المرض، الذّكر والأنثى، مثل قابسٍ ومقبسٍ يلتصقان لينقلا الكهرباء، هل تفهمني؟ لهذا نقول إنَّ زواج الأقارب يفسد الدّم. بمعنى أنَّ خطر نقل مرض وراثيّ إلى الأبناء يزداد كثيرًا حين يكون الوالدان من العائلة نفسها، لأن كليهما قد يكون حاملًا للجينات المتنحّية نفسها دون علمه.

أردف نيمانز:

- إذن ترتبط الأمراض الوراثيّة في «غيرنون» بزواج الأقارب؟

- بلا أدنى شكّ. أطفالٌ كثيرون من مرضى المركز، مقيمون كانُوا أو خارجيّين، هم أصيلو بلدة «غيرنون»، من عائلات أساتذة وباحثي الجامعة على وجه الخصوص، يُشكِّلون مجتمعًا مُصغَّرًا مُنغلِقًا ومعزولًا.

عقد شامبلاز ذراعَيْه:

- يوجد تقليدٌ قديمٌ جدًّا في «غيرنون». تعود الكُلِّيّة إلى القرن السّابع عشر، وأُسِّست في شراكة مع السّويسريّين. كانت تقع وسط مباني المستشفى. باختصار، منذ ثلاثة قرون والأساتذة والباحثون يعيشون معًا ويتزوّج بعضهم من بعض. لا شكَّ أن سلالاتهم متفوّقة في المستوى الذهنيّ، لكنها اليوم صارت مفقّرة جينِيًّا. «غيرنون» بلدةٌ معزولةٌ بطبعها، مثلها مثل كلّ القرى التّائهة في سفوح الجبال وعلى حوافّ الوديان، لكن الجامعة خلقت عزلةً وسط العزلة، هل تفهمني؟ مجتمعًا مُصغَّرًا حقيقيًّا.

- وهذه العزلة تكفي لتفسير انتشار الأمراض الوراثيّة؟

- هذا ما أعتقده.

لم يفهم نيمانز علاقة هذه المعطيات بتحقيقه.

- ماذا قلت أيضًا لجوانو؟

نظر شامبلاز إلى المحافظ، ثمّ قال بصوتٍ عميقٍ:

- أخبرته أيضًا عن حادثٍ فريد، ظاهرة صغيرة غريبة.

- ما هو؟

- منذ جيل تقريبًا، ووسط هذه العائلات ذوات الدِّماء الفقيرة، ظهر أطفالٌ مختلفون، أطفالٌ عباقرة، لكنهم يملكون قوّةً جسديَّةً مدهشة، يفوز أغلبهم بكل الدّورات الرِّياضيّة ويصلون بسهولة في كلّ مسابقة إلى أعلى مستوياتٍ ممكنة.

تذكَّرَ نيمانز الصُّوَر المُعلَّقة في مكتب العميد، صور الأبطال اليافعين المبتسمين الذين يجمعون كلّ الكؤوس وكل الميداليات. تذكَّرَ أيضًا صور الألعاب الأولمبيّة ببرلين ودراسة كايوا الضَّخمة عن حنين أولمبيا. هل يمكن أن تُشكِّل هذه العناصر حقيقةً خاصَّة؟

أردف الشُّرطيُّ مُتظاهِرًا بالسّذاجة:

- من المفترض أن يكون كلّ هؤلاء الأطفال مرضى، هل هذا ما تعنيه؟

- ليس بالضرورة، الأمر ليس بهذه البساطة، لكن لنقل إنَّ من المنطقيّ أن يشترك هؤلاء الأطفال في ضعف تكوينهم، بعض العيوب المتكرّرة، مثل أطفال المركز مثلًا. لكن على العكس، يبدو وكأنَّ هؤلاء الخارقين الصِّغار قد سطوا فجأةً على كلّ المواهب الجسديّة لمجتمعهم المصغَّر وتركُوا كلّ الهنات الجينيّة للآخرين.

نظر شامبلاز بتوتُّرٍ إلى نيمانز:

- ألن تشرب قهوتك؟

نظر نيمانز إلى القدح الذي يمسكه وكأنَّه تذكَّرَ وجوده للتَّوّ. احتسى جرعةً حارقة، لكنَّه لم يشعر بالحرارة. كأنَّ كلّ أحاسيسه بل كلّ جسده صار جهاز استقبالٍ ينتظر أضعف إشارة، أضعف حبّة ضوء. سأل:

- هل درستَ هذه الظَّاهرة عن قرب؟

- أجريت تحقيقًا صغيرًا منذ سنتين تقريبًا. تثبَّتُّ أوَّلًا من أن هؤلاء الأطفال ينتمون حقًّا إلى العائلات نفسها، إلى الأشقّاء أنفسهم. زرت البلديّة وراجعت سجلَّات الحالة المدنيّة... ثمّ، صعدت في شجرة العائلة، راجعت الملفّات الطبِّية في قسم الولادات، قرأتُ حتّى ملفَّات الآباء والأمّهات والأجداد، باحثًا عن إشارات، عن تفاصيل مميّزة. لم أجد شيئًا خارجًا عن المألوف. بعض أسلافهم يحملون عيوبًا جينيّة، مثل بقيَّة العائلات التي أعالجها. أمرٌ غريبٌ بالفعل.

أدمج نيمانز هذه المعلومات في دماغه، وأحسَّ مرَّةً أخرى، دون تفسير، أنها تُقرِّبه من جانبٍ جوهريٍّ في القضيّة.

جاب شامبلاز المطبخ جيئةً وذهابًا، وتابع:

- استجوبتُ أيضًا أطبّاء النِّساء والتّوليد في المستشفى الجامعيّ، وأخبروني عن ظاهرة أخرى مثيرة للفضول. منذ خمسين سنة تقريبًا، يشهد أهالي القرى، أي العائلات التي تعيش في الأعالي حول الوادي، نسبةَ وفيّاتٍ مرتفعة للرُّضّع، وفيّاتٍ مباغتة تحدث بعد الولادة بقليل، في حين أنّ هؤلاء الأطفال، على عكس جيرانهم في الجامعة، معروفون بالشِّدّة والصّلابة الجسديّة. الأمر أشبه بانقلابٍ أو انعكاس، هل تفهمني؟ أطفال الجامعة السِّقام يصبحون بمعجزةٍ مّا قويّي البنية، في حين يذوي أبناءُ الفلّاحين.... درستُ أيضًا ملفَّات هؤلاء الأخيرين، سليلي مربّي المواشي والمنقِّبين عن الكريستال، والذين فارقوا الحياة فجأةً قبل حتّى أن يعيشوها. لم أعثر على أيّ نتيجة. تحدّثت إلى موظّفي المستشفى وباحثين من المستشفى الجامعيّ مختصّين في علم الوراثة. لم يستطِع أحدٌ تفسير هذه الظَّواهر. فاستسلمت وحاولت نسيان الأمر بشيءٍ من الاستياء. لا

أستطيع شرح الأمر علميًّا. يبدو وكأنّ وليدي الجامعة يمتصّون الطّاقة الحيويّة من جيرانهم الصِّغار في قسم الولادات.

- ماذا تعني بحقِّ السَّماء؟

تراجع شامبلاز سريعًا:

- انسَ ما قلته. كلامي ليس علميًّا بالمرّة، ويفتقر إلى أدنى مقوّمات المنطق.

لعلَّ كلامه ليس علميًّا ولا منطقيًّا، لكن نيمانز بات مُتأكِّدًا: لغز هؤلاء الأطفال المتفوّقين ليسَ صدفة. إنّه حلقةٌ من حلقات الكابوس. سأل بصوتٍ محايدٍ:

- هل هذا كلّ شيء؟

تردّد الطَّبيب.

فكرَّرَ المحافظ بصوتٍ أعلى:

- هل هذا حقًّا كلّ شيء؟

- كلَّا. ثمّة شيءٌ آخر. خلال هذه الصّائفة، عرفت القِصَّة تطوُّرًا غريبًا، تافهًا ومقلقًا في الآن نفسه. في شهر جويلية الفارط، شهد مستشفى «غيرنون». أشغال تجديد كبيرة نتجت عنها رقمنة شاملة للسّجلّات والأرشيف. زار الخبراء الأقبية الّتي فاضت بالملفّات القديمة المغبرة لتقييم عمل الرّقن المزمع تولّيه. في هذا الإطار، نبشُوا في أقبيةٍ أخرى من المستشفى، سراديب الجامعة القديمة، وبالخصوص مكتبة ما قبل السِّتينيّات.

تجمَّدَ جسد نيمانز، بينما واصل شامبلاز:

- أثناء هذه الأبحاث، اكتشف الخبراء شهادات ميلاد، أو بالأحرى الصّفحات الأولى لملفّات الولادات التي امتدَّت على خمسين عامًا. كانت صفحاتٍ ممزَّقة، وحيدة، دون باقي الملفّات كما لو كانت مسروقة.

- أين اكتشفوا هذه الأوراق؟ أين بالتّحديد؟

جال شامبلاز في المطبخ مجدَّدًا مُحاوِلًا الحفاظ على مظهرٍ محايد، لكنّ التَّوتُّر طغى على صوته.

- هذا أغرب ما في الأمر... كانت هذه الأوراق محفوظةً داخل خزانةٍ شخصيَّةٍ لرجلٍ واحدٍ موظّف في المكتبة.

شعر نيمانز بالدّماء الحارّة تتدفَّق في عروقه.

- ما اسم الموظّف؟

نظر إليه الطَّبيب بخوفٍ، وارتعشت شفتاه:

- كايوا، إيتيان كايوا.

- أبو ريمي؟

- بالضبط.

وقف الشُّرطيُّ غاضبًا:

- لماذا لم تخبرني منذ البداية؟ لماذا انتظرت كلّ هذا الوقت؟ رغم الجثّة التي عثرنا عليها أمس؟

- انتبه إلى نبرة صوتك يا حضرة المحافظ، فأنا لستُ أحد متّهميك. ما أخبرتك به هو مجرَّد معطًى إداريّ لا أهمِّيّة له. ما علاقته بجرائم القتل؟

- هذا من شأني.

- حسنًا. لكنّي حدّثت ملازمك عن كلّ هذا. لا يوجد سبب لغضبك إذن، اهدأ أرجوك. ثمّ إنّه ليس سرًّا. المدينة برمَّتها على علمٍ بالقصّة. إنها معلومة متاحة للعموم. حتّى الصحف المحلِّيّة والجهويّة كتبت عنها.

في هذه اللّحظة، كان لنيمانز أن يكرة رؤية وجهه في المرآة. أحسَّ أن ملامحه صارت مشدودةً وقاسيةً حتّى تغيَّرت كلّيًا. مرَّرَ الشُّرطيُّ كُمَّه على جبينه، وقال بصوتٍ أكثر هدوءًا:

- اعذرني، هذه القضيَّة مجزرة حقيقيّة. ضرب القاتل ثلاث مرَّاتٍ إلى حدِّ الآن، وسيواصل إن لم نقبض عليه. كلّ دقيقة تمرّ، كلّ معلومة صغيرة قد تكون فاصلة. هذه الوثائق القديمة، أين هي الآن؟

هزَّ المدير حاجِبَيْه واسترخى وجهه وهو يتّكئ من جديد على الطَّاولة الفولاذيّة.

- دُمِجت من جديد في قبو المستشفى. سيبقى الأرشيف سليمًا حتّى يُرقمَن بالكامل.

- أفترض أنَّ هناك شهادات ميلاد تخصُّ المتفوّقين الصِّغار وسط هذه الأوراق.

- ليس هم مباشرة، لأنها تعود إلى ما قبل السَّبعينيّات، لكن بعضها يخصُّ آباءهم أو

أجدادهم وهذا ما أرّقني. لأنَّني راجعت شخصيًّا هذه الملفّات أثناء تحقيقي الصّغير، ولم تكن منقوصة. هل تفهمني؟

- إذن اختلس كايوا نسخًا؟

- نسخًا، أو وثائق أصليّة. ربّما استبدل كايوا بشهادات الميلاد الحقيقيَّة أخرى مزيّفة، واحتفظ بالأصليّة في خزانته.

- لم يحدّثني أحدٌ عن هذه القصّة. ألم يفتح الجندرمة تحقيقًا؟

- كلَّا. لم تكن إلَّا تفصيلًا إداريًّا بلا معنى. ثمّ إنّ المشتبه به إيتيان كايوا كان قد فارق الحياة منذ ثلاث سنوات حينها. في الواقع، لم يُبدِ أحدٌ غيري أدنى اهتمام بهذه القصّة.

- ألم يخطر لك الذَّهاب لرؤية هذه الوثائق ومقارنتها مع الملفّات الرَّسميّة التي درستَها؟

تكلَّفَ شامبلاز الابتسام.

- بلى. لكنِّي لم أجد الوقت المناسب. لا أظنك فهمت أيّ نوع من الوثائق هي. بضع صفوفٍ منسوخة على ورقةٍ سائبة، تُبيِّن وزن الرّضيع وطوله وفصيلة دمه، فضلًا عن أن هذه المعطيات تُسجَّل في دفتر الطّفل منذ الغد. أيّ أنّ هذه الوثائق لا تُمثِّل سوى الحلقة الأولى في ملفّ الرّضيع.

فكَّرَ نيمانز في جوانو الذي أراد زيارة أرشيف المستشفى. لقد أثارت هذه الوثائق العديمة الأهميّة اهتمامه. غيّر نيمانز اتِّجاه الحوار.

- ماهو الرّابط بين شيرنيسيه وكلّ هذه القصّة؟ لماذا ذهب إليه جوانو مباشرةً بعد خروجه من هنا؟

عاد التَّوتُّر يغزو وجه الطّبيب:

- لقد أهتمَّ إيدموند شيرنيسيه كثيرًا بالأطفال الذين حدّثتُكَ عنهم.

- لماذا؟

- شيرنيسيه هو.. أقصد، كان طبيب المركز الرّسمي. كان عالمًا بكل الأمراض الوراثيّة التي يعاني منها مرضانا، ولقد استغرب أنّ أطفالًا آخرين يختلفون عنهم إلى هذه الدّرجة رغم قرابتهم. لم يكن شغوفًا بعلم الوراثة فحسب، بل كانت لديه نظريّة تقول إنّ قدحة العين أو قزحيّتها تعكس حقائق جينيّة. كان شخصًا مُميَّزًا في مستوياتٍ عديدة.

تذكَّرَ نيمانز الرَّجل ذا الجبين المرقّط. «مميز» إنها الصّفة المناسبة. استرجع أيضًا مشهد جثّة جوانو وقد التهمتها الأحماض. أردف:

- ألم تطلب منه رأيه الطِّبِّيّ في الموضوع؟

تلوَّى شامبلاز وكأنّ قميصه يصيبه بالحكاك.

- كلَّا. لم.. لم أجرؤ. أنت لا تعرف سياق مدينتنا. ينتمي شيرنيسيه إلى عِلية القوم في الجامعة، هل تفهمني؟ إنّه أشهر طبيب عيون في المنطقة، وأستاذٌ جامعيٌّ جليل. في حين أنّني.. لست إلَّا حارس هذه الأسوار.

- هل تعتقد أن شيرنيسيه اطَّلعَ على الوثائق نفسها الّتي درستها، أيّ ملفَّات الولادات الرَّسميّة؟

- نعم.

- هل تعتقد أنّه سبقك إلى ذلك؟

- نعم، هذا محتمل.

أطرق المدير برأسه والعرقُ يتصبَّب على وجهه وقد علَتْه الحمرة. وأصرَّ نيمانز.

- هل تعتقد أنّه اكتشف أن الشّهادات مزوّرة؟

- لكن.. لا أدري! لا أعرف ما تتحدَّث عنه!

سكت نيمانز وقد أدرك أنّ شامبلاز لم يذهب لرؤية الوثائق الّتي سرقها كايوا خشية اكتشاف شيءٍ مريب عن أساتذة الجامعة. الملوك غير المتوّجين لـ«غيرنون»، الّذين يتحكَّمون بمصائر رجالٍ مثله.

نهض المحافظ:

- ماذا قلت أيضًا لجوانو؟

- لا شيء. أخبرتك بكل ما أعرف.

- حاول إنعاش ذاكرتك.

- هذا كلّ شيء. أؤكِّد لك.

وقف نيمانز أمام الطَّبيب.

- هل يعني لك اسمُ جوديت هيرو شيئًا؟

- لا.

- اسم فيليب سيرتيس؟

- أليس هذا اسم الضَّحيَّة الثّانية؟

- ألم تسمع به من قبل؟

- لا.

- هل تعني لك عبارة «الأنهار القرمزيّة» شيئًا؟

- لا.. أنا...

- شكرًا على تعاونك دكتور.

ودَّعَ نيمانز الطَّبيب المذهول وهَمَّ بالخروج. وعند بلوغه الباب قال:

- سؤالٌ أخير. لم أرَ أو أسمع أيّ كلبٍ هنا. ألا توجد كلاب؟

كان وجه شامبلاز ممتقعًا.

- كلاب؟

- نعم. كلاب مرافقة المكفوفين.

ابتسم الطَّبيب وقد بدا عليه الإرهاق:

- الكلاب صالحة للمكفوفين الذين يعيشون بمفردهم دون أيّ مساعدة خارجيّة، مركزنا مُجهَّز بأنظمة متطوِّرة تُحذِّر المرضى من وجود أدنى عقبة وتقودهم في حياتهم اليوميّة. ليسوا بحاجةٍ إلى الكلاب.

في الخارج، استدار نيمانز نحو البناية النّاصعة الملتمعة تحت المطر. لقد تنصّل من القدوم إلى المركز منذ الصَّباح بسبب كلابٍ غير موجودة. وبعثَ بجوانو إلى هذا المكان وربَّما إلى حتفه خوفًا من أشباح لا تعوي إلَّا في ذهنه.

فتح باب السَّيّارة وبصق خارجًا وهو يشعر بالغثيان.

لقد كلّفته أشباحه حياة ملازمه الشَّابّ.

48

سلك نيمانز الطُّرُق الجبليّة الملتوية تحت الأمطار المتزايدة. انعكست أضواء السَّيّارة على الإسفلت فبدا كبخارٍ رصاصيّ. أحيانًا تتشكَّل بركة من الطّمي، فتتفتّت تحت عجلاته مُصدِرةً حفيفًا زجاجيًا. تشبَّثَ نيمانز بعجلة القيادة وهو يحاول جاهدًا السّيطرة على سيّارته التي كانت تنجرف في كلّ مرّة نحو حافّة الهاوية.

فجأةً رنّ جهاز النِّداء في جيبه. نقر المحافظ بيدٍ واحدةٍ على الشَّاشة فوجد رسالةً من أنطوان ريمس من باريس. أمسك بهاتفه، واتَّصل بالرّقم المسجّل. وما إن تعرّف ريمس على صوته حتّى أعلن:

- انتهى الأمر. فارق الإنجليزيّ الحياة يا بيير.

حاول عقله المنغمس في التّحقيق التفكير برهةً في عواقب هذا الخبر، دون نتيجة. وتابع المدير:

- أين أنت؟

- في ضواحي «غيرنون».

- أنتَ رهن الاعتقال. نظريًّا، يجب أن تعتبر نفسك سجينًا، وتسلّم سلاحك، وتوقف كلّ أعمالك ومهامّك الرَّسميّة.

- نظريًّا؟

- لقد تحدَّثتُ إلى تيربنتيس. قضيّتكم لم تتقدَّم خطوة، وبدأت تتحوّل إلى كابوسٍ حقيقيّ. جميع وسائل الإعلام مُركّزة على بلدتك الصّغيرة. صباح الغد، ستصير «غيرنون» المدينة الأكثر شهرةً في فرنسا. (سكت ريمس بضع ثوانٍ) والجميع يبحثون

عنك.

لزم نيمانز الصّمت. دقّقَ النّظر في الطّريق الدّائمة الدّوران وهو يخترق عواصف المطر التي تبدو منعطفةً في الاتّجاه المعاكس. كانت مثل معركة بين الطّبيعة والحضارة، جولة بجولة. ترى من يربح الحرب؟ قاطع صوت ريمس أفكاره:

- بيير، هل أنت على وشك القبض على القاتل؟

- لا أدري. لكنّي أسير على الطّريق الصحيح، أنا متأكّدٌ من ذلك.

- إذن سنصفّي حساباتنا لاحقًا. رسمِيًّا، لم أكلّمك ولا علم لي بمكانك. أنت مفقودٌ وخارج الشّبكة. أمامك ساعة أو ساعتان. لتُنهي هذه الفوضى. بعد ذلك لن أستطيع مساعدتك، إلّا بتكليف محام... ربّما.

تمتم نيمانز ببضع كلماتِ شكر، وأقفل الخط، ثمّ أغلق هاتفه.

في تلك اللّحظة ظهرت سيَّارة على يمينه ولم يستطِع ردَّ الفعل بالسّرعة الكافية. فارتطمت بسيّارته بقوّة ودفعتها للاصطدام بصخور المنحدر. صرخ الشُّرطيُّ وهو يحاول تفادي الأسوإ مُلقيًا نظرةً خاطفةً على السَّيّارة الأخرى. كانت سيَّارة رباعيّة الدّفع داكنة اللّون بمصابيح مطفأة تتّجه نحوه من جديد بنِيَّة القتل. تراجع نيمانز، فتبعته السَّيّارة الضَّخمة قبل أن تقطع عليه الطَّريق من اليسار فأجبره ذلك على دوس الفرامل. انطلق من جديد وقد صارت السَّيّارة القاتلة أمامه لتمنعه من المجاوزة، بل كانت تدفعه نحو المنحدر كلّما حاول، وكانت لوحة التَّسجيل مُغطَّاةً بالطّين، وهو ما زاد من حنق الشُّرطيّ.

ماذا يريد هذا السّائق المخبول؟ ضغط نيمانز على المكابح فجأةً، وانتظر أن يفعل السّائق الآخر مثله ليضغط على دوَّاسة الوقود وينطلق بكل سرعته متجاوزًا السَّيّارة الضّخمة حتّى غابت في المرآة الخلفيّة. أخيرًا صارت الطَّريق مرَّةً أخرى له وحده. لم يخفض من سرعته رغم صعوبة الطَّريق وزخّات المطر. ما الذي حدث؟ مَن هاجمه، ولماذا؟ ما الذي صار يعرفه الآن ليبرّر قتله؟ حدث الهجوم بسرعةٍ خاطفةٍ فلم يتمكّن الشرطي حتّى من النظر إلى سائق السَّيّارة.

بعد أحد المنعطفات رأى نيمانز الجسر الإسمنتيّ. إذن لم تَعُد تفصله عن «غيرنون» سوى بضعِ كيلومترات. تنفَّسَ الصّعداء وواصل القيادة بأقصى سرعة. لكن ضوءًا ساطعًا أعماه لحظاتٍ قبل أن تلمس السَّيّارة الرُّباعيّة الدفع نفسُها مِصَدَّ سيّارته. نظر إلى الطَّريق المعلَّق فوق العدم وقال في نفسه «لا يمكنني أن أموت الآن، ليس بهذه

الطّريقة». وضغط دواسة الوقود حتّى آلمته ساقُه اليمنى وعيناه لا تفارقان علامات الطَّريق اللّامعة أمامه.

أمتار يسرقها من الزمن.

ثوانِيَ يسلبها من المكان.

استولت فكرةٌ غريبةٌ على ذهنه، لن يحدث له أيّ مكروهٍ مادام يتقدَّم فوق هذا الجسر، مادام يشقُّ طريقه وسط الإعصار. كان حيًّا، خفيفًا، لا يُهزم.

فجأةً حدث الاصطدام.

ارتطم رأسه بالزّجاج الأماميّ ومزّقت حافّةُ المرآة الخلفيّة فوده. شعر بالسَّيّارة تميل إلى اليسار ثمّ إلى اليمين ثمّ إلى اليسار مرَّةً أخرى... وأغرقت الدِّماءُ نصف وجهه.

هزَّةٌ أخرى، ثمّ صفعةُ المطر وبردُ اللّيل القاسي. لحظات من الصَّمت، والظّلام.

حين فتح نيمانز عينَيْه لم يُصَدِّق ما يراه. قطعةٌ من السَّماء المخطّطة بالبرق. كان يطير، وحده، وسط الرّيح ووسط العاصفة.

حين اصطدمت سيارته بحاجز الجسر اندفع جسمه نحو الفراغ. كان يسقط، ببطء، بصمت، مُتسائلًا عن الشُّعور الأخير الذي سيحمله موته.

جاءته الإجابة فورًا على شكلِ آلامٍ مبرحة. سياطٌ وإبرٌ وأغصانٌ تفجِّر جلده في ألف شرارةٍ من الوجع وسط أشجار الصّنوبر.

ثمّ صدمتان متتاليتان.

الأولى هي صدمة وقوعه على الأرض، وقد خفّفتها الأغصان المتشابكة. ثمّ صخبٌ مرعب. انفجرت اللّحظة في فوضى من الأحاسيس المتناقضة، براثن البرد، مخالب النّار، الماء، الحجر، الظلماء.

عندما فتح نيمانز عينَيْه، استقبلته عيون أخرى: عيون الظّلام، عيون الغابة. عاد وعيه تدرجيًّا، وحمل معه استنتاجًا من غياهب عقله. الحياة! بمعجزةٍ مّا لا يزال على قيد الحياة!

استجمع شتات ذهنه ليستحضر ما حدث له.

لقد مرَّ من خلال الأشجار، ولحسن حظه، سقط وسط مجرًى مليءٍ بمياه الأمطار

تحت أحد أبراج الكهرباء. سقطت سيّارته أيضًا وتهشّمت على بُعد مترٍ واحدٍ فوقه مُهدِّدةً بسحقه لولا أن هيكلها العريض حال دون وصولها إلى القاع.

معجزة.

معجزة بحقّ.

أغمض عينَيْه مرَّةً أخرى. أثخنت الجروح كلّ جسده، لكن ألمًا آخر أكثر اشتعالًا كان قادمًا من فوده الأيمن مثل خطّ من النّار. خمَّنَ الشُّرطيُّ أنّ المرآة الخلفيّة للسَّيّارة مزَّقت لحمه في جرحٍ عميقٍ فوق أذنه. في المقابل لم تكن جروح السّقوط غائرة.

حدَّقَ في الدّخان المتصاعد من سيّارته فوقه. كان محبوسًا تحت سقفٍ معدنيٍّ حارق، وسط تابوتٍ اسمنتيّ. فاستدار بكامل جسده، في جُهدٍ يائسٍ، وسط المجرى الضَّيِّق. كانت الآلام المنتشرة في جسده تلعب لصالحه لأنها أغرقت حواسه في نوعٍ من الخدر اللّامبالي.

استطاع الخروج من تابوته بعد جُهدٍ جهيد. وحين تلمَّس موضع جرح رأسه أحسّ بتدفُّق الدِّماء. تأوَّهَ والدّم يسيل بين أصابعه المكلومة، واغرورقت عيناه بالدّموع.

وقف بصعوبة مستندًا على هيكل السّيّارة. ثمّ فتح الصّندوق الخلفيّ المحطَّم وأخرج بندقيّته.

استدار الشُّرطيُّ ووجهه مضمّخٌ بالدّماء وجسده مثخنٌ بالألم. جال بنظره في المكان شاهرًا سلاحه، لكنه لم يجد سوى السُّكون التَّامّ. هاجمه الدوار، وسقط مرَّةً أخرى وسط المجرى الإسمنتيّ. أيقظته برودة الماء هذه المرَّة قبل أن ينزلق جسده فوق الإسفلت، حتمًا باتِّجاه أحد الأنهار.

لِمَ لا؟

احتضن بندقيّته واستسلم للتَّيّار الذي يحمله نحو مياهٍ أوسع وأرحب وأنقى، مثل فرعون يتَّجه نحو نهر الموتى.

49

حمل التَّيّار جسد نيمانز المتهالك، وتسلَّلَت إلى عينَيْه أجزاءٌ من السَّماء المظلمة من خلال ورق الأشجار. وشاهد على اليمين والشّمال تراكمات الأغصان والجذور والطّين الأحمر التي كوّنت غابات مستنقعاتٍ صغيرة.

بعد دقائق أو ساعات، امتلأ الجدول وصار التَّيّار أكثر قوّة. استسلم تمامًا، وأغمض عينَيْه وقد عملت المياه الباردة كمضيّقٍ للأوعية فقلّصت من تدفُّق الدِّماء. تمنّى من كلّ قلبه أن يحمله التيار نحو «غيرنون» وجامعتها التي صارت في ذهنه أرضًا موعودة.

فهم بعد لحظاتٍ أنّ أمله كان في غير محلّه. لم يكن الجدول يصبّ باتِّجاه «غيرنون»، بل صار ينعطف ويزداد ضيقًا وسط الغابة نفسها، حتّى إنّه أصبح بطيئًا.

ثمّ توقَّف.

سبح نيمانز نحو الحافّة، وغادر المياه متأوّهًا، ثمّ سقط على التّراب المُبتلّ المفروش بالأوراق الميّتة. امتلأ منخراه برائحةٍ عفنة، رائحة الأرض العميقة المختلطة بالغُصينات والدّبال والحشرات.

عاين المكان من حوله. لم يكن وسط أدغال كثيفة ومتشابكة، بل بين أجمات متباعدة ونحيلة حيثُ يسود نوعٌ من الفراغ، من الحرية النّباتيّة. كان الظلّام دامسًا فلم يرَ أيّ كتلة جبليّة في الأفق، من المستحيل معرفة عدد السّاعات المنقضية ولا عدد الكيلومترات المقطوعة، ناهيك عن اتّجاهها.

رغم الأوجاع والبرد، زحف ليتّكِئ على جذع شجرة. حاول تذكُّر خارطة المنطقة التي رسم فوقها الأماكن المهمَّة في القضيَّة. تقع جامعة «غيرنون» شمال كتلة «البحيرات السّبع».

الشّمال..

كيف يهتدي إلى الشّمال، في ظلّ جهله الكُلّيّ بمكانه الحاليّ؟ لم يكن يملك بوصلةً ولا أيّ جهاز مغناطيسيّ. نهارًا، كانت يمكن للشّمس أن تساعده. ما العمل في هذا اللّيل المدلهمّ؟

واصل التَّفكير والدّماء تغمر وجهه والبرد يقضم أطرافه. لم يعد لديه سوى بضعِ ساعاتٍ للنّجاة بحياته.

فجأةً خطرت له فكرة. يستطيع تخمين اتِّجاه الشَّمس حتّى في قلب الظّلام، بفضل النّباتات. لم يكن المحافظ خبيرًا في عالم النّبات، لكنه كان يعرف ما يعرفه الجميع، ثمة أنواعٌ من الفطريّات والأشنات المحبّة للرّطوبة لا تنمو إلا في الظِّلّ وتتجنّب التَّعرُّض لأشعّة الشّمس. ولذلك تنمو هذه النباتات حصريًّا في الشّمال، أسفل الأشجار.

بحث نيمانز في معطفه المُبتلّ عن علبةٍ مُضادّةٍ للصّدمات كان يحتفظ فيها دومًا بنظّارة احتياطيّة. وحين وضعها أخيرًا، تمكَّنَ من تمييز محيطه المباشر بدقَّة.

بدأ التّمحيص أسفل الصَّنوبريّات. وبعد مرور دقائق قليلة، بعد أن تجمَّدَت أصابعه واسودَّت من التّراب، أدرك أنّه على حقّ. وجد ما يبحث عنه بالقرب من جذوع الأشجار. لمس الشُّرطيُّ القباب الصَّغيرة والأسطح الخشنة وشعر بالامتنان للطبيعة، غابة مُصغَّرة كاملة تدلّه الآن على الطَّريق نحو الشّمال.

نهض نيمانز بصعوبة واتَّبع طريق الفطر.

ترنَّحَ وهو يشعر بنبض قلبه المتسارع. كانت قدماه تطآن أحجارًا وبركًا وأشواكًا وأعشابًا لكنّه لم يعر اهتمامه لشيءٍ سوى تتبُّع الأشنات. حثَّ خطاه، رغم الإرهاق والإصابات العديدة، مُستمِدًّا القوَّة من روائح الهواء. شعر أنّه يسير وسط لهاث العاصفة التي توقَّفت لالتقاط أنفاسها.

وأخيرًا، ظهرت الطَّريق.

الإسفلت اللّامع، طريق الخلاص. تفحَّصَ نيمانز المصابيح الباردة على طول المُعَبّد لتحديد الاتِّجاه الصّحيح. ولكن فجأةً، برزت عربةُ قوّات الجندرمة من المنعطف، وتوقَّفت أمامه. قفز الرّجال لمساعدة نيمانز، وقد بدأ يفقد الوعي مُتشبِّثًا ببندقيّته.

شعر الشُّرطيُّ بأيدي الرّجال تُمسك به، وسمع همهمات، صراخًا، حفيف معاطف. تراقصت المصابيح الأماميّة، وصاح أحدهم في وجه السّائق:

- اذهب إلى المستشفى فورًا!

تلعثم نيمانز، وهو نصف واعٍ:

- لا. بل إلى الجامعة.

- ماذا؟ أنت مصاب و...

- إلى الجامعة، أنا... لديَّ موعد.

50

انفرج الْبَابَ عن ابتسامة.

خفض بيير نيمانز بصرَه، فرأى اليدَيْن القويَّتَيْن السمراوَيْن ثمّ غُرزَ القميص الضيّقة، ثمّ صعد نحو الياقة، حيث كان الشعر المُحيط بالرّقبة ناعمًا إلى درجة أنّه لا يشكّل سوى هالة ضبابيّة. فكَّرَ في سحر هذا الجلد، الجميل جدًّا، الأملس جدًّا، الذي يحوّل كلّ مادّةٍ وكلّ ثوبٍ إلى لوحةٍ فنِّيّة. تثاءبت فاني:

- لقد تأخَّرت أيها المحافظ.

حاول نيمانز الابتسام.

- أنت... لم تكوني نائمة؟

نفت الشَّابّةُ برأسها وابتعدت. عندما خطا نحو الضَّوء ظهر وجهه الدّامي فتراجعت وهي تنظر إليه من رأسه إلى أخمص قدمَيْه. معطف أزرق مشرّبٌ بالماء، ربطةُ عنقٍ ممزَّقة، حروق وآثار دماء.

- ماذا حصل لك؟ هل تعرّضت لحادث؟

أوْمَأَ نيمانز برأسه. ثمّ جال بنظره في الشّقّة الصّغيرة. عبر الحمّى، وعبر ضربات شرايينه، كان سعيدًا باكتشاف هذا المكان. جدران نقيّة وألوان ناعمة. مكتبٌ مدفونٌ تحت كتبٍ وأوراقٍ وجهاز حاسوب.

حصًى ملساء وبلّورات فوق الرّفوف. معدّات تسلّق، وأكداس من الملابس التي تشعّ في الظَّلام. شقّة امرأةٍ شابّةٍ هادئةٍ ورياضيّة في الوقت نفسه، انطوائيّة ومغامرة. في لحظة، مرَّت مشاهد البعثة التي قاما بها في الجبل الجليديّ بأكملها عبر عروقه في ذكرى تشبه شظيّة صقيع.

تهاوى نيمانز على كرسيٍّ وهو يسمع تساقط المطر من جديدٍ في مكانٍ ما على السّطح مختلطًا بأصوات الحيِّ المكتومة، صرير باب، خطوات، ليلة في عالم الطُّلّاب المتوتّرين والمحتجزين.

خلعت فاني معطف الشُّرطيّ، ثمّ فحصت الجرح المفتوح في صدغه. لم يبدُ عليها أيّ اشمئزاز من مشهد الدّم واللّحم البنّي المتآكل. قالت:

- أنت مصابٌ بشدّة. آمل أن يكون الشّريان الصّدغي سليمًا. الدَّم ما يزال يتدفَّق و.. كيف حدث هذا؟

أجاب نيمانز بشكلٍ مقتضب:

- لقد تعرَّضت لحادث، حادث مرور.

- يجب أن أصطحبك إلى المستشفى.

- انسي الأمر. يجب أن أواصل التّحقيق.

اختفت فاني في غرفةٍ أخرى، ثمّ عادت مُحمَّلةً بالكمّادات والأدوية وأكياس تحتوي على إبر ومحلول. ركّبت إبرةً في حقنةٍ بلاستيكيّة وأفرغت محتوى العبوّة بسرعة. أمسك نيمانز العبوّة.

- ما هذا؟

- مخدِّر. سوف يهدِّئك. لا تخشَ شيئًا.

قبض الشُّرطيُّ على معصمها.

- انتظري.

قرأ خصائص العقّار. الزيلوكايين. مُخدِّر موضعيّ سيُسكِّن آلامه دون أن يُفقِده وعيه. فخفض ذراعه في حركةِ استسلام.

- لا تخف. (همست فاني). سيقلّل هذا المحلول أيضًا من النّزيف.

لم يستطِع نيمانز رؤيةَ ما تفعله المرأة، لكنه أحسَّ بوخز مُتكرِّر في حوافّ الجرح. بعد ثوانٍ قليلة، بدا أن الألم بدأ يزول بالفعل.

- هل لديك ما يلزم لخياطة الجرح؟

- طبعًا لا. يجب أن تذهب إلى المستشفى. سيعاود الجرح النزيف بعد قليل و...

- استعملي رباطًا ضاغطًا، أو أيّ شيء. يجب أن أواصل التّحقيق بذهنٍ صافٍ.

هزّت فاني كتفَيْها، ثمّ بلّلت عددًا من الكمّادات ببخّاخٍ وجسمها المشدود يتحرَّك برشاقة فهد. أثارت انحناءاتها رغبةً دفينةً في نفس نيمانز رغم حالته المزرية.

تساءل عن تناقضات المرأة الشّابة. كيف يمكنها أن تكون في الوقت نفسه شفّافة وملموسة؟ ناعمةً وقاسية؟ قريبةً وبعيدة؟ رأى التّناقض نفسه في نظرتها، الوهج العدوانيّ في العينَيْن، والنّعومة اللّامتناهية للحاجبَيْن. سأل وهو يستنشق رائحة المطهرات النفّاذة:

- هل تعيشين بمفردك هنا؟

نظّفت فاني الجرح بضرباتٍ صغيرة. فلم يكد الشُّرطيُّ يشعر بالحرق تحت تأثير المسكّن المتزايد. ابتسمت:

- أنت لا تفوّت أيّ فرصة.

- آه... معذرة... هل أزعجك سؤالي؟

ركّزت فاني على الجرح. وهمست في أذنه:

- أعيش بمفردي. أنا عزباء وليس لي صديقٌ حميم. هل هذا ما أردت معرفته؟

- أنا... لكن... لماذا في الكُلّيّة؟

- أقيم بالقرب من قاعات المحاضرات وغرف الأشغال التَّطبيقيّة. القرب يجعل الحياة أسهل.

أدار نيمانز رأسه، فأعادته على الفور إلى مكانه متأفّفة. قال الشُّرطيُّ وهو يميل بوجهه:

- هذا صحيح، الآن تذكّرت... أصغر خرّيجة جامعة في فرنسا. ابنةٌ وحفيدةٌ لأستاذَيْن عظيمَيْن. أنتِ تنتمين إذن إلى هؤلاء الأطفال الّذين...

قاطعته فاني:

- أيّ أطفال؟

- لا... أعني الأطفال المتفوّقين، أبطال الجامعة الصّغار.

تصلَّبَ وجه المرأة الشَّابّة، وصوتها يكتسي ريبةً مفاجئة:

- عمّ تبحث بالضَّبط؟

لم يُجِب الشُّرطيّ رغم رغبته الحارقة في استجوابها عن أصولها. لكن هل يجوز استجواب شخصٍ عن سبب قوَّتِه الجينيّة، وعن مصدر صبغيّاته؟ أردفت محاورته:

- حضرة المحافظ، لا أعرف لماذا أصررت على المجيء إليَّ في حالتك هذه. ولكن إن كانت لديك أسئلة محدّدة، اسألها مباشرة دون مواربة.

كانت لهجتها لاذعة. لم يَعُد نيمانز يشعر بأيّ ألمٍ جسديّ، لكنه كان يفضّل لدغة الجرحِ على لسعة هذا الصوت. فابتسم في ارتباك:

- أردت فحسب أن أتحدَّث معكِ عن مجلّة الكُلّيَّة، التي تكتبين فيها...

- الإيقاع؟

- نعم.

- ماذا عنها؟

صمت نيمانز برهةً ووضعت فاني كمّاداتها في أحد الأكياس البلاستيكيّة، ثمّ ربطت ضمّادة حول رأس نيمانز. تابع الشُّرطيُّ وهو يشعر بالضّغط المتزايد حول جمجمته:

- كنت أتساءل عمَّا إذا كنتِ كتبتِ مقالًا عن حدثٍ غريبٍ وقع في قبو المستشفى شهر جويلية الماضي...

- أيّ حدث؟

- العثور على وثائق تخصُّ بعض الولادات في خزانة إيتيان كايوا، والد ريمي.

قالت فاني دون اكتراث:

- أه، تلك القصّة...

- هل كتبتِ مقالًا؟

- بضعة أسطر، نعم، على ما أظنّ.

- لماذا لم تخبريني بالأمر؟

- هل تعني... أن هناك صلة بين تلك القصّة وجرائم القتل؟

رفع نيمانز صوته:

- لماذا لم تخبريني عن تلك السّرقة؟

هزَّت فاني كتفَيْها قبل أن تُجيب، دون التوقُّف عن لفّ صدغي الشُّرطيّ:

- لا يوجد دليلٌ على وقوع سرقةٍ حقيقيّة... وسط الفوضى السّائدة في سجلّات الأرشيف، يضيع كلّ شيء، ويتم العثور على كلّ شيء. فهل هذا مهم جدًّا؟

- هل رأيت تلك الملفّات بأمّ عينك؟

- نعم، ذهبت إلى الأرشيف، حيث تُخزّن الصّناديق.

- ألم تلاحظي أيّ شيءٍ غريبٍ في هذه الوثائق؟

- مثل ماذا؟

- لا أدري. ألم تقارنيها مثلًا مع الملفّات الرَّسميّة؟

تراجعت فاني وقد أنهت تضميده وأعلنت:

- كانت مُجرَّدَ أوراقٍ خربشتها الممرّضات. لم تكن مثيرة للاهتمام.

- كم كان عددها؟

- بعض مئات. لا أعرف ما الّذي...

- في مقالك، هل ذكرتِ أسماء الملفّات والعائلات المعنيّة؟

- لقد كتبت بضعة أسطر فحسب، كما أخبرتك.

- هل يمكنني رؤية المقال؟

- أنا لا أحتفظ بمقالاتي.

وقفت وذراعاها معقودتان، مستقيمة، مشدودة. فواصل نيمانز:

- هل تعتقدين أنَّ أشخاصًا آخرين اطّلعوا على هذه الملفّات؟ أشخاصًا قد يجدون أسماءهم أو أسماء والديهم في هذه الوثائق؟

- سبق وأخبرتك أنَّني لم أذكر أيَّة أسماء.

- هل تعتقدين أنّه احتمال وارد؟ أن أشخاصًا ذهبوا إلى هناك؟

- لا أظن ذلك. وُضِع كلُّ شيءٍ وراء الأقفال الآن... ولكن ما أهمِّيّة ذلك؟ ما علاقته مع تحقيقك؟

لم يُجِب نيمانز. تجنّب النّظر إلى فاني وباغتها بسؤالٍ جديدٍ بدا أشبه بضربةٍ تحت الحزام:

- هل راجعتِ هذه الملفّات بالتّفصيل؟

أجابه الصّمت. نظر إليها فوجدها لم تبرح مكانها، لكنَّها بدت فجأةً بعيدةً جدًّا.

أجابت أخيرًا:

- سبق وأجبتك. نعم، ماذا تريد أن تعرف؟

تردَّدَ نيمانز لحظةً، ثمّ قال:

- أريدُ أن أعرف إن كنتِ قد وجدتِ اسمَيْ والدَيك في تلك الملفّات، أو أحد أسلافك.

- لا، لا شيء من هذا القبيل. لِمَ هذا السؤال؟

وقف المحافظ فأصبحا الآن متقابلَيْن كخصمَيْن في حلبة، كعدوَّيْن، كقطبَيْن متضادَّيْن. رأى نيمانز رأسه المضمّد في المرآة. فالتفت نحو الشَّابّة وتنهَّدَ:

- شكرًا لك على العناية الطِّبِّيّة، واعذري أسئلتي المزعجة.

أمسك معطفه، وقال:

- أعرف أنّ الأمر يبدو غير معقول، لكني أعتقد أن هذه الملفّات كلّفت أحد ضبّاط الشُّرطة حياته. ملازمٌ شابٌّ بدأ مسيرته للتَّوّ أراد أن يطَّلع على تلك الوثائق، فقتلوه لمنعه من الوصول إليها.

- هذا هراء.

- سنرى. سأذهب إلى الأرشيف وأقارن الملفّات.

شرع في ارتداء معطفه المُمزَّق المُبلَّل حين أوقفته الشَّابّة:

- لا ترتدِ تلك الخرقة. انتظر.

ابتعدت فاني ثمّ عادت مُحمَّلةً بقميصٍ وسترةٍ مُبطَّنة وبنطالٍ مقاومٍ للماء. وأوضحت:

- المقاس ليس مناسبًا، ولا نمط الملابس، لكنها على الأقل جافّة ودافئة. ضع هذا أيضًا..

وضعت غطاءَ رأسٍ فوق الضّمادة رافعةً الحواف فوق أُذنَيْه، تفاجأ نيمانز في البداية، ثمّ رفع عينَيْه بطريقة كوميديّة تحت قبّعته وانفجرا ضحكًا في الوقت نفسه. عاد

تناغمهما لحظةً وجيزة، كما لو انتزعاه عنوةً من نسيج الظّلام. لكن الشُّرطيّ قال بصوتٍ عميقٍ:

- يجب أن أذهب لأواصل التّحقيق. يجب أن أذهب إلى الأرشيف.

لم يجد نيمانز الوقت الكافي لردّ الفعل. وفي حركةٍ مباغتة، احتضنته فاني. فغمره دفءٌ لم يدرك مصدره. لكنه أغمض عينَيْه وتمتم:

- التّحقيق. يجب أن أواصل التّحقيق.

51

مزَّقَ كريم رباطَ منعِ المرور، وجثَا على ركبتَيْه قرب باب القبو الموارب. ارتدى قفّازَيْه قبل أن يُدخِل أصابعه في الشّق ويسحب بعنف. أشعل كشّافًا يدوِيًّا ودلَفَ إلى الضّريح دون تردُّدٍ. ثمّ نزل الدّرجات مُنحنِيًا حتّى رأى على ضوء المصباح حوضًا طويلًا من الماء الأسود. لقد تسلَّلَ المطرُ من الباب وملأ الفضاء الصَّغير حتّى منتصفه. قال في نفسه: «لا يوجد خيارٌ آخر».

حبس أنفاسه واندفع وسط المياه. ثمّ أمسك المصباح بيده اليسرى وسبح باليمنى. بينما كان يتقدَّم، تزايد هطول المطر بالخارج وتضاعفت رائحةُ العفن. كان الشُّرطيُّ مُعلَّقًا بين الماء والسّقف مُحاوِلًا التَّنفُّس بانتظام. وفجأةً اصطدم رأسه بالتابوت، فأفلتت منه صرخة ذعر، ثمّ حاول تهدئة نفسه. نظر إلى التَّابوت الصَّغير الذي برز وسط الماء كزورقٍ، وكرّر في نفسه: «لا يوجد خيارٌ آخر».

حام حوله مُتفحِّصًا كلّ الزّوايا. كان الغطاء مُثبَّتًا بعددٍ من البراغي، ولاحظ للمرَّة الأولى ما لم يسمح له تدخُّلُ الحارس برؤيته صباح اليوم. كان الخشب الفاتح مخدوشًا حول البراغي، كأنَّ أحدهم فتح التابوت حديثًا.

- لا يوجد خيارٌ آخر.

أخرج كريم من سترته مفكًّا، وهوى على مفاصل الغطاء الخشبيّ. بعد جُهدٍ جهيدٍ ارتفع خلاله مستوى الماء حتّى غمر كتفَيْه، تمكّن كريم من رفع الغطاء. مسح عينَيْه بكمّه، وحدَّقَ في قاع التَّابوت بحواسّ مُتأهِّبة.

ليس في التَّابوت هيكلٌ عظميّ طفوليّ، ناهيك عن آثار تدنيس. لم يكن فارغًا أيضًا ليُثبِت على الأقلّ وجود الخدعة، بل كان ممتلئًا بعظامٍ صغيرة حادَّة وبيضاء، مثل مقبرة جماعية للقوارض. آلاف الهياكل العظميّة الجافّة. أقفاصٌ صدريّة مغلقةٌ مثل المخالب، عددٌ لانهائيّ من الأعواد الرّفيعة مثل أعواد الثّقاب، عظام، عظام، عظام...

مدَّ كريم يده المرتعشة نحو صندوق العظام التي عكست ضوء المصباح فبدت قادمةً من عصور ما قبل التّاريخ.

وفي تلك اللّحظة ارتفع من خلفه صوت:

- ما كان عليك أن تعود يا كريم.

لم يستدر الشُّرطيّ لرؤية وجه مخاطبه. ضمَّ قبضتَيْه، وخفض رأسه وهمس:

- كروزييه، لا تقُل لي إنك متورّط في هذا الجنون...

- لقد أخطأتُ إذ سلّمتك هذه القضيّة.

ألقى كريم نظرةً خاطفةً نحو مدخل القبر، ورأى هنري كروزييه يصوّب مُسدَّسه من طراز مانهورين MR ٧٣ نحوه، سلاح نيمانز نفسُه. سِتّ رصاصات في الخزّان مع أجهزة شحنٍ سريعة في الجيب. لا يتطلَّب تفريغ المقابس واستبدالها سوى بضع ثوانٍ، دون خوفٍ من الانسداد أو العطب. سلاح خارق. كرَّرَ الملازم:

- ماذا تفعل وسط هذه الفوضى بحقِّ الجحيم؟

لا إجابة. واصل كريم وهو يرفع مرفقَيْه المبلّلين:

- هل يمكنني على الأقلّ الخروج من هذا المكان المقرف؟

أشار كروزييه بسلاحه.

- توجَّه نحوي. ولكن ببطء، ببطءٍ شديد.

انزلق كريم في الماء، ووصل إلى درجات السُّلَّم مبتعدًا عن التَّابوت. ألقى مصباحُه على الأسطح الحجريّة ومضاتٍ مهتزّة أشبه برقصة مجنونة.

أثناء صعوده الدّرج، تراجع كروزييه شاهرًا سلاحه في وجه كريم. وقف العربيُّ قبالة المحافظ مُبلَّلًا حتّى النُّخاع. وكرّر سؤاله:

- ما هو الدّور الذي تلعبه في هذه القصّة؟ ماذا تعرف بالضَّبط؟

قال كروزييه أخيرًا:

- سنة 1980 ، رصدتُها فور وصولها. هذه مدينتي يا فتى، هذه أرضي. وفي ذلك الوقت، كنت تقريبًا رجل الشُّرطة الوحيد في «سارزاك». هذه المرأةُ فائقةُ الجمال فارعة الطّول، تلك التي قدمت لتعمل مدرّسةً... خمَّنت فورًا أنها تُخفي شيئًا...

همس العربيّ:

- كروزييه، «عين سارزاك الثّاقبة».

- نعم. أجريتُ تحقيقًا صغيرًا فعرفتُ أنّها تتكفّل بتربية طفل.. و عملتُ على كسب ثقتها، إلى أن باحتْ لي بسرّها. قالت إنَّ الشّياطين يريدون قتل ابنتها.

- أعرف كلّ ذلك.

- ما لا تعرفه هو أنَّني قررتُ حماية تلك العائلة الصّغيرة. فزوّدتها بوثائق مزوّرة، و...

أحسَّ كريم أنّه يُحدِّق في الهاوية.

- الشّياطين، مَن هم؟

- في يومٍ من الأيّام، قدم رجلان متظاهرَيْن بجمع الكتب المدرسيّة القديمة. جاءا من «غيرنون»، المدينة الّتي قدِمت منها فابيان. أدركت على الفور أنَّهما من الشّياطين...

- هل تذكر اسميهما؟

- كايوا وسيرتيس.

- لا تهزأ بي. في ذلك الوقت، كان ريمي كايوا وفيليب سيرتيس يبلغان من العمر حوالي عشر سنوات!

- عمَّن تتحدّث؟ كانا يُدعيان إيتيان كايوا ورينيه سيرتيس. كانا في عقدهما الرّابع، بوجهَيْن حادَّيْن وعيون مهووسة.

أحرقت الحموضةُ حلق كريم. لماذا لم تخطر له هذه الفكرة؟ يعود «إثم» الأنهار القرمزيّة إلى أجيال عديدة. قبل ريمي كايوا، كان هناك إيتيان كايوا. قبل فيليب سيرتيس كان هناك رينيه سيرتيس. همس كريم:

- وبعد ذلك؟

- لعبت دور الشُّرطيّ الفضوليّ بالتَّحقُّق من الهويّة وما إلى ذلك، فلم أجد شيئًا مريبًا. ثمّ غادرا دون أن تُتاح لهما الفرصة لرؤية فابيان وطفلتها، أو هذا ما اعتقدته. لكنّ فابيان، عندما علمت أن ذينك الرَّجلَيْن كانا يتجوّلان في «سارزاك»، قرّرت الفرار على الفور. مرَّةً أخرى لم أطرح أيّ أسئلة. دمرنا الأوراق، مزّقنا صفحات الدّفاتر، ومحونا كلَّ أثرٍ لهما. وغيّرت فابيان هويَّة ابنتها ولكن...

قاطعه كريم:

- عاد سيرتيس الابن ليلةَ الأحد، هل لديك أيّ فكرةٍ عمَّا كان يبحث في هذا القبر؟

- لا.

أشار عبدوف إلى المدخل.

- هذا التَّابوت اللّعين مليء بعظام القوارض، إنّه مشهدٌ كابوسيٌّ حقًّا. ماذا يعني ذلك؟

- لا أدري، لم يكن يجدر بك فتحه. أنت لا تحترم الموتى...

- أيّ موتى؟ أين جثَّة جوديت هيرو؟ هل ماتت حقًّا؟

- ماتت ودُفِنَتْ يا فتى. لقد نظَّمت جنازتها بنفسي.

ارتجف الملازم.

- إذن أنتَ مَن يعتني بالقبر؟

- نعم أنا.

صرخ كريم فجأةً وهو يقترب من فوهة السّلاح:

- أين هي؟ أين فابيان هيرو؟

- لن أسمح لك بإيذائها.

- أيّها المحافظ، هذه القضيَّة تتجاوز بكثير تدنيس المقبرة. ثمّة جرائم قتل.

- أعرف.

- تعرف؟

- لقد بثّت جميع القنوات التلفزيونيّة الخبر.

- إذن، أنت تعرف أنها جرائم متسلسلة، مع تشويهٍ ووضعيّاتٍ مرعبة وكلّ الجنون الممكن... كروزييه، أخبرني أين يمكن أن أجد فابيان هيرو!

كانت ملامح كروزييه غارقةً في الظّلّ مثل وجهٍ متخفّ. وكان لا يزال يشهر سلاحه إلى صدر العربيّ.

- يجب ألَّا تؤذيها.

- كروزييه، لن يؤذيها أحد. فابيان هيرو هي الشَّخص الوحيد الذي يمكنه أن يساعدني على فهم هذا الجنون. كلُّ الأدلة تشير إلى ابنتها، هل تفهم؟ كلّ أصابع الاتّهام تتَّجه نحو جوديت هيرو التي كان من المفترض أن ترقد بسلام في هذا القبر!

تجمَّدَ الرّجلان ثوانِيَ أخرى تحت زخَّات المطر، ثمّ خفض كروزييه سلاحه ببطء. أدرك كريم أنّ عليه إغلاق فمه والانتظار. أخيرًا، ارتفع صوت المحافظ:

- تعيش فابيان على بعد عشرين كيلومترًا من هنا، على هضبة «هرزين». سأصطحبك إليها. إن تسبَّبت لها بأيّ أذى، فلن أتردّد في قتلك.

ابتسم كريم، ثمّ استدار فجأةً وركل حنجرة المحافظ بكعبه، فارتطم جسم كروزييه بلوحات الرّخام.

انحنى كريم على الرَّجل العجوز الذي فقد الوعي، وسحبه إلى مكانٍ محميٍّ نسبيًّا من العاصفة وهو يطلبُ منه الصّفح في قرارة نفسه.

لكنَّه كان مُضطرًّا إلى إبعاده.

عليه أن يتحرَّك بحرِّيّة.

52

- إنّه الجحيم يا عبدوف، الجحيم!

قطع صوتُ باتريك آستييه عاصفةً من التّشويش. رنَّ الهاتف الجوّال بينما كان كريم يعبر سهبًا حقيقيًّا رمادِيًّا. فاهتزَّ الشُّرطيُّ وكاد يحيد عن الطَّريق. وواصل آستييه بلهجةٍ محمومةٍ:

- المهمّتان اللّتان كلّفتني بهما قنبلتان موقوتتان، وقد انفجرتا في وجهي.

شعر كريم بأعصابه تلتوي وتُعقّد تحت جلده استعدادًا للأسوإ.

- ها أنا أنصتُ إليك. قال وهو يوقف السَّيّارة على جانب الطَّريق بأضواءٍ أماميّة مُطفأة.

- أوَّلًا، حادث سيلفان هيرو. لقد وجدتُ الملف. وتأكَّدت من صحَّة معلوماتك. توفِّي سيلفان هيرو على درّاجة هوائيّة، في طريق 17 ، تحت عجلات عربة مجهولة. قضيَّة حزينة... ومحفوظة. أجرت الشُّرطة تحقيقًا روتينيًّا. لا يوجد أيّ شهودٍ ولا أيّ دافعٍ يمكن أن يوحي بروايةٍ أخرى...

- ولكن؟

- ولكن، منذ ذلك الوقت، قطعنا أشواطًا طويلة في أساليب معالجة الصُّوَر...

تنبَّأ كريم بخطاب تكنولوجيّ جديد، فتدخّل:

- من فضلك، آستييه، ادخل في صلب الموضوع مباشرة!

- حسنًا. وجدتُ صورًا في الملفّ، صورًا بالأبيض والأسود التقطها مُصوِّر الصّحيفة المحلِّيّة. نرى فيها آثار إطارات الدَّرّاجة متشابكة مع آثار عجلات السَّيّارة. كلّ شيءٍ كان صغيرًا وضبابِيًّا إلى درجة أنني تساءلت عن سبب احتفاظهم بها.

- ثمّ؟

صمت خبير الكيمياء بضع لحظاتٍ ليزيد من التّشويق.

- ثمّ، لدينا في جامعة «غرونوبل» معهد بصريّات عالي الأداء.

- اللّعنة، آستييه، سوف..

- انتظر. إنّهم قادرون على معالجة الصُّوَر إلى درجةٍ لا يمكنك تخيُّلها. بعد مسحها ضوئيًا وإدخالها في الحاسوب، يُدخلون عليها تعديلات عديدة من تكبير وتباين وتغيير الأُطر والألوان، إلخ... فيسلّطون الضَّوء على تفاصيل غير مرئيّة بالعين المجرّدة. وبما أنّي أعرفُ هؤلاء المهندسين جيّدًا، أيقظتهم وأرسلت إليهم الصُّوَر في نسخة رقميّة ليعملوا عليها. إنهم حقًّا رائعون. لقد...

- ثمّ يا آستييه؟ ثمّ؟

صمتٌ جديد، تشويقٌ جديد:

- نتائجهم تُشير إلى روايةٍ مختلفةٍ تمامًا عن تلك التي وردَتْ في التّقرير. كبّروا آثار إطارات الدَّرّاجة والسَّيّارة، ودرسوا اتِّجاه الخطوط على الإسفلت بدقَّة. استنتاجهم الأوَّل هو أنَّ هيرو لم يكن مُتَّجهًا إلى عمله في الجبال كما قال الملفّ. بل فى الاتِّجاه المعاكس، كان هيرو يقود درّاجته نحو الكُلِّيَّة. لقد تحقَّقتُ من الخارطة.

- لكن... ماذا قالت زوجته فابيان؟

- لقد كذبَتْ. قرأتُ شهادتها، لقد أكَّدت ببساطة ما افترضه رجال الجندرمة، أنّه كان يتَّجه نحو قِمَّة «بالدون».

ضغط كريم على فكَّيْه. كذبةٌ جديدة، لغزٌ جديد. وتابع أستييه:

- هذا ليس كلّ شيء. ركَّزَ خبراء البصريّات أيضًا على آثار إطارات السَّيّارة. كانت مرتسمة في الاتِّجاهين يا عبدوف. مرَّ السّائق فوق جسد سيلفان مرَّةً أولى، ثمّ تراجع ودهسه ثانيةً. إنها جريمة قتل، جريمة قتلٍ باردةٌ مثل ثعبانٍ وسط بيضته.

فقد كريم قدرته على الاستماع. دقَّ ناقوس الموت في قلبه ببطء. ها هو يكتشف أخيرًا دافعًا إلى الانتقام. بعيدًا عن هروب المرأتَيْن، وبعيدًا عن حياة الخوف والمطاردة التي تسبَّبت بشكلٍ غير مباشرٍ في وفاة جوديت، حدثت جريمةُ قتل. ضحيّتها سيلفان هيرو. لقد أجهز الشّياطين أوّلًا على «الرَّجل القويّ» في العائلة، ثمّ طاردوا النّساء.

فابيان هيرو، جوديت هيرو، تداخلت أفكار عبدوف.

- والمستشفى؟ سأل.

- القنبلة الثّانية! لقد راجعتُ سجلّ ولادات سنة 1972، وكانت صفحة 23 ماي ممزّقة.

- ديجا فو[1].

تابع آستييه:

- لكن هذا ليس أغرب ما في الأمر. لقد نزلتُ إلى الأرشيف، حيث تُخزّن ملفّاتُ الأطفال الطِّبِّيّة. متاهةٌ حقيقيّة، ووجدتُ ملفّ جوديت دون صعوبة. هل تفهم ماذا يعني ذلك؟ حدث شيءٌ آخر في تلك اللّيلة، حدثٌ كُتِب في سجلّ الولادات العامّ، ولكن ليس في ملفّ الطّفلة الشَّخصيّ. لقد مزّقوا تلك الصّفحة لمحوِ آثار الحدث الغامض، وليس للتّعتيم على ولادة جوديت. استجوبت بعض الممرّضات، لكنّهنّ أردنَ النّوم وحسب. وكنّ صغيراتٍ جدًّا في السِّنّ بالقياس إلى قصص العمّ آستييه...

شعر كريم أنّ الخبير يتظاهرُ بالمزاح درءًا لخوفه. أحسَّ بذلك حتّى من خلال التّشويش المتواصل، فشكره، وأقفل الخط.

حدَّقَ في الكتلة العشبيّة على تلّ «هرزين»، وقد ظهرت على بعد أربعمائة مترٍ من مكانه.

هناك، فوق تلك الهضبة المظلمة، كانت الحقيقة بانتظاره.

[1] وهم سبق الرّؤية أو الاستئلاف Déja-vu: مصطلح فرنسيّ يعني «شوهد من قبل»، وهي ظاهرة نفسيّة يتخيَّل فيها الشَّخص أنّه سبق وأن رأى مكانًا لم يزره من قبل أو شخصًا لم يره من قبل، أو يتخيَّل تكرار حدوث موقف أو مشهد رغم أنّه لم يسبق وأن حدث فعلًا. (المترجمة).

53

منزل فابيان هيرو.

قِمَّة التَّلّ، جدرانٌ حجريّة، نوافذُ ميّتة.

مرَّت السُّحب الشَّاحبة عبر السَّماء الكثيفة وقد توقَّفَ المطر وحلَّقت طبقات الضَّباب ببطءٍ على طول السُّفوح الزُّمرُّديّة، سفوحٌ لا يحدّها سوى الفراغ. لا يوجد شيءٌ ولا أحدٌ على نطاق عشرين كيلومترًا أو أكثر.

ركن كريم سيّارته وصعدَ التَّلّ المعشّب. ذكَّره هذا المنزل بالبيت الذي سكنته المرأة قرب «سارزاك». ولمح بجانبه طبق أقمارٍ صناعيّة ضخمًا أبيض اللّون. أخرج سلاحه ووجده مشحونًا وجاهزًا، فاطمأنّ نسبيًّا.

قبل أن يتَّجه نحو الباب، ذهب إلى المرآب الذي يأوي سيَّارة فولفو مُغطَّاة بشرشف خفيف. لم تكن مقفلة. فتح غطاء المحرِّك ودمّر صندوق المصاهر ببضع حركاتٍ خبيرة. إذا سارت الأمور إلى الأسوإ، فلن تتمكَّنَ فابيان هيرو، مهما حدث من الفرار.

سار الشُّرطيُّ نحو البوّابة، وطرق بضع مرَّاتٍ ثمّ ابتعد عن إطار الباب. ففُتِح الباب بعد ثوانٍ قليلة دون أيّ صوت. لم تعد فابيان هيرو إذن تعيش وسط الخوف.

عبر كريم المدخل مُخفِيًا سلاحه.

فوجد في انتظاره امرأةً في مثل طوله، ونظرةً حديديّة تواجه نظرته. كانت تملك كتفَيْن مشدودتَيْن ووجهًا شفَّافًا منتظمًا متوّجًا بخصلاتٍ داكنة مُجعَّدة ونظّارة بإطارٍ سميك. لم يعرف كريم كيف يصف هذا الوجه الحالم، شبه الغائب.

- الملازم كريم عبدوف.

لم يلاحظ أيّ أثر للمفاجأة على ملامح المرأة. نظرت إلى كريم من فوق نظَّارتها وهزت

رأسها قليلًا، ثمّ نظرت إلى اليد التي تُخفي المسدس.

- ماذا تريد؟ سألت بصوتٍ دافئ.

تسمَّر كريم في مكانه كتمثال وسط صمت اللّيل.

- الدّخول، قبل كلّ شيء.

ابتسمت المرأة، وتراجعت في دعوةٍ صامتة.

كانت كلّ المصاريع مغلقة، ومعظم الأثاث مُغطًّى بشراشف ملوّنة باستثناء تلفازٍ مُطفأ وبيانو بمفاتيح لامعة. لمح كريم ورقةً موسيقيّةً مفتوحةً فوق لوحة المفاتيح: سوناتا على سُلَّم السّي بيمول الصَّغير لفريديريك شوبان التي تسمّى السوناتا الجنائزيّة. كان كلّ شيءٍ غارقًا في نورٍ خافتٍ ينبعث من عشرات الشّموع.

همست فابيان هيرو:

- لقد ابتعدتُ عن العالم وعن الزّمان. هذا المنزل يشبهني.

فكَّرَ كريم في الأخت أندريه التي نذرت بقيَّة حياتها لخلوتها المظلمة.

- وطبق القمر الصِّناعيّ بالخارج؟

- نقطة اتِّصالٍ لازمة. عندما تظهر الحقيقةُ سأعرف.

- إنها أقرب ممّا تتصوّرين يا سيّدتي.

أَوْمأَت المرأة برأسها دون أن يتغيَّر تعبير وجهها. لم يتوقَّع رجل الشُّرطة هذا الهدوء، وهذه الابتسامات، وهذا الصَّوت الدافئ. صوَّبَ سلاحه نحوها وهو يشعر بالخجل من تهديد هذه المرأة.

- سيّدتي، وقتي ضيِّقٌ جدًّا. أريد أن أرى صورًا لابنتك جوديت.

- صور...

- من فضلك. لقد تقصّيتُ أثرك مدَّةً تتجاوز العشرين ساعةً مُحاوِلًا فهم قصّتك. لماذا نظّمتِ هذه الخدعة؟ لماذا سعيتِ لمحوِ وجه طفلتك؟ في الوقت الحالي، أعرف حقيقتَيْن فقط. الأولى أنَّ جوديت لم تكن مشوّهةً كما اعتقدت في البداية. على العكس من ذلك، أظنّ أنّها كانت رائعة الجمال. والحقيقة الأخرى هي أن وجهها يحمل رغم ذلك مفتاح الكابوس، كابوسٌ جعلك تلوذين بالفرار منذ زمن بعيد واستيقظ مؤخرًا مثل بركانٍ خبيث. لذا، أريني الصُّوَر وأخبريني بالقصة كاملة. أريد أن أعرف التّواريخ، التّفاصيل،

الأسباب، كلّ شيء. أريد أن أفهم كيف ولماذا ترتكب فتاة صغيرة ماتت منذ أربعة عشر عامًا مذبحةً بمدينة جامعيّة في سفح جبال الألب!

بقيت المرأة جامدةً بضع ثوانٍ، ثمّ عبرت البهو بخطواتها العملاقة وتبعها كريم مُتشبِّثًا بسلاحه. كان ينظر إلى اليمين وإلى اليسار. غرف أخرى، شراشف أخرى، ألوان أخرى. راوح المنزل بين أجواء الأكفان والكرنفال.

في الجزء الخلفي من غرفة صغيرة، فتحت فابيان هيرو خزانةً وأخرجت صندوقًا حديديًّا. فمدَّ كريم يده موقِفًا حركتها، وفتح الصّندوق بنفسه.

صور، فقط بضع صور فوتوغرافيّة.

لمست المرأةُ الأسطح اللّامعة وكأنّها تغمس يدها في ماء التّعميد. أخيرًا سلّمت الشُّرطيّ صورة.

ابتسم رغمًا عنه.

نظرت إليه فتاةٌ صغيرةٌ ذاتُ وجهٍ بيضويٍّ وبشرة داكنة مُحاطة بخصلات بُنِّيّة قصيرة. عينان زرقاوان تحتَ حاجبَيْن طويلَيْن سميكَيْن. كانت فائقة الجمال.

تأمَّلَ كريم الصّورة وهو يشعر أنّه يعرفُ هذا الوجه منذ زمن طويل. منذ الأزل.

لكنَّ المعجزة لم تحدث. كانَ الشُّرطيُّ يأمل أن تكشف له هذه الملامح بطريقةٍ أو بأخرى طريق الحقيقة. ثمّ همست فابيان بصوتها الدّافئ:

- التقطت هذه الصُّورة قبل أيَّامٍ قليلة من وفاتها، في «سارزاك». كان شعرها قصيرًا، وكُنّا...

رفع كريم نظره.

- لا، ثمّة خطأٌ ما. من المفترض أن يمنحني هذا الوجه فكرة، إشارة، تفسيرًا. بينما لا أرى سوى فتاةٍ صغيرةٍ جميلة.

- لأنَّ هذه الصُّورة غير مكتملة.

قدَّمَت له المرأة صورة أخرى:

- هذه آخر صورةٍ مدرسيّةٍ في «غيرنون». مدرسة لامارتين، الفصل الثالث قبل مغادرتنا إلى «سارزاك».

نظر الشُّرطيُّ إلى وجوه الأطفال المبتسمة. ورأى جوديت، ثمّ أدرك الحقيقة المذهلة. هذا ما توقَّعه. هذا هو التَّفسير الوحيد الممكن. ومع ذلك لم يفهم. فهمس:

- لم تكن جوديت ابنةً وحيدة؟

- نعم ولا.

- نعم ولا؟ ماذا؟ كيف؟ فسّري لي.

- لا أستطيع أن أفسّر لك أيها الشَّابّ. أستطيع أن أخبرك فحسب كيف حطّم شيءٌ لا يمكن تفسيره حياتي.

54

كانت قاعة الأرشيف السُّفلية تضمُّ محيطًا حقيقيًّا من الورق، طوفانًا من الملفّات المتدفّقة المربوطة المنتفخة. سدّت الأكوام المتشابكة معظم الممرّات. وفي الخلف، تحت أضواء النّيون، امتدَّت أسوارٌ شاهقةٌ من الوثائق على مدى البصر تنتهي في خطوطٍ باهتةٍ متلاشية.

شقَّ نيمانز طريقه في الممرّ الأوّل متفاديًا المطبّات الورقيّة. كانت الملفّات اللّامتناهية مُثبَّتةً في مكانها بواسطة شِباكٍ طويلةٍ تمنع منحدرات الورق من الانهيار. أثناء سيره، فكَّرَ في فاني، في الدّقائق اللّامادّيّة التي عاشها للتوِّ. وجهٌ أنثويٌّ يبتسم له في ظلّ الغرفة. يدٌ مخدوشةٌ تمتدُّ لتطفئ المصباح. عينا فاني تلمعان في الظَّلام كشعلتَيْن صغيرتَيْن. لوحةٌ جداريّةٌ كاملةٌ سرِّيّة، نقوشٌ خفيفة، إيماءات وهمسات، لحظات أبديّة.

حاول التَّركيز في اللّحظة الرّاهنة. قاعة الأرشيف. كان يعرف مكان الملفّات التي يريدها، فقد اتَّصل هاتفيًّا بأمين الأرشيف، فوصف له المكان بدقَّة رغم النّعاس. تقدّم نيمانز، ثمّ استدار، ثمّ سار حتّى وجد صندوقًا موضوعًا في خزانة مغلقة بقفل متين. كان حارس المستشفى قد أعطاه المفتاح. إن كانت هذه الوثائق القديمة «غير مهمّة» كما يدَّعي الجميع، فَلِمَ حمايتُها بهذه الطّريقة؟

فتح الصّندوق وأخرج مجموعةً من الوثائق وبدأ القراءة. إنها فعلًا تقارير الممرّضات عن الأطفال الحديثي الولادة. تحتوي كلّ ورقةٍ على اسم الرّضيع ولقبه ووزنه وطوله وفصيلة دمه، كما تتضمَّن عدد الرّضّاعات والمنتجات الطِّبِّيّة (فيتامينات على الأرجح). وهي كما قال له مدير مركز المكفوفين، معلومات عاديّة جدًّا. تصفّح كلَّ الملفّات التي تُعَدُّ بالمئات وتُغطّي أكثر من خمسين عامًا. لم تقع عيناه على أيّ اسمٍ مألوفٍ ولم يوقظ أيّ تاريخٍ بصيصًا من الضَّوء في ذهنه.

نهض نيمانز وقرَّرَ مقارنة هذه الوثائق بتلك الموجودة في الملفّات الرَّسميّة للمواليد الجدد. أخرج حوالي خمسين ملفًّا من السِّجلات المصفوفة ووجهُهُ يتصبَّب عرقًا. أحسّ بسترته الصُّوفيّة تنفث حرارةً ثقيلة على صدره. وجمّع الملفّات على طاولةٍ معدنيَّة ثمّ وضعها بحيث يمكن قراءة الأسماء بوضوح. بدأ بفتح كلّ ملفٍّ ومقارنة الصّفحة الأولى بالوثائق المسروقة.

يوجد تزوير بالفعل.

التّقارير الموجودة في الملفّات الرَّسميّة مزوّرة. قلّد إيتيان كايوا كتابة الممرّضات بطريقةٍ لا يمكن أن ينتبه إليها إلَّا مَن يقارنها بالتّقارير الحقيقيَّة.

لماذا تكبّد كلّ هذا العناء؟

وضعَ الشُّرطيُّ أوَّلَ ورقتَيْن جنبًا إلى جنب. قارن كلّ عمودٍ وكلّ صفّ، ولم يجد شيئًا. نسختان متطابقتان. قارن ملفَّاتٍ أخرى. لم يجد شيئا. محتوى الصّفحات هو نفسه. عدّل نظَّارته فوق أنفه ومسح قطرات العرق من تحت العدسات، ثمّ نظر إلى ملفَّاتٍ أخرى بجدِّيّة أكثر.

ووجد ضالّته.

فرقٌ ضئيلٌ يتقاسمه كلّ زوجٍ من التّقارير، الحقيقيّ والمزيّف. لم يفهم نيمانز معنى ما وجده، لكنّه شعر بأنه اكتشف للتَّوّ أحد مفاتيح القضيَّة اللّعينة. كان وجهه يلتهب مثل المرجل، وفي الوقت نفسه، كان البرد يتغلغل في أوصاله. تثبَّتَ من وجود هذا الاختلاف في ملفَّاتٍ أخرى قبل أن يحشر جميع المستندات، أي الملفّات الكاملة والوثائق التي سرقها كايوا، في علبةٍ من الورق المقوّى ثمّ يخرج مُحمَّلًا بغنيمته.

خبَّأَ حمولته في الصّندوق الخلفيّ من سيّارته الجديدة -سيَّارة بيجو زرقاء تابعة لقوّات الجندرمة- ثمّ عاد إلى المستشفى، مُتوجِّهًا هذه المرة إلى قسم النِّساء والتّوليد.

في الرّابعة والنِّصف صباحًا، بدا المكان مخدّرًا بالصّمت والنّوم رغم أضواء النّيون السّاطعة. نزل إلى غرفة العمليّات، فالتقى بالممرّضات والقوابل في أزيائهنّ الشّاحبة ونعالهنَّ الورقيّة. حاول بعضهنّ إيقاف نيمانز الذي لم يكن يرتدي ملابس معقّمة، لكن بطاقته ذات الألوان الثَّلاثة ووجهه الجامد جعلهنّ يتراجعن.

أخيرًا، رأى طبيبَ توليدٍ خارجًا من غرفة العمليَّات وسحنته تحمل كلّ تعب العالم. قدَّمَ نيمانز نفسه بإيجازٍ وطرح سؤاله الوحيد:

- دكتور، هل يوجد سببٌ منطقيٌّ لتغيُّر وزنِ الرّضيع خلال اللّيلة الأولى من حياته؟

- ماذا تعني؟

- هل من الشّائع أن يفقد الرّضيع أو يكسب بضعَ مئاتٍ من الجرامات في السّاعات التي تلي ولادته؟

أجاب الطّبيب وهو يراقب القبّعة اللّامعة وملابس الشُّرطيّ القصيرة:

- لا. إذا فقد الطّفل الوزن بهذه السّرعة، يجب علينا إجراء فحصٍ طبّيٍّ شاملٍ على الفور، فهي علامة على وجود مشكلة خطيرة و...

- وماذا لو زاد وزن الطّفل فجأةً في ليلة واحدة؟

بدا الطّبيب مندهشًا.

- لا يمكن أن يحدث شيءٌ كهذا. أنا لا أفهم ما تعنيه.

ابتسم نيمانز:

- شكرًا لك دكتور.

أغمض الشُّرطيُّ عينَيْه وهو يسلك طريق الخروج، ولمح أخيرًا، تحت جفنَيْه الثَّقيلَيْن، الدّافع وراء جرائم قتل «غيرنون».

المكيدةُ المذهلةُ للأنهار القرمزيّة.

كلّ ما كان عليه فعله هو التّحقُّق من جزئيّةٍ أخيرة.

في مكتبة الجامعة.

55

- اخرجوا! اخرجوا! اخرجوا!

نظر إليه رجال الشُّرطة القضائيَّة من فوق كتبهم وسط قاعة المكتبة المضيئة، الضُّبّاط السِّتّة الذين يدرسون كتبًا تتحدَّث بشكلٍ أو بآخر عن الشَّرّ والنّقاء، والآخرون الذين يحاولون فكَّ شفرة قوائم الطُّلّاب الّذين زاروا المكتبة خلال الصّيف أو أوائل الخريف. بدوا كجنودٍ منسيّين في حربٍ انتقلت إلى جبهاتٍ أخرى دون علمهم.

- اخرجوا! (كرَّرَ نيمانز). لقد انتهى التّحقيق هنا.

تبادل الرّجال نظراتٍ متشكّكة. لا شكَّ أنهم يعرفون أن المحافظ أوّل نيمانز لم يَعُد معنيًّا بالقضيّة. لا شكَّ أنهم لم يفهموا سبب ارتداء الشُّرطيّ الشّهير غطاء رأسٍ يشبه الجورب ولا سببَ تأبُّطِه صندوقًا من الورق المقوّى. ولكن من يجرأ على الوقوف في وجه بيير نيمانز، وبالخصوص حين تطلُّ هذه النّظرة المخيفة من عينَيْه؟

نهضَ الشُّرَطُ دون اعتراضٍ وارتدوا ستراتهم. أثناء خروجهم التفت إليه أحدهم، الملازم الممتلئ الذي كلّفه بدراسة أطروحة ريمي كايوا، وقال بصوتٍ منخفضٍ وهو يقترب من الباب:

- لقد أتممتُ قراءة ذلك المجلد الضَّخم يا حضرة المحافظ. أردت أن أخبرك... قد لا يكون هذا مهمًّا، لكن استنتاج كايوا مفاجئٌ حقًّا. هل تتذكَّر «أثلون»، الرّجل الذي جمع بين الذّكاء والقوّة، العقل والجسد، في العصور القديمة؟ حسنًا، يقترح كايوا نوعًا من... المشاريع، لإحياء هذه الوحدة. مشروعه غريبٌ حقًّا. وهو لا يعني إنشاء برامج تعليميّة جديدة في المدارس أو الكلّيّات، ولا تدريبًا جديدًا للمدرّسين أو شيئًا من هذا القبيل. بل يقدم حلًّا...

- وراثيًّا.

- هل تصفَّحت كتاباته أنتَ أيضًا؟ فكرة مجنونة! في ذهنه، ينبع الذّكاء من واقعٍ بيولوجيّ، من حقيقةٍ جينيّةٍ أو وراثيّةٍ يجب دمجها مع جيناتٍ أخرى مسؤولة عن القوّة البدنيّة، للحصول على كمال الأثلون...

ملأت هذه الكلماتُ عقل نيمانز. لقد عرف الآن طبيعة مؤامرة الأنهار القرمزيّة. ولم يكن يرغب أن يفسد شرطيٌّ أخرق بكلماته العرجاء ما انطبع بحروفٍ حارقةٍ على جدران روحه. يجب أن يبقى الهولُ الّذي اكتشفه كامنًا، صامتًا، ومخفيًّا.

قال مُتذمِّرًا:

- اذهب الآن يا فتى.

لكن الشُّرطيّ واصل الكلام:

- في الصّفحات الأخيرة، يتحدّث كايوا عن انتقاء الولادات، عن تزاوجٍ مُعَقْلَن، ونوعٍ من النّظام الشّموليّ... أفكارٌ مجنونةٌ يا حضرة المحافظ! مثل رواية خيالٍ علميٍّ من السِّتّينيّات... اللَّعنة! لو لم يمت الرَّجل مقتولًا بتلك الطريقة المريعة، لكان الأمر مضحكًا.

- اخرس أرجوك! كفى!

نظر الشُّرطيُّ إلى نيمانز، تردَّدَ لحظاتٍ، ثمّ خرج أخيرًا.

عبر المحافظ قاعة القراءة الفارغة. أحسَّ بالحمّى تحاصره من جديدٍ مثل إكليلٍ ملتهبٍ يُحيطُ برأسه، مثل أقطابٍ كهربائيّةٍ حارقة. وصل إلى مكتب ريمي كايوا، أمين مكتبة الجامعة، ورأسه يوشك على الانفجار.

نقر على لوحة المفاتيح، فأضاءت الشَّاشة على الفور. فجأةً غيّر الشرطي رأيه، المعلومات التي يبحث عنها تعود إلى ما قبل السَّبعينيّات؛ ولذلك لا يمكن العثور عليها في الحاسوب.

بحث نيمانز بشكلٍ محمومٍ في أدراج المكتب عن سجلّات تحتوي على القوائم التي تهمّه.

ليست قوائم الكتب.

ليست قوائم الطُّلّاب.

بل قائمة المقصورات الزُّجاجيّة أو ما يعرف بغرف المراجعة التي شغلها آلاف الطُّلّاب

على مرِّ السّنين.

رغم غرابة الفكرة، توقَّعَ العثور على تطابق بين ما تبيَّنه للتَّوّ في قسم الولادات والمنطق الصّارم لتقسيم غرف المراجعة. هذا التّقسيم الذي كان من مشمولات كايوا الأب ثمّ الابن، فأمين المكتبة مسؤول عن تحديد مكان كلّ طالب وسط المكتبة. لم يكن الأمر متروكًا للصّدفة أو لأهواء الرُّوّاد.

وجد المحافظ أخيرًا ما يبحث عنه. فتح صندوقه وأخرج ملفَّات الرُّضّع مرَّةً أخرى. قام بحساب السّنوات التي صار خلالها هؤلاء الأطفال طلّابًا يقضون نهاية اليوم في المكتبة، ثمّ فتش عن أسمائهم في قائمة الأماكن المشغولة في مقصورات المراجعة التي سجّلها أمين المكتبة بعناية.

وسرعان ما اكتشف خرائط الغُرف الصَّغيرة مع أسماء الطُّلَّاب الذين يشغلونها. لا يمكن تخيُّلُ نظامٍ أكثر عقلانيّةً أو صرامةً أو أكثر ملاءمةً للمؤامرة التي صارَ مؤمنًا بوجودها. كان مكان كلّ من الأطفال المذكورين في الوثائق، والّذينَ أصبحوا طلّابًا في هذه الجامعة بعد حوالي عشرين سنة، مُحدَّدًا دومًا في المكتبة، على مدار الأيَّام والأشهر والسّنوات، ليس في المقصورة فحسب، بل قبالة الطّالب نفسه أيضًا، من الجنس المخالف.

يا للجحيم! لقد كان محقًّا!

تثبَّتَ من نظريّته مع أسماءٍ أخرى كثيرة مُتعمِّدًا اختيارها بفارق سنواتٍ عديدة. وجد في كلّ مرّةٍ أنّ الطّالب كان يجلس قبالة الشَّخص نفسه، من العمر نفسه ومن الجنس الآخر، أثناء زياراته اليوميّة لمكتبة «غيرنون».

تردَّدت أصداء الصَّمت المطبق داخل قاعة القراءة الفسيحة. دونَ أن يبرح مكانه، فتح هاتفه بأصابع مرتعشة ليتَّصل بحارس بلديّة «غيرنون»، ونجح بصعوبةٍ في إقناعه بالنُّزول إلى الأرشيف لمراجعة عقود الزّواج.

أملى نيمانز الأسماء اثنين اثنين بحيث يتكوَّن كلّ زوجٍ من طالبٍ وطالبةٍ درسَا معًا سنواتٍ في غرفة المراجعة نفسها، وطلب معرفة ما إذا كانا انتهيا إلى الزّواج. فكانت الإجابة بنعمٍ في ثلاثة أرباع الحالات.

- هل هذه لعبةٌ أم ماذا؟ تذمَّرَ الحارس.

بعد التَّحقُّق من تطابق نظريّته مع حوالي عشرين زوجًا، استسلم المحافظ وأغلق الخطّ. ثمّ غادرَ مُسرِعًا.

عبَرَ نيمانز الحرم الجامعيّ بخطواتٍ قصيرةٍ وبحث عن نوافذ فاني دون جدوى. رأى مجموعةً من الصَّحفيّين بصدد الانتظار على درجات أحدِ المباني. وفي كلّ مكانٍ آخر، كان ضبّاط الشُّرطة والجندرمة يجتاحون المروج والممرّات.

حين وجد نفسه بين رجال الأمن ورجال الصّحافة، خيّرَ المحافظ مواجهة زملائه. فعبر عددًا من الحواجز بعد إظهار بطاقته المهنيّة. لكنه لم يتعرّف على أيّ وجه. كانت هذه بلا شكٍّ التّعزيزات الّتي قدمت من «غرونوبل».

دلف إلى المبنى الإداريّ، ووصل إلى بهوٍ واسعٍ مُضاءٍ يذرعه ذهابًا وإيابًا أشخاصٌ معظمهم كبارٌ في السِّنّ، هم على الأرجح الأساتذة والأطبّاء والعلماء. كانت حالة التَّأهُّب عامّة. تجاوزهم نيمانز دون أن يُلقي بالًا لخوفهم ولا لنظراتهم المرتابة.

صعد إلى الطّابق العلويّ وتوجَّهَ مباشرةً إلى مكتب فنسون لويز، عميد الجامعة. عبر الشُّرطيُّ غرفة الانتظار واقتلع من الجدران صور الرّياضيّين الشُّبّان الحائزين على ميداليّات. ثمّ فتح الباب دون أن يطرق.

- ماذا...

هدأ العميد حالما تعرَّفَ على المحافظ. وبإيماءةٍ من رأسه، صرف مرافقيه أو ضيوفه من المكتب. وخاطب نيمانز:

- أتمنّى أن يكون لديك خبرٌ جديد! كلّنا...

وضع الشُّرطيُّ الصُّوَرَ الفوتوغرافيّة على المكتب، ثمّ أخرج وثائق الأرشيف. فاضطرب لويز

- أنا حقًّا...

- انتظر.

أنهى نيمانز ترتيب الصُّوَر والملفَّات أمام العميد. ثمّ وضع كلتَي يدَيْهِ على المكتب وسأل:

- قارن هذه الملفّات بأسماء أبطالك. هل هم مِن العائلات نفسها؟

- ماذا؟

عدَّلَ نيمانز الأوراق أمام محاوره.

- رجالُ هذه الملفّات ونساؤها تزوَّجَ بعضهم من بعض. أعتقد أنهم ينتمون إلى أخويّة الجامعة المشهورة المتكوّنة من الأساتذة والباحثين والمفكّرين... ألقِ نظرةً على الألقاب وأخبرني إذا ما كانوا آباء أو أجدادًا لهذا الجيل من المتفوّقين الذين يفوزون بجميع الميداليات الرِّياضيّة.

وضع لويز نظَّارته، ونظر إلى أسفل.

- حسنًا، نعم، معظم هذه الألقاب...

- أنت تؤكِّد إذن أن أبناء هؤلاء الأزواج يتمتّعون بقدراتٍ استثنائيّةٍ فكريّةٍ وجسديّةٍ في الوقت نفسه؟

انفتحت ملامح لويز المُتوتِّرة على ابتسامةٍ عريضة، ابتسامةِ رضًا مغرورةٍ وَدَّ نيمانز أن يجبره على ابتلاعها.

- ولكن... نعم، تمامًا. هذا الجيل الجديد رائع! هؤلاء الأطفال سوف ينقذون المستقبل صدقني. حتّى ضمن الجيل السّابق كان لدينا بعض الفلتات من هذا النّوع. وجامعتنا، تعتبر هذه المهارات...

وفي لمح البصر، أدرك نيمانز أنّه لم يكن يشعر بعدم الثِّقة تجاه المُثقَّفين بل بالبغض. كان يمقتهم من كلّ أعماق قلبه. كان يكره مواقفهم المتعالية، وقدرتهم على وصف الواقع وتحليله مهما كان. يدخل هؤلاء الأوغاد الحياة مثلما نذهب إلى عرضٍ موسيقيّ، ويخرجون دومًا بخيبةٍ نسبيّة. ومع ذلك، لا يمكن أن نفرح لما حدث لهم دون علمهم. لا يمكن أن نتمنّى ذلك لأي بشر، ولا حتّى ألد أعدائنا. تابع لويز:

- هذا الجيل الشَّابّ سيعزّز مكانة جامعتنا....

قاطعه نيمانز بصوتٍ خافتٍ وهو يعيد الملفّات والصُّوَر إلى صندوقه:

- إذن فلتبتهج! لأنّ هذه الأسماء ستجعلكم مشهورين في كلّ أرجاء البلاد.

نظر إليه العميد باستغراب. ففتح الضّابط فمه لكنه تجمَّدَ فجأةً، كانت ملامح لويز تعبّر عن الهلع:

- ولكن ما بك؟ هل أنت... هل تنزف؟

نظر نيمانز إلى أسفل ولاحظ بركةً سوداء فوق سطح المكتب. الحمّى التي أحرقت رأسه كانت في الواقع دماءه التي سالت من جرحه المفتوح. ترنّح وهو يُحدِّق في انعكاس

وجهه في البركة المظلمة الناعمة، وتساءل فجأةً عمَّا إذا كان ينظرُ إلى انعكاس الضَّحيَّة الأخيرة في سلسلة جرائم القتل.

لم يجد الوقت للإجابة عن السؤال لأنه سقط بعد ثانيةٍ واحدةٍ مغشيًّا عليه، على ركبتَيْه، ووجهه فوق المكتب، مثل ميداليّةٍ نُقِشَت عليها صورته في طلاء دمه الدّاكن.

56

نور، أزيز، حرارة.

ثمّ وجهٌ مُتوَّجٌ بغطاء رأسٍ ورقيّ، معطفٌ أبيض، أضواء النّيون، المستشفى، إنّه في المستشفى! كم مرَّ عليه من الوقت وهو غائبٌ عن الوعي؟ ولماذا يسري هذا الوهن في جسده كسائلٍ حلَّ محلَّ أطرافه وعضلاته وعظامه؟ أراد أن يتكلَّم لكنَّ صوته مات في حلقه، وسمّره التَّعب في جوف سريره المعقّم.

- إنّه ينزف كثيرًا! يجب رتق الشّريان الصّدغيّ.

سمع صوت بابٍ يُفتح، ثمّ صرير عجلات. ثمّ جهَره ضوءٌ أبيضُ ساطع، انفجارٌ ضوئيّ ملأ حدقتَيْه. ثمّ صوتٌ آخر:

- ابدؤوا نقل الدم.

سمع الشُّرطيُّ أصوات نقرٍ وشَعرَ بمواد باردة تُلامس جسده. أدار رأسه فرأى أنابيب مُتَّصلة بكيسٍ مُعلَّقٍ ثقيل.

هل هذه هي النّهاية حقًّا، هل سيغرق وسط الغيبوبة والروائح المعقّمة؟ هل سيتلاشى في هذا الضّوء رغم أنّه فهم دافع القاتل، وعرف أخيرًا سرَّ سلسلة الجرائم؟ تحوّلت ملامح وجهه إلى تكشيرة. وفجأةً عاد الصّوت:

- احقنُوهُ بعشرين سنتيمترًا مكعّبًا من الديبريفان.

فهم نيمانز وحاول النّهوض. أمسك بمعصم الطَّبيب الذي كان يحمل مشرطًا كهربائِيًّا وهمس.

- دون بنج!

بدا الطَّبيب مذهولًا.

- دون بنج؟ ولكن... أنت ممزَّقٌ يا صاح. تحتاج إلى غرز، يجب خياطة الـ...

وجد نيمانز القوَّة ليُضيف:

- موضعيّ... أريد بنجًا موضعيًّا، ليس أكثر...

تنهَّدَ الرّجل، ودفع مقعده إلى الخلف مُخاطِبًا طبيب التّبنيج:

- نعم، استعملوا الزيلوكايين. الجرعة القصوى، أربعين سنتيمترًا مكعّبًا.

استرخى نيمانز. نُقِل أمام مصابيح جراحيّةٍ ثلاثيّة الرّأس وارتكزت رقبته على مسند الرّأس قريبًا من الضّوء. أدار أحدهم رأسه برفقٍ، ثمّ حجب ستارٌ معقّمٌ رؤيته فأغمض عينَيْه. وبينما كان الطَّبيب والممرّضات يعملون حول صدغه، أصبحت أفكاره أقل وضوحًا. تباطأ نبضه، وهدأت آلام رأسه، وبدأ الخدر يسري في أطرافه.

السِّرّ... سرُّ عائلتَيْ كايوا وسرتيس... حتّى ذلك أصبح عائمًا، غريبًا، بعيدًا... حلَّ وجه فاني محلَّ كلّ الأفكار... جسدها الدّاكن العضليّ الناعم مثل حجارةٍ بركانيّةٍ صقلتها الحمم، والزّبد، والرّياح... فاني... كانت صورتُها تحت جلدِه تشبه الهمسات، وحفيف الحرير، وأنفاس الجنِّيّات.

- توقَّفوا!

دوّى الصَّوتُ الآمر في غرفة العمليّات، فتوقَّف كلّ شيء.

مزَّقت يدٌ سمراء السّتارة الجراحيّة ورأى نيمانز في طوفان الضّوء شيطانًا بجدائل طويلة يحرّك بطاقة ثلاثيّة الألوان تحت أنوف الطَّبيب والممرّضات المذهولين.

كريم عبدوف.

نظر نيمانز إلى يمينه، لا تزال الأنابيب السّوداء تجري تحت جلده، في عروقه، حاملةً إكسير الحياة، عصير الشّرايين.

لوَّحَ الطَّبيب بمقصّه وقال كريم لاهثًا:

- لا تلمس هذا الشُّرطيّ!

توقَّفَ الطَّبيب مرَّةً أخرى. اقترب عبدوف ودقَّق النّظر في جرح نيمانز الذي أصبح الآن مخيطًا كاللّحم المقدّد قبل قصّه. هزَّ الطَّبيب كتفَيْه.

- يجب أن أقصَّ الخيوط على الأقلّ.

ألقى كريم نظراتٍ حذرةً حوله.

- كيف حاله؟

- إنّه قويُّ البنية. لقد فقد الكثير من الدّماء، لكنَّنا أجرينا عمليَّة نقل دم وخِطْنا الجرح. العمليّة لم تنتهِ بعد و...

- هل أعطيته شيئًا؟

- شيئًا؟

- مُنوِّمًا أو شيئًا من هذا القبيل؟

- بنجٌ موضعيٌّ فحسْب، قبل...

- جِدْ لي بعض المنشّطات. أمفيتامين أو حتّى كوكايين، لا يهمّ. يجب إيقاظه بأيِّ طريقة.

كان نظر كريم مُركّزًا على نيمانز رغم أنّه يخاطب الطَّبيب. تابع:

- إنها مسألة حياةٍ أو موت.

نهض الطَّبيب وبحث في الأدراج المسطَّحة حتّى وجد حبوبًا صغيرة.

ابتسم كريم لنيمانز.

- تفضّل.

قال الطبيب.

- عندما يتناول هذا، سيكون في كامل وعيه خلال نصف ساعة ولكن...

- اخرجوا فورًا.

صرخ الشُّرطيُّ العربيُّ في المجموعة الصَّغيرة ذات المعاطف البيضاء:

- ليخرج الجميع! أحتاج إلى التَّحدُّث مع المحافظ.

هرب الطَّبيب والممرّضات.

شعر نيمانز بابر نقل الدم تغادرُ ذراعه. ثمّ سلّمه كريم سترته الصُّوفيّة المكسوَّة بالدّماء.

في يده الأخرى، كان يزن حفنةً من الحبوب الملوّنة.

- منشّطاتك يا حضرة المحافظ. (ابتسامة خاطفة) عِذْني ألَّا تصبح مدمنًا.

لكن نيمانز لم يضحك. بل أمسك بسترة كريم الجلديّة وهمس وقد شحب وجهه:

- كريم... أنا... أعرف مخطَّطهم.

مخطَّطهم؟

- مُخطَّط سيرتيس، كايوا، شيرنيسيه. مؤامرة الأنهار القرمزيّة.

- ماذا؟

- إنّهم... يستبدلون الأطفال.

57

السَّادسة صباحًا. كان المشهد أسود ومتحرّكًا وغير واقعيّ، كلوحةٍ رسمها إدوارد مونش أو مشهدٍ صوّره تاركوفسكي. بدأ المطر يهطل من جديدٍ لتلميع الجبل للمرّة الأخيرة قبل طلوع الفجر.

تحت أوراق شجرة صنوبر ضخمة، وقف كريم عبدوف وبيير نيمانز وجهًا لوجه. اتَّكأ أحدهما على سيَّارة الأودي واتَّكأَ الآخر على جذع الشّجرة. كانا جامدَيْن مركّزَيْن، مشدودَيْن إلى حدِّ التّصدّع. راقب كريم المحافظ وهو يستعيد قواه أو بالأحرى أفكاره، تحت تأثير الأمفيتامين. لقد أخبره للتَّوّ عن السَّيّارة الرُّباعيّة الدّفع التي كادت تفتك بحياته. لكن عبدوف كان يحثّه الآن على كشف الحقيقة كاملة.

وتحت الأمطار الغزيرة، بدأ نيمانز:

- مساء أمس ذهبت إلى معهد المكفوفين.

- على إثر إيريك جوانو، أعرف. ماذا وجدت؟

- شرح لي المدير شامبلاز أنّه يعالج أطفالًا يعانون من أمراض وراثيّة. أطفال ينحدرون دومًا من العائلات نفسها، أيّ من نخبة الجامعة. يوجد تفسيرٌ علميٌّ لهذه الظّاهرة: هذا المجتمع المصغَّر المثقَّف، ما يُعرف بأخويّة الجامعة، غَرفَ من دمائه حتّى تفقيرِها وراثيًّا بسبب انغلاقه. الأطفال الّذين يولدون اليوم من صلب هؤلاء الأساتذة والعلماء مقدّر لهم أن يصبحوا شديدي الذّكاء وغزيري العلم، لكنّ أجسادهم مرهقةٌ ومنهكة. اعتلّت دماء الجامعة على مرِّ الأجيال.

- وما علاقة هذا بالقضيّة؟

- مبدئِيًّا لا شيء. ذهب جوانو إلى هناك ليستقصي عن أمراض العيون وعن صلتها المحتملة باجتثاث العيون في الجثّتَيْن. لكــــــن الأمر لم يكن كذلك. ليس كذلك على

الإطلاق.

خلال زيارتي، أخبرني شامبلاز أنّ هذا المجتمع التّالف ينتج أيضًا، منذ حوالي عشرين عامًا، طلّابًا أقوياء بدنيًّا. إنهم أطفالٌ أذكياء، لكنّهم قادرون أيضًا على الفوز بجميع الميداليات في البطولات الرّياضيّة. وهذا يتعارض مع بقيَّة المشهد. كيف يمكن للأخويّة نفسها أن تلد سلالات من الأطفال السّقيمين ورجالًا خارقين متألّقين في الوقت نفسه؟

نبش شامبلاز في أصل هؤلاء الأطفال الخارقين. درس سجلّاتهم الطِّبِّيّة في قسم الولادات. بحث في الأرشيف. حتّى إنّه عاد إلى ملفَّات الآباء والأجداد بحثًا عن مؤشّرات، عن خصوصيّاتٍ وراثيّة. لكنه لم يجد شيئًا، لا شيء على الإطلاق.

- وماذا في ذلك؟

- شهدت القِصَّة تطوُّرًا غريبًا في الصّيف الماضي. ففي شهر جويلية، أدَّت دراسةٌ روتينيّةٌ في أرشيف المستشفى إلى اكتشاف أوراق قديمة منسيّةٍ في قبو المكتبة القديمة. كانت شهادات ميلاد تخصُّ آباء الأطفال الخارقين أو أجدادهم.

- وهذا يعني؟

- وجود نسختَيْن من هذه الوثائق، أو، على الأرجح، أن الوثائق التي درسها شامبلاز، في الملفّات الرّسميّة، كانت مزوّرة، وأن المعطيات الحقيقيَّة هي تلك التي اكتُشِفَتْ حديثًا في الخزانة الشَّخصيَّة لأمين مكتبة الجامعة: إتيان كايوا، والد ريمي.

- اللَّعنة!

- نعم. منطقيًّا، كان ينبغي على شامبلاز أن يقارن بين الملفّات التي اطَّلَعَ عليها وتلك التي عُثِر عليها صدفة. لكنه لم يفعل. بسبب قِلَّة الوقت، بسبب التّراخي، بسبب الخوف أيضًا. الخوف من اكتشاف حقيقة مريعة عن نخبة «غيرنون». لكنّي فعلت ما لم يجرؤ هو على فعله.

- وماذا وجدت؟

- الملفّات الرَّسميّة كانت مزوَّرةً بالفعل. قلَّدَ إيتيان كايوا خطَّ الممرّضات وغيَّرَ جزئيّةً صغيرةً في كلّ مرَّة.

- أيَّة جزئيّة؟

- وزن الطّفل، وزنه عند الولادة. بحيث يتوافق الرّقم مع الصّفحات التّالية في الملفّ، تلك الّتي تسجّل فيها الممرّضات الوزن في الأيام التّالية.

- لا أفهم.

انحنى نيمانز إلى الأمام، وتحدّث بصوتٍ مكتوم:

- ركّز يا كريم. زوَّرَ إيتيان كايوا التّقارير الأولى لإخفاء التّضارب بين وزن الرّضيع عند الولادة ووزنه يوم الغد. اكتسب الرُّضّع أو فقدوا عددًا من مئات الجرامات في ليلةٍ واحدة. سألتُ طبيب التّوليد وأعلمني أنّ الأمر مستحيل علميًّا. ففهمت. لم يكن الوزن هو ما تغيَّرَ بين عشيّة وضحاها، بل الرّضيع نفسه. هذه هي الحقيقة المذهلة التي سعى كايوا الأب إلى إخفائها. هو، أو بالأحرى شريكه، سيرتيس الأب، الممرّض المساعد اللَّيليّ في مستشفى «غيرنون»، كان يستبدلُ الأطفال في غرفة الولادة.

- لكن... لماذا؟

ابتسم نياز في مرارةٍ والمطر يجلد وجهه مثل سياطٍ من المسامير:

- تجديد المجتمع المصغَّر المنهك، ضخّ دماءٍ جديدةٍ قويّة في صفوف أخويّة المثقّفين. كانت وسيلة كايوا وسيرتيس بسيطة: استبدال بعض الأطفال المنحدرين من عائلات الجامعة بأطفالٍ من العائلات الجبليّة المختارة وفقًا لأجساد آبائهم. وبهذه الطّريقة، تندمج أجسامٌ سليمةٌ وشديدةٌ في مجتمع «غيرنون». الفكريّ. تختلط الدّماء الجديدة بالقديمة، في المكان الوحيد الّذي يتجاور فيه أبناء الأكاديميّين العظماء والفلّاحين النّكرات: قسم الولادة. القسم الذي يجمع كلّ ولادات المنطقة مهما كان مستواها العلميّ أو الاجتماعيّ. هذا هو معنى الكلمات الغامضة في دفتر سيرتيس: «نحن مهندسو الأنهار القرمزيّة». هذا المصطلح لا يدل على كتابٍ أو شبكةٍ مائيّة، بل على دماء سكّان «غيرنون»، عروق أطفال الوادي. تسيطرُ عائلتا كايوا وسيرتيس على دماء المدينة. لقد مارس الأوغاد أبسط طريقة تلاعبٍ جينيٍّ ممكن: استبدال الأطفال عند الولادة.

ثمّ خمَّنتُ أنّ كايوا وسيرتيس، الآباء والأبناء، كانوا يسعون نحو هدفٍ أكثر تحديدًا. فما أرادوه ليس تجديد الدم الثّمين للجامعيّين فحسب، بل أيضًا خلق كائناتٍ مثاليّة، رجال خارقين، كائناتٍ في مثل جمال الرّياضيّين في صور دورة الألعاب الأولمبيّة ببرلين، الصُّوَر التي رأيتها في منزل كايوا. وفي الوقت نفسه، كائناتٍ في مثل ذكاء أشهر باحثي «غيرنون».

فهمتُ أنّ هؤلاء المخابيل أرادوا توحيد أدمغة الجامعة وأجساد القرى الجبليّة، دمج قدراتِ الأساتذة الفكريّة وقدرات السّكان الأصليّين البدنيّة من منقّبين عن الكريستال ومربّي مواشي. لقد رسموا نظامًا دقيقًا حدَّ الجنون، فهم لا يقتصرون على تنظيم الولادات، بل الزّيجات أيضًا بين الأطفال المختارين.

استوعب كريم هذه المعلومات واحدةً تلو أخرى، وبدا أنها تجد صدًى عميقًا في صمته. استمرَّ خطاب نيمانز المحموم:

- كيف تُنظّم هذه اللّقاءات؟ كيف يتكوّن الأزواج المختارون؟ فكَّرت في وظائف كايوا وسيرتيس، والسُّلطة الضّئيلة التي تمنحها لهم هذه الوظائف. كنت أدرك أنهم تمكَّنوا من تنفيذ مشروعهم الضَّخم من خلال مناصبهم العاديّة. تذكَّر الجمل المنقوشة في الدفتر: «نحن الأسياد، نحن العبيد. نحن في كلّ مكان، ولسنا في أيّ مكان». على الرّغم من مكانتهم المتواضعة، وربما بفضلها، سيطر هؤلاء المجانين على مصير المنطقة بأكملها. لقد كانوا توابع. لكنهم كانوا أيضًا زعماء.

كان سيرتيس الأب والابن مجرّد ممرّضَيْن مساعدَيْن، لكنهما قلبا حياة أطفال المنطقة عن طريق استبدال الرُّضّع. وبفضل وظيفة أمين المكتبة، اضطلع آل كايوا بتنظيم بقيَّة البرنامج، أيّ الزّواج. ولكن كيف؟

تذكَّرتُ سجلَّات المكتبة. لقد فحصنا قوائم الكتب وقوائم الطُّلَّاب الذين درسوها على عين المكان. لكنَّنا تغاضينا عن قوائم أخرى: تقسيم غرف المراجعة وتموقُع كلّ طالبٍ في المقصورات الزُّجاجيّة الصّغيرة. قارنت هذه القوائم بسجلّات الولادات المزوّرة. عدتُ ثلاثين وأربعين وخمسين عامًا إلى الوراء، الألقاب نفسها، العائلات نفسها، الأشخاص أنفسهم.

يوضع الأطفال الذين تمَّ استبدالهم دومًا، طيلة سنوات دراستهم، في غرفة المراجعة، قبالة الشَّخص نفسه من الجنس الآخر ومن أرقى عائلات الجامعة، فينجذب أحدهما إلى الآخر. لقد تحقَّقتُ من سجلَّات البلدية. لم ينجح الأمر في كلّ الحالات طبعًا، لكن تُوِّجَتْ علاقات معظم الثُّنائيّات الّتي تشكَّلت في غرف المكتبة بالزّواج.

إذن، بعد اختيار أطفال الجبل ووضعهم صلب العائلات الجامعيّة، ينظّم «الأسياد» اللّقاءات بعناية ويضعون أمام هؤلاء الصِّغار المسروقين أطفالًا بعقولٍ عبقريّةٍ منحدرين من نسل الأساتذة الحقيقيّ. وهكذا وحّدوا «أطفال الجسد» مع «أطفال العقل». وقد نجحت العمليّة يا كريم، أبطال الجامعة، هؤلاء الطُّلَّاب الخارقون، ليسوا سوى أبناء تلك الزّيجات المنظّمة.

لم يُعلِّق عبدوف. بدا أنّ أفكاره تتشكَّل كما تخترق أشواكُ الصّنوبر المطر.

تابع نيمانز:

- لقد جمّعتُ اللّ ّغز شيئًا فشيئًا، عنصرًا بعنصر. أدركت أنَّني أسير في تلك اللّحظة

على خطى القاتل، أن الملفّات التي عُثِر عليها مُؤخَّرًا، وكانت موضوع مقالاتٍ في الصُّحُفِ الجهويّة، أشعلت النَّار في دماغه. لقد قارن، مثلي، بين مجموعتَيْ الوثائق. كانت لديه حتمًا شكوكٌ مسبقةٌ حول أصول «أبطال» غيرنون. ولا شكَّ أنّه هو نفسه أحد هؤلاء الأبطال، أحد الكائنات التي خلقها هؤلاء الأوغاد.

لقد خمّن سير المخطّط. تعقَّب ابن سارق الملفّات، ريمي كايوا، واكتشف الرّوابط السِّرِّيّة التي جمعته بسيرتيس وشيرنيسيه. في رأيي، لم يكن هذا الثَّاني سوى قطعة ثانويّة، طبيبٍ معتوهٍ اكتشف الحقيقة أثناء اهتمامه بالأطفال المكفوفين وفضَّلَ الانضمام إلى المتلاعبين على كشفهم. على أيَّة حال، عرفهم القاتل وقرّر تصفيتهم. عذَّب ضحيّته الأولى، ريمي كايوا، وعرف منه تفاصيل القِصَّة كاملة. ثمّ اكتفى بقتل الشّريكَيْن الآخرَيْن وتشويههما.

وقفَ كريم وقد اهتزَّ جسده بالكامل في سترته الجلديّة.

- فقط لأنّهم استبدلوا أطفالًا؟ أو نظّموا زيجات؟

- ثمّة حقيقة أخيرة لا تعرفها، وهي أن سكان القرى الجبليّة يسجّلون معدل وفيّاتٍ مرتفعًا في صفوف الأطفال الحديثي الولادة. ظاهرةٌ لا يمكن تفسيرها، ولا سيّما أنها عائلاتٌ سليمةُ الأجساد. لم يستبدل سيرتيس الأطفال فحسب، بل سَلَّمَ أيضًا رضّعًا موتى إلى سكّان الجبال. لقد كان يقتلهم بنفسه، وبهذه الطَّريقة يضمن أن أزواج المرتفعات، الذين حُرِموا من أبنائهم، سينجبون أطفالًا آخرين ويزوّدونهم بالمزيد من الدّماء الجديدة لحقنها في الوادي بين صفوف الجامعيّين. هؤلاء الرّجال كانوا متطرّفين يا كريم. كانوا مرضى، مهووسين، مجرمين، من الآباء إلى الأبناء، ومستعدّين لفعل كلّ شيءٍ من أجل صنع عِرْقهم المتفوّق.

تنهَّدَ كريم:

- إذا كانت جرائم القتل انتقاميّة، فلماذا هذه التّشويهات الدّقيقة؟

- لقيمتها الرَّمزيّة. إنها تهدف إلى محوٍ ما للضَّحايا من هويَّة بيولوجيّة وتدمير أيّ إشارة إلى أصلهم. بالمنطق نفسه، عُرِضت الجثث بطريقة تجعلنا نكتشف أوَّلًا انعكاسها، وليس الجسد نفسه. طريقةٌ أخرى لإزالة الطّابع المادِّيّ عن الضّحايا، لنزع أجسادهم. كان كايوا وسيرتيس وشيرنيسيه لصوصَ هُويّة، فضُرِبوا حيثُ ضَرَبوا. إنّه نوعٌ من القصاص، والبادئ أظلم.

نهض عبدوف، واقترب من نيمانز وقد ضربت الرّياح المحمّلة بالأمطار وجهَيْهما الشَّبحيَّيْن. التفَّ ضبابٌ أبيض حول رأسَيْهما، شعر قصير وعظام ناتئة: نيمانز، جدائل طويلة ملتوية ومبلّلة: عبدوف.

- نيمانز، أنتَ شرطيٌّ عظيم!

- لا يا كريم. لأنَّني صرتُ أعرف دافع القاتل، لكن ليس هويّته.

أطلق العربيُّ ضحكةً جافّة وباردة.

- أنا أعرف هويّته.

- ماذا؟

- كلّ شيءٍ صار واضحًا. تذكَّر القضيَّة التي قدِمت من أجلها. الشّياطين الذين أرادوا تدمير وجه جوديت لأنه يُشكِّل دَلِيلًا أو حُجَّة إدانة. لم يكن الشّياطين سوى إيتيان كايوا ورينيه سيرتيس، أبوَيْ الضَّحيّتَيْن، وأنا أعلم لماذا سعوا إلى محوِ وجه جوديت. لأنّ هذا الوجه يمكن أن يفضح مخطّطهم، ويكشف طبيعة الأنهار القرمزيّة ومبدأ استبدال الأطفال.

حان دور نيمانز لتصعقه المفاجأة.

- لماذا؟

- لأن جوديت هيرو كانت تملك أختًا توأمًا، أختًا استبدالاها.

تحدَّثَ كريم هذه المرَّة، بنبرةٍ عميقةٍ وصوتٍ محايد، تحت المطر الذي بدأ ينحسِر مع أولى تباشير الصَّباح. برزت جدائله مثل أصابع أخطبوط وسط بتلات الفجر.

- قلت إن المتآمرين يختارون الرُّضّع من خلال دراسة ملفَّات الوالدَيْن الصِّحِّيّة. كانوا بلا شك يبحثون عن أقوى الجبليّين وأعتاهم وأكثرهم مرونة. كانوا يبحثون عن نمورٍ جبليّة، عن فهود الثّلوج. لذلك كان من الطَّبيعيّ أن ينتقوا فابيان وسيلفان هيرو، وهما زوجان شابّان يعيشان في «تافيرلاي»، في مرتفعات «بيلفوكس»، على ارتفاع ألف وثمانمائة مترٍ من سطح الأرض.

58

- لنبدأ بالزّوجة، متر وثمانون، عملاقة فائقة الجمال، مدرّسةٌ مجتهدة وعازفة بيانو موهوبة. صامتة ورشيقة، قويّة البنية وشاعرية. كانت فابيان في حدِّ ذاتها كائنًا مليئًا بالثّنائيات المتضاربة. المعلومات التي وجدتها عن الزّوج سيلفان شحيحة. كان يعيش حصريًّا في القمم، ويستخرج البلّورات النّادرة من الصّخور. كان عملاقًا هو أيضًا، ولا يتردَّد في مواجهة أصعب الجبال وأكثرها وُعورة.

حضرة المحافظ، إذا كان هناك طفلٌ واحدٌ يطابق مواصفاتهم في المنطقة بأكملها، فهو ابن هذَيْن الزّوجَيْن المذهلَيْن اللّذين تحتوي جيناتهما على كلّ أسرار المرتفعات.

أظنّ أنّهم انتظرُوا ولادة الطّفل بفارغ الصبر، مثل مصّاصي دماءٍ بالمعنى الحرفي، أو بالأحرى مصّاصي جينات. أخيرًا، في 22ماي 1972، اللّيلة المصيريّة، يصل الزّوجان هيرو إلى المستشفى الجامعيّ بـ«غيرنون»، تبدأ الشّابة الطّويلة الجميلة المخاض بعد سبعة أشهر فقط من الحمل. سيكون الطّفل سابقًا لأوانه، لكن وفقًا للقابلات، كلّ شيءٍ على ما يرام.

ومع ذلك، فالولادة لا تسير كما ينبغي. وضعيَّة الطّفل سيِّئة. يتدخَّل طبيب التّوليد. إنّها السَّاعة الثّانية صباحًا يوم 23ماي. وسرعان ما يفهم الطَّبيب والقابلة سبب هذه الفوضى. لا تحمل فابيان هيرو طفلًا واحدًا، بل اثنين، توأمًا محتجزَيْن في الرّحم مثل حبّتَيْن من اللّوز الفلبّينيّ.

تُبَنّج فابيان ويُجري الطَّبيب عمليَّةً قيصريّةً فيستخرج فتاتَيْن صغيرتَيْن تعانيان من صعوبةٍ في التّنفس. يأخذهما ممرّضٌ إلى الحاضنة على وجه السُّرعة. إني أرى المشهد كما لو كنت معهم يا نيمانز! القفّازان المطّاطيّان اللّذان يمسكان بالرّضيعتَيْن، اللّعنة، إنهما يدا رينيه سيرتيس، والد فيليب!

تتشوّش أفكارُ الرَّجل. كانت مهمته هذه اللّيلة هي أن يسرق طفل الزّوجَيْن هيرو ويستبدل به رضيعًا وُلِدَ لعائلةٍ من عائلات الجامعيّين، لكنه لم يتوقَّع توأمًا. ما العمل؟ يتصبَّب الوغد عرقًا باردًا وهو يُنظّف الطّفلتَيْن. إنّهما تحفتان فنيّتان حقيقيّتان، ملخَّصٌ مثاليٌّ للدّماء الجديدة، لعِرْق «غيرنون» السَّامي المستقبليّ. أخيرًا، يضع سيرتيس الصّغيرتَيْن في الحاضنة ويقرّر استبدال واحدة منهما فقط. لم يتمكَّن أحدٌ من رؤية

وجهَيْهما بوضوحٍ وسط فوضى غرفة العمليَّات ليعرف ما إن كانتا متشابهتين أم لا. لذلك يخاطر سيرتيس بأخذ إحداهما من الحاضنة ويستبدل بها رضيعةَ زوجٍ من الأساتذة. عليه الآن أن يقتل هذه الطّفلة البديلة، ابنة الجامعيّين، لأنها لن تشبه شقيقتها المزعومة في شيء. يخنق الرّضيعة، ابنة الجامعيّين الأصليّة في المهد المُخصَّص لتوأم الجبل، ثمّ يصرخُ بأعلى صوته متظاهرًا بالذّعر والنّدم. لا يفهم كيف حدث هذا، حقًّا لا يفهم، لقد كانت بخير... لا يلاحظ طبيب التّوليد ولا طبيب الأطفال أمرًا مُريبًا. إنها حالةٌ أخرى من تلك الوفيّات المفاجئة التي تضرب بشكلٍ غامضٍ العائلات الجبليّة منذ خمسين عامًا. يواسي الأطبَّاء بعضهم بعضًا بأن إحدى الشقيقتَيْن نجت ويغمر الارتياح سيرتيس، فقد دمج هيرو الصَّغيرة في عشيرة «غيرنون» الجامعيّة، من خلال عائلتها الجديدة.

يمكنني تخيُّل كلّ هذا يا نيمانز بفضل اكتشافاتك. لأنّ المرأة التي تحدَّثَتْ معي ليلة أمس، فابيان هيرو، لا تعرف شيئًا حتّى اليوم، عن هذا المُخطَّط المجنون. وفي تلك اللّيلة المشهودة لم ترَ شيئًا ولم تسمع شيئًا تحت تأثير البنج. لم تعلم المسكينة أنها ستستلم مع طفلتها جثّة رضيعةٍ ليست من صلبها.

عندما استيقظت، شرحُوا لها أنها أنجبت فتاتَيْن لكنها ستعود إلى منزلها بواحدةٍ منهما فقط. هل يمكننا أن نشعر بالحزن على فراق كائن لم نكن نعلم حتّى بوجوده؟ تقبَّلت فابيان الخبر بجلَد. وبعد أسبوع، غادرت المستشفى رفقة ابنتها الرّضيعة جوديت، التي تزداد قوَّةً يومًا بعد يوم.

في مكانٍ مّا، في المستشفى، يراقب رينيه سيرتيس الزّوجَيْن وهما يبتعدان. ربّما يحملان بين ذراعَيْهما توأمًا مطابقًا للطّفلة المسروقة، لكنّ هذَيْن الزّوجَيْن البرِّيَّيْن اللّذين يعيشان على بعد خمسين كيلومترًا لن يعودا أبدًا إلى «غيرنون» إلّا من أجل ولادةٍ جديدة. لقد خاطر سيرتيس حين ترك الطّفلة الثّانية على قيد الحياة، لكنها مخاطرةٌ ضئيلة. كان يعتقد أن وجه التّوأم لن يعود أبدًا ليفضح مؤامرتهم. وكان هذا أكبر خطإٍ يرتكبه في حياته.

فبعد ثماني سنوات، أغلقت مدرسة «تافيرلاي»، حيث تعمل فابيان مدرّسةً، أبوابها،

ونُقِلت المرأة -في مصادفةٍ فريدةٍ من نوعها- إلى مدرسة لامارتين المرموقة في «غيرنون» نفسها، المؤسَّسة التّعليميّة المُخصَّصة لأبناء أساتذة الجامعة.

وهكذا اكتشفت فابيان حقيقةً مستحيلةً ومذهلة. في الصَّفّ الثَّالث الذي سجّلت فيه جوديت، هناك جوديت ثانية، طفلة صغيرة تُمثّل نسخةً دقيقةً من ابنتها. بعد المفاجأة

الأولى -وقد وجد مُصوِّر المدرسة الوقت الكافي لالتقاط صورةٍ جماعيّة للقسم تظهر فيها الشّبيهتان- فكّرت فابيان وخلُصَت إلى التَّفسير المنطقيّ الوحيد. هذه الطّفلة ليست سوى أخت جوديت التّوأم التي نجت هي أيضًا والّتي تبادلت الأدوار مع طفلة ميّتة لسببٍ غامض.

تذهب المُعلِّمة إلى قسم الولادة وتشرح الوضع. فيستقبلها العاملون هناك ببرودٍ وريبة. فابيان امرأةٌ قويّة، وليست من النّوع الخجول أو الذي تسهل إخافته. تشتم الأطبَّاء وتتّهمهم بسرقة الأطفال وتعدهم بالعودة. لا بدَّ أنّ رينيه سيرتيس سمع التّهديد وأدرك الخطر المحدق بكل المخطّط. لكن فابيان تُقرِّر زيارة عائلة الأساتذة، عائلة ابنتها الثّانية المزيّفة، وتتَّجه فوق درّاجتها رفقة جوديت نحو الحرم الجامعيّ.

وفجأةً يبدأ الرّعب في شكل سيَّارةٍ تحاول دهسهما. تهرب فابيان في مسلكٍ متعرّجٍ ملتصقٍ بالمنحدر وتختبئ مع طفلتها وسط حفرةٍ بين الصُّخور وترى رجالًا يغادرون السّيّارة حاملين بنادق صيد. لا تفهم فابيان سبب انفجار العنف المفاجئ، وتواصل الاختباء داعيةً الله أن ينصرف المجرمون بسرعة. تستجيب السّماء لدعواتها ويغادر القتلة المكان معتقدين أن المرأة وابنتها سقطتَا في الهاوية. في اللّيلة نفسها، تذهب فابيان إلى زوجها في «تافيرلاي» وتشرح له القِصَّة كاملةً وتدعوه إلى إخطار الجندرمة. لكنّ سيلفان يرفض، فهو يريد تصفية حسابه بنفسه مع الأوغاد الذين حاولوا قتل زوجته وابنته.

يأخذ سيلفان بندقيّةً ويركب درّاجته ويعود إلى الوادي. هناك، يلتقي بالقتلة في أسرع ممَّا كان يتصوّر، لأنهم ينتظرونه على طريقٍ فرعيّة ويدهسونه، بل يمرون فوق جسده مرَّاتٍ عديدة قبل أن يلوذُوا بالفرار. في الأثناء تلجأ فابيان إلى كنيسة «تافيرلاي» وتنتظر عودة سيلفان طوال اللّيل. عند الفجر، تُعلمها الشُّرطة أنّ زوجها قُتِل على يد سائقٍ مجهول. فتفهم أن طفلتَيْها كانتا ضحيّتَي تلاعبٍ متعمّدٍ وأنَّ مصير زوجها ينتظرها إن لم تسارع بالهرب. ومن هناك بدأت رحلة فرار الأم والطّفلة.

سبق وأخبرتك ببقيّة القِصَّة، هربُ المرأة وابنتها الصَّغيرة إلى «سارزاك» الّتي تبعد أكثر من ثلاثمائة كيلومتر عن «غيرنون»، رحيلها من جديدٍ حين تعقَّبَ إيتيان كايوا ورينيه سيرتيس أثرهما، جهود فابيان في محوِ وجه ابنتها لاقتناعها بأنها ضحيَّة لعنة، ثمّ حادث السَّيّارة الذي سيودي أخيرًا بحياة جوديت.

منذ ذلك الوقت تعيشُ الأمُّ وسط الصّلوات. كانت تتأرجح دومًا بين فرضيّات عديدة. لكن الاحتمال الرَّئيسيّ هو أن والدَيْ ابنتها الثّانية بالتّبني دبّرا هذه الخطَّة ليستبدلا ابنتهما المتوفَّاة عند الولادة، وأنّهما يريدان القضاء عليها وعلى جوديت لإخفاء كلّ أثرٍ

للجريمة. لم تعرف المرأة طبيعة المؤامرة أو حقيقة الأوغاد الذين بحثوا عن المرأتَيْن في جميع أنحاء فرنسا خوفًا من انكشاف مخطّطهم الجهنَّميّ.

الآن يا نيمانز، تجتمع قضيّتانا مثل وجهَيْ العملة الواحدة. فرضيّتك تدعم نظريّتي. نعم، اطَّلع القاتل على الوثائق المسروقة هذا الصّيف. نعم، لقد تبع كايوا، ثمّ سيرتيس وشيرنيسيه. نعم، لقد اكتشف المؤامرة وقرَّرَ الانتقام بأكثر الطُّرُق دمويّةً. وهذا القاتل ليس سوى أخت جوديت التّوأم.

توأمٌ متطابقٌ تلعب دور جوديت، لأنها تعرف الآن حقيقة أصولها. ولهذا السَّبَب تستخدم سلكَ البيانو لتُذكّر بموهبةِ أُمِّها البيولوجيّة. ولهذا السَّبَب تُعدِم الأوغادَ في المرتفعات الصَّخريّة. حيث كان أبوها البيولوجيّ يقتلعُ الكريستال. ولهذا السَّبَب خلطنا بين بصمات أصابعها وبصمات جوديت نفسها... نحن نبحث عن أختها نيمانز، شقيقتها التّوأم.

- مَن هي؟ انفجر نيمانز. ما الاسم الذي تحمله الآن؟

- لا أعرف، رفضت الأم أن تسمّيها. لكنّي أعرف وجهها.

- وجهها؟

- صورة جوديت، وهي في الحادية عشرة من عمرها، إذن وجه القاتلة، لأنهما متطابقتان تمامًا. أعتقد أنَّنا بهذه الصورة...

ارتجف نيمانز.

- أرِني، بسرعة.

أخرج كريم الصُّورة وعرضها عليه.

- إنَّها القاتلة يا حضرة المحافظ، إنّها تنتقم لأختها المفقودة، إنها تنتقم لوالدها المقتول. إنّها تنتقم للرُّضَّع المخنوقين في المهد، وللعائلات الّتي تلاعبوا بها، ولكلّ هذه الأجيال التي تمَّ العبث بها منذ... نيمانز، ماذا أصابك؟

اهتزَّت الصُّورة بين أصابع المحافظ الذي كزَّ على أسنانه حتّى كاد يكسرها. وفجأةً فهم كريم وانحنى عليه.

- يا إلهي، هل تعرفها؟ هذا ما يحدث هنا، أنت تعرفها!

سقطت الصُّورة في الوحل. وبدا أن نيمانز ينجرفُ نحو حدود الجنون الخالص. وردَّد صوته مثل وترٍ ممزّق:

- على قيد الحياة، يجب أن نُمسك بها على قيد الحياة.

«عزيزي القارئ، إن كنت تقرأ هذه النسخة على شكل كتاب مطبوع، أو من أحد برامج المكتبات على الهاتف فتأكد من أنك تقرأ نسخة مسروقة وليس لمن طبعها/نشرها الحق في البيع والشراء.. وهذه النسخة بالأصل هي نسخة إلكترونية تم تجهيزها من فيلق مكتبة ضَاد[!] الإلكترونية على تطبيق تيليجرام! فتأكد من أنك تحمّل هذه الرواية وتقرأها من قناتنا الرسمية. نعتذر على المقاطعة، قراءة ممتعة..

[!] للانضمام إلى القناة الرسمية أدخل اليوزر التالي في محرّك بحث تيليجرام: @twinkling4

59

ركض الشُّرطيّان تحت المطر دون تبادل كلمةٍ واحدة. اجتازا عددًا من الحواجز الأمنيّة تحت نظرات الحرَّاس المرتابة دون أن يقترح أيٌّ منهما الاتِّصال بزملائه. كان نيمانز خارج التّحقيق، وكريم خارج منطقته. ومع ذلك، يعلمان حقَّ العلم أن هذه القضيَّة قضيَّتهما دون غيرهما.

وصلا إلى الحرم الجامعيّ، فعبرا الممرَّات الإسفلتِيَّة والأسطح العشبيّة اللّامعة، ثمّ صعدَا إلى الطّابق العلويّ من المبنى الرَّئيسيّ. سارا بخطواتِ شخصٍ واحدٍ حتّى نهاية الممرّ وطرقا الباب. لم يجب أحد، فكسرا الأقفال، ودخلا الشّقّة.

صوَّبَ نيمانز بندقيّته الرّيمنجتون المشحونة بالكامل، وكان قد استرجعها من المركز المركزيّ، نحو الفراغ. أمَّا كريم فأشهر مُسدَّسه الغلوك مُلصِقًا مصباحه اليدويّ على معصمه. فتقاطعت أمامه أشعّةُ الموت والنّور.

لا يوجد أحدٌ هنا.

بدآ بتفتيشٍ سريعٍ عندما رنَّ جهاز النِّداء الخاصّ بنيمانز. يجب الاتِّصال بمارك كوست على جناح السّرعة. أمسك نيمانز الهاتف بيدَيْن لم تكفّا عن الارتجاف بينما اجتاح ألمٌ غاضبٌ معدته، وسمع صوتَ الطَّبيب الشَّابّ:

- نيمانز، أنا مع بارنز. أردت إخبارك أنَّنا وجدنا صوفي كايوا.

- على قيد الحياة؟

- على قيد الحياة، نعم. كانت بصدد الهروب إلى سويسرا بالقطار..

- هل قالت شيئًا؟

- تقول إنّها الضَّحيَّة القادمة وإنها تعرف القاتل.

- هل أعطت اسمًا؟

- إنَّها ترفض الحديث مع شخصٍ غيرك، حضرة المحافظ.

- يجب الاحتفاظ بها تحت المراقبة المشدّدة. لا أحد يتحدَّث معها، لا أحد يقترب منها. سأكون معكم خلال ساعة.

- ساعة؟ هل أنت... هل تتبع خيطًا مّا؟

- إلى اللّقاء.

- انتظر! هل عبدوف معك؟

ألقى نيمانز بالهاتف الخلويّ إلى الملازم الشَّابّ، واستأنف بحثه السّريع. ركَّزَ كريم على صوتِ الطّبيب:

- وجدت نغمة سلك البيانو التي طلبتها.

- ال«سي بيمول»؟

- كيف عرفت؟

أغلق كريم الخطّ دون أن يجيب. ونظر إلى نيمانز الذي كان يتأمّله من خلف نظّارته المرقّطة بقطرات المطر.

- لن نجد أيّ شيءٍ هنا. (قال كريم مُتوجِّهًا نحو الباب). سنذهب إلى قاعة الرّياضة، فهي بمثابة عرينها.

دخلا قاعة الرِّياضة عنوةً بعد كسر القفل، وباشرا تمشيطها.

- لا يوجد أحدٌ هنا أيضًا.

الصَّمت، مثل غطاءٍ كئيب. الرّائحة، عَرَقٌ قديمٌ ومطّاطٌ بالٍ. الظِّلّ، مليءٌ بأشكالٍ متناظرةٍ ووحدات خشبيّة ومفاصل معدنيّة. تعثَّرَ نيمانز في حبل قفز، فالتفت كريم على الفور، اضطرابٌ حادّ، نظرةٌ خاطفة، شعر كلٌّ منهما بتوتُّرِ الآخر، كشَرَرٍ يحتكّ بهما مثل حجر الصوّان. همس نيمانز:

- هنا! أنا متأكِّدٌ أنَّها هنا.

نظر كريم حوله مرَّةً أخرى، ثمّ ركَّزَ على أنابيب التّدفئة. سار حذوَ الأنابيب المُثبَّتة بالحائط مستمعًا إلى خرير المرجل البخاريّ. تجاوز الأثقال والكرات الجلديّة ووصل إلى

قضبان دهنيّةٍ متشابكةٍ ومرتكزةٍ على حصائر التّمارين الموضوعة على طول الجدار. ودون أن يُكَلِّف نفسه عناء التَّكتُّم، أبعد القضبان والحصائر التي كانت تُخفي باب غرفة المرجل.

أطلق رصاصةً واحدةً في القفل، فقفز الباب من مفصله في وابلٍ من الشّظايا والخيوط المعدنيّة. ركل الشُّرطيُّ الباب، ففُتِح على مصراعَيْه.

واستقبله الظَّلام في الدّاخل.

أدخل رأسه، ثمّ عاد على عقبَيْه مُسرِعًا وقد ملأه الهلع. انتظر نيمانز، واندفع الرّجلان هذه المرَّة معًا.

فانفجرت رائحة الحديد في وجهَيْهما.

دماء! الكثير من الدّماء!

دماءٌ على الجدران، وعلى الأنابيب، وعلى الأقراص البرونزيّة الموضوعة على الأرض. دماءٌ على القاع تحوَّلت إلى بركٍ سوداء، دماءٌ على المرجل البخاريّ.

لم يشعر الرّجلان برغبةٍ في التَّقيُّؤ لأن عقلَيْهما كانا شبه منفصلَيْن عن جسدَيْهما، معلّقَيْن في نوعٍ من الخوف المليء بالضّلالات. اقتربا وأنارا كلّ التَّفاصيل الصَّغيرة بكشّافَيْهما. فالتمعت أسلاك البيانو ملتويةً حول الأنابيب. وكانت صفائح البنزين المُلقاة على الأرض مسدودةً بخرقٍ مُلطَّخةٍ بالدّماء. في حين حملت قضبان رفع الأثقال بقايا من اللَّحم الجافّ والقشور البُنِّيّة، وتجمّعت المشارط الحادّة في بركٍ من الدِّماء المتخثّرة.

ارتجفت أشعّةُ الكشّافات بينما كانا يتقدّمان داخل الغرفة الصّغيرة، مشيرةً إلى الرّعب الذي احتلَّ أوصالهما. رصد نيمانز علبًا ملوّنة تحت المقعد. إنَّها صناديق تبريد. سحب واحدًا وفتحه. ودون أن ينبس ببنت شفّة، أضاءَ محتواه ليُريه لكريم.

عيون!

عيونٌ هُلاميّةٌ وبيضاء، تتلألأ بنوعٍ من النّدى، وسط عشٍّ من الثّلج.

أخرج نيمانز صندوقًا آخر احتوى هذه المرَّة على أيادٍ أرجوانيّةٍ بأظافر مُدماة وأرساغٍ تخطّطها الجروح. تراجع المحافظ وتأوّه كريم.

علم الرّجلان أنها لم يدخلا إلى غرفة المرجل، بل اخترقا للتَّوّ دماغ القاتلة. في قلب مقرّها السياديّ، المكان الذي اختارته للبطش بقتلة الأطفال.

ارتفع صوت كريم:

- لقد هربَتْ بعيدًا عن «غيرنون».

- لا! (أجاب نيمانز وهو ينهض). لن تغادر قبل الفتك بصوفي كايوا، إنها الأخيرة في القائمة. لقد أخبرني كوست عن وصول كايوا إلى مركز الجندرمة. ستذهب إلى هناك ما إن تعلم بوجودها.

- رغم الحواجز الأمنيّة؟ لن تخطو أيّ خطوة دون أن يرصدها الرّجال و...

صمت كريم فجأةً. تبادل الرّجلان نظرةً على ضوء المصابيح اليدويّة. وهمسَا بصوتٍ واحدٍ:

- النّهر!

حدث كلّ شيءٍ على مشارف الحرم الجامعيّ، المكان الذي عُثر فيه على جثَّة كايوا، المكان الذي يهدأ النّهر فيه ليتحوَّل إلى بحيرةٍ صغيرةٍ قبل أن يستأنف مجراه نحو المدينة. وصل الشُّرطيّان لاهثَيْن. وفجأةً، بينما كان كريم يقود بمحاذاة الجدار الصَّخريّ، لمحَا شخصًا يرتدي معطفًا أسودَ وحقيبة ظُهْرٌ صغيرة. التفتَ الوجه، وتجمَّد في وميضٍ أبيض. فتعرّف كريم على الخوذة. فكَّت الشَّابّة قاربًا أحمر منتفخًا، وقرّبته وهي تشدّ الحبل كما لو كانت تتعامل مع حصان جامح.

تمتم نيمانز:

- لا تُطلق أيّ رصاصة، ولا تغادر مكانك. سألقي عليها القبض بمفردي.

قبل أن يجيب كريم، اندفع نيمانز لينزل الأمتار القليلة المتبقِّية. أوقف الملازم السَّيّارة وتابعه ببصره. في ضوء المصابيح الأماميّة، رأى المحافظَ يركض بخطواتٍ عملاقةٍ ويصيح:

- فاني!

كانت الشَّابّة قد وضعت قدمًا واحدةً في القارب حين أمسكها نيمانز من ياقتها وسحبها نحوه بكامل قوّته. ظلّ كريم مسمّرًا في مكانه كأنَّه منوّم مغناطيسِيًّا أمام مشهد هذَيْن الظِّلَّيْن المتمازجَيْن في رقصة باليه غير مفهومة.

إنّهما يتعانقان، أو هذا ما بدا له. رأى المرأة تُلقي برأسها إلى الخلف وتقوّسُ ظهرها في حركة أشبه بحركاتِ الجمباز. ثمّ رأى نيمانز ينحني ويُخرج سلاحه وقد فاضت الدّماء من شفتَيْه، وأدرك كريم أن الشَّابّة مزّقت أحشاءه بأحد مشارطها. ثمّ سمع صوت

انفجاراتٍ مكتومة، لقد أجهز مُسدَّسُ نيمانز المانورهين على فريسته بينما تمسَّكَ الجسدان معًا في قبلة الموت.

- لاااااا!

اختنقت صرخةُ كريم في حلقه. ركض مُصوِّبًا سلاحه نحو الظِّلَّيْن المترنِّحَيْن على حافّة البحيرة، وأرادَ الصّراخ مرَّةً أخرى. أراد الإسراع، العودة بالزّمن إلى الوراء. لكنَّه لم يستطِع إيقاف القدر المحتوم. فقد سقط بيير نيمانز والمرأة في حفيفٍ رهيبٍ أمام ناظرَيه.

عندما وصل إلى حافّة الماء رأى الجسدَيْن يطفوان محمولَيْن بالتَّيّار الضّعيف. وسرعان ما تجاوزت الجثّتان المتعانقتَان الصُّخور واختفتَا في النَّهر المتلاشي باتِّجاه المدينة.

بقيَ الشُّرطيُّ الشَّابّ بلا حراك، منهكًا، غير مصدّق، يتفحَّصُ مجرى الماء، ينصت إلى همس الزّبد خلف الصُّخور، خلف البحيرة. لكنّه شعر فجأةً بشفرةٍ قاطعةٍ تلامس جلد رقبته، وكأنَّ الكابوس يرفض الانتهاء، قبل أن تتسلّل يدٌ رشيقةٌ تحت إبطه لتستولي على مسدّسه.

- تسعدني رؤيتك مرَّةً أخرى يا كريم.

كان الصَّوت ناعمًا نعومةَ الحجارة الصَّغيرة الموضوعة على تابوتٍ رخاميّ. استدار كريم ببطءٍ. وفي الهواء السّاكن، تعرَّفَ فورًا على الوجه البيضويّ، البشرة السّمراء، العينَيْن الفاتحتَيْن، المليئتَيْن بالدّموع.

كان يعلم أنّه يقف أمام جوديت هيرو، النّسخة المطابقة للمرأة الّتي ناداها نيمانز باسم «فاني»، والفتاة الصَّغيرة التي بحث عنها منذ بداية التّحقيق.

الفتاة الصَّغيرة التي أصبحت امرأة.

امرأة على قيد الحياة.

60

- كنَّا اثنتَيْن يا كريم. لطالما كنا اثنتَيْن.

انعقد لسان الشُّرطيّ، وبذل جهدًا خُرافيًّا لينطق بضع كلماتٍ هامسة:

- أخبريني جوديت. أخبريني بكلِّ شيء! أريد أن أعرف قبل أن أموت.

واصلت الشَّابّة النّشيج مُمسكةً مُسدَّسَ كريم بكلتَي يدَيْها. كانت ترتدي معطفًا أسود واقيًا من المطر وجورَبَيْ غطسٍ طويلَيْن وخوذةً داكنةً على شعرها المتطاير تشبه يدًا مطليّة.

ارتفع صوتُها فجأةً، وتكلّمت بسرعة:

- في «سارزاك»، عندما أدركت أُمِّي أن الشّياطين عثرت علينا، عرفت أنَّنا لن ننجو أبدًا... وأنّ الشّياطين لن يهدأ لها بال ولن تكفّ عن مطاردتنا حتّى تزهق روحي. لهذا خطرت لها فكرةٌ عبقريّة... المخبأ الوحيد الذي لن يبحث المجرمون فيه هو ظلُّ أختي التّوأم، فاني فيريرا... في قلب حياتها. قالت إنَّنا يجب أن نعيش، أنا وأختي، حياةً واحدة، كلتانا معًا، دون أن يعلم أحد.

- هل وافق والدا فاني؟

ضحكت جوديت ضحكةً خفيفةً بين دموعها.

- لا طبعًا، يا للغباء! تعارَفْنا أنا وفاني في مدرسة لامارتين، ولم نَعُد نرغب في الافتراق... لذلك وافقت أختي على الفور. سنعيش حياةً واحدةً، في كنف السِّرِّيّة. لكن كان علينا أوّلًا أن نتخلّص من القتلة إلى الأبد، وذلك عبر إقناعهم بموتي. دبَّرت أمي كلَّ شيءٍ لنتظاهر بالهروب من «سارزاك»، بينما تقودهم إلى الفخّ: حادث السَّيّارة...

أدرك كريم أنّ الحيلة انطلت عليه هو أيضًا بعد مرور أربعة عشر عامًا. وما استطاع هو تتبّعَ أثرِ فابيان وجوديت هيرو في ساعات قليلة، إلَّا لأنَّه اتَّبع ببساطةٍ طريقًا معبّدةً ومزوّدةً بأسهم، طريقًا أعدّته فابيان للإيقاع بكايوا وسيرتيس سنة 1982.

تابعت جوديت وكأنَّها قرأت أفكاره:

- خدعتكم أمّي. خدعت الجميع! لم تكن يومًا متديّنة... ولم تؤمن يومًا بالشّياطين... ولم ترغب يومًا في محوِ اللّعنة من وجهي... اختارت راهبةً لجمع الصُّوَر حتّى تلفت الانتباه أكثر. هل تفهم الآن؟ لقد تظاهرت بمحوِ أثرنا، لكنها في الواقع كانت تحفر طريقًا عميقًا وواضحًا لكي يتبعه القتلة حتّى المشهد الأخير... ولهذا السَّبَب أيضًا استعانت بكروزييه الذي كانت قدرته على التَّكتُّم لا تتجاوز تكتُّمَ مدرّعةٍ تخترق حديقة إنجليزيّة...

استرجع كريم في ذهنه كلّ الإشارات، كلّ الأدلّة، وكلّ التَّفاصيل التي سمحت له بتتبُّع المرأتَيْن. الطَّبيب الذي مزّقه النّدم، المُصوِّر الفاسد، الكاهن السِّكّير، الرّاهبة، نافخ النّار، عجوز الطَّريق السّريعة... كلّ هذه الشَّخصيّات كانت «الحصى البيضاء» الّتي تركتها فابيان هيرو وراءها مثل عقلة الإصبع، والأسهم التي قادت كايوا وسيرتيس الأبوَيْن إلى الحادث المزيّف، مثلما قادت كريم خلال ساعاتٍ قليلةٍ إلى محطَّة الطَّريق السّريعة، نقطة النّهاية في مصير جوديت.

اعترض كريم:

- لم يتعقّب كايوا وسيرتيس أثركما. لم يخبرني أحدٌ عنهما أثناء التّحقيق.

- لقد كانا ببساطة أكثر تكتُّمًا منك! لكنها تقصَّيَا أثرنا. وكنّا نشعر بالرّعب، صدّقني... عندما خطّطنا للحادث، رصَدَنا كايوا وسيرتيس، وكانا على وشك قتلنا.

- الحادث... كيف فعلتما ذلك؟

- استغرقت التّحضيرات أكثر من شهر. ولا سيَّما لتحطيم السَّيّارة والخروج سالمتَيْن...

- لكن... الـ... الجثّة؟ لِمَن كانت الجثّة؟

ضحكت جوديت بسخرية. تذكَّرَ كريم القضبان الحديديّة المُلطَّخة بالدّماء، وصفائح البنزين، والبرك المتخثّرة. وفهم أن دور فاني اقتصر على دعم أختها في مشروعها الانتقاميّ، لكن الجلّاد الحقيقيّ كان هي، جوديت: المجنونة، الغاضبة، والتي حاولت أيضًا قتل نيمانز فوق الجسر.

- قرأت أمّي جميع الصُّحُف في المنطقة: الأخبار، الحوادث، وإعلانات النّعي... جابت

المستشفيات والمقابر. كانت بحاجةٍ إلى جسمٍ يناسب طولي وعمري. وفي الأسبوع الذي سبقَ الحادث، استخرجَتْ جثَّة طفلٍ مدفونٍ على بُعد مائة وخمسين كيلومترًا من مكاننا، صبيٍّ صغير. كانت أمّي قد قرَّرَت مُسبقًا إعلان وفاتي رسمِيًّا باسم «جود»، اسم ذكر، لتُكمل الكذبة المثاليّة، وعلى أيَّة حال، كانت ستسحق الجسد كلّيًّا. لن يكون من الممكن التَّعرُّف على الطّفل. ولا معرفة جنسه.

ضحكت بسخرية، ثمّ خنقتها العبرات، وأردفت:

- كريم، عليك أن تعرف... عشنا من يوم الجمعة إلى يوم الأحد مع الجثَّة في المنزل، مع الصَّبيّ الصَّغير الذي مات في حادث درّاجةٍ ناريّة. وضعناه في حوض استحمام مملوء بالثّلج. وانتظرنا.

طرأ سؤال على ذهن كريم.

- هل ساعدكما كروزييه؟

- في كلّ خطوة. لقد كان مهووسًا بجمال أمّي. وأحسَّ أن هذه الخطَّة المُروِّعة كانت الطَّريقة الوحيدة لحمايتنا. لذلك انتظرنا مدَّة يومَيْن، في منزلنا الحجريّ الصّغير. وعزفت أمّي على البيانو، عزفت وعزفت.. سوناتا شوبان على الـ«سي بيمول» الصّغير، وكأنَّها الموسيقى الوحيدة القادرة على محوِ الكابوس. أمَّا أنا، فبدأتُ أفقد عقلي تدريجيًّا بسبب هذا الجسد المتعفّن في حوض الاستحمام. كانت العدسات اللّاصقة تؤلم عيني وكانت مفاتيح البيانو تنغرس في رأسي مثل المسامير. كان دماغي ينفجر يا كريم... كنت خائفة، خائفة جدًّا... وبعد ذلك، حدث الاختبار الأخير.

- الاختبار الأخير؟

مدَّت جوديت سبّابتها أمامه، وكان الإصبع مشوّها.

- اختبار الأنامل. لا بُدَّ أنك تعرف أيها الشُّرطيُّ الصَّغير أنَّ الشُّرطة تستخدم دومًا إصبع السَّبّابة اليمنى لأخذ بصمات الأصابع. قطعت أمي أنملتي وثبَّتتها على إصبع الجثَّة، داخل اللّحم. كانت تعلم أن لا أحد سيلاحظ شيئًا وسط كلّ تلك الإصابات. وكانت مسألة البصمات حاسمةً يا كريم. ليس في علاقة بالشُّرطة، فشهادة أمّي كانت كافية. لكن في علاقةٍ بالآخرين، بالشّياطين، بالقتَلة الذين كانوا على الأرجح يملكون بصماتي، وكانوا سيقارنونها قطعًا بمحتوى ملفّاتهم.. خدّرتني أمي وأجرت العمليّة بسكّين حادٍّ. أنا... لم أشعر بشيء...

تذكَّرَ الشُّرطيُّ اليد المضمّدة التي حملت مسدّسه تحت المطر.

- تلك اللّيلة، في الجامعة؟

ضحكت:

- نعم، يا أبا الهول الصّغير. لقد جئتُ لنحر صوفي كايوا، تلك السّافلة التي عشقت حبيبها بجنونٍ ولم تجرؤ يومًا على التّنديد بريمي والآخرين. كان يجدر بي قتلك أيضًا... (تناثرت الدّموع على وجنتَيْها). لو قتلْتُكَ حينها لكانت فاني الآن على قيد الحياة... لكنَّني لم أقدر، لم أقدر...

صمتت جوديت، ورمشت عيناها تحت خوذتها. ثمّ استأنفت همسها المتسارع:

- بعد الحادث مباشرة، انضممت إلى فاني في «غيرنون». طلبَتْ من والدَيْها العيش في المبيت، بالطّابق العلويّ من مدرسة لامارتين. كنَّا في الحادية عشرة من العمر، لكنَّنا تمكَّنّا منذ البداية من العيش في انسجامٍ تامّ. عشت في العلِّيّة، وكنتُ موهوبةً منذ طفولتي في تسلُّق الجبال. فكنت أذهب إلى أختي، عبر العوارض، عبر النّوافذ، عبر الشّرفات... كعنكبوتٍ حقيقيّ... دون أن يراني أحد.

مرَّت السّنوات ونحن نعيش دور فاني في جميع المواقف، في القسم، مع العائلة، مع الأصدقاء... تقاسمنا الطّعام، وتبادلنا الأيّام. كنا نعيش الحياة نفسها تمامًا، لكن بالتّناوب. كانت فاني هي المفكّرة وعرّفتني على الكتب والعلوم والجيولوجيا. أما أنا فكنت الرِّياضيّة، وعلمتُها التَّسلُّق والجبال والأنهار. كوَّنّا معًا شخصيَّةً مذهلة، تنّينًا ذَا رأسَيْن.

كانت أمّي تأتي لزيارتنا أحيانًا في الجبل. لم تحدّثنا قطُّ عن أصولنا أو عن السَّنتَيْن اللّتَيْن قضيناهما في «سارزاك». كانت تظنُّ أن هذه الخدعة هي السّبيل الوحيدة لنعيش في سعادة. لكنّي لم أنسَ الماضي. كنت أحمل معي دومًا سلك بيانو. وأستمع دومًا إلى سوناتا الـ«سي بيمول»، سوناتا الموت، سوناتا الجثَّة الصَّغيرة في حوض الاستحمام... كان غضبٌ أعمى يسيطر عليَّ أحيانًا... بمجرَّد لمس سلك البيانو، فأجرح أصابعي وأتذكَّر كلّ شيء. خوفي في «سارزاك» عندما كنتُ ألعب دور ولدٍ صغير، أيَّام الأحد بالقرب من «سات» حيث تعلّمت نفخ النّار، اللّيلة الأخيرة حين قطعت أمّي إصبعي.

رفضت أمّي إخباري بأسماء القَتَلة، هؤلاء الوحوش الّذين كانوا يطاردوننا بلا هوادةٍ وسحقوا أبي تحت العجلات. لقد كنت أخيفها، كانت أمّي تخافني... أظنّها عرفت أنَّني سأقتل هؤلاء الأوغاد يومًا مّا. لم يكن انتقامي ينتظر سوى شرارةٍ صغيرة. أنا فقط نادمة لأن قصَّة الوثائق المسروقة هذه ظهرت بصفة مُتأخِّرة، بعد موت سيرتيس وكايوا الأصليّين...

صمتت جوديت وصوّبت السِّلاح بقوَّةٍ أكبر. فلزم كريم الصَّمت وكان صمته في حدِّ ذاته سؤالًا. صرخت جوديت:

- ماذا تريد أن أخبرك أيضًا؟ أنّ كايوا اعترف بكلّ شيءٍ وتوسَّل إلينا أن نُبقي على حياته؟ أن مخطّطهم المجنون استمرَّ أجيالًا؟ أنّ الأبناء استمرُّوا في استبدال الأطفال؟ أنهم كانوا يُخطِّطون لتزويجنا أنا وفاني بأحد هؤلاء الطُّلَّاب ذوي الدماء الفاسدة؟ كنَّا مخلوقاتهم يا كريم...

انحنت وأضافت:

- لقد كانوا مجانين... إنّهم مرضى مهووسون يعتقدون أنهم يعملون لصالح الإنسانيّة من خلال خلق سلالاتٍ وراثيّةٍ مثاليّة... اعتقد كايوا أنّه إلهٌ مع شعبه المختار... سيرتيس، من جانبه، كان يربّي فئرانًا بالآلاف في مستودعه، فئرانًا تُمثِّل سكّان «غيرنون» يحمل كلٌّ منها اسم عائلة، هل يعني لك هذا شيئًا؟ هل تفهم كم كان هؤلاء الأوغاد مهووسين؟ وأكمل شيرنيسيه الصّورة. كان يقول إنّ قزحيّات أبناء هذا العِرْق السّامي تتألَّق بلمعةٍ خاصَّة، وإنّه سيكون الحارس المطلق على عتبة العالم، الذي سيلوّح بهذه المشاعل في وجه الإنسانيّة، على هيئة عيون...

جثت جوديت على إحدى ركبتَيْها وسلاحها لا يزال مُصوَّبًا نحو كريم، وخفضت صوتها.

- لقد ملأناهم رعبًا، أنا وفاني، صدّقني. كان لا بُدَّ من انتقامٍ يليق بجنونهم. وكانت فاني صاحبة فكرة التّشويه البيولوجيّ.. تدميرهم في العمق، مثلما دمّروا هويّة أطفال «غيرنون». قالت أيضًا إنّه يجب تحطيم أجسادهم إلى انعكاساتٍ عديدة، مثل كسر زجاجةٍ إلى شظايا. أما أنا فكنت صاحبة فكرة الأماكن، الماء، الجليد، الزّجاج. وكنت أنا مَن أنجز العمل القذر، مَن أطلق لسان الوغد الأوّل بالحديد والنّار...

بعد ذلك ثبّتنا الجثَّة في الصُّخور وذهبنا لإتلاف محتويات مستودع سيرتيس... ثمّ نقشنَا رسالةً في منزل أمين المكتبة... رسالةً مُوقَّعة من جوديت، لنخيفهم جيِّدًا، أولئك الأنذال، ونجعلهم يفهمون أن شبح الماضي قد عاد وأنّ طريدتهم تحوّلت إلى شيطانهم. عرفنا أنا وفاني أن المتآمرين الآخرين سيعودون إلى «سارزاك» للتَّحقُّق من معطيات سنة 1982 ، من موتي ودفني في تلك البلدة القذرة... لذلك ذهبنا إلى المقبرة وأفرغنا التَّابوت لنملأه بعظام القوارض الّتي وجدناها في المستودع، فقد احتفظ بها سيرتيس منظّمةً بملصقاتٍ مُعنْوَنَة، ذلك المختلّ اللّعين...

انفجرت جوديت ضاحكة، ثمّ صرخت مرةً أخرى:

- أتخيَّل وجوههم عندما فتحوا الصّندوق! (ثم أصبحت جادَّةً مرَّةً أخرى). كان عليهم أن يعرفوا يا كريم... أنَّ يفهموا أن ساعة الانتقام قد دقّت، وأنَّهم سيموتون، وسيدفعون ثمن كلّ آثامهم، كلّ ما اقترفوه في حقِّ مدينتنا، عائلتنا، في حقّنا نحن الأختَيْن الصّغيرتَيْن، وفي حقّي أنا، أنا، أنا...

تلاشى صوتُها وقد بدأ النّهار يُلقي بومضاتٍ لامعةٍ من تحت ستائر الظّلام.

همس كريم:

- والآن؟ ماذا ستفعلين؟

- سأذهب إلى أمّي.

فكَّرَ الشُّرطيُّ في المرأة الضَّخمة المحاطة بشراشفها وأقمشتها الملوّنة. فكَّرَ في كروزييه، الذّئب الوحيد الّذي زارها قطعًا فور استيقاظه. سيُكشف أمرهما عاجلًا أم آجلًا.

- يجب أن ألقي القبض عليكِ يا جوديت.

ابتسمت الشّابّة.

- تقبض عليّ؟ لكنّي أحمل سلاحكَ يا أبا الهول الصّغير! سأقتلك دون تردُّدٍ إذا تحرّكت.

اقترب كريم مُحاوِلًا الابتسام.

- لقد انتهى كلّ شيء يا جوديت. سوف نعالجك، سوف...

عندما ضغطت الفتاة على الزّناد، كان كريم قد سحب مُسدَّسه البيريتا الّذي لا يفارق ظهره، البيريتا الّذي سمح له بالفوز على الرّؤوس الحليقة، سلاح الفرصة الأخيرة.

تقاطعت الرّصاصتان وتردّدَ الانفجاران في سكون الفجر. لم تلمس الرّصاصة رجل الشُّرطة لكنّ جوديت تراجعت بخفَّةٍ كلاعبة جمباز وترنّحت بضعَ ثوانٍ بينما تضمّخ صدرُها باللّون الأحمر.

وقعَ السِّلاح من يدها وخطت خطواتٍ قليلة، ثمّ سقطت في الفراغ. وبدا لكريم أنّ ابتسامةً ترتسم على شفتَيْها. صرخ فجأةً واندفع فوق الصُّخور ليرى جثَّة جوديت، الطّفلة الصَّغيرة الّتي أحبّها -صار يعرف ذلك الآن- أكثر من أيّ شيءٍ في العالم، مدَّةَ أربعٍ وعشرين ساعة.

لمح الجسد الدّامي ينجرف نحو النّهر. وشاهد الجثَّة تبتعد، لتنضمَّ إلى فاني فيريرا وبيير نيمانز.

ومن بعيد، وسط الجبال، أشرقت شمسٌ متوهّجة.

لكنَّ كريم لم ينتبه إليها.

لا يمكن لأيِّ شمسٍ أن تُزيلَ حُجُبَ الظَّلام الذي سجَنَ قلبَه.

النّهاية

تم تجهيز هده النسخة بواسطة:

• mohamed •

جميع الحقوق محفوظة ©

مكتبة ضَـــاد الإلكترونية

t.me/twinkling4

أمسح الكود وانضم لأسرة ضاد

https://t.me/twinkling4

جان كريستوف غرانجي

الأنهار القرمزيّة

جثثٌ تتكوّم هُنا، ومدرسةٌ مُقتَحَمَةٌ هناك، والمنهوبُ سِرٌّ غامِضٌ. تحقيقَانِ منفصلانِ في منطقتَين متباعدتَين، يقودُ الأوّلَ أسطورةُ التحقيقِ الضابطُ بيير نيمانز، ويقودُ الثانيَ الضابطُ العربيُّ الشابُّ كريم عبدوف. خيطٌ يكشفُ خيطًا يُخفِي خيطًا يُفضِي إلى شبكةٍ من خيوطٍ متقاطعةٍ يلتقي عندها المحقّقان. وفي الانتظار أهوالٌ ورُعب وألغازٌ وحُبّ!

لماذا ينتَقي القاتلُ ضحايَاه بتلك الدقّة، ويختارُ مسارحَ جرائمِه بعناية؟ لماذا يشنُقهم بسلكِ بيانو قديم، سلكِ نوتةٍ بعَينها، ثمّ يتركُهم على صُوَرِ أجنّةٍ ما تَزالُ في الأرحَام؟ متاهةٌ كلّما همّ القارئُ بالخروج منها ازداد ضياعًا، واحتاجَ فيها التحقيقُ إلى متسلّقةِ جبالٍ وفِرقٍ من الشرطة وأطبّاءِ عيونٍ ومخابرِ تحليلٍ مختلفةٍ ونبشٍ في ماضٍ ليسَ بعيدًا...

يُغرِقنا جان كريستوف غرانجي في لغز الأنهار القرمزيّة: مَن صُنّاعُها؟ وما الدافعُ إليها والهدفُ منها؟ ومن أيّ فروعٍ تمتلئ؟ تظلُّ هذه الأسئلةُ تطرقُ أذهانَنا على امتداد الرواية، حتّى إذا شارفنا على النهاية يضعنا الكاتب مرّةً أخرى أمام السؤال المخاتل: كيف صار القاتلُ ضحيّةً، والضحيّةُ قاتلًا؟

رضا الحسني

ISBN: 978-9938-979-74-9
9 789938 979749

مسكلياني

Pop fiction

مكتبة ضاد الإلكترونية
t.me/twinkling4